بسم الله الرحمن الرحيم

كتاب

الأخبار السنيّة في الحروب الصليبيّة

تأليف

سيد علي الحريري

الزهراء للاعلام العربى

بسم الله الرحمن الرحيم

الزهراء للإعلام العربى

قســـم النشـــر

ص.ب : ١٠٢ مدينة نصر - القاهرة - تلغرافياً : زهراتيف - تليفون ٦٠١٩٨٨ - ٦٨٠٢١٣ - تلكس ٩٤٠٢١ رائف يو إن

P . O : 102 Madinat Nasr - Cairo - Cable : Zahratif - Tel : 601988 - 680213 - Telex : 94021 Raef U N

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ ومن أحسن قولا ممن دعا إلى الله وعمل صالحاً وقال إننى من المسلمين ﴾

صدق الله العظيم
فصلت / ٣٣

الطبعة الثالثة

١٤٠٦ هـ - ١٩٨٥ م

الجمع التصويرى والتجهيز
بالزهراء للإعلام العربى

التصميم والإخراج الفنى : سيد المغربى

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديـــــم

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه . وبعــد .

فهذا الكتاب آخر من منشورات بنك فيصل الإسلامى المصرى فى سبيل نشر الثقافة التى تلزم المسلم ومعاونته على تكوين مكتبة نافعة فى مختلف فروع المعرفة من فقه وسيرة وتفسير وتاريخ وغير ذلك .

وهذا الكتاب الذى بين يدى القارىء « الأخبار السنية فى الحروب الصليبية » صدر بالقاهرة عام ١٣١٧ هـ ١٨٩٩ م فى عهد السلطان العثمانى عبد الحميد الثانى وولاية الخديو عباس حلمى الثانى على مصر . والمؤلف سيد على الحريرى باحث بذل جهداً مشكوراً لإخراج هذه المادة على الصورة التى يجدها القارىء ، فكان أول كتاب باللغة العربية يجمع أخبار الحروب الصليبية من مبتدئها إلى منتهاها فغطى به أحداث قرنين من الزمان شغلتهما ثمانية حملات متتالية شنها الصليبيون باسم المسيحية – أو باسم الصليب – والمسيحية منهم براء .

وقد استطاع الصليبيون فى بعض تلك الحملات إقامة دول لهم فى بلاد المسلمين – كما يفعل اليهود الآن فى فلسطين – كما استطاع الصليبيون الوصول إلى القاهرة فأحرق المسلمون الفسطاط حتى لاتقع فى أيديهم واستمر حريقها أربعة وخمسين يوما فبقيت فسطاط عمرو بن العاص من يومذاك إلى عصرنا الحديث خراباً .

وما أشبه الليلة بالبارحة وعالمنا الإسلامى اليوم نهب للصليبية تارة وللصهيونية أخرى وصدق رسول الله ﷺ حيث قال : [توشك أن تداعى عليكم الأمم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها] قالوا أمن قلة نحن يومئذ يارسول الله ؟ قال : [لا . أنتم يومئذ كثير ، ولكنكم غثاء كغثاء السيل . ولينزعن الله من قلوب أعدائكم المهابة منكم وليقذفن فى قلوبكم الوهن] . قالوا : وما الوهن يارسول الله ؟ قال : [حب الدنيا وكراهية الموت] أو كما قال : صدق رسول الله ﷺ .

ونحن إذ نقدم هذا الكتاب إلى المسلمين إنما نقدمه نفحة من الأمل فى مستقبل تعود فيه أمجاد الإسلام والمسلمين ﴿ ..... وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة ... والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لايعلمون ﴾ .

أيها المسلمون . اقرءوا تاريخكم ثم اقرءوا ، فليس على ظهر الأرض أمة لها مثل تاريخكم .. ولا مثل مستقبلكم . قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون .

بنك فيصل الإسلامى المصرى

ربيع الأول ١٤٠٦ م
نوفمــــبر ١٩٨٥ م



المؤلف سيد علي الحريرى

بسم الله الرحمن الرحيم

بعد حمد من لايحمد سواه وهو الحميد المجيد . الذى خلق الخلق فسواه وحكم فيه بما يشاء ويريد . والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

أما وقد نفذت الطبعة الأولى من كتابى هذا (الأخبار السنية فى الحروب الصليبية) ، فقد وجب علىَّ الشكر لمواطنى الذين نظروا له بعين الإكبار والإعظام ، وإن كان هو فى نظرى أقل من أن ينال منهم ما نال .

وها أنا الآن قد أعدت طبعه للمرة الثانية غير آل جهداً فى إخراجه على أحسن ما يكون ، وكأوثق ما أرخ المؤرخون ، ولكى تكون وقائعه أوقع فى النفس وراسخة فى الذهن ، قد أضفت إليه شيئا كثيرا من صور الوقائع ورسوم الملوك والمحاربين ممن ورد ذكرهم به من المسلمين والصليبيين ، مما زاده رونقا وبهاء ، فإذا ما لا قى منهم ما أؤمله من القبول كان ذلك حسبى والمأمول .

كاتبه
سيد على الحريرى

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين . الذى جعل تاريخ الأولين عبرة للآخرين . ومرآة لكل عاقل فطين . أحمده على ما أسبغ من الإنعام والأفضال . ومنّ به من الإحسان والنوال . ونصلى على رسوله ونبيه . وخيرته من خلقه وصفيه ، سيدنا أبى القاسم محمد بن عبد الله ذى الشرف الباذخ . والفضل الشامخ والعلم الراسخ . صلى الله عليه وعلى الملائكة المقربين . وعلى الأنبياء والمرسلين . ماطلع كوكب وبزغ هلال . وعلى آله وصحبه وعترته أجمعين ، صلاة وسلاماً دائمين متلازمين إلى يوم الدين .

أما بعد فإنه لايخفى على كل انسان أهمية الحروب الصليبية التى جرت فى الأجيال الغابرة . وتحريضات البابوات والاكليروس أهل أوروبا بمحاربة المسلمين ، وماجرى للصليبيين من اغتصاب بلاد الشام بحجة تخليص القدس من أيدى الإسلام ، وما أعقب ذلك من اتحاد المسلمين واستخلاص البلاد من الصليبيين ، وما جرى لأولئك الصليبيين من المصائب والهلاك والفشل والارتباك .

وحيث إن ملوك أوروبا الآن حصل منهم تعصب على دولتنا العلية ، حرسها الله بما يشابه ما فعلوه أولئك الغابرون ، حتى قال سلطاننا الأعظم وخاقاننا الأفخم ، المحفوظ بالسبع المثانى (عبد الحميد الثانى) إن أوروبا تحاربنا الآن حرباً صليبياً تحت شكل سياسى .

وحيث إننا معشر قراء اللغة العربية لم يوجد بلغتنا كتاب يحتوى على الحروب الصليبية لمعرفة حقيقتها ، بل إنا نجد البعض منها موجوداً فى كتب التواريخ خالياً عن معرفة أسبابها والمحرضين عليها وكيفية نتائجها ؛ ولذلك باشرت تأليف هذا الكتاب وسميته (الأخبار السنية فى الحروب الصليبية) .

وقد عنيت فى ضبط هذا الكتاب المشتمل على الثمانية الحروب الصليبية ، مبيناً كل حرب منها على حدته ، موضحاً أسبابها والمحرضين عليها ، وسفر عساكرها ومافعله الصليبيون من المحاربات مع الملوك المسلمين .

وقد أوضحت أيضاً تواريخ ملوك الإسلام المعاصرين لهذه الحروب ، الذين لهم شأن مع الصليبيين من ابتداء سنة ٤٩٠ هجرية التى فيها دخول الصليبيين سوريا لغاية سنة ٦٩٠ هجرية التى انقرض فيها الصليبيون من سوريا ، بأسلوب بسيط ، خالياً من التعقيد والتطويل الممل .

غير أنى وإن كنت لست من رجال هذا الفن ولكن طمعى فى فضل حضرات أساتذته ؛ هو الذى شجعنى على تقديم كتابى هذا بين أيديهم ؛ ليكون مشمولا بنظرهم السامى واقتبالهم تأليفى هذا بصدر رحب ونظرهم إليه بعين الرضا ؛ إذ العصمة للنبى وحده معترفاً أمامهم بأنى جمعته من جملة كتب مطولة مثل تاريخ مصر الحديث وابن الأثير وأبى الفدا والروضتين وتاريخ الحروب المقدسة الذى عربه مكسيموس مظلوم وتاريخ سوريا وغيره .

ولكنى أرغب إلى من يعثر لى على خطأ أن ينبهنى إليه فأشكر سعيه وأثنى عليه ، أو يعذرنى فإن أعقل الناس أعذرهم للناس ولا أقول إن كل خطأ سهو جرى به القلم ، بل أعترف أن ما أجهل أكثر مما أعلم . وما تمام العلم إلا لله وحده الذى علم بالقلم علم الإنسان مالم يعلم .

وإنى أتضرع إلى الله فاطر السموات والأرض من فؤاد مخلص وقلب صادق ، أن يهب الدولة العلية القوة الأبدية والنصر السرمدى ، ليعيش العثمانيون والمسلمون مدى الدهر فى سؤدد ورفعة ، وأن يحفظ لنا حامى حماها جلالة السلطان الأعظم والخليفة الأكبر الغازى (عبد الحميد الثانى) ، وأن يحفظ لمصر فى ظل جلالته عزيزها المحبوب وأميرها المعظم سمو الخديوى (عباس حلمى باشا الثانى) وولى عهده المكرم محمد عبد المنعم ، إن ربى سميع مجيب .

تحريراً بمصر القاهرة فى شهر ربيع الأول سنة ١٣١٧ وشهر يولية سنة ١٨٩٩ .

(سيد على الحريرى)



أسباب الحروب الصليبية

كان رجل فقير يسمى بطرس المولود باميان من أعمال بيكاردية ، إحدى مقاطعات مملكة فرنسا ، قد انقطع للتعبد ولبس ثوباً رهبانياً من الصوف الخشن وأقام بمغارة ، يتعبد فيها ثم تركها ، وتوجه مع جماعة يقصد زيارة بيت المقدس .

فلما وصلوا إلى المدينة المقدسة ووجدوها فى حكم المسلمين صار بطرس يبكى وينتحب ، ثم تقابل مع البطريرك سمعان وتحادثا ملياً فأخبره البطريرك عن كيفية استيلاء المسلمين على بيت المقدس الذى هو قبر المسيح ، وأن الحكام منهم طالما ظلموا قومه ، ثم تعانقا وهما يبكيان ، ووعد بطرس السايح البطريرك بأنه سيعمل جهده فى حمل أهل أوروبا لتخليص بيت المقدس من المسلمين .

ثم غادر بيت المقدس راجعاً إلى رومية ، وهناك طلب مقابلة البابا أوربانس الثانى ، ولما مثل بين يديه وأخبره بما قاله بطريرك القدس وعده بالمساعدة التامة آمراً إياه بالتوجه إلى جميع بلاد أوروبا لأجل تحريض الأهالى على ذلك .

وخرج هذا الرجل من لدن البابا وأخذ يجول فى بلاد فرنسا وبعض ممالك أوروبا راكباً على بغل قابضاً بيديه على الصليب مناديا بحرب الصليب فى الطرقات والأزقة والكنائس والأديرة منادياً بأن مسيحيى الشرق يقاسون العذاب ألواناً تحت حكم المسلمين ، مزكياً أقواله بوصفه جبل صهيون ومكان الجلجلة وبستان الزيتون وقد كان أحياناً يستصحب بعض مسيحى الشرق الذين كان يقابلهم ببلاد أوروبا .



وكانت الناس تتقاطر إليه مزدحمين حوله مقبلين أرديته فارشين الأعشاب في الأرض ليمر عليها ، متخاطفين أجزاء وشاح بغله بمنزلة ذخائر لهم ملقبيه بقديس ونبي ، باكين معه على شقاء أورشليم (بيت القدس) متعهدين بصرف موجوداتهم وخبراتهم وحياتهم لأجل إنقاذها من الأسر والهوان .

وفي أثناء ذلك أرسل ملك القسطنطينية المدعو اليكسيوس كومنينوس وفداً إلى البابا أوربانس الثاني يطلب منه الإغاثة. لأن الأتراك أغاروا على بلاده ، وكان قد أرسل وفوداً إلى ملوك أوروبا بخصوص ذلك أيضاً طالباً منهم المبادرة لحمايته ، مقرراً لهم في نظير ذلك جميع مابخزائن مدينته .



مؤتمر مدينة بلاهانس بإيطاليا

ولما تحقق جناب البابا من استمرار دعوة بطرس السايح ، أمر بانعقاد مؤتمر بمدينة بلاصانس ؛ حيث اجتمع مائتا أسقف مع رؤساء أساقفة وأربعة آلاف اكليريكى وثلاثين ألفاً من العلمانيين ، وهذا المؤتمر انعقدت جلساته فى البرية فى مكان سهل واسع بالقرب من المدينة .

وكانت أعين الشعوب متجهة إلى وفد الملك اليكسيوس ، متعجبين لملابسهم الفاخرة الشرقية وصاغين إلى أصواتهم الملتمسة المعونة من ملوك المغرب ، بأن يوجهوا قوة أسلحتهم لمعاضدة القسطنطينية ولأنقاذ بيت المقدس

وشرع البابا بتحريض الجميع باتحاد قواهم واتفاق عزائمهم نحو هذه القضية المقدسة ، فقبلوا جميعاً الأوامر واعدين بأنهم بعد أيام قليلة يجتمعون تحت بيارق الصليب لذهابهم إلى بلاد فلسطين للحرب المقدسة باتفاق عام بينهم .

ثم لم تمض أيام قليلة على هذا المؤتمر ، حتى سكن ثائرهم لأنه اعتراهم الخوف من ترك بلادهم وأوطانهم ، والذهاب إلى بلاد وأقاليم مجهولة عندهم ، وهكذا لم تحصل ثمرة من المؤتمر ، لأنه لم يتقرر فيه تحديد كيفية محاربة المسلمين ، ولأن البابا لم يبق فى استطاعته تحريض وحث الشعوب التى حوله ، لانقسام أهالى بلاد النمسا ، وقام فريق منهم ضد الكرسى الرسولى .

وأهالى الأقاليم الشمالية كانوا منشغلين باهتمام فى صد البربر عنهم وكانوا قليلى الميل إلى هذه الحروب ،ومملكة إسبانيا كانت تحت حكم المسلمين . وبلاد الانكليز كانت وقتئذ ضعيفة محتاجة لحماية بلادها التى فتحها ملكها غوليا لموس بعساكره الموجودة فى ولايته ؛ ولذلك لم يجد البابا أمامه غير بلاد فرنسا .

مؤتمر مدينة كليرمون بفرنسا

فاجتاز البابا اوربانس بلاد ايطاليا ، ودخل مملكة فرنسا وعقد مؤتمراً فى مدينة كليرمون ، فى شهر نوفمبر سنة ١٠٩٥ . فتقاطرت إليه جميع الشعوب من أمراء ورؤساء كنائس ووفود ملوك وغيرهم ، حتى امتلأت المدن والقرى حول تلك المدينة بوفود الشعوب ، وكانت الخيام والمضارب منصوبة فى الحقول لمأوى الكثيرين منهم ، وكان ذلك فى فصل الشتاء والبرد شديد الزمهرير .

وفى الجلسة العاشرة من هذا المؤتمر اجتمعوا فى قصر المدينة وكان بطرس السايح جالساً بجانب البابا وهو الذى فتح الخطاب ، معدداً الشدائد التى يعانيها أهالى بيت المقدس ، قائلا إنه شاهد هناك المسيحيين مقيدين بالسلاسل الحديدية وإنه نظر قبر المسيح محتقراً مهاناً وان زواره يتكبدون الذل ، ثم قام الباب وخطب قائلاً :

(أيها المسيحيون إن تلك الأرض المقدسة بحضور شخص المخلّص فيها ، وتلك المغارة المرعية المختصة بفادينا ، وذاك الجبل الذى عليه تألم ومات من أجلنا ، وذلك الضريح الذى تنازل لأن يدفن فيه ضحية للموت . كلها أضحت ميراثاً لشعب غريب وغاب كل بهائها الأصلى وهياكلها قد خربت وأشعة نورها الساطعة تحولت إلى ظلام حالك وهى تستحق الندب الشديد والبكاء ، ولم يعد لله من معبد داخل المدينة المقدسة الخصوصية .

والمشرق الذى هو المهد والينبوع المقدس لإيماننا ، لم يعد مشهداً إلا لا فتخارات أعمال المسلمين . وجهات آسيا الأكثر ثروة وغناء قد التحقت بالظلام إلى الكره والفقر المهين . وانطاكية وافسس ونيقيه قد صارت مدن الإسماعيليين ، والأتراك قدموا ولايتهم إلى حدود هاليبوتوس لا بل إلى أبواب القسطنطينية ، ومن هناك ذراع هؤلاء الشعوب الشديد يتهدد بأن يستولى على كل ممالك الغرب) .

ثم إن البابا وجه خطابه إلى الحاضرين من وفود الطوائف قائلا لهم هل إن مشهداً مثل هذا يترك قلوبهم باردة وغير حساسة . ثم وجه خطابه إلى أهل فرنسا قائلاً أيتها الطائفة الفرنساوية العزيزة لدى الله ، إن كنيسة المسيحيين قد وضعت رجاها مسنداً على شجاعتكم فأنا الذى أعرف جيداً تقواكم وكفاءتكم بالشجاعة والغيره .

وقد اجتزت الجبال الألبية وحضرت لكى أنذر بكلام الله فى وسط بلادكم . وهكذا أخذ يحثهم مذكراً إياهم بشجاعتهم القديمة وما أتم كلامه ، حتى وضع ضباط العساكر أيديهم على سيوفهم ، وأقسموا بأن يبادروا إلى إنقاذ المسيحيين .

فلما تأكد الباب من نجاح مرغوبه أردف خطابه بقوله : لقد آن الزمان الذى فيه تحولون ضد الإسلام تلك الأسلحة التى اتخذتموها حتى الآن ضد بعضكم لأخذ الثأر لأنفسكم من أبناء جنسكم عن بعض إهانات ، فالحرب المقدسة المعتمدة الآن ليست هى لأخذ الثأر عن الإهانات ضد البشر بل عن الإهانات الصادرة ضد الله ، وليست هى لاكتساب مدينة واحدة فقط ، بل هى أقاليم آسيا بجملتها مع غناها وخزائنها التى لاتحصى فاتخذوا محجة القبر المقدس ، وخلصوا الأراضى المقدسة من أيادى المختلسين وأنتم أملكوها لذواتكم ، فهذه الأراضى كما قالت التوراة تفيض لبناً وعسلاً الخ ..

ثم قال : ياأيها الشجعان ، اذهبوا متسلحين بسيف مفاتيحى البطرسية ، واكتسبوا بها لذواتكم خزائن المكافآت السماوية الأبدية ، فإذا أنتم انتصرتم على أعدائكم ، فالملك الشرقى يكون لكم قسما وميراثاً ، وأما إذا قتلتم فلكم المجد لأنكم تموتون فى المكان الذى فيه مات يسوع المسيح . وهكذا صار يخطب ويحث . ..

ثم أخرج علامة الفدا المقدسة (صليب الخلاص) وقال احملوه على عواتقكم ، أو على صدوركم ، وليشرف فوق أسلحتهم وفى رؤوس سناجقكم (أى أعلامكم) ، ثم قام الكردينال غريغوريوس تالياً بصوت عال صورة اعتراف عام ، وعند نهايتها مد البابا يديه ومنح الجميع البركة .

ثم قام ادهمار دى مونتيل أسقف مدينة بوى ، وطلب إلى البابا الإذن له بأن يكون أول من يجاهد فى سبيل الله ، ثم استلم من يد البابا سنجق الصليب فاتبعه عدد عظيم من رؤساء الكنائس ومن القواد المختلفى الرتب ، متحالفين على المحاربة ، وكذلك الأمراء استلموا من البابا سنجق صليب آخر .

ثم إن جميع الذين كانوا حاضرين فى هذا المجمع ، علقوا على صدورهم صلبانا حمراء ، واتخذوا لنفسهم اسم (صليبيين) كما أنهم لقبوا الحرب التى شرعوا فيها (حرب الصليب المقدس) ، وأظهر البابا اغتمامه من عدم مسيره بشخصه أمامهم ، وقال إنه أناب عنه أسقف بوى المتقدم ذكره .

وقرر المجمع أيضاً عدة امتيازات للصليبيين كإعفائهم من دفع العوايد وغيره ، وقرر إشهار الحرب على بلاد فلسطين . ولما عاد الأساقفة إلى ابرشياتهم اجتهدوا فى صنع سناجق الصلبان ، وكانوا يقدمونها إلى جماهير المسافرين إلى هذه الحرب .


البابا اوربانس الثاني

وأخذ البابا أوربانس ينتقل فى بعض أقاليم فرنسا ، وعقد الجمعيات فى مدن روان وطورس ونسيماس ، باذلا عنايته فى نجاح هذه الحروب ، وامتدت هذه الدعوة إلى البلاد الأوروبية الأخرى ، فأخذ الناس يرسلون أولادهم مع العساكر من الانكليز والنمسا وايطاليا واسبانيا .

ومما ساعد على ذلك أيضاً أنه حصل قحط ببلاد أوروبا عدة سنوات مترادفة نتج عنه فيها مجاعة عظيمة ، وكثرت اللصوص وصارت مدنهم وقراهم لاتتحملهم ، فلذلك بادروا نحو أراضى المشرق المخصبة التى يشير إليها الكتاب المقدس بقوله تدر لبناً وعسلاً ، وخصوصاً لأنهم سمعوا عن كثرة غناء بلاد آسيا وخزائنها ، فأضحت بلادهم أمامهم كأنها منفى ، وصار المشرق أمامهم كأنه وطن .

وكان للرؤساء يومئذ غايات ، فدعوا الناس إلى الغزو ، فبادروا إليه جاهلين ماوراء ذلك واجتمعوا ليسيروا نعاجا إلى الذبح فى بلاد غريبة .



الحروب الصليبية الأولى

كان المجمع المنعقد فى مدينة كليرمون ، قد ضرب ميعاداً لسفر العساكر الصليبية إلى الحرب، عيد السيده فى ١٥ اغسطس سنة ١٠٩٦ ، وعند حلول شهر مارس ، أخذوا بإعداد العدد ونصب الخيام ، وتجهيز الخيول والبغال والأسلحة والسناجق ، فتألفوا كتائب وجيوشاً ، وساروا على غير ترتيب ولا نظام ، وكان فيهم من يحمل المزاريق ، ومنهم من يحمل الحراب ، وكثيرون عزل بلا سلاح ، وأكثرهم مشاة ومعهم عائلتهم من نساء وأولاد .

وكانوا بلا قائد يسير أمامهم ، لأن الأمراء والرؤساء الذين كانوا يلزمهم أن يقودوهم أعطوهم ميعاداً للمقابلة فى القسطنطينية ، فسارت الجيوش وأمامها قائدها بطرس السايح راكباً بغلته ثم إنه قسم جيشه إلى قسمين : أحدهما سار بقيادته ، والثانى عين عليه أحد ضباط فرنسا المسمى ولتر أو (غوتيار) .

وسار قسم غوتيار ، مجتازاً بلاد فرنسا ثم بلاد ألمانيا ، ليأتى هنكاريا طريقاً للقسطنطينية عاصمة الروم ، فلما تبطنوا بلغاريا قل زادهم فطفقوا يعيثون فى البلاد ينهبون ويسلبون ، وهم فى أمن مما يحذرون ، حتى بلغوا بلغراد العاصمة فهاجموها ، ولكن الأهلين نشطوا لمقاتلتهم وقتلوا منهم كثيرين وبددوهم .

وكان مافعلوه فى أهل بلغاريا شاهد عدل على أن مقصدهم بمحاربة الإسلام ليس إلا النهب والسلب وإن كان ظاهره لغايات دينية ، يأبى التقى أن يعترف بها .

ثم إن ولتر المذكور جمع باقى جيشه ، وخرج من بلغاريا إلى القسطنطينية التى بلغوها بعد شهرين ، بعد ما قاسوا أتعاباً ومشقات ، وهناك الملك اليكسيوس ، أقامهم عنده لحين حضور الآخرين .

وسار الجيش الذى بقيادة بطرس السايح ، ولما وصل إلى حدود هنكاريا ، بلغه ماجرى للقائد غوتيار ، فحزن لذلك وعزم على الانتقام ، فهجم على مدينة ساملين وقتل أربعة آلاف من أهاليها ، ولما بلغ خبر هذه المقتلة أهل هنكاريا استعدوا لقتاله بقيادة ملكهم لولومان .

وعند وصول جيش بطرس إليهم ، هجموا على هذا الجيش الصليبى وبددوه وقتلوا أكثره ، ولجأ بطرس إلى الفرار هو ومن نجا من القتل ودخلوا بلاد بلغاريا ، وهناك عند مدينة ينصا هجم عليهم البلغاريون وشتتوهم ، وهكذا ساروا هاربين إلى مدينة القسطنطينية .

ثم إنه سار أيضا جيش صليبى آخر من بلاد النمسا تحت قيادة غوشالك الكاهن بالاطنيات يتبع بطرس السايح ، وأخذوا يعتدون على الأهالى فى مسيرهم ، فعوقبوا بمثل ماعوقب به الذين تقدموهم .

ثم سار أيضاً جيش صليبى رابع من بلاد ريزوموسيل تحت رياسة الكونت اميلوك ، وهذا الجيش لم يبرح وطنه إلا بعد أن قتل جميع اليهود ظلماً ، وعمل أعمالا فاحشة لاتحتملها الإنسانية التى يدعون بزحفهم لنجدتها .

ولما وصل إلى هنكاريا هجم عليهم الهنكاريون ، وقتلوا معظمهم وهرب الباقى إلى القسطنطينية .

دخول الصليبين آسيا وهلاك هذه الجيوش فى نيقية

لما وصلت بقايا جميع الجيوش المذكورة إلى مدينة القسطنطينية ، اجتمعت لدى الملك اليكسيوس كومنينوس ، وكان عددهم مائة ألف محارب ، نقلهم بمراكبه من القسطنطينية إلى وراء البوسفور ، وهناك تفرقت كلمتهم ، واختلفوا فى أمرهم ، فلذلك تركهم بطرس ورجع إلى القسطنطينية .

ثم بلغ أمرهم إلى قليج أرسلان بن سليمان بن قطلمش صاحب قونية وبلاد الروم ، فجمع عسكر الإسلام واحتاط بهم من كل جهة فأعمل المسلمون فيهم السيف حتى أفنوهم عن آخرهم ، وكان ذلك بالقرب من مدينة قونية ، ولم ينج منهم بالهرب إلا قليل ، وكذلك قتل القائد ولتر أو (غوتيار) الفرنساوى مجروحاً سبعة جراح فى فخذه .

وهكذا لم يبق من هذه الجيوش التى نقلت من أوروبا إلى آسيا فى سهل قونية إلا أجسام بالية من طوائف مختلفة ، وهذه كانت النهاية التعيسة لعساكر أخلاقها رديئة ، كما قاله المؤرخ (برنردوس الخازن الفرنساوى) .

وأما بطرس السايح فإنه لما رجع إلى القسطنطينية ، أخذ يشكو بمرارة من الصليبيين لعدم إطاعتهم أوامره ، ولذلك صار يسميهم لصوصاً ، وقد أقسم بأنه لايفتر عن عزمه حتى يشاهد حروباً صليبية أخرى .

الحملة الثانية من الحروب الصليبية الأولى

لما بلغ سكان أوروبا ماحل بالحملة الأولى شملهم الحزن والغم الشديد ، وافتكروا فى الانتقام ، واعتمدوا على السفر إلى البلاد الشرقية تحت رياسة غودافرو دى بوليون دوك دى لورين السفلى ، المولود فى برابنت ، وكان هذا الرئيس مبجلا معظماً عندهم ، شجاعاً ذا رأى ، ومعه عدد وافر من قواد فرنسا وبلاد النمسا ، كاؤسطاكيوس (من بلونيا) وبودوين وإخوته وأولاد عمه بودوين روبورك وبودوين حاكم هانوت ، وعزنيل حاكم دى هاش ، وجرارد وبطرس دى طول ، وهوكز دى سانبول ، وابن انجلران دوك دى لوران . وساروا جميعاً براً قاصدين القسطنطينية . وكان مسيرهم من بلاد ألمانيا بغاية الأدب والقناعة ولذلك لم يتعرض لهم أحد فى طريقهم .

وسار جيش آخر عن طريق ايطاليا تحت رئاسة هوكنز ، حاكم فرمندواس ، أخى ملك فرنسا ومعه روبارتوس ، الملقب بكورتهوز حاكم ولاية نورمنديا وروبارتوس أكذ ، والى مقاطعة فلاندره الملقب بحربة المسيحيين . واستفانس دالى بلواز وكاتريز ، الذى كان معتمداً فى ديوان شورى الحرب لفطنته ، وسار هذا الجيش متأخراً عن سابقه ، فاجتاز جبال الألب نحو بلاد ايطاليا ، ولما وصلوا مقاطعة لوكا ، قابلهم البابا أوربانس الثانى وباركهم ، ومن هناك ساروا إلى بوليا يقصدون سفرهم بحراً .

ومرورهم بايطاليا ألجأ الايطاليين إلى السفر عبره ، وبمقدمتهم بوهيمند أمير تارانت ، فاشترك فى المسير مع الجيش البحرى ، وكان بقيادته أهالى بوليا وغيرهم من بلاد كلابريا وسيسيليا ، ومعه ريكاردوس أمير سالارنوس وأخوه رانولف ، وروبارتوس دى هوس ، ورورบارتوس دى سور ، وفال وهر مفرو دى مونتيك .



وسار جيش ثالث من إقليم فرنسا الجنوبى تحت رياسة ادهماردى مونتيل (أسقف بوى) وبقيادة رايموند كونت دى سلت ودى طولوز ، وكان ادهمار هذا قد أقامه البابا رئيسا كنائسيا على الجيوش الصليبية ، وهو أول من استلم سنجق الصليب .

وكان هذا القسم من أهالى غاز كونيا ولانكادوك واليموزين وافرنيا والبروفانس ، وبصحبتهم أيضا هرقل كنت دى بولنياك ، وغوليافوس دى ساريان ، وروجار كونت دى فواكس ، وغوليا موس سيد مونت بلير ، ورايموندبالات ، وريموت كنت دى أورانج وغيرهم كثيرون ، وأساقفة أبت ولورين وأورانج مع رئيس أساقفة طوليد ، وكانوا حملة الصلبان ، وكان مسير هذا الجيش من جبال الألب وبلاد لومبارديا والفربول متقدماً نحو حدود المملكة اليونانية بمشقات عظيمة من أقاليم دالماسيا .

ما جرى للصليبيين فى القسطنطينية

كان الملك اليكسيوس ملك القسطنطينية قد أرسل وفوداً إلى ملوك أوروبا ، يستغيث بهم لمساعدته ضد المسلمين ، ولما بلغه قرب حضور هذه الجيوش الكثيفة خاف منهم على بلاده وندم على مافرط منه ، ثم ابتدأ بتدبير الحيل لكيد الصليبيين .

وكان الجيش البحرى برئاسة هوكز ، حاكم فرمنداوس أخى ملك فرنسا ، قد قرب ، ولكن هذا القائد غرق مركبه على شواطىء الابيروس ، فخرج سالماً فأرسل إليه حاكم دوراتسيوس أحد عماله لأجل أن يهنئه بالسلامة ، ولما قرب للقسطنطينية بالإكرام والاحتفال ، أمر بسجن هذا القائد بصفته أسيراً ، ظاناً أنه بحبس أخى ملك فرنسا عنده بصفة رهينة يأمن غائلة الجيوش القادمة .

وكان غودافرو رئيس الجيش البرى الأول قد بلغ مدينة فليبوبوليس ، وسمع بأسر أخى سلطان فرنسا وحبسه فاغتاظ غيظاً شديداً ، وأخذ يعامل أهل البلاد بصفة أعداء محاربين ، ففر أكثرهم إلى القسطنطينية للاحتماء بها .

ولما علم الملك بما جرى لبلاده خاف خوفاً شديداً ، وأرسل يطلب من قائد الجيوش الصليبية الكف عن القتال ، متعهداً له بما يطلب ، وأنه يفك أسر المسجون عنده ، ولذلك رضى قائد الجيوش ، وكف عن الحرب وسار قاصداً القسطنطينية بصفة سلمية .

أما الملك اليكسيوس ، فإنه أحضر هوكز لديه وأخذ يعتذر إليه ويهاديه تملقاً حتى إنه جذب قلبه ، وطلب منه القسم على الطاعة له ، وحفظ الأمانة بالخضوع لأوامره وبعدم الانحراف ضده وبذلك اشترى عتقه من الأسر ، وانطلق إلى الجيوش الصليبية فعند اجتماعه بهم أخبرهم بقسمه ، فلما علموا بأنه يلزم الإطاعة بموجب هذه الشروط لملك غريب اغتاظوا غيظاً شديداً ورفضوا هذا الأمر معتمدين على مقاومته .

وهذا الرفض أغضب الملك اليكسيوس الذى عزم على أن يجعلهم يطيعونه غصباً بواسطة الجوع ، ولذلك أمر بقطع العلائق مع الجيوش الصليبية ، وأمر بمنع الأهالى من بيع المأكولات لهم ، غير أن هذا الرأى لم يأت بفائدة ، لأن القائد غودافرو اتحد مع باقى رؤساء جيشه وقرروا الهجوم على جميع القرى ، وأخذ مايوجد فيها من القوت .

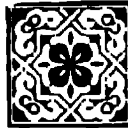
وهكذا كانت الجيوش الصليبية تهجم بشراسة كلية على أهل القرى ، وتنهب موجوداتهم حتى امتلأت مضاربهم من كل نوع . وحيث إنه كان قد قرب عيد الميلاد ، فإجلالاً له كفوا عن القتال ودارت المخابرة بأمر الصلح الذى تم على أن الملك يقدم لهم المؤونة .

وكان بوهيموند أمير تارنتا ، قد سولت له نفسه محاربة القسطنطينية والاستيلاء عليها ، ولذلك زحف نحوها بعساكره ، ولما قرب من مدينة دوراتسيوس ، بعث رسولاً إلى غودافرو القائد العام بما عزم عليه وبعزمه على الاتحاد معه ، غير أن هذا القائد رفض هذا الرأى ووبخه عليه .

ولما علم ملك الروم بما دبره بوهيموند ، اجتهد بأن يكتسب صداقة غودافرو ومحبة الأمراء الذين برفقته لينجو من الغائلة ، ولمنع الريبة به ، قد أرسل ابنه يوحنا إلى معسكر الصليبيين كرهن ، وحينئذ آمن غودافرو ودخل القسطنطينية ، ونزل فى قصر الملك وأعجب غودافرو وأمراؤه بالقسطنطينية وبناياتها الفاخرة وزيناتها . كما أعجب الملك وأهل المدينة بحسن ملابس الأمراء الصليبيين الفاخرة المزينة بالذهب والماس .

ثم إن الملك قابلهم ببشاشة تامة معانقا إياهم الواحد بعد الواحد ، وكانوا ينحنون أمام العرش الملوكى الشرقى ويسلمون جاثين على ركبهم باحترام . ثم خاطبهم الملك قائلاً : أرغب منكم ياحماة المسيحيين أن تحموا بلادى من الأعداء ، فوعده هؤلاء الأمراء بأن يردوا له جميع البلاد التى كانت تحت حكمه ، وبأن يعطوه كل مايستولون عليه . وفى نظير ذلك حلف الملك لهم بأنه يسعف الصليبيين بكل الوسائط الممكنة له ، ودليلاً على ذلك أهداهم هدايا فاخرة ، وأصدر أوامره إلى جميع رعاياه بأن يقابلوا الصليبيين بالمودة ، ويقدموا إلى مضاربهم المؤن .

وبهذه التصرفات حصل السرور للطرفين . ولكن الملك كان الخوف لم يزل فى نفسه فلذلك أشار على غودافرو بأن يكون مسير الجيش إلى آسيا من وراء البوسفور . وهكذا سافرت العساكر الصليبية من طرق وعرة أضاعت فيها زمانا طويلا ذهب بحماستهم .



الصليبيون فى آسيا واستيلاؤهم على قونية

لما انتقلت العساكر الصليبية إلى آسيا ، ساروا فى سهول الأراضى الشرقية ، التى كانت مخضرة يانعة بالأثمار فى زمن الربيع ، فزحفت إلى مدينة قونية عاصمة بلاد الروم ، وكانت تحت حكم قليج أرسلان بن سليمان ، وكان شجاعاً عاقلاً ، فلما بلغه خبر قدوم هؤلاء الصليبيين ، جمع عساكر كثيرة لرد هجماتهم ، وكان من جمعهم من العساكر يبلغ مائة ألف ، وأما عدد الصليبيين فكان مائة ألف من الخيالة ، وخمسمائة ألف من المشاة ، وكانت قونية محاطة بجبال عالية ، ومحاطة من جهتيها القبلية والغربية ببحيرة اسكانيوس .

فلما بلغتها الجيوش الصليبية حاصرتها من كل جهة ، ونصبوا مضاربهم حولها ، وكانت كل طائفة منهم على حدة تميزاً لها ، ولها سنجق صليبى .

وبعد حصار المدينة عدة أيام ، خرج قليج ارسلان المذكور بعساكره من جهة الجبال مهاجماً الصليبيين ، وكانت هجماته المذكورة على جيش غودافرو القائد العام وعلى جيش رايموندى طولوز حتى أنه قهقرهم إلى آخر مضاربهم ، وحينئذ هجمت عليهم باقى طوائف الصليبيين واشتد القتال إلى آخر النهار ، وانهزمت العساكر الإسلامية إلى الجبال ، وكان ذلك فى سنة ٤٩٠ هجرية .

وفى صباح اليوم الثانى لهذه الواقعة هجم قليج أرسلان بعساكره على الصليبيين ، واستمروا فى قتال عظيم وقد أظهرت العساكر الإسلامية من الشجاعة والحيل الحربية ، ما أدهش الصليبيين كما رواه مؤرخوهم ، ولكن الكثرة تغلبت على الشجاعة ، فانتصر الصليبيون على المسلمين فى هذا اليوم ، وهربت عساكر الإسلام إلى الحدود والاستعداد للمهاجمة والمدافعة .

وكانت المدينة لم تزل محصورة بعساكر الإفرنج الذين ركبوا عليها المنجنيقات ، وأخذوا يرشقونها تباعا بسرعة ، إلى أن هدموا سورها ، وكانت العساكر الإسلامية من داخل المدينة ترميهم بنبال مسمومة ، وكانت ترمى أيضاً الصليبيين الذين كانوا يطلعون فوق السور بحبال مرشوقة بكلاليب حديد ،

وبذلك قتلوا كثيرين من الصليبيين ، وكان يوجد رجل شركى كل يوم يظهر فوق السور ويرمى الصليبيين بالنشاب الذى كان يصيبهم ويهلكهم حتى أزعجهم .

وفى يوم من الأيام عند ظهور هذا الشجاع على السور جاءته نبلة من يد غودافرو ، فدخلت صدره فأماتته فى الحال ، وكانت المدينة لم تزل فى حصار لأن جهتيها القبلية والغربية كانتا فى مأمن من الصليبيين ، ثم رأوا البحيرة قد امتلأت بمراكب الصليبيين الواردة من القسطنطينية ، وحينئذ وقع الرعب فى عساكر الإسلام . وفرح الصليبيون وشددوا الحصار .

وكانت زوجة قليج أرسلان داخل البلد ، فخرجت هاربة مع ولديها فى مركب صغير ، فشعر بهم الصليبيون ولحقوهم حتى قبضوا عليهم . ولما بلغ هذا الخبر إلى عساكر الإسلام ، خافوا ، وكان الملك اليكسيوس قد أرسل فرقة من جيشه صحبة الصليبيين لحصار قونية ، ولكونه لم يزل خائفاً منهم ، أرسل فرقة أخرى سرية تحت رئاسة أحد قواده المسمى بوطوميت ، لأجل الاستيلاء على قونية لتكون له فهذا القائد عمل كل جهده حتى دخل المدينة . وهناك اجتمع مع الأمراء المسلمين وعرفهم بأن هؤلاء الصليبيين إذا امتلكوا المدينة يقتلونهم عن آخرهم واستحسن لهم أن يسلموها إلى الملك اليكسيوس ، وفعلا تم هذا الاتفاق .

وأما الصليبيون فكانوا قد عزموا على الهجوم على المدينة بكل قوتهم لأجل استيلائهم عليها ، فما شعروا إلا وسناجق الملك اليكسيوس على أسوار المدينة فانبغتوا لذلك ، واشتدوا غيظاً من معاملة هذا الملك المخادع ، خصوصاً لكونه أمر بالإفراج عن زوجة ملك المسلمين وولديها وأحسن معاملة الأسرى المحبوسين .

ولكن الصليبيين كتموا غيظهم وكان مدة حصار قونية ماينوف عن الخمسين يوماً . وأقاموا مدة يسيرة حول مدينة قونية للاستراحة ، وبعدها قسموا الجيش قسمين سارا بين القسم الأول والثانى مسافة قليلة ، واجتازوا جبال أفريجية الصغيرة تائهين فى الوديان ، قاصدين سوريا ولعدم معرفتهم الأراضى حصل لهم مشقة عظيمة وخصوصاً لعدم المياه وحرارة الجو .

وكان **القسم الأول** : تحت رئاسة بوهيموند وتانكريد وودك ترمنديا ، انتهى إلى وادى مخصب عند نهر غورغونى ، وأقام مضاربه للاستراحة . وفى صباح اليوم الثانى وجدوا غباراً قد علا وثار ، وانكشف عن عساكر الإسلام بقيادة ملكهم قليج أرسلان فاستعد هذا القسم للمدافعة ، فجمع الأولاد والنساء فى القلب ، والعساكر المشاة محتاطة بهم ، وأما الخيالة فانقسموا ثلاث فرق . فأحدهم كان برئاسة تنكريد ، والثانى برئاسة دوك دى نور منديا والكونت دى شائريز ، والثالث كان برئاسة بوهيموند أمير تارانتا رئيس هذا القسم .

ولما تقاربت العساكر الإسلامية اصطفت صفوفاً ، وهجمت على الصليبيين هجمة شديدة ، ثم تكاثر عليهم الصليبيون وزحزحوهم عن مواقفهم ، ثم إنهم ارتدوا عليهم ، وأخذوا يرمونهم بالنشاب حتى إن خيولهم كانت تتساقط من الجراح وهجموا بقوة على الصليبيين حتى بددوهم واستولوا على مراكزهم ، وأخذوا منهم نساءهم وصاروا يقتلون فيهم قتلاً شديداً حتى أفنواأكثرهم .

وقتل غويليوم أخو تنكريد وغيره من الأمراء مع ما أظهروه من الشجاعة خصوصاً بوهيموند الذى كان قد هجم على ملك المسلمين يريد قتله ، ولكن الملك هجم عليهم وأثخنهم بالجراح والقتل ، ثم إن أحد قواد الصليبيين المدعو روبرتوس دوك دى نور منديا ، استجمع بعض عساكره وهجم على المسلمين ، وتبعه تنكريد وريكارد أمير سلارنور واسطفانوس كونت دى بلواز ، وباقى القواد واستخلصوا منهم النساء وصارت الطائفتان فى قتال ونزال وهجوم ودفاع إلى أن كلّ الصليبيون وفروا هاربين وحل بهم عطش شديد من ارتفاع الحرارة وهكذا كانت الدائرة على الصليبيين .

ثم علا الغبار وبان عن عساكر **القسم الثانى** : للصليبيين الذى كان تحت رئاسة غودافرو دى لورين القائد العام ورايموند وغيره الذى بلغهم خبر القسم الأول ، فأسرعوا بالمسير حتى لحقوهم على آخر رمق من الحياة وحينئذ اصطفت عساكرهم قلب وجناحين . فكان على الميمنة غودافرو وكونت دى فلاندو وكونت دى نافار ، وعلى الميسرة بوهيموند وتنكريد وروبارتوس دى نور منديا .

وكان على القلب رايموند ، وحملوا على عساكر المسلمين حملة شديدة انتهت بفرار العساكر الإسلامية إلى الجبال ، واستولى الصليبيون على مضاربهم وأخذوا ذخائرهم وقد اشتهرت هذه الواقعة بواقعة روبلة ونهر غورغونى .

ثم سار جميع الصليبيين جيشا واحداً قاصدين سوريا ، مارين فى الجبال والوديان المعطشة ، وكان قليج أرسلان قد سبقهم ببقايا جيشه يحرق المزروعات والكروم ، لئلا يجدوا شيئاً يأكلونه ، وهكذا حصل ، فإن مأكولاتهم قد فرغت . وصاروا يأكلون البقول الناشفة التى يلتقطونها من الأرض . وعدموا المياه بالكلية حتى إن البهائم ماتت منهم فى الطريق .

وكنت تجد الرجل منهم ماشياً على أقدامه حاملاً أمتعته على ظهره وكذلك آلات الحرب ، فإن العساكر حملتها على ظهورها وكاد العطش يهلكهم ، لأنه كان يموت منهم فى اليوم الواحد نحو الخمسمائة من العطش والجوع . وكذلك قد عدم منهم ماكان معهم من كلاب وخنازير وطيور كاسرة ، وساروا كذلك إلى أن وصلوا إلى وديان بسيديا ، وأقاموا للاستراحة وهم فى غاية الظمأ .

وكان لأحدهم كلب فغاب عنه يبحث عن ماء ثم رجع الكلب وجسده مبلول ، فعلموا بأنه وجد ماء فاتبعوا الناحية التى رأوا الكلب عائداً منها . وهناك وجدوا نهراً جارياً ، ولشدة عطشهم انكبوا على النهر ، يشربون بغير حساب ، حتى إن البعض منهم مات من ذلك والبعض مرض ثم ساروا فى طريقهم مارين ببلاد الأرمن .



وصول الصليبيين إلى طرسوس واختلافهم

ففى أثناء مسير الصليبيين حصلت لهم بعض مصائب . منها أن غودافرو كان قد خرج من جيشه للنزهة ، وفيما هو سائر إذ سمع صوت رجل يستغيث من خلفه ، فالتفت إليه فوجده رجلاً صليبياً حاملاً متاعه على ظهره ، ويتبعه دب هائل . فنزل هذا القائد عن فرسه ، لأجل أن يقتل الدب فسل سيفه ، وأراد الهجوم على الدب الذى بادأه وأراد أن يفترسه . ووقع القائد تحته ثم انتصب قائماً ورفع يده بالسيف يريد قتله ، فجرحه السيف جرحاً بليغاً ثم لحقه أحد القواد وقتل الدب ، وحمل غودافرو إلى المعسكر . ولكن لكثرة الدم الذى سال منه حصل له مرض شديد كاد يهلكه .

ومنها أنه كان قد انفصل من الجيش الصليبى قائدان ، وهما تنكريد وبودوين أخو غودافرو ، لأجل أن يلحقوا عساكر المسلمين الهاربين . وهكذا ساروا مفترقين ، حتى وصلوا مدينة طرسوس ، وكان السابق تنكريد .

وكان أهل المدينة أكثرهم من المسيحيين ، وحين سمعوا بأخبار الصليبيين فرحوا بهم ولما وصل إليهم تنكريد ، فتحوا له أبواب المدينة التى دخلها بدون حرب ، ووضع على أسوارها سناجقه ، ثم وصل بودوين إلى المدينة ووجد أعلام تنكريد عليها ، فحصل له غيظ شديد ، وأمر برفع علم تنكريد ووضع علمه . ولذلك حصلت بينهما مخاصمة .

وأخيراً قررا أن يجعل الرأى فى ذلك لانتخاب أهل البلد . ولكون تنكريد هو أول من وصل إلى البلد ودخلها ، لذلك انتخبوه . ثم إن بودوين هددهم وخوفهم بالعقاب ففتحوا له أبواب البلد ، فطرح علم تنكريد فى الخندق ، ووضع علمه على السور ، فحصل هرج عظيم بين الجيشين ، أى الجيش الايطالى الذى تحت قيادة تنكريد والجيش الفرنساوى الذى بقيادة بودوين ، وكادوا أن يقتتلوا لولا أن تنكريد كتم غيظه وطلب من جيشه المسامحة والكف عن المخاصمة والمقاتلة . ثم أخذ جيشه وسار إلى أن وصل إلى مدينة موبسواسطيه .

وكان بوهيموند قد أرسل شرذمة من عساكره تبلغ الثلثمائة نفر فى أثر تنكريد ، فما وصلت هذه الشرذمة إلى طرسوس ، ووجدوا علم بودوين طلبوا

المبيت داخل المدينة ، وفى الصباح يرحلون إلى تنكريد ، فأبى بودوين مبيتهم داخل البلد . ولذلك نصبوا خيامهم خارج البلد وباتوا هناك .

وفى منتصف الليل هجمت عليهم جماعة من الأتراك فأفنوهم عن آخرهم . ولما بلغ هذا الخبر إلى داخل المدينة اجتمع المسيحيون سكان البلد وانقضوا على المسلمين وذبحوهم بدون شفقة .

وأما بودوين فإنه خاف من هذا الحادث الفظيع ، خصوصاً لكونه هو السبب فى ذلك ، فأبقى بطرسوس جانباً من عساكره لأجل حمايتها ، وأخذ الباقى سائراً فى إثر القائد تنكريد إلى أن بلغ مدينة موبسواسطيه ، ولما اقتربت الجيوش من بعضها وكان خبر مقتلة الثلثمائة ايطالى بلغ جيش تنكريد ، طلبوا محاربة بودوين فمنعهم قائدهم فأوسعوهُ شتما وسباً ونسبوا له الجبن .

وأخيراً التحم الجيشان واقتتلا وانجلت الواقعة عن انهزام تنكريد وجيشه لقلته وكثرة عدوه ودخلوا المدينة .

ولما أصبح الصباح تناسوا ماجرى لهم بالأمس ، وطلبوا الصلح الذى تم بينهم بمعانقة تنكريد وبودوين بعضهما أمام جيوشهم وتحالفا معاً . ثم إن تنكريد صار يضع يده على البلاد التى يمر عليها حتى بلغ حكم اسكندرونة ومنها رجع إلى المعسكر العام ظافراً منصوراً غانماً أسلاباً كثيرة فاقتبله الجيش العام بالإكرام والاحترام وهنأوه .

وأما بودوين فإنه لما وصل إلى المعسكر العام قوبل بفتور ، ولاموه على أفعاله خصوصاً أخوه القائد العام فإنه أنبه خصوصاً لقتل الشرذمة البادية الذكر ، وكان بودوين قد تصاحب مع أمير أرمنى اسمه انكراس الذى كان دائماً يصحبه ، مفصلا له عدم المسير مع الصليبيين والاستقلال بمملكة أسيوية ، مخبراً إياه بأن البلاد الكائنة على شطوط نهر الفرات مخصبة جداً ، وأكثر سكانها مسيحيون والجميع مستعدون لتسليمها إلى من يحضر من قواد الصليبيين ، ولذلك عزم فى نفسه على انفصاله من الصليبيين والاستقلال بهذه البلاد ، وانتهز فرصة لومه من الجيش وترذيله وانفصل عنهم ومعه ألف و ٥٠٠ عسكرى مشاة ومائتا فارس .

أخبار بودوين على شطوط نهر الفرات

لما انفصل بودوين من الصليبيين ، وصحبته انكراس الأرمنى ، لم تدم صحبتهما لأن انكراس الأرمنى لما وجد أن بودوين قد امتلك مدينة طور باسال ومدينة رافاندال واختص بهما لنفسه ، يئس وانفصل عن بودوين الذى كان كلما يصل إلى بلد من شطوط نهر الفرات كانوا يقابلونه ويعظمونه حتى إنه امتلك أكثر البلاد بدون حرب ، وترك بعض عساكره حفظاً لسيادته . إلى أن وصل إلى مدينة (الرها) التى هى كانت تحت حكم أمير يونانى اسمه ثاودورس من لدن ملك الروم . وكان يدفع الجزية فى كل سنة إلى المسلمين .

ولما بلغ سكان هذه المدينة قرب وصول الصليبيين إليهم فرحوا فرحاً شديداً ، وخرجوا لملاقاة بودوين ومن معه (لأن الباقى معه من عساكره كان مائة خيال فقط) متوسلين إليه ومحلفينه بالدخول إلى مدينتهم وحمايتها من المسلمين . فهذا القائد قبل مطلوبهم وسار معهم إلى أن دخل المدينة .

وكان الأمير ثاودورس حاكم المدينة لايريد دخول هذا القائد إلى مدينته ، ولكن خوفه من عصيان رعيته ألجأه على الترحاب به والتزلف له . وأما بودوين فلما وجد أهل المدينة يطلبون حمايته ، ولم يقروا على امتلاكه لها قال إنه لايمكنه أن يحمى بلداً لم تكن له ولذلك سيتركها .

فلما علم أهل البلد بذلك اجتمعوا لديه وطلبوا منه عدم ترك مدينتهم ، ولما نظر ذلك ثاودورس قال له إنى رجل كبير مسن ولم يكن لى ولد وارث . فأرجو أن تكون بصفة ابن لى وتكون وريثى الوحيد ، ولما سمع ذلك بودوين وعلم بأنه سيكون بعد موت ثاودورس وريثاً لمدينة الرهابل لجميع شطوط الفرات ، فرح فرحاً شديداً ووعد بأن يحمى تحت سيفه مقاطعة قد أضحت ميراثاً له بعد زمان قليل يمر . ثم انه اتفق مع أهل البلد وقتلوا ثاودورس بعد محاصرته بالقلعة وطلبه الأمان منهم فخانوه ورموه من فوق السور ثم قطعوه قطعاً .

محاصرة الصليبيين انطاكية وامتلاكها

سارت الجيوش الصليبية قاصدة سوريا مارة بالمدن الآتية وهى : ليكاونيا ، وهيراكليا ، وقيسارية كياروكيا ، وتيانا ، وفوزقون ، ومرعش . وكان أهالى هذه المدن إذا وصلت إليهم أخبار الصليبيين يخرجون من مدنهم ويقابلونهم بالإكرام ويسلمون لهم مدنهم بدون حرب .

وكانت شدة الحرارة وصعوبة الطريق قد أتعبتهم خصوصاً فى جبال الشيطان التى هى فيما بين فوزقون ومرعش . ثم بلغوا جبل طاوروس وجبل أمانوس إلى أن وصلوا انطاكية فى سنة ١٠٩٧ الموافقة سنة ٤٩١ هجرية . وكان الحاكم على هذه المدينة باغيسيان أصغر أولاد الملك شاه السلجوقى ، فلما بلغه خبر الصليبيين أمر بإقفال المدينة والاستعداد للحصار .

وكان الممر الوحيد إلى سهل انطاكية على جسر فوق نهر العاصى ، وعلى جانبى ذلك الجسر برجان محصنان ، فيهما كثير من الرجال ، فحاربهما الافرنج أولا وأخذوهما ، ثم دنوا من انطاكية ونصبوا خيامهم ، فكان القائدان بوهيموند وتنكريد على العساكر الايطالية أمام باب القديس بولص وعلى يمينهم العساكر الزماندية والبريطونية والفلامندية . وأما الفرنساويون الذين بقيادة روبارتوس هوكزدى فار منداياوروبارنوس كونت دى شارتيزه ، فكانوا بالجبهة البحرية أمام باب الكلب .

وأما غودافرو والكونت دى طولوز وادهماردى مونتيل ، فإنهم كانوا على جسر نهر العاصى ، فعقدوا مجلساً حكموا فيه بوجوب محاصرة انطاكية ، وأخذوا الأهبة للقتال .

وأما عساكر الإسلام المحصورون داخل الأسوار فلم يبدوا حراكا ولم يظهر منهم مقاتل واحد فوق الأسوار والأبراج . ولذلك استخف بهم الافرنج وأخذوا ينبذون التحفظ وانعكفوا جميعاً على التلذذ بالملاهى وبنضارة ذلك المكان ، وطفقوا يرتكبون كل القبائح والرذائل .

بينما كان المحصورون فى المدينة يتأهبون للدفاع عن ذمارهم ويستعدون كل الاستعداد حتى غنموا فرصة انشغال أعدائهم باللذات والمعاصى وخرجوا من المدينة وأولئك متفرقون فى القرى فهجم المسلمون عليهم هجمة الأسود فانكسر الافرنج انكساراً كبيراً .

وبعد ذلك حدثت معارك كثيرة بين المحاربين كان النصر فيها حليفاً للمحصورين ، وفقدت مؤونة الافرنج فظهر عدم درايتهم للعيان بسوء الإدارة التى أخذت تؤثر فيهم وشعروا حينئذ بنقص الأهبة الحربية ، فأقاموا أبراجاً لصدم الأبراج التى على المدينة ، وصمموا على تدقيق الحصار وتشديده بحيث يقطعون المدد عن المدينة ولم يتمكنوا من تنفيذ مآربهم ، إلى أن وقعوا فى الارتباك ودهمهم فصل الشتاء وحل بهم مرض البرداء واشتد فيهم ، حتى مات كثيرون واشتد الحال جداً حتى كثيرين من الذين وسموا أنفسهم ظاهراً بسمة دينية مقدسة وباطنا بأفكار النهب والسلب وارتكاب ما ظهر نموذجه فروا هاربين للتخلص من مشاق الحروب الشرقية .

ومن غريب الأمور أن بطرس السايح المنادى بتلك الحرب كان أول الهاربين ، إلا أن الأمير تنكريد أدركه وأعاده وأقسم بدوام مرافقة الذين قادهم للحرب . أما المحصورون فأقاموا بكل أنواع الحكمة وأصول الدفاع وكان لهم جواسيس من السريان ، يعرفون بواسطتهم كل مايحدث فى معسكر الأعداء .

ولذلك قرر بوهيموند أن يصير التدقيق بالبحث عن الجواسيس ومتى وجد واحداً منهم يذبح ويطبخ لحمه أو يشوى ويؤكل ولا شك أن هذا الأمر فى غاية البربرية ؛ وبذلك قد انقطعت الأخبار عن المسلمين .

وفى أثناء ذلك بعث المستعلى بالله العلوى من مصر وفداً إلى الافرنج يعرض عليهم الصلح والمسالمة ، وأنه يرجع إليهم الكنائس التى شيدها المسيحيون وأن يحامى عنهم ويفتح أبواب بيت المقدس للزوار ، بشرط أن يدخلوها بلا سلاح ولايقيم الواحد منهم فيها أكثر من شهر ، وإذا رفضوا ذلك فالخليفة مستعد لأن يعقد محالفة من المسلمين لصدهم .

فلم يحتفل الافرنج بعقد الصلح مع أنه خولهم المقصد الذى ادعوا أنهم يحاربون لأجله ، ولم يرغبوا حجب دماء العباد والرجوع إلى أوطانهم سالمين ، بل أجابوا الوفد باستعدادهم للحرب غير مبالين بما يصادفونه من قوة الإسلام وكان صاحب حلب وغيره من أمراء البلاد قد بعثوا بالإمداد من الجنود لنجدة انطاكية .



وعلم الافرنج بذلك فساروا إليهم قبل أن يدركوا المدينة وحاربوهم ، فانكسر المدد وقتل الافرنج منهم عدداً غفيراً وبعثوا برؤوس كثيرين منهم إلى الوفد المصرى ، ورموا رؤوسا أخرى إلى المدينة ، وجرت مواقع كثيرة كان النصر فيها تارة للمسلمين وطوراً للصليبيين .

وأخيراً طلب أهل المدينة هدنة فجددوا فيها الذخائر والمهمات وتمادى الحال ولم ينل الافرنج أربا ، سيما لأن الشقاق كان سائداً بينهم ، وكان بوهيموند يود أن يتولى على انطاكية لغيرته من بودوين والى الرها . وبذل فى ذلك عناية عظيمة حتى أسعفه شخص اسمه فيروز أصله أرمنى واعتنق الديانة الإسلامية وكان يحبه باغيسيان ؛ ولذلك قلده أميراً على ثلاثة أبراج كبيرة ، وكان هذا الرجل من التقلب وحب الرفعة والمال على جانب عظيم ، لذلك عقد مع بوهيموند شروط التسليم بالخيانة ، وكشف كل منهما مكنونات

ضميره ، ثم جمع بوهيموند الأمراء وقواد الجيش وأعلمهم بأنه يلزمهم أخذ المدينة بنوع الخيانة والرشوة بالمال ، فعارضه القواد خصوصاً الكونت دى طولوز .

وبعد ذلك بضعة أيام شاعت الأخبار بقدوم كربوغا صاحب الموصل بألوف من الرجال لنجدة المدينة . فخاف الافرنج وخطب فيهم بوهيموند بوجوب استعمال الخيانة لامتلاك المدينة ، فأذعنوا لذلك وفى تلك الليلة اجتمع بوهيموند بفيروز الخائن واتفقا على وقت تسليم المدينة وانفصلا ، وفى آخر اليوم الثانى جمع الافرنج خيامهم وانسحبوا عن ساحتهم بالطبول والصريخ نحو بيت المقدس حتى تواروا عن العيون ، ثم قفلوا راجعين بهدوء حتى بلغوا البرج الذى كان فيه فيروز .

فأقام ذلك الخائن بفظائعه حتى قتل بيده أخاه الذى لم يكن عالما باتفاقه ، وخاف منه أن يشعر بالصليبيين فيصيح على الخفراء فبادر بقتله ثم أدلى سلما من جلد فتعلق به شخص اسمه بابيان من عساكر بوهيموند إلى أن صعد البرج ، وأراه جثة أخيه المقتول ، ثم اتبعه بوهيموند وكونت دى فلاندرا وغيره وامتلكوا الثلاثة أبراج ، بعد أن أمرهم فيروز بقتل أخيه الثالث الذى كان على برج آخر ، وامتلكوا سبعة غيرها بعد أن قتلوا حراسها وكسروا الأبواب ودخلوا المدينة فملكوها . وكان ذلك فى ٣ يونية سنة ١٠٩٨ بعد حصار تسعة شهور .

وفتك الصليبيون بالأهالى فتكا ذريعاً ليلاً ونهاراً حتى إنهم كانوا يهجمون على البيوت ويقتلون من فيها ماعدا بيوت المسيحيين الذين كانوا يضعون عليها الصليب للتمييز ، ومن فر من عساكر الإسلام كانوا يلحقونهم فى الحقول والأحراش ويقتلونهم (وهكذا تكون حماة الانسانية) وفر باغيسيان فقتله بعض الأرمن وجاءوا برأسه إلى انطاكية .

أما القلعة فكانت لم تزل بيد المسلمين وأقام بوهيموند رايته فى أعلى برج فى المدينة دلالة على استيلائه عليها . ومن هذا الوقت قد استنصر فيروز الخائن وأحبه بوهيموند .

محاصرة المسلمين انطاكية وظهور الحربة المقدسة

أقام الصليبيون بانطاكية ثلاثة أيام . وعلى قول ابن خلدون ثلاثة عشر يوماً . وهم في فرح وسرور لاستيلائهم على المدينة ، فأولموا الولائم وصرفوا أوقاتهم بالملذات والملاهى . وفى اليوم الرابع من حلولهم فيها ، جاء قوام الدين كربوغا صاحب الموصل إلى مرج دابق بالشام ، واجتمعت عليه العساكر فكان معه دقاق ابن تتش ،وطغرل تكين أتابك، وجناح الدولة صاحب حمص ، وأرسلان تاش صاحب سنجار ، وسقمان بن ارتق ، وغيرهم من الأمراء المسلمين ، وجمعوا ماكان هناك من الترك والعرب وبادروا إلى انطاكية وحصروها .

واضطرب الافرنج وخافوا ، وأخذ الضيق منهم كل مأخذ ، فلم يعد عندهم زاد ولم يكن لهم يد لاستجلاب المدد ؛ لأن القرى الواقعة بجوار انطاكية كانت قد باتت مدمرة من نتائج الحرب ، ولذلك تضايق المحصورون جداً وأمسى حالهم تعيساً وبمدة وجيزة نفد كل القوت والذخيرة حتى التزم الافرنج أن يأكلوا البهائم واضطر كثير منهم إلى الشحاتة . فكنت ترى كثيرين من الأمراء ، منهم كونت دى فلاندرا يطوف الأزقة يطلب الصدقة ، وفرّ كثيرون من المحصورين طلباً للنجاة من الموت جوعاً .

وهكذا مضت عدة أيام على هذا المنوال ، فخارت قوى الجنود وضعفت . وكان المسلمون يعلمون ذلك ، فلما رأى الأمير بوهيموند أمير ترانتا وانطاكية كسل أصحابه وتقاعدهم ، أحرق دورهم قصاصا لهم ، ولكن لسان اللهيب تجاوز حده فامتد إلى جهات ساء الأمير حرقها إلا أن تلك النار لم تحرك حماسة قوم أقعدهم الجوع الشديد والضعف ، ولذلك صارت الكهنة والأمراء وبعض الناس يقصدون أنهم رأوا أحلاماً ونبوءات تفيد أن الصليبيين سيغلبون أعداءهم ، وذلك لتدب الحمية فى قلوب أولئك الكسالى ، وتوصلا لما يريدون قال كاهن من أهل مرسيليا جنوبى فرنسا اسمه بطرس برتولونى ، إن القديس اندراوس الرسول ظهر له فى الحلم ثلاث مرات وقال له : اذهب إلى كنيسة أخى بطرس بانطاكية ، وهناك بقرب الهيكل الملوكى تجد الحربة الحديد التى طعن بها جنب المسيح مدفونة فى الأرض ، وإنه بمجرد حمل هذه الحربة أمام جيش الصليبيين يحصل له النصر .

ثم انتخب اثنى عشر شخصاً من الأعيان والكهنة ليكونوا شهوداً على اكتشافها ، ولم يسمح لأحد من الجند والأهالى بحضور الحفر الذى اشتغلوا به طول النهار وهم يدققون البحث ، فلم يجدوا شيئاً والأبواب مغلقة عليهم ، وبعد الغروب نزل الكاهن بنفسه وأحضرها .

أما الحربة ففيها أقوال لأن المؤرخين الاكليريكيين يقولون إنها معجزة إلهية . وغيرهم يقولون إن الافرنج لما رأوا وهن عزائم جنودهم ، وإنهم لاينشطون بلا محرك فعال ، دبروا هذه الحيلة فنجحت نجاحا عظيما ، على أنه بعد حين يسير انكشف الغطاء عن أعين كثيرين ، وبات جمهور غفير من الناس لايركنون إليها ولايصدقون بها .

(نقلنا هذا بدون إبداء رأينا فيه وهو مجمل ماكتبه حضرة الفاضل جورجى أفندى ينى فى كتابه« تاريخ سوريا » وكذلك ماجاء بكتاب « الحروب المقدسة جزء أول ») .

وحينئذ فرح الصليبيون بهذه الحربة ، واجتمعوا فى الكنائس وأقسموا جميعاً بمداومتهم على الحروب ، وأرسلوا بطرس السائح إلى صاحب الموصل يطلبون منه المقاتلة فى الحرب فوعدهم بالحرب ، وفى ثانى يوم خرج الصليبيون جميعاً وهجموا على جيش الإسلام ، وكان كربوغا جالساً فى خيمته ظانا بأن المسيحيين قادمون إلى طلب الصلح ، ثم التفت إلى القلعة فوجد الراية التى عليها سوداء ، فعرف بأن القوم جاءوا مهاجمين ، فانذهل وإذا بكثيرين من جماعته يركضون مرتعشين ، وأخبروه بأن الصليبيين خرجوا عليهم مرتين ، جنودهم اثنتا عشرة فرقة تحت رئاسة قوادهم هوكز وغودافرو وروبارتوس دى نورمنديا وادهمار دى مونتيل وتنكريد وبوهيموند ، وأن رايموندى اجيلاس يحمل الحربة أمامهم .

فأمر الأمير كربوغا بترتيب الجيش ، وأمر كلا من صاحب حلب والشام ونيقية بأن يكمنوا وراء عساكر العدو ليمنعوهم عن انطاكية ، وبعد قتال شديد وهجوم ودفاع كاد ينتصر فيه المسلمون ، ولما كان فى الإسلام من النفرة لصاحب الموصل تمت هزيمتهم ، وكان كربوغا فى أوائلهم وذلك فى ٢٩ يونية سنة ١٠٩٨ ، وغنم الافرنج غنائم لاتحصى وجمعوا مالاً غزيراً فعادوا إلى انطاكية بثروة عظيمة .

ثم إن من كان فى القلعة لما علموا بهزيمة الجيوش الإسلامية ، ألقوا سلاحهم وسلموها ، فوقع بين بوهيموند أمير انطاكية وبين الكونت دى طولوز نفور وخصام بشأن تملكها ، ثم انتشبت فى الصليبيين الأمراض الوبائية حتى مات منهم كثيرون ، ومات أيضاً القائد ادهماردى مونتيل أسقف بوى ودفن فى كنيسة مارى بطرس محل وجود الحربة . ثم سار الصليبيون إلى معرة النعمان وحاصروها حتى كلوا ، ثم امتلكوها وأفحشوا فى استباحتها .



مسير الصليبيين من انطاكية قاصدين بيت المقدس

بعد مضى نحو الستة شهور من استيلائهم على انطاكية ، ساروا إلى جهة سوريا العليا ، واجتازوا مقاطعة قيسارية وحماة وحمص ، وكانت أهالى البلاد تقابلهم بالترحاب تلافياً لعدائهم . وهكذا ساروا مسرعين إلى أن وصلوا مدينة اركاس الكائنة عند سفح جبل لبنان ، فرفض أهاليها تسليمها ، ولذلك حاصرها قسم من الصليبيين تحت قيادة رايموند وتنكريد والدوك دى نورمنديا وعساكر الكونت دى طولوز .

وقسم آخر من عساكر فلاندرا وهولاندا وانكلترا وبوهيموند ، سار إلى أن وصل إلى اللاذقية ، وهناك رجع بوهيموند إلى انطاكية ولايته واعداً إياهم بأن يتبعهم فيما بعد ، ويدركهم عند أسوار بيت المقدس .

وقسم ثالث برئاسة غودافرو واسطاكيوس سار إلى أن وصل إلى جبلة التى على شط البحر قريبة من اللاذقية وحاصرها بقوة .

وقسم رابع برئاسة رايموند دى طوران ، حاصر طرطوز وامتلكها بعد هروب أهلها . فالقسم الأول بعد محاصرته مدينة اركاس كما ذكر لم يتمكن من أخذها ، ففى آخر شهر مايو سنة ١٠٩٩ فقد صبرهم ، فساروا نحو فلسطين فقابلهم أمير مدينة طرابلس ، وبعد أن حاربوه وتغلبوا عليه صالحهم على مال وساروا قاصدين بيت المقدس .

ثم تقابل جميع الصليبيين وساروا معاً إلى أن وصلوا إلى عكا وحينئذ خرج واليها الذى كان تابعاً لخليفة مصر وأعلمهم بأنه مستعد لتسليمهم المدينة عندما يستولون على بيت المقدس . ولذلك تركوه إلى أن وصلوا عمواس القديمة ، وهناك قابلهم وفد من أهالى بيت لحم وطلبوا إغاثتهم ، فتوجه معهم الأمير تنكريد ليلاً ومعه ثلثمائة نفر إلى أن دخلها ليلاً ، ووضع رايته عليها ثم ارتجع ولحق بقومه وهكذا ساروا إلى أن وصلوا إلى مدينة أورشليم .

محاصرة الصليبيين لبيت المقدس واستيلاؤهم عليه

كان بيت المقدس تابعاً لمملكة مصر السعيدة ، وكان الحاكم عليه افتخار الدولة من قبل الخليفة المستعلى بالله العلوى ، وكان قد أمر ببناء ماتهدم من السور وقت استيلاء الأفضل بن بدر الدين قائد الجيوش المصرية من الأمير سقمان بن ارتق واستعداداً بما يلزم للحصار .

ولما وصل الصليبيون إلى المدينة انعقد مجلس مشورتهم ، وقرر حصار بيت المقدس فكان كما يأتى فى شمال المدينة دوك دى نورمنديا وكونت دى فلاندرا وتنكريد أى من باب هيردوس إلى باب القديس اسطفانوس ، وكان غودافرو واسطاكيوس وبودوين دى يورغ حول جبل الجلجلة من باب دمشق إلى باب يافا ، وكان الكونت دى طولوز ورايمود دى أورانج وغليوم دى مونت بلير وغاسطون دى بيرا على يمين غودافرو على جبل صهيون قبلى المدينة إلى الغرب .

وهكذا أقيم الحصار مدة من الأيام ، ثم إنهم هجموا هجمة قوية على سور المدينة القديم بقصد هدمه ، فأخذ فريق منهم يهدم السور ، وفريق يدافع إلى أن هدموا معظمه ودخلوا منه وأرادوا هدم السور الداخلى فما أمكنهم ثم افتكروا فى كيفية استيلائهم على المدينة وأخيراً قرروا بأن يتسلقوا السور بالسلالم الجلد والحبال التى معهم بكثرة ، وأخذوا يرمون السلالم على شرافات السور فتتعلق به ، وبهذه الواسطة صعد إلى السور منهم كثيرون ولما نظروهم عساكر الإسلام هجموا عليهم بأعلى السور واقتتل الفريقان ودارت الدائرة على الصليبيين الذين فروا إلى معسكرهم بواسطة السلالم أيضاً .

ومن هذا الوقت افتكروا بأنه يلزمهم منجانيقات للقذف بها على السور والمدينة ، فأخذوا يبحثون على الأخشاب اللازمة لذلك حتى انهم هدموا منازل القرى المجاورة للمدينة وأخذوا أخشاب السقوف ، وكان ذلك فى فصل الصيف وفى شدة الحر وعدم وجود مياه كافية لسقياهم لأن حاكم المدينة كان قد أمر بهدم الصهاريج التى بالخارج ، فنابهم ظمأ شديد لأن نهر سلوان الذى كانوا يستقون منه كانت مياهه شحيحة ولم تكن تجرى دائماً .

وكانت قد وردت أخبار للصليبيين تبشرهم بأن قد جاءتهم المراكب تحمل ذخائر وغيرها من جنوى ، فشملهم الفرح والسرور ، وسار منهم قسم لأجل استحضار ذلك ، ولما توجهوا إلى ناحية جوبة وجدوا مراكب الإسلام قد داهمت مراكبهم وحرقتها . وكان ذلك بعد إخراج الذخائر إلى البر ، ثم إنهم نقلوا هذه الذخائر مع آلات الحرب ومن حضر معهم من المهندسين ، وتوجهوا إلى بيت المقدس .

وكان أيضاً أحد أهالى سوريا قد دل الصليبيين على حرش بعيد عن المدينة بمسافة ثلاثين ميلا فى جبل بين وادى شخيم ووادى السامرة ، فانطلق منهم قسم إلى هناك ، وقطعوا أخشاب الحرش وحملوها على عربات تجرها البقر ، ولذلك صنعوا ثلاثة أبراج من الخشب ، كل برج ثلاث طبقات حتى صارت الأبراج أعلى من سور البلد ، وعمل على الأبراج جسر ولذلك فرح الصليبيون فرحاً شديداً .

ثم عقدوا مجلس مشورتهم ليعينوا يوم الهجوم وكيفيته ، وهذا المجلس قرر تغيير مواضع الحصار ، فنقلوا الأبراج الخشبية إلى شرقى المدينة عند باب سيدار تحت رئاسة دوك دى لورين ،أقاموا المنجانيقات والأكباش تحت رئاسة تنكريد وروبارتوس من باب دمشق والبرج المقرن الذى دعى فيما بعد ببرج تنكريد .

وفى يوم الخميس ١٤ يولية سنة ١٠٩٩ هجم الصليبيون هجمة شديدة على كل جهات المدينة ، خصوصاً الأبراج الخشبية التى كانوا يجرونها بعجل إلى أى جهة يريدونها ، وكانت مملوءة بالمحاربين تحت رئاسة غودافرو وأخيه اسطاكيوس وبودوين دى بورغ الذين كانوا بالبرج الأعلى ، وكانوا يصدرون أوامر الحرب من أعلا هذا البرج ، فيهجمون بالأبراج على أسوار المدينة .

وكذلك رؤساء المنجنيقات كانوا يتابعون الرمى بها بسرعة ، وعساكر الإسلام تقابلهم كالأسود ولايبالون من هذه الهجمات ، وكانوا يرمون الصليبيين بالمواد الملتهبة ومشتعلة بالزيت ، وكانت مركبة على الأبراج آلات حربية كبيرة لصد هجمات الصليبيين . وظل الفريقان فى هجوم ودفاع طول اليوم المذكور بدون أن يظهر النصر لفريق منهم .

وفى صباح اليوم الثانى بادر الفريقان للمحاربة ، واشتدت هجمات الصليبيين على المدينة ، ولكن حسن دفاع المسلمين منعهم من التقدم إلى السور . وكان المسلمون قد وجهوا قوتهم ضد من فى البرج الأعلى الذى كان فيه غودافرو ومن معه حتى انهم قتلوا أكثر عساكر دوك دى لورين ، وكان رايموند من ناحية المدينة القبلية مع جماعة يباشرون أعمالهم الحربية بصورة عديمة الوصف ، وكان تنكريد وروبارتوس من الجهة الشمالية .

وهكذا صار القتال منتشباً بينهم ، وكان الانتصار لجيش المسلمين ، إلا أن الصليبيين رموا ناراً من الأبراج الخشبية على آلات الحرب المركبة على السور ، فالتهبت وزادها الريح التهاباً ، وتطاير الشرار والدخان على عساكر الإسلام ، فاضطروا للتأخر عن الأسوار ولذلك نزل دوك دى لورين وغودافرو من الأبراج ومعهم عساكرهم إلى الأسوار ، وصاروا يقتلون من المسلمين من يجدونه ثم اتبعهم كثير من عساكر الصليبيين الذين كسروا باب القديس اسطفانوس بالفؤوس والمعاول ، ودخلت منه باقى العساكر الصليبية . وكان ذلك فى ١٥ يوليو سنة ١٠٩٩ لسبع بقين من شعبان سنة ٤٩٢ هجرية وكانت مدة حصار المدينة أربعين يوما .

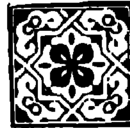
ثم إن العساكر الصليبية فتكوا بالمسلمين فتكا ذريعاً ، وصاروا يقتلون الرجال والنساء والكبار والصغار والبنين والبنات ، وقتلوا داخل المسجد ماينوف عن سبعين ألفاً من المجاورين ، فيهم العلماء والزهاد والعباد حتى كانت الجثث ملقاة فى الأزقة والأسواق ، وأخذوا من المسجد نيفاً وأربعين قنديلاً من الفضة زنة كل واحد ثلاثة آلاف وستمائة درهم و ١٥٠ قنديلاً من الصغار وتنوراً من الفضة زنته أربعون رطلا شامياً وغير ذلك مما لا يحصى .

واعتصم باقى المسلمين بمحراب داود عليه السلام حتى استأمنوا وخرجوا ليلاً إلى عسقلان ، وكان السبب فى ذلك أنه انعقد مجلس مشورة الصليبيين وقرر بأن يقتل كل مسلم أو يهودى باق فى المدينة ، فخرج المسلمون بعد الاستئمان ، والتجأ اليهود إلى كنيسهم فحرق الصليبيون جميع الحى بما فيه الكنيس ومن فيها .



غودافروا ملك القدس

وبعد ذلك انعقد مجلس مشورتهم لانتخاب أحدهم ليكون ملكا على بيت المقدس ، وبعد مجادلات ومعارضات تم انتخاب أربعة وهم : غودافرو ورايموند ودوك نورمانديا وتنكريد . وأخيراً عينوا لجنة من الكهنة وغيرهم عددها عشرة لأجل أن ينتخبوا واحداً من الأربعة المذكورين ، فانعقدت اللجنة وقررت انتخاب القائد غودافرو ، ولما أرادوا تتويجه ليكون ملكا على بيت المقدس ، أبى أن يلبس التاج قائلاً لايمكنه أن يضع على رأسه تاجا من ذهب مرصعاً بحجارة كريمة فى بلد توج فيها المسيح بإكليل من شوك ، وأبى أن يلقب بملك القدس ، بل (بحامى قبر المسيح) .



واقعة عسقلان وانتصار الصليبيين فيها

بعد أن تملك الصليبيون بيت المقدس وصل صريخ المسلمين إلى الخليفة المقتدى ببغداد مستغيثين به . فأرسل وفداً إلى السلطان بركيارق ، مؤلف من أبى محمد الدامغاني ، وأبى بكر الشاشتى ، وأبى القاسم الزنجانى ، وأبى الوفاء ابن عقيد ، وأبى سعد الحلوانى ، وأبى الحسين بن السماك . فساروا إلى بركيارق يستصرخونه للمسلمين ، فانتهوا إلى حلوان (غير حلوان مصر) وبلغهم مقتل نجد الملك البارسلان ، وفتنة بركيارق مع أخيه محمد فرجعوا .

وكانت قد وصلت الأخبار إلى مصر ، فاضطربت وأصبحت تخشى أن يصيبها مثل ذلك ، فسار أمير الجيوش الأفضل إلى سوريا لمحاربة الصليبيين ، وكانت أخباره قد وصلت إلى بيت المقدس . فخرج عودافرو ومعه تنكريد والكونت دى فلاندرا وروبارتوس دى نورمنديا ورايموندى طولوز وبطريق أورشليم الجديد أرنول ، وساروا قاصدين الجيوش المصرية الذين قابلوهم بجوار مدينة عسقلان . وهناك أقام كل من الفريقين خيامه ، واصطفت العساكر لكل فريق قلباً وجناحين ، واقتتل الجيشان قتالاً شديداً كان النصر فيه للصليبيين ، وانهزمت العساكر الإسلامية بعد أن قتل أكثرها ، ودخلت مدينة عسقلان ، ثم بعد انتهاء هذه المعركة رجعت الجيوش الصليبية إلى أورشليم مسرورة لحصولهم على النصر وأمامهم الطلول ، تعزف .

انتهاء الحروب الصليبية الأولى وسفرهم إلى أوطانهم

بعد النصر الذى حصل للصليبيين فى سهل عسقلان ورجوعهم إلى بيت المقدس ، حصل شقاق بين أمراء الإسلام على أنه كان الواجب فى مثل هذه الأحوال أن يتحدوا يداً واحدة لمقاومة الأغراب ، لكنهم جاءوا بالعكس فانقسمت الآراء وتشتت القوات تحارب بعضها بعضا لأسباب واهية .

ولما علم الصليبيون بأنه لم يوجد أحد من المسلمين يحاربهم طلبوا الرحيل إلى أوطانهم تاركين مدينة أورشليم وفيها غودافرو والأمير تنكريد الذين رغبوا أن تكون وطناً جديداً لهم يقضون فيه باقى أيام حياتهم .

وجدوها بانطاكية ، فهذا القسم الذى كان مؤلفاً من مائة ألف عسكرى بعد أن أخذ مدينة ايكوريه ، قام لمقاتلته سلطان نيقية وبلاد الروم الأمير قليج أرسلان وبصحبته صاحب الموصل الأمير كربوغ ، فجمعوا جيوشهم وهجموا على هؤلاء الصليبيين هجمة صادقة ، واشتبكت المعركة بين الجهتين فى أرض هاليس . وبعد قتال شديد فازت العساكر الإسلامية بالنصر وشتتوا الصليبيين وبددوهم ، ففروا هاربين فى القفار إلى قرب مدينة سينوبيا ، حيث تقابل كل من الكونت دى بلواز وفرايموند دى سان جيلاس ودوك بورغونيا ، وجمعوا حولها فضلات قليلة من باقى جيوشهم .

وأما القسم الثاني : فكان برئاسة الكونت دى نافار ، وسار متقدما فى المسير إلى مدينة انيكوريا قاصدين مدينة هيراكليا ، وهناك صادفتهم عساكر الأتراك المذكورون قبله ، وحملوا عليهم إلى أن بددوهم عن آخرهم .

وأما القسم الثالث : البالغ قدره مائة وخمسون ألف مقاتل تحت رئاسة الكونت دى بواثير والدوك دى بافيريا وهوكز دى فرمندوس ، فبعد أن امتلكوا مدينتى فيلو فليوم وساماليا ساروا نحو مدينة سننكون مجتهدين فى اتحادهم بعسكر القسم الثانى ، وإذا بعساكر قليج أرسلان وعساكر الأمير بوغا الإسلامية قد حملوا عليهم ، واقتتل الفريقان وكانت معركة مخيفة لأن عساكر الإسلام أعملوا فى الصليبيين السيف حتى قتلوهم عن آخرهم ، ولم ينج منهم أكثر من ألف شخص .

وفر الكونت دى فرمندوس من هذه المعركة مجروحا إلى ترسوس حيث مات هناك . وأما دوك دى بافيرا وكونت دى بواثير فتاها هاربين من مكان لآخر حتى دخلا انطاكية التى كان قد سبقهم إليها كونت دى نافار هاربا . وهناك اجتمع بقايا الصليبيين الذين نجوا من هذه الوقائع وكان عددهم عشرة آلاف قاصدين مدينة أورشليم أى القدس . ثم حصلت لهم وقائع أخرى بأراضى فلسطين بقرب مدينة الرملة انكسر فيها الصليبيون بأيدى عساكر الإسلام .

وفى هذه الواقعة قتل دوك بورغونيا والكونت دى بلواز ثم ساروا قاصدين أوطانهم مخذولين ، وسيأتى بيان هذه الواقعة سنة ٤٩٦ هجرية وسنة ١١٠٢ أفرنكية مع العساكر المصرية .

محاصرة غودافرو مدينة أرسور

بعد أن تملك القدس غودافرو كما تقدم ، صار يرتب أحكامه كما يتراءى له ، وصدر أمره بأن كل شخص يضع يده على منزل أو أرض يحرثها سنة كاملة ويوماً تكون له ملكاً طلقاً شرعياً . وكذلك كل من غاب عن عقاراته سنة ويوماً تؤخذ منه ، ولايكون له حق فيها مطلقاً ، ثم إنه رتب جزية على الأمراء المسلمين الذين كانوا قد خضعوا له ، مثل أمراء قيسارية وغيرها ، وأيضاً صدقوه العرب شمالى نهر الأردن ، ثم سار إلى مدينة ارسور ، وحاصرها حصاراً شديداً لأنها لم تخضع له ، ولما كان الحصار صعباً جداً على المدينة وكان أهل المدينة أخذوا جيرارد دى افاسناس أسيراً ثم إنهم أدلوه بحبل أمام غودافرو وصرخ طالباً من غودافرو أن يبقى حياته بواسطة رجوعه عن هذه المدينة وعدم حصارها فأجابه غودافرو على الفور بأنه لو كان أخوه اساطاكيوس نفسه وطلب ذلك ما أمكنه قط وقال له الأحسن أن تسلم نفسك للموت بدل إخوانك الصليبيين . ثم بعد ذلك قتلوه .

ثم إن غودافرو شدد الحصار على المدينة ، ولكن هذا الحصار لم يكسبه شيئاً لأن آلات حربه حرقت عن آخرها بواسطة النار التى قذفت عليهم من داخل المدينة ، وحينئذ غودافرو قطع الأمل من الاستيلاء على هذه المدينة ورفع الحصار عنها ورجع إلى القدس .

اجتماع الأمراء الصليبيين بالقدس وانتخاب قانون لحكومتها

بعد رجوع غودافرو إلى القدس ، أتته الأخبار بأن عدداً عظيماً من أهل بيزاوجنوى التابعين لإيطاليا برفقة رئيس أساقفة بيزا دبيارتوس بصفته نائب بابوى ، والأسقف اريانوس قاصدين القدس للزيارة فى عيد الميلاد ثم حضر أيضاً إلى القدس كل من بوهيموند أمير انطاكية وبودوين أمير الرها ورايموند دى طولوز وكثيرون من القواد والرؤساء ، ثم إن غودافرو افتكر بأن يعمل قانوناً لحكومته لترتيبها وتنسيقها فاغتنم فرصة وجود الأمراء المذكورين ، فعقد جمعية فى قصره الكائن فى جبل صهيون بالقرب من كنيسة قبر المسيح ، وأعلمهم

بما أصر عليه من ترتيب الحكومة بقانون يبين حقوق السلطان والموظفين والأشراف (القواد) والرعية كلا منهم بما يخصه ويلزمه . فعينوا ثلاثة دواوين :

فالديوان الأول يعقد برياسة السلطان ، وتكون أعضاؤه القواد لإصدار الأحكام والترتيبات الشاملة جميع الرعية .

والديوان الثانى يكون رئيسه قائمقام القدس وأعضاؤه أعيان المدن الكبار ، لكل مدينة عضو ويكون اختصاصه النظر فى الإيرادات والمصروفات وترتيب الحقوق والتدابير المدنية .

والديوان الثالث للقضاء وهو يختص بالدعاوى التى ترفع على الشرقيين ، ويكون رئيسه أحد قضاة البلاد لإصدار أحكامه بما يطابق عوائدهم وهكذا انتهى هذا المجلس ، وقد حفظوا أصل القرار داخل كنيسة القيامة ، ثم تعين دبيارتوس أساقفة بيزا بطريركا على القدس خلفاً لأرنولد بطريركها المتوفى .

موت غودافرو سلطان القدس

بعد انتهاء مجلس الأمراء المذكور ، سافر كل منهم إلى محله ثم توجه غودافرو مع تنكريد بجيشهما إلى طبرية وامتلكوها ، وأقام تنكريد حاكما عليها . ثم رجع غودافرو إلى القدس وبعد أيام قليلة حصل له مرض شديد ، فجمع حوله القواد والكهنة وحرضهم على إتمام واجباتهم وأخذ عليهم الأقسام بدوام محاربتهم المسلمين ودوام محاماتهم عن البلاد التى امتلوكها لآخر حياتهم .

وبعد أيام قليلة فاضت روحه فى ١٨ يوليو سنة ١١٠٠ ، فبكاه الجميع لما كان موصوفاً به من العدل ، واحتفلوا بجنازته ودفنوه بإكرام بحذاء جبل الجلجلة بكنيسة القيامة بالقرب من قبر المسيح (كاعتقادهم) وقبره هناك يزوره الزوار الغربيون الآن .

انتخاب بودوين سلطاناً للقدس

بعد موت غودافرو طمع فى هذه الوظيفة دبيارتوس البطريرك ، وأرسل إلى بوهيموند بانطاكية لمساعدته على ذلك ، ثم جمع القواد والرؤساء وعقدوا

مجلساً لأجل انتخاب سلطان عليهم بدل المتوفى مقدماً نفسه لهذه الوظيفة السامية ، وحينئذ أهل المجلس رفضوا تعيينه عليهم سلطاناً . وكذلك بوهيموند أرسل إليه برفض المساعدة .

ثم إن هذا المجلس قرر باتحاد الآراء انتخاب بودوين ملك الرها وشقيق غودافرو ليكون سلطاناً عليهم ، ثم أعلموه بذلك فقبل هذا الانتخاب وعين بدله ابن عمه بودوين دى بورغ ملكا على مابين النهرين (الرها) وسارهو قاصداً القدس ومعه جيشه ، فتقابل مع دقاق أمير دمشق وجناح الدولة أمير حمص بعيداً عن بيروت بمقدار تسعة أميال وتحاربوا ، وانتهت الحرب بهزيمة المسلمين . وسار بودوين إلى أن وصل إلى القدس ، ودخلها باحتفال عظيم أقامه له أهل المدينة .

ثم إن بودوين أراد أن يوسع مملكته فأخذ جيشه وسار قاصداً مدينة عسقلان ليمتلكها وبعد قتالها انهزم راجعاً إلى القدس ، وشرع فى تتويجه ببيت لحم ولبس التاج الملوكى وكان الأمير تنكريد والى طبرية لم يعترف بتملك بودوين على القدس لما بينهما من العداوة القديمة التى ظهرت بناحية طرسوس كما تقدم ، وكان بودوين يرغب مصافحة تنكريد ولكونه سلطاناً لم يسمح بالتنازل وطلب الصلح من تنكريد ، غير أن المصالحة تمت بينهما عند مقابلتهما معاً بميناء حيفا فتصافحا وتعانقا ولكون بوهيموند أمير إنطاكية قد وقع أسيراً فى يد المسلمين كما يأتى فى أخباره وظلت إنطاكية خالية من حاكم فحينئذ تعين تنكريد حاكما على إنطاكية .

ثم إنه جاءت مراكب من ناحية جنوى مشحونة بالعساكر الذين وعدهم بودوين بأنه يحارب معهم ، وكل مايمتلكه من الغنائم يعطيهم ثلثه ، وكل بلد يمتلكها يجعل لهم فيها طريقاً باسم أهالى جنوى ، ثم سار معهم وامتلك مدينة ارسور (لعلها أرسوف) سنة ١١٠١ التى لم يقدر أخوه غودافرو على امتلاكها . ثم سار وانتصر على مدينتى اوباتريدا وقيسارية ، ثم سار قاصداً عسقلان وكانت مصر قد أرسلت جيشا بقيادة سعد الدولة ، فسار الجيش ومازالوا حتى التقوا بالجيوش الصليبية عند أسوار عسقلان ، فحاربوها فأرجعوها على أعقابها .

خلافة الآمر بأحكام الله وواقعة عسقلان

فى يوم الثلاثاء ١٧ صفر سنة ٤٠٥ هجرية توفى الخليفة العلوى المستعلى بالله بالقاهرة بعد أن حكم سبع سنوات وشهرين وله ولد اسمه المنصور لم يبلغ السادسة من عمره بوصاية شاهين شاه الذى كان وصياً على المستعلى أيضاً ، وكان قد عهد إليه أن يلقبه عند مبايعته بالآمر بأحكام الله ففعل ، وكان ذلك موافق سنة ١١٠١ أفرنكية .

ثم بعث الأفضل أمير الجيوش بمصر ابنه شرف المعالى بالعساكر إلى عسقلان ، فتقابل مع بودوين ملك القدس بالرملة ، وكان معه بقايا الجيوش الصليبية الثانية الذى كان قد هلكهم قليج أرسلان وكربوغا كما تقدم ، برئاسة كل من فولف الرابع دوك دى بافيرا وغيلوم التاسع كونت دى بوانسير وجفرو دى باندوم وهوكزدى لويزينان وادواس دوك دى بورغونيا واستفانوس كونت دى بلواز واورين كونت دى بارى ، واشتبك بينهم الحرب وقتل من الصليبيين فى الحرب استفانوس كونت دى بلواز ، وادواس دوك دى بورغنيا ، واورين دى بارى وقع أسيراً ثم مات ،

واختفى بودوين فى الشجر ونجا إلى الرملة مع جماعة من زعماء الافرنج ، فحاصرهم شرف المعالى خمسة عشر يوماً حتى أخذهم فقتل منهم أربعمائة وبعث ثلثمائة إلى مصر ، ونجا بودوين إلى يافا ووصل فى البحر جموع من الإفرنج للزيارة فندبهم بودوين للغزو وسار بهم إلى عسقلان ، وهناك حاربوا الرملة التى كانت استولت عليها عساكر الإسلام وامتلوكها ورجع بودوين إلى القدس .

بوهيموند أمير انطاكية وما جرى له

فى سنة ١١٠١ وقع بوهيموند أسيراً فى يد المسلمين ، وصارت انطاكية خالية من حاكم إلى أن حصل الصلح بين بودوين وتنكريد كما تقدم ، وتعيين تنكريد حاكما على انطاكية ثم فى سنة ١١٠٣ نجا بوهيموند من الأسر بعد أن أقام بالأسر سنتين ونصفاً وأتى إلى انطاكية ، وكان بوهيموند مستقلاً بانطاكية

لا يعترف بسيادة القدس على مدينته ، ولذلك تحارب مع الملك الكسيوس ملك الروم مرات كثيرة كان النصر بينهم سجالا ، تارة إلى بوهيموند وتارة إلى ملك الروم .

ثم إن بوهيموند اتحد مع بودوين بورغ ملك الرها وجوسلين دى كورتناى وتنكريد لكى يحاربوا مدينة حران الكائنة بين النهرين ، وساروا إلى أن وصلوا حران وكادوا يملكونها ، فحينئذ وقع الخلاف بينهم لأن كلا منهم كان يريد امتلاكها باسمه حتى كادوا أن يحارب بعضهم بعضاً .

وبينما كانوا فى هذه المخاصمة وإذا بعساكر إسلامية أتتهم من الموصل وماردين ، فضربوا عليهم حصاراً من كل الجهات وحملوا عليهم حملة صادقة كادت أن تبيدهم عن آخرهم فوقع بودوين دى بورغ أسيراً وكذلك جوسلين عند الأمير سقمان ، وأما بوهيموند وتنكريد ففرا من الموت هاربين إلى أن وصلا مع القليلين الذين نجوا من الذبح إلى انطاكية .

ثم إن بوهيموند وجد نفسه واقعاً بين قوتين لاقدرة له عليهما ، ولايمكن أن يحمى نفسه منهما وهما الكسيوس ملك الروم من جهة والعساكر الإسلامية من جهة أخرى ، فاضطر إلى الهرب إلى أوروبا كى يحرك أهل الغرب إلى معونته ، ولكى يخفى عن أعدائه هذا التدبير الذى عزم عليه ، قد أشاع عن نفسه بأنه مات واختفى فى مكان مجهول فى سنة ١١٠٤ . وبعد ذلك لبس ثوباً محزناً ونزل فى مركب وسار من وسط مراكب ملك الروم بدون معلومية أحد به إلى أن وصل مدينة كورنو ، وصعد من المركب إلى البر وأرسل يقول إلى القائد الرومى بأن يخبر ملكه بأن بوهيموند قد قام من الموت وعن قريب يشاهده فى القتال ، ثم وصل إلى إيطاليا وانطرح على أقدام البابا بسكوال الثانى وطلب منه المعونة والمساعدة فقبله البابا وسلمه سنجق (علم) القديس بطرس الرسول ووعده بالإسعاف .

ثم سار بوهيموند إلى أن وصل إلى مملكة فرنسا فصادف فى البلاد الملوكى استقبالا عظيما ، وأكرمه ملك فرنسا فيليب الأول إكراماً زائداً ، وزوجه ابنته قسطانسا سنة ١١٠٦ ، ثم جهزه ملك فرنسا بجيوش كثيرة وقد استحصل أيضاً على جيوش أسبانية ثم سار إلى أن وصل إيطاليا فتبعه جيش عظيم . ثم انه نزل

بالمراكب من مدينة بارى بإقليم نابولى التابع لمملكة إيطاليا ثم إنه طلع على بلاد الروم وحاصر مدينة دور السيوس سنة ١١١١ ، وأما بودوين دى بورغ ونسيبه جوسلين فبعد أسرهما خمس سنوات رجعا إلى ولايتهما وكان قد أخذهما جكرمس من سقمان الذى أسرهما ، ثم أخذهما جاولى ملك الموصل وأطلقهما بشروط منها : أن يطلقا الأسرى المسلمين الذين ببلادهما وأن يمدوه بنفسهما وبعساكرهما متى احتاج إلى ذلك وعلى مال دفعاه قدره ثلاثون ألف دينار .

استيلاء الافرنج على عكا

إن بودوين أراد اتساع مملكته خصوصاً ببلاد الساحل ، لتتصل بلاده ببلاد أوروبا . فلذلك عزم على محاربة مدينة عكا وامتلاكها ، فجمع جيشه وجيش جنوى الذى كان قادماً للزيارة بمراكبه ، وطلب إليهم بودوين المساعدة فى الحرب ولهم ثلث المكسب ، فسار بهم وبرجاله قاصداً مدينة عكا ، فلما وصل حاصرها براً بجيشه وحاصرها بحراً بمراكب الجنويين البالغ عددها سبعين مركباً وكان ذلك سنة ١١٠٤ الموافقة سنة ٤٩٧ هجرية ، وكانت عكا فى ذلك الحين تابعة لمصر ، وحاكمها يدعى زاهر الدولة ويلقب بالجيوشى لأنه كان من أتباع أمير الجيوش .

وطال أمد الحصار حتى مل الصليبيون الانتظار ، وبعد حصول معارك كثيرة أظهر فيها المسلمون شجاعة عجيبة ، وانتهى الأمر بأن طلب الأمير زاهر إلى بودوين الصلح على تسليم المدينة بشرط أن يخرج المسلمون بأمتعتهم ، فقبل بودوين ذلك منهم وأعطاهم أمانا ، ولذلك رموا له مفاتيح المدينة من فوق السور .

وأما الجنويون الذين كانوا بالمراكب فإنهم لما نظروا غنى أهل المدينة لم يعتبروا الأمان الذى أعطاه بودوين ، وهجموا على أهل البلد يسلبون ويقتلون وأخذ بودوين يتوسل إلى الجنويين ليمتنعوا عن الفتك بأهل المدينة فما أمكنه وفر الأمير زاهر إلى مدينة دمشق ومنها إلى مصر .

محاصرة مدينة طرابلس

كان رايموند دى طولوز (مؤرخو العرب يقولون صنجيل) قد لازم حصار طرابلس وزحف إليه قليج أرسلان صاحب بلاد الروم فظفر به ، وعاد رايموند مهزوما وفى سنة ٤٩٥ هجرية الموافقة سنة ١١٠١ ميلادية حاصر المدينة رايموند ، وشدد الحصار وأعانه أهل الجبل والمسيحيون من أهل سوادها ثم صالحه الأمير فخر الدولة بن عمار صاحبها على مال وخيل ، ورحل عنها رايموند إلى طرسوس فحاصرها وملكها عنوة واستباحها ، ثم سار إلى حصن الطومار وصاحبه ابن العريض فامتنع عليهم وقاتلهم رايموند فهزموا عسكره وأسروا زعيما من زعماء الافرنج افتداه رايموند بعشرة آلاف دينار وألف أسير .

وفى سنة ٤٩٧ الموافقة ١١٠٣ م سار رايموند وقد جاءته أمداد الأفرنج بحراً إلى طرابلس فحاصرها براً وبحراً ، فلم يجد فيها مطعماً فعاد عنها إلى حبيل وتسلمها بالأمان من صاحبها ابن صليحه ، ثم سار رايموند المعروف عند العرب بصنحيل إلى طرابلس فحاصرها وبنى بالقرب منها حصناً وبنى تحته ربضاً وهو المعروف بحصن صنجيل .

فخرج ابن عمار صاحب طرابلس فأحرق الربض ، ووقف رايموند على بعض سقوفه المحروقة فانخسف به فمرض وبقى عشرة أيام ومات ، فحمل إلى القدس ودفن فيه ، ودامت الحرب بين أهل طرابلس والأفرنج خمس سنين وظهر من صاحبها ابن عمار صبر عظيم إلى أن قلت الأقوات وافتقر الأغنياء .

وفى سنة ٥٠١ الموافقة سنة ١١٠٧ م توجه فخر الدولة أبو على بن عمار من طرابلس إلى بغداد مستنفراً لما حل بطرابلس وبالشام من الأفرنج ، واجتمع بالسلطان محمد ملك شاه وبالخليفة المقتدر فلم يتحصل منهما على فائدة ، فعاد إلى دمشق وأقام عند طغتكين ، ثم احتمى أهل طرابلس بخليفة مصر الآمر بأحكام الله فحماهم .

وبعث الأفضل إلى طرابلس أحد أوليائه وتملكها باسم خليفة مصر ، وأرسل إليها بعد ذلك عمارة بحرية تدفع عنها الصليبيين ، فتأخر وصولها لمعاكسة الريح

لها إلى أن أتى بارتراند بن رايموند من أوروبا بعمارة بحرية قوية فحاصر المدينة ودخلها عنوة فى ١١ ذى الحجة سنة ٥٠٣ الموافقة ٢ يولية ١١١٠ وقتل قسما من أهلها ، واستعبد القسم الآخر ، وصارت طرابلس ملكا لبارتراند بن رايموند دى طولوز .

باقى ولاية بودوين الأول على القدس

استقر بودوين فى مملكته بعد سفر أهل بيزا وجنوى بمراكبهم مستقلا ببلاده مدافعاً عنها صاداً هجمات المسلمين الذين كانوا قد استولوا على بلاده ، وكادت أن تنصب أعلامهم فوق جبل صهيون نفسه ، ولكن جاءت أمداد الصليبيين إلى بودوين فأسعفته وردت المسلمين عن بلاده . ثم سار بودوين إلى بيروت وحاصرها براً وبحراً شهرين فى سنة ١١١٠ فملكها بالسيف ، وقتل منها نفراً كثيراً .

وطارت شهرة الانتصارات الصليبية إلى أقصى بلاد أوروبا حتى جاء إلى القدس ماينوف عن عشرة آلاف عسكرى نرويجى بقيادة ملكهم سيفور ابن ماينوس الثالث فى عمارة مؤلفة من مائتى مركب ، وكانت قد خرجت هذه العمارة من مملكة نرويج فى شمالى أوروبا ، وسارت فى البحر المحيط (لعله الاوقيانوس الاطلانطيكى) تائهة ثلاث سنوات إلى أن وصلت إلى مدينة يافا سنة ١١١٠ ، فلما علم بودوين بوصولهم ذهب لملاقاتهم ، واستحلفهم بأن يجاهدوا معه فقبل سيفور طلبه هذا بدون مكافأة سوى قطعة من خشب صليب الصلبوت ، وساروا إلى أن وصلوا إلى القدس ، وبعد أيام قاموا قاصدين مدينة صيدا فحاصروها مدة ستة أسابيع أظهر أهلها فى أثنائها الشجاعة والقوة ، وأخيراً امتلكها الصليبيون وغنموا منها غنائم عظيمة اقتسمها كل من بودوين ملك القدس وسيفور ملك النرويج . وأخذ الملك سيفور قطعة من صليب الصلبوت ، وسافر إلى بلاده فرحاً مسروراً بهذه الذخيرة المقدسة التى وضعها فى كنيسة دورتيم .

ولما رجع بودوين إلى عاصمة ملكه علم بأن جيرفيز حاكم طبرية قد وقع أسيراً فى أيدى المسلمين ، فشمله الحزن الشديد لأنه كان يحبه محبة عظيمة ،

وبعد ذلك وردت رسل من عسكر المسلمين إلى بودوين يطلبون منه فدية حبيبه المذكور ، وأن تكون الفدية أن يرد إليهم عكا ويافا وغيرها . فرد بودوين الجواب إليهم قائلاً إننى بطيب خاطر أفديه منكم بمال عظيم أدفعه لكم ، وأما البلاد فلا أعطيها لكم ولو كانت فدية عن أخى نفسه أو عن جميع الأمراء الصليبيين . ولما رجعت الرسل إلى دمشق بهذا الجواب قتلوا جيرفيز ومن معه .

وفى سنة ١١١٢ مات تنكريد قائمقام انطاكية ، فحزن عليه بودوين وباقى الأمراء الصليبيين . ثم حصل تغيير فى الجو ، ونزل ضباب لهيبى أحرق المزروعات ، وبسبب ذلك حصل قحط ومجاعة ، ثم حصلت زلازل شديدة هدمت جملة مدن من أقليم كليكيا ، وكذلك الأبراج التى حول سور مدينة الرها وقلعة مدينة حلب قد اندكت وهدمت باندفاع مخيف ، وقد هدمت كنائس وعمارات شاهقة فى مدينة انطاكية من أساسها ، وكذلك الباب البحرى وأبراجه .

وفى أواخر سنة ٥١١ خرج بودوين ملك القدس لافتتاح مصر بجيش غفير فوصل الفرما فاستولى عليها ، وذبح أهلها وأحرق جوامعها وهم إلى مصر فداهمه مرض حمله على العود ، واجتمعت حوله جميع الأمراء والقواد فأخذ يشجعهم ثم حلفهم بأن لايدفنوه فى أرض غريبة ، وطلب منهم نقل جثته ودفنها بالقدس بجوار أخيه . ثم أمر خدامه بكيفية دفنه ، وسألوه عمن يكون عليهم سلطاناً بعده ، فأجابهم بأنه قد ترك هذا التخت لشقيقه اسطا كيوس إذا كان يرغب فى الإقامة بفلسطين وألا يكون لابن عمه بودوين دى بورغ أمير الرها .

ومات فى سنة ١١١٨ وهو راجع إلى القدس قبل إدراك العريش ، فنزعوا أحشاءه ودفنوها فى مكان لايبعد كثيراً من العريش فى وسط أرض رملية ، وأقاموا على قبره حجراً كبيراً ، ولا يزال ذلك المكان معروفاً إلى أيامنا هذه باسم رمال بردويل (وهو تحريف لفظ بودوين والبعض يقول بغدوين) أما جثته فحملوها إلى بيت المقدس ودفنوها هناك بجوار أخيه غودافرو .



جمعيات الرهبان الصليبيين

كانت قبل الاستيلاء الصليبيي على القدس جمعية هناك باسم (ضياف الغربا) وهذه الجمعية تمتلك نزلا أو فندقاً لأجل إقامة الغرباء من زوار القدس ، وكانت هذه الجمعية تقدم للزوار المأكل ، ولما استولى الصليبيون على المدينة أوسعوا نطاق هذه الجمعية واكتتبوا لها بمبالغ مالية وأضافوا على عملها معالجة الجرحى وتنازل كثير من الشبان عن ميراثهم لهذه الجمعية ، مثل رايموند دى بوى ، ودودون دى كومباس ومن أهالى دوفينة ، وغسطون من مدينة بردواس ، وكونون دى مونته من مدينة أوفرينا . ثم تشكلت بالمدينة جمعية باسم الهيكليين كما سيأتى بيانه .

ثم أنشئت كنيسة عظيمة باسم القديس يوحنا المعمدان تابعة لجمعية ضياف الغربا وأنشئت أيضاً فنادق لأجل إقامة المرضى والجرحى ، ومنازل لأجل سكن أعضاء الجمعية الذين من وظيفتهم معالجة المرضى والمجروحين الذين تلقبوا باسم رهبان القديس يوحنا المعمدان ، وكانوا يقبلون فقراء الزوار بهذه الفنادق ، ويقدمون لهم مايلزمهم من أكل ولبس وغيره من أنواع الخدم بغاية الشرف والممنونية ببشاشة تامة .

وفى سنة ١١٠٤ حينما كانت هذه الجمعية تحت رئاسة رايموند دى بوى أضيف على شروطها بأنه يجب على الأعضاء الخدمة العسكرية ، فكانت هذه الجمعية من أكبر الجمعيات وساعدت حكومة الصليبيين المساعدة التامة لأن أعضاءها كانوا يحاربون فى وسط صفوف الصليبيين براية خصوصية شقتين بيضاء وسوداء ، ثم يتوجهون إلى الفنادق لأجل عيادة المرضى وخدمة الزوار والفقراء ، وبهذه الصفة انتشرت هذه الجمعية فى ممالك أوروبا وعين من أعضائها من يتجول فى أوروبا لأجل جمع الصدقات والتبرعات ، وآخرين لأجل تحصيل إيراداتها الخصوصية وذلك جميعه للإنفاق على الجمعية ومستلزماتها .

أما الجمعية الثانية المسماة بجمعية الهيكليين فإنها تأسست سنة ١١١٨ من تسعة أشخاص فرنساويين . وكانت شروط هذه الجمعية هى أن تحمى جميع الزوار الواردين من أوروبا إلى القدس ومحاربة المسلمين ، ثم تبعهم عدد وافر

وتأيدت هذه الجمعية من الأمراء والملوك ، وتخصص لها انعامات سامية من الأحبار الرومانيين وصارت جمعية رهبانية عسكرية .

وكان السبب في تسميتهم هيكليين هو أن بودوين الثانى الذى سيأتى ذكره شيد لها منزلاً كبيراً كدير فوق دثار هيكل سليمان ، وكان علم هذه الجمعية مكتوبة عليه هذه الألفاظ الداوودية (.. لا لنا يارب .. لا لنا .. لكن لا سمك أعط المجد) وكان لهذه الجمعية شأن كبير فى محاربة الإسلام .

في ولاية بودوين الثانى

بعد دفن جثة بودوين الأول اجتمع جميع قواد العساكر ورؤساء الكنائس ، وقرروا تعيين بودوين دى بورغ أمير الرها سلطاناً عليهم حسب وصية بودوين الأول ، وأعلنوا بودوين المذكور فى الرها ، فقبل هذا التعيين وتنازل عن إمارة الرها إلى جوسلين دى كورتناى ، وترك أمرها وسافر إلى القدس فقابلوه باحترام عظيم ، وأجلسوه على تخت ملكه وتسمى باسم بودوين الثانى .

وفاة الإمام المستظهر بالله العباسى وخلافة ولده المسترشد بالله

فى سادس عشر ربيع الآخر سنة ٥١٢ هـ توفى الإمام المستظهر بالله أمير المؤمنين أبو العباس أحمد بن المقتدى بأمر الله ، وكان عمرة ٤١ سنة و ٦ أشهر و ٦ أيام وخلافته أربع وعشرون سنة وثلاثة أشهر وأحد عشر يوماً . وحكم فى أيامه ثلاثة سلاطين خطب لهم ببغداد من السلجوقيين وهم أخو ملكشاه تاج الدولة تتش ، وركن الدولة تكياروق بن ملكشاه ، وأخوه غياث الدين محمد بن ملكشاه .

وكان المستظهر – كريم الأخلاق ، لين الجانب مشكور المساعى ، يحب العلم والعلماء ، وكان يسارع إلى أعمال البر ، حسن الخط جيد التوقيع ، ولما توفى صلى عليه ولده المسترشد بالله ، وبعد دفنه بويع لولده المسترشد بالله أبو منصور الفضل بن أبى العباس أحمد بن المستظهر ، وكان ولى عهد قد خطب له ثلاث وعشرون سنة ، فبايعه أخواه وهما أبو عبد الله محمد وأبو طالب العباس ، وعمومته بنو المقتدى بأمر الله وغيرهم من العلماء والأمراء والقضاة والأعيان .

وكان المتولى لأخذ البيعة القاضى أبو الحسن الدامغانى ، وكان نائباً عن الوزارة فأقره المسترشد بالله عليها ثم عزله عن نيابة الوزارة واستوزر أبا شجاع محمد بن الربيب أبى منصور وزير السلطان محمود .

واقعة ايلغازى مع الصليبيين بحدود انطاكية

فى سنة ٥١٣ سار الافرنج إلى نواحي حلب ونازلوها وأخربوها ، ولم يكن بحلب من الذخائر مايكفيها شهراً واحداً ، وخافهم أهلها ولو مكنوا من القتال لم يبق بها أحد لكنهم منعوا من ذلك وصانع الافرنج أهل حلب على أن يقاسموهم أملاكهم التى بباب حلب .

وكان الأمير ايلغازى صاحب حلب ببلد ماردين يجمع العساكر والمتطوعة للغزاة فاجتمع عليه نحو عشرين ألفاً ، وكان معه أسامة بن المبارك بن شبل الكلالى ، والأمير طغان أرسلان بن المكر ، صاحب بدليس وارزن ، فسار بهم إلى الشام عازماً على قتال الافرنج بناحية انطاكية .

فلما علم بذلك روجار دى سيسليا الوصى على ابن بوهيموند صاحب انطاكية أرسل إلى بودوين الثانى ملك القدس يطلب مساعدته ولكن قبل ورود ملك القدس إليه سار بجيشه البالغ ثلاثة آلاف فارس وتسعة آلاف راجل فنزلوا قريباً من الأثارب بموضع يقال له تل عفرين بين جبال ليس لها طريق إلا من ثلاث جهات .

وقد ظن الافرنج بأنه لايمكن للمسلمين السلوك إليهم لضيق الطريق فأخلدوا إلى المطاولة وأرسلوا إلى ايلغازى يقولون له لاتتعب نفسك بالمسير إلينا فنحن واصلون إليك ، فأعلم أصحابه بما قالوه واستشارهم فيما يفعل ، فأشاروا بالركوب من وقته ففعل ذلك وسار إليهم ودخل الناس من الطرق الثلاثة فلم يشعر الافرنج إلا وأوائل المسلمين قد غشيتهم فحمل الافرنج حملة منكرة وجرى بينهم حرب شديدة وأحاطوا الافرنج من جميع جهاتهم وأخذهم السيف من سائر نواحيهم ، فلم يفلت منهم غير نفر يسير وقتل الجميع وأسروا .

وكان فى جملة الأسرى مانيف عن سبعين فارساً من مقدميهم حملوا إلى حلب فبذلوا فى نفوسهم ثلثمائة ألف دينار فلم يقبل منهم وقتل روجار وحمل

رأسه . وكان ذلك فى منتصف شهر ربيع أول سنة ٥١٣ هـ موافقة سنة ١١٢٠ م .

ثم جاءت الجيوش الصليبية التى كان قد طلب روجار مساعدتها كما ذكر تحت رئاسة بودوين الثانى ملك القدس ومعه أميرا الرها وطرابلس ، فهجموا على العساكر الإسلامية هجمة شديدة خصوصاً رجال جمعية يوحنا المعمدان انتهت بهزيمة العساكر الإسلامية .

وبعد ذلك رجع بودوين إلى القدس وكذلك جوسلين سار إلى جهة طبرية فكبس طائفة من طىء يعرفون ببنى خالد ، فأخذهم وأخذ غنائمهم وسألهم عن بقية قومهم من بنى ربيعة فأخبروه أنهم من وراء الحزن بوادى السلالة بين دمشق وطبرية ، فقدم جوسلين مائة وخمسين فارساً من أصحابه ، وسار هو فى خمسين فارساً على طريق آخر ، ووعدهم الصبح ليكبسوا بنى ربيعة .

فوصلهم الخبر بذلك فأرادوا الرحيل فمنعهم أميرهم وكانوا فى مائة وخمسين فارساً فوصلهم المائة والخمسون من الافرنج معتقدين أن جوسلين قد سبقهم أو سيدركهم ، فأضل الطريق وتساوت القوتان فاقتتلوا وطعنت العرب خيولهم فجعلوا أكثرهم رجاله ، فقتل من الافرنج سبعون وأسر اثنا عشر من مقدميهم ، بذل كل واحد فى فداء نفسه مالا جزيلا وعدة من الأسرى .

وأما جوسلين فبلغه خبر الواقعة وهو ضال الطريق فسار إلى طرابلس فجمع بها جمعاً وسار إلى عسقلان فأغار على بلدها فهزمه المسلمون هناك فعاد مغلولاً .



قتل الأفضل بن بدر الجمالى وزير مصر

فى الثالث والعشرين من رمضان سنة ٥١٥ قتل أمير الجيوش الأفضل بن بدر الجمالى وهو وزير الحاكم بأمر الله خليفة مصر ، وكان قد ركب إلى خزانة السلاح ليفرقه على الجنود على جارى العادة فى الأعياد ، فسارمعه عالم كثير من الرجالة والخيالة فتأذى بالغبار فأمر بالبعد عنه وسار منفرداً ومعه رجلان فصادف رجلين بسوق الصياقلة فضرباه بالسكاكين فجرحاه ، وجاء ثالث من ورائه فضربه بسكين فى خاصرته فسقط عن دابته ورجع أصحابه فقتلوا الثلاثة وحملوه إلى داره فدخل عليه الخليفة وتوجع له وسأله عن الأموال فأدله عليها .

فلما توفى الأفضل بقى الخليفة فى داره نحو أربعين يوماً والكتاب بين يديه والدواب تحمل وتنقل ليلاً ونهاراً ووجد له من الأعلاق النفيسة والأشياء القليلة الوجود ما لا يوجد مثله لغيره واعتقل أولاده وكان عمرة ٥٧ سنة ،وكانت وزارته ثمانيا وعشرين سنة منها آخر أيام المستضىء وجميع أيام الآمر بأحكام الله ،ثم ولى بعده أبو عبد الله بن البطائحى ولقب المأمون وتحكم فى الدولة .

محاربة بلك بن بهرام مع جوسلين أمير الرها وأسره

فى سنة ٥١٥ الموافقة سنة ١١٢١ م سار بلك بن بهرام ولد أخى ايلغازى إلى مدينة الرها ، فحصرها وبها الإفرنج ، وبقى على حصرها مدة ، فلم يظفر بها فرحل عنها ، فجاءه رجل تركمانى وأعلمه أن جوسلين صاحب الرها وسروج قد جمع الإ فرنج وهو عازم على كبسه ، وكان قد تفرق عن بلك أصحابه ، وبقى فى أربعمائة فارس فوقف مستعداً لقتالهم

وأقبل الإفرنج ولكن من لطف الله أن الافرنج وصلوا إلى أرض قد نضب عنها الماء فصارت وحلاً فغاصت خيولهم فيها ، فلم تتمكن من الإسراع مع ثقل السلاح والفرسان ، فرماهم أصحاب بلك بالنشاب فلم يفلت منهم أحد ، وأسر جوسلين وصهره غاليران وكبلوهم بالحديد ، وطلب من جوسلين أن يسلم الرها فلم يفعل ، وبذل فى فداء نفسه أموالاً جزيلة وأسرى كثيرة فلم يجبه إلى ذلك وحملوهما إلى قلعة خرتبرت وسجنوهما بها . وأسر أيضاً جماعة من فرسانهم المشهورين فسجنوا معهم .

محاربة بلك مع بغدوين ملك القدس وأسره

فى سنة ٥١٧ الموافقة سنة ١١٢٣ م جمع بغدوين رجاله وسار قاصداً مدينة خرتبرت بديار بكر للاستيلاء عليها وتخليص جوسلين من الأسر، وكان بلك محاصراً قلعة كركر فبلغه مجىء بغدوين ، فرحل إليه والتقيا واقتتلا فانهزم الافرنج وأسر ملكهم بغدوين ومعه جماعة من أعيان فرسانهم وسجنوا بقلعة خرتبرت مع جوسلين ومن معه .

ثم اجتمع نحو خمسين أرمنياً وتحالفوا على تخليص ملك القدس من الأسر ، فغيروا ملابسهم وأخفوا سلاحهم تحتها ، ودخلوا قلعة خرتبرت منفردين إلى أن ساروا من الداخل ، وهناك أظهروا أسلحتهم وأخذوا يقتلون العساكر حراس السجن ، وكسروا قيود المسجونين وأرادوا خلاصهم ، ونصبوا علم الصليبيين على القلعة فباغتتهم العساكر الإسلامية ، وحاصروا القلعة بما فيها ولم يتمكن أحد من الهرب إلا جوسلين أمير الرها ، وظل بودوين ومن معه فى السجن وأما الخمسون أرمنياً فذبحوا عن آخرهم .

وكان بلك صاحب القلعة قد توجه إلى حران ، ولما بلغه ماجرى بالقلعة عاد فى عساكره إليها وحصرها كما ذكر ، وأما جوسلين فإنه أقسم بأن لايحلق ولا يشرب الخمر حتى يتوجه لزيارة القدس ويسعى فى تخليص الأسرى .

ورود أهل البندقية للاشتراك مع الصليبيين

لم يشترك أهل البندقية فى المحاربات الماضية مع الصليبيين لكونهم يشتغلون بالتجارة ، ولما رأوا أن أهل بيزا وجنوى قد توجهوا إلى بلاد فلسطين وانتصروا وربحوا غنائم كثيرة تفوق على أرباح التجارة ، أخذتهم الغيرة واستعدوا وتجمعوا تحت رئاسة الدوك مخايل مقدم مشيخة البندقية ، بعمارة بحرية مركبة من واحد وعشرين مركباً ، وساروا إلى أن وصلوا إلى عكا .

وهناك طلعوا وساروا فى البر قاصدين القدس ، فاحتفل بهم ثم عقد مجلس المشورة وقرر محاربة العساكر الإسلامية ، فحاصروا مدينة صور وذلك بعد مداولات كثيرة لعدم اتفاقهم على المحاصرة هل تكون على صور أو على مدينة عسقلان ، فأخيراً أقروا على محاصرة صور كما تقدم .

استيلاء الصليبيين على مدينة صور

كانت مدينة صور للخلفاء العلويين بمصر إلى سنة ٥٠٦ ، فلما عزم ملك الإفرنج على محاصرتها خافه أهلها فأرسلوا إلى أتابك طغتكين صاحب دمشق ، يطلبون منه أن يرسل إليهم أميراً من عنده يتولى أمرهم ويحميهم وتكون البلد له ، فسير إليهم عسكرا وجعل عليهم والياً اسمه مسعود ، وكان شهماً شجاعاً عارفاً بالحرب ومكايدها ، وسير إليهم ميرة ومالا فرقه عليهم ، فطابت نفوس أهل البلد ولم تزل الخطبة للخليفة الآمر .

وكتب إلى الأفضل بمصر يعلمه بما كان ويقول إنه متى وصل إليها من مصر من يتولاها ويذب عنها سلمتها إليه ، ويطلب أن الأسطول لا ينقطع عنها بالرجال والقوة ، فشكره الأفضل على ذلك وأثنى عليه وصوب رأيه وجهز أسطولاً وسيره إلى صور ، فاستقامت أحوال أهلها إلى سنة ٥١٦ بعد قتل الأفضل فسير إليها أسطولاً وأمر المقدم على الأسطول أن يقبض على الأمير مسعود والى صور ويتسلم البلد منه . وكان السبب فى ذلك أن أهل صور أكثروا من الشكوى منه إلى الآمر بأحكام الله ، فسار الأسطول إلى أن رسا عند صور ، فخرج مسعود إليه للسلام فلما صعد إلى مركب المقدم قبض عليه واعتقله ونزل إلى المدينة وتسلمها .

وعاد الأسطول إلى مصر وفيه الأمير مسعود فأكرم وأحسن إليه وأعيد إلى دمشق . وأما الوالى المصرى فإنه راسل طغتكين يخدمه بالدعاء والاعتضاد ، وأن سبب مافعله هو شكوى أهل صور فأحسن طغتكين الجواب وبذل له نفس المساعدة ، وفى ربيع أول سنة ٥١٨ قدم الصليبيون تحت رئاسة غويليوم وكيل سلطنة القدس ، وبطريرك القدس ، وبونص صاحب طرابلس ، والدوك مخاييل المقدم على أهالى مشيخة البندقية ، وحاصروا مدينة صور براً،وجاءت مراكب البندقية وحاصرتها بحراً ، ولم يكن لأهالى صور من الحمية والنشاط ماكان لسلفائهم أو لمسلمى المدن الأخرى ، لأن الغنى الذى حازته صور من تجارتها ، قاد أهلها إلى التنعمات والرخاء ، فكانوا يصرفون أيامهم بالسرور والملاهى دون الاعتناء بالتمرن على الحرب والقتال ، ولولا بسالة الجنود الشامية والمصرية لما بقيت المدينة أمام الافرنج يوماً واحداً .

وكتب أهل المدينة إلى خليفة مصر يطلبون منه المدد ، وكذلك طغتكين صاحب دمشق فلم يأتهم أحد ، فثابروا على الدفاع وكانت الافرنج محيطة بها من كل جانب ، ونصبوا عليها أبراجاً من خشب ومنجانيقات وأخذوا يضربونها ليلاً ونهاراً ، وأهل المدينة يقاتلون ويدافعون عن أنفسهم ، وأرسلوا ثانية يطلبون النجدة من خليفة مصر وملك دمشق فلم ينجداهم ، لأن الافرنج أرسلوا أمير البندقية للمحافظة من جهة البحر لمنع خليفة مصر من ، إرسال النجدة ، وأرسلوا صاحب طرابلس يترصد طريق البر .

فجاء طغتكين بالجيوش الشامية فصد عن عبور النهر ولازم من بالمدينة القتال ، فقلت الأقوات وكان الجوع قد بلغ من المحصورين مبلغاً عظيماً ، فراسل حينئذ طغتكين أمراء الصليبيين فى الصلح ، وقرر الأمر على أن يسلم المدينة إليهم ويمكنوا من بها من الجند والرعية من الخروج بما يقدرون عليه من أموالهم ورحالهم .

وفتحت أبواب المدينة وملكها الافرنج بعد حصار خمسة شهور وفارقها أهلها ، ونصبت أعلام الإفرنج على المدينة وزينوها بأغصان الزيتون والأقمشة ، وكان ذلك فى سنة ١١٢٤ م .

محاصرة الصليبيين لمدينة حلب واستيلاء البرسقى عليها

بعد استيلاء الصليبيين على مدينة صور كما تقدم ، طمعوا وقويت نفوسهم ورأوا الاستيلاء على بلاد الشام ، وأكثروا من حشد الجيوش . ثم وصل إليهم دبيس بن صدقة صاحب الحلة ، فأطعمهم فى حلب وقال لهم إن أهلها شيعة وهم يميلون إلى من أجل المذهب ، فمتى رأونى سلموا إلى البلد ، وقال لهم إنى أكون نائباً عنكم ومطيعاً لكم .

فساروا معه إليها وحصروها وقاتلوا قتالاً شديداً ، وبنوا لهم بيوتاً تقيهم من الحر والبرد فلما رأى أهلها ذلك ضعفت نفوسهم وخافوا الهلاك وظهر لهم من صاحبها تمرتاش الوهن والعجز ، وقلت المؤن عندهم ، فرأوا أن يكاتبوا البرسقى صاحب الموصل لأجل أن يحميهم ، لما وجدوا فيه من القوة ، فأرسلوا إليه يستنجدونه ويسألونه المجىء إليهم ليسلموا البلد إليه .

فجمع عساكره وقصدهم ، وأرسل إلى من بالبلد وهو فى الطريق يقول إننى لا أقدر على الوصول إليكم والإفرنج يقاتلونكم إلا إذا سلمتم القلعة إلى نوابى وصار أصحابى فيها ، لأننى لا أدرى مايقدره الله تعالى إذا أنا لقيت الافرنج ، فإن انهزمنا منهم وليست حلب بيد أصحابى حتى أحتمى أنا وعسكرى بها لم يبق منا أحد وحينئذ تؤخذ حلب وغيرها فأجابوه إلى ذلك وسلموا القلعة إلى نوابه فلما استقروا فيها واستولوا عليها ، سار بعساكره فلما أشرف عليها ونظره الإفرنج رحلوا عن البلد بدون حرب ، فأراد من فى مقدمة عسكره أن يحمل عليهم فمنعهم ، وهكذا صارت حلب تبعاً للبرسقى صاحب الموصل من عمال السلطان محمود . وكان ذلك فى شهر ذى الحجة سنة ٥١٨ .

فى خلوص بودوين الثانى ملك القدس من الأسر

وفى هذه السنة أيضاً تم الاتفاق على فك أسر بودوين الثانى ملك القدس بمال عظيم دفعه وتوجه إلى مملكته وأقام بها ، وكان هو أحسن الافرنج حظاً بهذه المملكة لكثرة توافد أهل أوروبا لمساعدته ضد المسلمين من سكان المانيا والنمسا وبلاد البندقية وأهل بيزا وجنوى وخصوصاً أهل فرنسا ، ولما قامت به جمعيات الرهبان جمعية القديس يوحنا المعمدان التى كان رجالها يلبسون الثياب الحمراء ، وجمعية الهيكليين التى كان رجالها يلبسون الثياب البيضاء .

استيلاء البرسقى على كفر طاب

فى سنة ٥١٩ جمع البرسقى عساكره وسار إلى الشام وقصد كفر طاب وحصرها فملكها من الإفرنج ، وسار إلى قلعة عزاز وهى من أعمال حلب من جهة الشمال وصاحبها جوسلين فحصرها .

فكاتب جوسلين الإفرنج فاجتمعوا عن آخرهم من فارس وراجل فلقيهم البرسقى ، واقتتلوا قتالاً شديداً انهزم فيه المسلمون ، وقتل منهم ماينوف عن ألف وأسر كثير ، وعاد البرسقى إلى حلب فخلف بها ابنه مسعود وعبر الفرات إلى الموصل ليجمع العساكر ويعود إلى القتال .

قتل المأمون بن البطائحى وزير خليفة مصر الآمر

فى رمضان سنة ٥١٩ اتفق المأمون بن البطائحى وزير الخليفة بمصر مع الأمير جعفر أخى الخليفة الآمر بأحكام الله ليقتل أخاه الآمر ويجعله هو خليفة ، وتقررت القاعدة بينهما على ذلك ، فسمع بذلك أبو الحسن بن أبى أسامة وكان خصيصياً بالآمر مقرباً منه ، وقد ناله من الوزير أذى وأطراح ، فحضر عند الآمر وأعلمه الحال فقبض على وزيره أبا عبد الله البطائحى الملقب بالمأمون وصلبه وإخوته ، وهذا جزاء من قابل الإحسان بالإساءة .

وكان هذا الوزير كريماً واسع الصدر ، قتالاً سفاكا للدماء ، وكان شديد التحرز كثير التطلع إلى أحوال الناس من العامة والخاصة من سائر بلاد مصر والشام والعراق وفى أيامه كثر الغمازون .

أخبار الاسماعيليين وامتلاكهم قلعة بانياس

فى اثناء ذلك نشأت طائفة الباطنيين ، ويدعوهم بعض المؤرخين بالحشاشين ، لأنهم كانوا يكثرون من تدخين الحشيش ، ويدعوهم البعض بالاسماعيليين نسبة إلى اسماعيل رئيسهم ، وهم فئة جمع بينهم التعصب والطمع .

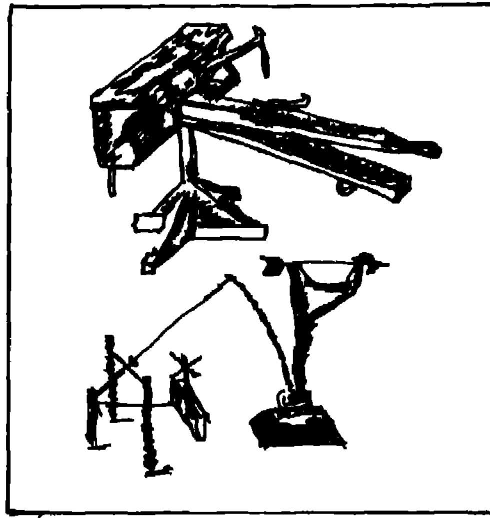
وكان إسماعيل يترصد فرصة للغزو والنهب فلما رأى الدول القوية منشغلة بالحرب فى انحاء المشرق وضع يده على بعض القرى الجبلية بجوار دمشق ثم جعل يناهض الصليبيين فيحاربهم تارة ويصالحهم أخرى ، إلى أن انتهى به الأمر فأقام حكومته بين ظهرانيهم ، وابتنى حصوناً منيعة أرهبت الولاة المسيحيين وخلفاء الإسلام ، فأجبرهم على دفع جزية معلومة وقاية من فتكه بحياتهم ، لأنه كان متفنناً فى القتل بطرق سرية على يد بعض رجاله الدهاة .

وفى سنة ٥١٩ كان الرئيس عليهم بهرام ابن أخت الاسداباذى بعد قتل خاله المذكور ، وكان طغتكين صاحب دمشق قد أخذه عنده لأجل المعاضدة به وبأتباعه ، فحينئذ أعلن عداوته فكثر أتباعه من كل من يريد الشر والفساد ، وأعانه الوزير أبو طاهر بن سعد المرغينانى قصداً للاعتقاد به على مايريد ، فعظم

شره واستفحل أمره ، وصار أتباعه أضعافاً مما كانوا ، ثم إن بهرام رأى من أهل دمشق فظاظة وغلظة عليه ، فخاف عاديتهم ، فطلب من طغتكين حصناً يأوى إليه هو ومن اتبعه ، فأشار الوزير بتسليم قلعة بانياس إليه فسلمت له ، فلما صار إليها اجتمع إليه أصحابه من كل ناحية فعظم حينئذ خطبه وحلت المحبة بظهوره .

محاربة طغتكين أتابك مع بودوين الثانى

فى سنة ٥٢٠ اجتمع بودوين الثانى ملك القدس بجميع عسكره وعساكر الجمعيات الرهبانية المار ذكرهم ، وساروا إلى نواحى دمشق فنزلوا بمرج الصفر عند قرية يقال لها شقحب بالقرب من دمشق ، فعظم الأمر على المسلمين واشتد خوفهم .



(صورة منجانيقات لرمى النبال)

وكاتب طغتكين أتابك أمراء التركمان من ديار بكر وغيرها وجمعهم ، وكان هو قد سار عن دمشق إلى جهة الإفرنج واستخلف بها ابنه تاج الملوك بورى فكان بها وكلما جاءت طائفة أحسن ضيافتها وسيرها إلى أبيه فلما اجتمعوا سار بهم طغتكين إلى الإفرنج ، فالتقوا أواخر ذى الحجة واقتتلوا ، واشتد القتال فسقط طفتلكين عن فرسه ، فظن أصحابه أنه قتل فانهزموا .

وركب طغتكين فرسه ولحقهم وتبعهم الافرنج وبقى التركمان فلم يقدروا أن يلحقوا المسلمين فى الهزيمة ، فتخلفوا ، فلما رأوا فرسان الافرنج قد تبعوا المنهزمين وأن معسكرهم وراجلهم ليس له مانع ولاحام ، حملوا على الرجالة فقتلوهم ولم يسلم منها إلا الشريد ، ونهبوا معسكر الافرنج وخيامهم وأموالهم وآلاتهم وجميع مامعهم وعادوا إلى دمشق سالمين لم يفقد منهم أحد .

ولما رجع فرسان الافرنج من أثر المهزومين ورأوا رجالتهم قتلى وأموالهم منهوبة ، ساروا منهزمين لايلوى الأخ على أخيه ، وكان هذا من أغرب الحروب إذ أن طائفتين تنهزمان كل واحدة من صاحبتها .

فى الاختلاف الواقع بين الخليفة المسترشد بالله العباسى والسلطان محمود

فى هذه السنة حصل نفور بين برتقش الزكوى شحنكية بغداد (محافظة المدينة) وبين نواب الخليفة ، وتهدده الخليفة فيها فخاف الزكوى على نفسه ، فسار عن بغداد إلى السلطان محمود فى رجب وشكا إليه وحذره من الخليفة وأعلمه بأنه قد قاد العساكر ورأى الحروب وقويت نفسه ومتى لم تعاجله زاد قوة وجمعاً ، وحينئذ يتعذر عليك ماهو سهل الآن .

فتوجه السلطان نحو العراق ، فأرسل إليه الخليفة يخبره بضعف البلاد وأهلها بسبب دبيس وإفساد عسكره فيها ، وأن الغلاء قد اشتد بالناس لعدم الغلات والأقوات ويطلب منه أن يتأخر فى هذه المرة إلى أن تنصلح حال البلاد ثم يعود إليها ، وبذل له على ذلك مالا كثيراً ، فلما سمع السلطان هذه الرسالة قوى عنده ماقرره الزكوى وأبى أن يتأخر وسار إليها مجداً .

فلما بلغ الخليفة الخبر ، عبر هو وأهله وحرمه ومن عنده من أولاد الخلفاء إلى الجانب الغربى فى ذى القعدة مظهراً الغضب والانتزاح عن بغداد إن قصدها السلطان . فلما خرج من داره بكى الناس جميعهم بكاء عظيما لم يشاهد مثله ، فلما علم السلطان ذلك اشتد عليه ، فأرسل يستعطف الخليفة ويسأله العود إلى داره فأعاد الجواب انه لابد من عودك هذه الدفعة فإن الناس هلكوا بشدة الغلاء وخراب البلاد . وانه لايرى فى دينه أن يزداد مابهم وهو يشاهدهم ، فإن عاد

السلطان وإلا رحل هو عن العراق فغضب السلطان لقوله ورحل نحو بغداد ، وأقام الخليفة بالجانب الغربى.

فلما حضر عيد الأضحى خطب الناس وصلى بهم فبكى الناس لخطبته وأرسل غفيفا خادمه وهو من خواصه فى عسكر إلى واسط ليمنع عنها نواب السلطان ، فأرسل إليه عماد الدين زنكى بن اقسنقر ، فاقتتلوا وانهزم عسكر عفيف وقتل منهم مقتلة عظيمة وأسر منهم ، وتغافل عماد الدين زنكى عن عفيف حتى نجا لمودة كانت بينهما .

ثم إن الخليفة جمع السفن وسد بها أبواب دار الخلافة سوى باب النوبى وأمر حاجب الباب ابن الصاحب بالمقام فيه لحفظ الدار . ووصل السلطان بغداد فى عشرين الحجة ونزل بباب الشماسية ودخل بعض عسكره إلى بغداد ونزلوا فى دور الناس،فشكا الناس إلى السلطان فأمر بخروجهم .

وصارت المخابرة بين السلطان والخليفة بشأن الصلح . والعسكران أمام بعضهم ولم يحصل منهم خلاف مناوشات صغيرة ، ثم إن جماعة من عسكر السلطان دخلوا دار الخلافة ونهبوا التاج وحجر الخليفة أول المحرم سنة ٥٢١ وضج أهل بغداد من ذلك فاجتمعوا ونادوا الغزاة فاقبلوا من كل ناحية،ولما رآهم الخليفة خرج من السرادق والشمسية فوق رأسه ، والوزير بين يديه وأمر بضرب الكوسات والبوقات ، ونادى بأعلا صوته (يالهاشم) وأمر بتقديم السفن ونصب الجسر وعبر الناس دفعة واحدة .

وكان له فى الدار ألف رجل مختفين فى السراديب فظهروا وعسكر السلطان مشتغلون بالنهب فأسر منهم جماعة من الأمراء ، ونهب العامة دار وزير السلطان ودور جماعة من الأمراء ودار عزيز الدين المستوفى ، وقتل منهم خلق كثير فى الدروب (الحوارى والأزقة) .

ثم عبر الخليفة إلى الجانب الشرقى ومعه ثلاثون ألف مقاتل من أهل بغداد ، وأمر بحفر الخنادق فحفرت بالليل وحفظوا بغداد من عسكر السلطان ووقع الغلاء عند العسكر واشتد الأمر عليهم ، وكان القتال كل يوم عند أبواب البلد وعلى شاطىء الدجلة . وعزم عسكر الخليفة على أن يكبسوا عسكر السلطان فغدر بهم الأمير أبو الهيجاء الكردى صاحب اربل وخرج كأنه يريد القتال فالتحق هو وعسكره بالسلطان .

وكان السلطان قد أرسل إلى عماد الدين بواسط بالحضور إليه ومعه جميع العساكر فى السفن وعلى الدواب فى البر ، فلما قارب بغداد أمر كل من معه فى السفن وفى البر بلبس السلاح وإظهار ماعندهم من الجلد فانتشرت العساكر وملأوا الأرض براً وبحراً فقابلهم السلطان وفرح بعماد الدين وعزم على قتال بغداد والجد فى ذلك فى البر والبحر .

فلما رأى الخليفة المسترشد بالله ذلك وخروج أبى الهيجاء من عسكره أجاب إلى الصلح ، وترددت الرسل بينهما فاصطلحا واعتذر السلطان مما جرى وكان حليما يسمع سبه بأذنه فلا يعاقب عليه وعفا عن أهل بغداد جميعهم وكان أعداء الخليفة يشيرون على السلطان بإحراق بغداد فلم يفعل وقال إن الدنيا لاتساوى فعل مثل هذا .

ولما عزم السلطان على المسير من بغداد نظر فيمن يصلح أن يتولى شحنكية العراق يأمن معه من الخليفة فاختبر أمراءه وأعيان دولته فلم ير فيهم من يقوم بهذا الأمر إلا عماد الدين زنكى فاستشارهم فى ذلك فصدقوا عليه ، وقالوا (لايصلح لذلك وإعادة ناموس العراق ولاتقوى نفس أحد على ركوب هذا الخطر غير عماد الدين) فأسند إليه الولاية مضافة إلى ماله من الإقطاع ، وكان ذلك فى ربيع الآخر سنة ٥٢١ هجرية .

وفاة عز الدين البرسقى وولاية عماد الدين زنكى الموصل ومحاصرة الصليبيين حلب

فى سنة ٥٢١ توفى الأمير عز الدين مسعود بن البرسقى ، وهو صاحب الموصل ، وكان موته بعد محاصرة مدينة الرحبة واستيلائه عليها بساعة واحدة ، وقام بعده أخ له صغير ، واستولى على البلاد مملوك للبرسقى يعرف بالجاولى ، ودبر أمر الصبى ، وأرسل للسلطان يطلب أن يقرر البلاد على ابن البرسقى . وبذل الأموال الكثيرة فى ذلك .

وكان الرسول القاضى بهاء الدين أبو الحسن على بن القاسم الشهرزورى ، وصلاح الدين محمد أمير حاجب البرسقى وكانا يخافان جاولى ولا يرضيان بطاعته وتصرفه ، ولما وصلا إلى السلطان اجتمع صلاح الدين ونصير الدين

جقر النائب عن عماد الدين ، وكان بينهما مصاهرة وذكر له صلاح الدين ماورد بخصوصه ، وأفشى سره فخوفه نصير الدين من جاولى ، وقبح له فعاله وتحدث معه فى ولاية عماد الدين .

ثم توجهوا إلى السلطان وأبلغوه أن ديار الجزيرة والشام قد تمكن الفرنج منها وقويت شوكتهم بها ، فاستولوا على أكثرها وقد أصبحت ولايتهم من حدود ماردين إلى عريش مصر ، ماعدا البلاد الباقية بيد المسلمين ، وكان البرسقى مع شجاعته يرد تعديهم على البلاد الإسلامية ، ومذ قتل ازداد طمعهم . وإن ولده صغير ولابد للبلاد من شهم شجاع يذب عنها . ولذلك قد أنهينا الحال لمنع اللوم عنا ، خوفاً من حصول خلل ، فاستشارهما السلطان فيمن يصلح للولاية ، فذكرا عماد الدين فأجاب السلطان إلى توليته لما يعلمه من كفايته ، فأحضره وولاه البلاد كلها ، وكتب له منشوراً بذلك وسار وامتلك البلاد .

وفى أثناء ذلك كانت قد ضعفت ولاية حلب بعد البرسقى ، فسمع الإفرنج بذلك ، فسار إليها جوسلين صاحب الرها بعساكره ، وحاصر حلب فصولح بمال فعاد عنها ثم وصل بعده صاحب أنطاكية فى جمع من الإفرنج ، فخندق الحلبيون حول القلعة فمنع الداخل والخارج إليها من ظاهر البلد ، وأشرف الناس على الخطر العظيم إلى منتصف ذى الحجة سنة ٥٢١ .

وكان عماد الدين قد ملك الموصل والجزيرة،فسير إلى حلب الأمير سنقر دراز ، والأمير حسن قراقوش ، وأقام الأمير حسن قراقوش والياً عليها ولاية مستعارة إلى أن وصل عماد الدين زنكى،فخرج إلى أهل حلب فالتقوه واستبشروا بقدومه ، ودخل المدينة واستولى عليها ، ورتب أمورها وكان ذلك فى شهر محرم سنة ٥٢٢ وجعل عماد الدين فى رئاسة حلب أبا الحسن على بن عبد الرزاق .

ولولا أن الله تعالى من على المسلمين بتملك أتابك عماد الدين زنكى ببلاد الشام لملكها الافرنج لأنهم كانوا يحصرون بعض البلاد الشامية . وإذ علم ظهر الدين طغتكين بذلك ، جمع عساكره وقصد بلادهم وحصرها ، وأغار عليها

فيضطر الافرنج إلى الرحيل للدفاع عن بلادهم ، فقدر الله تعالى أنه توفى هذه السنة فى ٨ صفر سنة ٥٢٢ ، فخلا لهم الشام من جميع جهاته من رجل يقوم بنصرة أهله ، فلطف الله بالمسلمين بولاية عماد الدين .

قتل الاسماعيلية بدمشق واتحادهم بالافرنج

فى هذه الأثناء قد زاد أمر الإسماعيليين أو الباطنيين ، وملك رئيسهم بهرام عدة حصون ، منها القدموس وغيره ، وكان بوادى التيم من أعمال بعلبك أصحاب مذاهب أخر مختلفة من النصيرية ، والدرزية ، والمجوس وأميرهم اسمه الضحاك ، فسار إليهم بهرام سنة ٥٢٢ وحصرهم وقاتلهم ، فخرج إليه الضحاك في ألف رجل وكبس عسكر بهرام ووضع السيف فيهم وقتل منهم عدداً عظيماً ، وقتل بهرام وانهزم الباقون وعادوا إلى بانياس على أقبح صورة .

وكان بهرام قد استخلف فى بانياس رجلاً اسمه إسماعيل ، فقام بعده وجمع شمل من عاد إليه وعاضده المزدقانى .

ثم إنه أقام بدمشق إنساناً اسمه أبو الوفاء بدل بهرام فقوى أمره وعلا شأنه حتى صار نفوذه أكثر من نفوذ صاحبها تاج الملوك . ثم إن المزدقانى راسل الافرنج ليسلم إليهم مدينة دمشق ويسلموا إليه مدينة صور واستقر الأمر بينهم على ذلك ، وتقرر بينهم ميعاد لتنفيذ ذلك وهو يوم جمعة ذكروه ، وقرر المزدقانى مع الاسماعيلية أن يحتاطوا ذلك اليوم بأبواب الجامع فلا يمكنون أحداً أن يخرج منه ليجىء الإفرنج ويملكوا البلد .

فبلغ الخبر تاج الملوك ، فاستدعى المزدقانى إليه فحضر وخلا معه فقتله تاج الملوك وعلق رأسه على باب القلعة ، ونادى فى البلد بقتل الباطنية فقتل منهم ستة آلاف نفس ، وكان ذلك فى منتصف رمضان سنة ٥٢٣ وكفى الله المسلمين شرهم .

ولما تمت هذه الحادثة بدمشق على الإسماعيلية خاف اسماعيل والى بانياس أن يثور به وبمن معه الناس فيهلكوا فراسل الإفرنج وبذل لهم تسليم بانياس إليهم والانتقال إلى بلادهم فأجابوه،فسلم القلعة إليهم وانتقل هو ومن معه إلى بلادهم ولقوا ذلاً وهواناً وتوفى إسماعيل فى أوائل سنة ٥٢٤ ، وكفى الله المسلمين شرهم .

محاصرة الصليبيين دمشق وانهزامهم

لما بلغ الفرنج قتل المزدقانى والاسماعيلية بدمشق ، عظم عليهم ذلك وتأسفوا لعدم تملكهم دمشق ، وعمتهم المصيبة ، فاجتمع بودوين الثانى ملك القدس ، وصاحب طرابلس ، وصاحب انطاكية ، وغيرهم ومن وصل إليهم فى البحر من التجار والزوار ورهبان الجمعيات ، وزحفوا بجيش عظيم على دمشق ليحصروها .

ولما سمع تاج الملوك صاحبها جمع العرب والتركمان . ووصل الإفرنج إلى المدينة ونازلوها وأرسلوا إلى أعمال دمشق لجمع الميرة والإغارة على البلاد . فلما سمع تاج الملوك أن جمعاً كثيراً سار إلى حوران لنهبه ، سير أميرا من أمرائه اسمه شمس الخواص فى جمع من المسلمين إليهم،و كان خروجهم فى ليلة شاتية كثيرة المطر ، ولقوا الافرنج فى الصباح فواقعوهم واقتتلوا وصبر بعضهم لبعض فظفر بهم المسلمون وقتلوهم ، فلم يفلت منهم غير مقدمهم وأربعون رجلاً،وأخذوا مامعهم وهى عشرة آلاف دابة موقرة وثلثمائة أسير ، وعادوا إلى دمشق ولم يمسهم جرح .

فلما علم بذلك بودوين ومن معه ألقى الله فى قلوبهم الرعب فرحلوا عنها شبه المنهزمين ، وأحرقوا ماتعذر عليهم حمله من سلاح وميرة وغير ذلك . وتبعهم المسلمون والمطر شديد والبرد عظيم يقتلون كل من تخلف منهم فكثرت قتلاهم وكان نزولهم ورحيلهم فى شهر ذى الحجة سنة ٥٢٣ .

فتح عماد الدين زنكى حصن الأثارب ومحاصرة قلعة حارم

فى سنة ٥٢٤ سار عماد الدين زنكى بعسكره قاصداً حصن الأثارب ومحاصرته لشدة ضرره على المسلمين . وهذا الحصن بينه وبين حلب ثلاثة فراسخ ، وكان من به من الافرنج يقاسمون حلب على جميع أعمالها الغربية ، وكان أهل حلب معهم فى ضر وضيق شديدين . فقد كانوا يغيرون عليهم وينهبون أموالهم .

فلما رأى عماد الدين ذلك صمم على حصر هذا الحصن،فسار إليه لنيازله فلما علم الافرنج جمعوا فارسهم وراجلهم لما يعرفوه من قوة عماد الدين وشدة بأسه ولم يتركوا مما بطاقتهم شيئاً إلا استنفذوه ، فلما فرغوا من أمرهم ، ساروا نحو عماد الدين فاستشار أصحابه فيما يفعل فأشاروا كلهم بالعود عن الحصن ؛ لأن لقاء الافرنج فى بلادهم خطر فقال لهم عماد الدين إن الافرنج متى رأونا قد عدنا من وجههم ، طمعوا وساروا فى إثرنا ، وخربوا بلادنا ، ولابد من لقائهم على كل حال ثم ترك الحصن ، وتقدم إليهم فالتقوا واصطفوا للقتال وصبر كل فريق لخصمه واشتد الأمر بينهم إلى أن انهزم الافرنج شر هزيمة ، ووقع كثير من فرسانهم فى الأسر ، وقتل منهم خلق كثير وظفر المسلمون .

وتقدم عماد الدين إلى عسكره بالإنجاز ، وقال هذا أول مصاف عملناه معهم فلنذيقنهم من بأسنا مايبقى رعبه فى قلوبهم ، ففعلوا ماأمرهم ، ولما فرغ المسلمون من ظفرهم عادوا إلى الحصن ، فتسلموه عنوة وقتلوا وأسروا كل من فيه ، وأخربه عماد الدين .

ثم سار منه إلى قلعة حارم ، وهى بالقرب من انطاكية وكانت للافرنج فحصرها ، فبذل له أهلها نصف دخل بلد حارم ، وهادنوه فأجابهم إلى ذلك ، وعاد عنهم وقد فرح المسلمون بتلك الأعمال ، وضعفت قوى الافرنج ، وعلموا أن البلاد قد جاءها مالم يكن لهم فى حساب ، وصار منتهى قصدهم حفظ مابأيديهم ، بعد أن كانوا قد طمعوا بتملك جميع البلاد .

وفاة الآمر بأحكام الله وخلافة الحافظ لدين الله بمصر

فى ثانى ذى القعدة سنة ٥٢٤ خرج خليفة مصر العلوى الآمر بأحكام الله أبو على بن المستعلى إلى منتزه له ، فلما عاد وثب عليه الباطنية فقتلوه . وكانت مدة ولايته تسعاً وعشرين سنة وخمسة أشهر ، وكان عمره نيفاً وأربعاً وثلاثين سنة ، وهو العاشر من الخلفاء العلويين أو المهديين ، ونسبتهم بذلك لأنهم أولاد المهدى عبيد الله الذى ظهر بسلجماسة وبنى المهدية بأفريقيا .

ولما قتل لم يكن له أولاد ذكور ، فكان الحق بالخلافة لابن عمه عبد المجيد ابن القاسم بن محمد ، وبما أن أرملة الخليفة المتوفى كانت حاملاً لقب عبد

المجيد بنائب الملك إلى أن يروا ماذا يكون المولود ، فوضعت ابنة فبويع بالخلافة عبد المجيد ولقب بالحافظ لدين الله ، وكان مولد الحافظ بعسقلان فاستوزر أبا على أحمد بن الأفضل بن بدر الجمالى ، فاستبد بالأمر وتغلب على الحافظ ، وقام بالوزارة حق القيام .

وفاة جوسلين صاحب الرها

كان جوسلين من الإفرنج الذين حاربهم عماد الدين زنكى بحصن الأثارب حتى امتلكه منهم عنوة ، فأصابه حجر من أحد أبراج الحصن فجرحه ، ولما عاد إلى الرها بلغه أن الأمير مسعود أتى بعساكره وحاصر أحد حصونه التابعة له ، فأمر بجمع عساكره وسار بهم محمولا على عربية ، وقبل أن ينزل على الحصن المحصور بلغه أن الأمير مسعود قد رفع الحصار وعاد إلى بلاده وبعد هنيهة مات جوسلين وهو بالعربية فأرجعوه إلى الرها ودفنوه هناك ، وكان ذلك فى سنة ٥٢٥ الموافقة سنة ١١٣١ م فحزنوا عليه حزناً شديداً .

وفاة بودوين الثانى ملك القدس

وفى تلك السنة أيضاً مرض بودوين الثانى ملك القدس ، فأمر بأن ينقل إلى جوار قبر المسيح ، وهناك مات بين ذراعى ابنته ميليسيندا وزوجها فولك الذى أوصى له بالملك بعده فحزن عليه الصليبيون جميعهم لما كان له من المنزلة العظيمة عندهم ، وكانوا يحبونه كثيراً لعدله بينهم ، ولكونه كان آخر الأمراء الصليبيين الذين جاءوا فلسطين مع غودافرو من مملكة فرنسا وكان هذا الملك قد حكم الرها مدة ثمانى عشرة سنة ، وحكم القدس بعد ذلك اثنتى عشرة سنة ، وكان شجاعاً ووقع فى الأسر مرتين .

فى تملك فولك دى ألينو على القدس

بعد وفاة بودوين الثانى ملك القدس كما تقدم احتفلوا بتتويج فولك دى ألينو ملكاً على ولاية القدس حسب وصية حميه المذكور ، وكان فولك قد قدم من بلاد فرنسا على عهد بودوين بعد الزيارة وهو ابن فولك ريشين بارتراد دى مونت فورت .

ففي أثناء إقامته في القدس أنفق على مائة محارب من ماله ، وكان يترأسهم في أثناء محاربة المسلمين ، فيظهر في القتال شجاعة عظيمة ؛ فلذلك أحبه بودوين الثاني وأزوجه ابنته ميليسيندا ولم يكن لبودوين ولد ذكر يرث الملك ، فوعده أنه بعد مماته يكون هو الوريث الوحيد لمملكة القدس ، فحصل لهذا الشاب سرور عظيم لزواجه ولوراثته هذا الملك الذى تم له فى سنة ١١٣١ م وسنة ٥٢٥ هـ .

وفاة السلطان محمود

فى هذه السنة أيضاً توفى السلطان محمود بن محمد بهمذان ، وكان عمره نحو ثمان وعشرين سنة ، وكانت ولايته أربع عشرة سنة تقريباً ، وكان حليما كريماً عاقلاً عادلاً كثير الاحتمال ، وطلب السلطنة بعده ولده داود بن محمود وأخواه مسعود وسلجوق شاه ابنا محمد وعمهما سنجر بن ملكشاه ومعه طغرل ابن السلطان محمد ، فجرت بينهم حروب واختلافات كثيرة ظفر فيها سنجر ابن ملكشاه ومعه طغرل بن السلطان ، وخطب لابن أخيه طغرل بالسلطنة فى همذان وأصفهان والرى وسائر بلاد الحيل .

استيلاء شمس الملوك على بانياس

فى سنة ٥٢٧ طمع الإفرنج فى شمس الملوك صاحب دمشق ابن تاج الملوك ، وعزموا على نقض الهدنة التى بينهم ، فتعرضوا لأموال جماعة من تجار دمشق فى مدينة بيروت وأخذوها ، فشكا التجار إلى شمس الملوك ، فراسلهم فى إعادة ما أخذوه وكرر القول فيه فلم يردوا شيئاً .

فحملته الأنفة من هذه الحالة والغيظ فجمع عسكره وتأهب ولا يعلم أحد مراده ، ثم سار وسبق خبره أواخر المحرم ونزل على بانياس أول صفر ، وقاتله لساعته وزحف إليه زحفاً متتاعباً ، وكانوا غير متأهبين،وليس فيه من المقاتلة من يقوم به ، وقرب من سور المدينة ، وترجل بنفسه وتبعه الناس من الفارس والراجل ، ووصلوا إلى السور فنقبوه ودخلوا البلد عنوة .

والتجأ من كان من جند الافرنج إلى الحصن وتحصنوا به، فقتل فى البلد كثيراً من الافرنج ، وأسر كثيراً ونهبت الأموال وقاتل القلعة قتالاً شديداً ليلاً

ونهاراً فملكها رابع صفر بالأمان ، وعاد إلى دمشق فوصلها فى سادسه ولما علم فولك ملك القدس بحصار بانياس أمر بجمع جيشه ليسير لنجدتها ، فأتاه خبر فتحها فألغى أمره السالف .

محاربة فولك ملك القدس نائب حلب

فى صفر سنة ٥٢٧ سار فولك ملك القدس بجيوشه إلى أطراف حلب ، فتوجه إليه الأمير أسوار نائب حلب فيمن عنده من العسكر وانضاف إليه كثير من التركمان ، فاقتتلوا عند قنسرين ، فقتل من الطائفتين جماعات كثيرة وانهزم المسلمون إلى حلب ، وتردد ملكهم فى أعمال حلب ، فعاد أسوار وخرج إليه فيمن معه من العسكر ، فوقع على طائفة منهم فأوقع بهم وأكثر فيهم القتل والأسر ، فعاد من سلم ، منهزماً إلى بلاده وانجبر ذلك المصاب بهذا الظفر ، ودخل أسوار حلب ومعه الأسرى ورءوس القتلى وكان يوماً مشهوداً .

ثم خرج بعد ذلك طائفة من الإفرنج من الرها وقصدوا أعمال حلب للإغارة عليها ، فسمع بهم أسوار فخرج إليهم ومعه الأمير حسان البعلبكى ، فأوقعوا بهم وقتلوهم عن آخرهم وأسروا من لم يقتل ، ورجعوا إلى حلب سالمين .

استيلاء شمس الملوك على حصن شقيف تيرون ونهبه بلاد الإفرنج

فى شهر محرم سنة ٥٢٨ سار شمس الملوك إسماعيل صاحب دمشق إلى حصن شقيف تيرون ، وهو فى الجبل المطل على بيروت وصيدا ، وكان بيد الضحاك بن جندل رئيس وادى التيم ، قد تغلب عليه وامتنع به ، والضحاك المذكور هو رئيس النصيرية والأدرعية والمجوسية ، وكان يلاعب المسلمين والإفرنج ، ويحتمى بكل طائفة على الأخرى .

فسار شمس الملوك إليه وأخذه منه عنوة فعظم أخذه على الإفرنج ؛ لأن الضحاك لايتعرض لشىء من بلادهم المجاورة له ، فخافوا شمس الملوك فجمعوا عساكرهم ، فلما اجتمعت ساروا إلى حوران وأخذوا يخربون وينهبون القرى .

وكان شمس الملوك لما بلغه تجمع الإفرنج قد جمع الجموع وحشد الجيوش ، والتف عليه جمع كثير من التركمان . ونزل بإزاء الإفرنج وجرت مناوشات . ثم إن شمس الملوك نهض ببعض عسكره وجعل الباقى قبالة الإفرنج وهم لايشعرون ، وقصد بلاد طبرية والناصرة وعكا وما جاورها التابعة للإفرنج فنهب وخرب وأحرق ، وامتلأت أيدى من معه من الغنائم ، واتصل الخبر بالفرنج فانزعجوا ورحلوا فى الحال بغتة وطلبوا بلادهم.

وأما شمس الملوك فإنه عاد إلى عسكره على غير الطريق الذى سلكه الإفرنج ، فوصل سالماً . وأما الإفرنج فلما رأوا بلادهم خراباً أرسلوا إلى شمس الملوك بتجديد الهدنة فهادنهم .

قتل الخليفة المسترشد بالله وخلافة الراشد بالله

فى شهر محرم سنة ٥٢٩ توفى السلطان طغرل بن محمد بن ملكشاه ، فخرج السلطان مسعود بجيشه ، وخرج الخليفة المسترشد بالله بجيشه ، والتقيا عاشر رمضان وتحاربا ، فانهزم جيش الخليفة ، وأخذ هو أسيراً ومعه جماعة كثيرة منهم وزيره وقاضى القضاة والأمراء ، وسير السلطان الأمير بك ايه المحمودى شحنة إلى بغداد ، فوصلها فى آخر رمضان ، واستولى على جميع أملاك الخليفة ، فهاجت عامة بغداد وحاربوهم .

ثم ترددت الرسل بين الخليفة والسلطان مسعود على تقرير قواعد الصلح فتصالحا على مال يؤديه الخليفة وألا يعود إلى جمع العساكر وألا يخرج من داره . ثم وصل خبر بقدوم الأمير قزان خوان رسولا من السلطان سنجر ، فتأخر مسير الخليفة ، وخرج الناس مع السلطان مسعود إلى لقاء الأمير ، وفارق الخليفة بعض من كان موكلا به فقصده أربعة وعشرون رجلا من الباطنية ، ودخلوا عليه فقتلوه وجرحوه وطعنوه نحواً من عشرين طعنة ومثلوا به ، فجدعوا أنفه وأذنيه ، وقتل معه نفر من أصحابه ، كان ذلك فى يوم الأحد ١٧ من شهر ذى القعدة من السنة المذكورة .

وكان عمره ثلاثاً وأربعين سنة وثلاثة أشهر ، وكانت مدة خلافته سبع عشرة سنة وستة أشهر وعشرين يوماً . وكان شهماً شجاعاً فصيحاً حسن الخط جيد الفكر .

وبعد وفاته بويع بالخلافة ابنه الراشد بالله أبو جعفر المنصور ، وكان أبوه قد بايع له بولاية العهد فى حياته ، وجددت له البيعة بعد قتله يوم الاثنين السابع والعشرين من شهر ذى القعدة المذكور ، وكتب السلطان مسعود إلى شحنة بغداد أن يبايع له بالخلافة . وحضر الناس البيعة وكان حاضرا بيعته واحد وعشرون رجلاً من أولاد الخلفاء ، وبايع له الشيخ أبو النجيب ووعظه وبالغ فى الموعظة .

غزو العساكر الأتابكية بلاد الإفرنج

فى شعبان سنة ٥٣٠ اجتمعت عساكر أتابك زنكى ، تحت قيادة الأمير أسوار نائبه بحلب ، وقصدوا بلاد الإفرنج على حين غفلة منهم ، ففاجأوا اللاذقية ، ولم يتمكن أهلها من الانتقال عنها والاحتراز ، فنهبوا منها ما لا يحيط به الوصف ، وقتلوا وأسروا .

وكان الأسرى سبعة آلاف أسير مابين رجل وامرأة ، ومائة ألف رأس من الدواب ومابين فرس وبغل وغيره ، وأما ماسوى ذلك من الأقمشة والحلى فيخرج عن الحد ، وأحرقوا بلد اللاذقية وماجاورها ، ولم يسلم منها إلا القليل ، وخرجوا إلى شيزر بما معهم من الغنائم سالمين ، وفرح المسلمون بذلك فرحاً عظيماً ، ولم يقدر الإفرنج على شيء يأخذون به الثأر .

خلع الخليفة الراشد بالله وخلافة المقتفى لأمر الله

فى سنة ٥٣٠ اجتمع على الخليفة الراشد جماعة ، وحسنوا له الخروج من بغداد لمحاربة السلطان مسعود ، فأجابهم إلى ذلك ، وظهر منه تنقل فى الأحوال وتلون فى الآراء ، وقبض على جماعة من أعيان أصحابه ، وخافه الباقون ، ثم تقدم السلطان مسعود ، وحصر بغداد واستظهر عليها ، فخرج الخليفة الراشد ملتجئاً إلى زنكى فى البر الغربى ، فسار به إلى الموصل .

ودخل السلطان مسعود بغداد واستقر بها ، وأمر فجمع القضاة والشهود والفقهاء ، وعرض عليهم اليمين التى حلفها الراشد بالله للسلطان مسعود ، وفيها بخط يده (إنى متى جندت أو خرجت أو لقيت أحداً من أصحاب السلطان بالسيف فقد خلعت نفسى من الأمر) فأفتوا بخروجه من الخلافة ، فعملوا محضراً وذكروا فيه ما ارتكبه من أخذ الأموال وأشياء تقدح فى الإمامة ، وكتبوا

الفتوى بخلعه ، وأحضروا القاضى أبا طاهر الكرخي ، فشهدوا أمامه بذلك فحكم بفسقه وخلعه.

ثم إن شرف الدين الوزير ذكر للسلطان أبى عبد الله محمد بن المستظهر فأمر بإحضاره من المكان الذى يسكنه ، ولما حضر جلس فى الميمنة واتفق معه السلطان والوزير ، ثم حضر الأمراء وأرباب المناصب والقضاء والفقهاء وبايعوه بالخلافة ، وكان ذلك فى ثامن عشر ذى الحجة . ولقب (المقتفى لأمر الله) وسبب هذا اللقب أنه كان رأى النبى ﷺ قبل أن يولى الخلافة بستة أيام وهو يقول له إن هذا الأمر يصير إليك فاقتف بى فلقب بذلك .

استيلاء المسلمين على حصن وادى ابن الأحمر

فى رجب سنة ٥٣١ سار الأمير نزاوش مقدم عسكر دمشق إلى طرابلس الشام ، فاجتمع معه كثير من الغزاة المتطوعة والتركمان ، فلما سمع بهم الدوك يونص صاحب طرابلس ، سار إليهم فى جموعه وحشوده ، فقاتلهم فانهزم .

وعاد الفرنج إلى طرابلس فى حالة سيئة ؛ لأن فرسانهم وشجعانهم قتلوا ، فلما عادوا نهب المسلمون من بلادهم أكثرها ، وحصروا حصن وادى ابن الأحمر وضيقوا عليه فملكوه عنوة ونهبوا مافيه ، وقتلوا المقاتلة وأسروا الرجال ، فافتدوا أنفسهم بمال جزيل وعاد المسلمون إلى دمشق .

استيلاء زنكى على قلعة بعرين

فى شوال سنة ٥٣١ سار أتابك زنكي من حمص ، وحصر قلعة بعرين وهى للإفرنج تقارب مدينة حماة ، وهى من أمنع الحصون وأعزها ، فلما نزل عليها قاتلها ، فجمع الإفرنج فارسهم وراجلهم ، وساروا بقضهم وقضيضهم وملوكهم إلى أتابك زنكى ليرحلوه عن بعرين فلم يرحل وصبر لهم إلى أن وصلوا إليه فلقيهم وقاتلهم أشد قتال رآه الناس ، وصبر الفريقان وانجلت الواقعة عن هزيمة الإفرنج وأخذتهم سيوف المسلمين من كل جانب ، واحتمى ملوكهم بحصن بعرين لقربه منهم ، فحصرهم المسلمون ، ومنع أتابك زنكى كل شىء حتى الأخبار فكانوا من داخله لايعلمون شيئاً من أخبار بلادهم ؛ لشدة ضبط الطرق وهيبته على جنوده .

ثم إن القسيسين والرهبان ساروا إلى بلاد الروم وجميع بلاد النصرانية مستنفرين على المسلمين ، وأعلموهم أن زنكى إذا أخذ بعرين ومن فيها من الافرنج ، ملك جميع بلادهم فى أسرع وقت ، وأن المسلمين ليس لهم منه إلا قصد البيت المقدس .

فخرج ملك الروم (بالقسطنطينية) ومعه كثير من عساكره ومن النصرانية ، وساروا على الصعب وقصدوا الشام لتخليص حصن بعرين .

وأما زنكى فإنه صبر فى قتال الافرنج فصبروا ، وقلت عليهم الميرة والذخيرة لأنهم كانوا غير مستعدين ، ولم يكونوا معتقدين أن أحداً يقدر عليهم ، بل كانوا يتوقعون ملك باقى البلاد الشامية . فلما قلت الذخيرة طلبوا الأمان والتسليم .

ولما سمع زنكى بقرب ملك الروم واجتماعه بمن بقى من الافرنج ، أعطى لمن فى الحصن ، الأمان وقرر عليهم تسليم الحصن ، ودفع ٥٠ ألف دينار يحملونها إليه ، فأجابوه إلى ذلك ، فخرجوا وسلموا إليه فلما فارقوه بلغهم اجتماع من اجتمع بسببهم فندموا على التسليم حيث لاينفعهم الندم ، وكان زنكى فى مدة حصاره فتح المعرة وكفر طاب من الافرنج .

فى مسير ملك الروم يوحنا كومنينوس إلى بلاد الشام

في سنة ٥٣١ خرج الملك يوحنا كومنينوس ، ملك الروم بالقسنطينية ، قاصداً بلاد الشام لنجدة الافرنج كما تقدم ، فسار من البحر إلى أنْ وصل بلاد الأرمن التابعة لابن ليون الأرمنى ، فاستولى على بعضها ثم سار إلى انطاكية فوصلها فى شهر القعدة سنة ٥٣١ ، فحصرها وضيق عليها وبها صاحبها الأمير رايموند ، ثم ترددت الرسل بينهما فتصالحا ورحل عنها ، ولما دخلت سنة ٥٣٢ سار الملك يوحنا المذكور إلى بلاد الشام ، وقصد بزاعة فحصرها ، وهى مدينة لطيفة على ستة فراسخ من حلب ، فمضى جماعة من أعيان حلب إلى أتابك زنكى وهو محاصر حمص فاستغاثوا به واستنصروه ، فسير معهم قسما من عساكره ، فدخلوا حلب ليمنعوها من الروم إن حاصروها .

ثم إن ملك الروم قاتل بزاعة ونصب عليها المنجانيقات ، وامتلكها بالأمان في الخامس والعشرين من رجب . ثم غدر بأهلها فقتل منهم وأسر وسبى ، وكان عدد من جرح فيها من أهلها خمسة آلاف وثمانمائة نفس ، وتنصر قاضيها وجماعة من أهلها عددهم نحو أربعمائة نفس .

وأقام ملك الروم عشرة أيام يطلب من اختفى ، فقيل له إن جمعاً كثيراً من الأهالى قد اختبأ بالمغائر ، فأشعل على فوهاتها النار وأهلكهم ضيقاً بالدخان ، ثم رحلوا إلى حلب بخيلهم ورجلهم ، فخرج إليهم أحداث حلب ، فتقاتلوا قتالاً شديداً ، فقتل من الروم وجرح خلق كثير ، وقتل بطْريق جليل القدر عندهم ، وعادوا خاسرين ، فرحلوا إلى قلعة الأثارب ، فخاف من فيها من المسلمين فى التاسع من شعبان ، فهربوا عنها فملكها الروم ، وتركوا فيها سبايا بزاعة والأسرى ، ومعهم جمع من الروم يحفظونهم ويحمون القلعة ، وساروا .

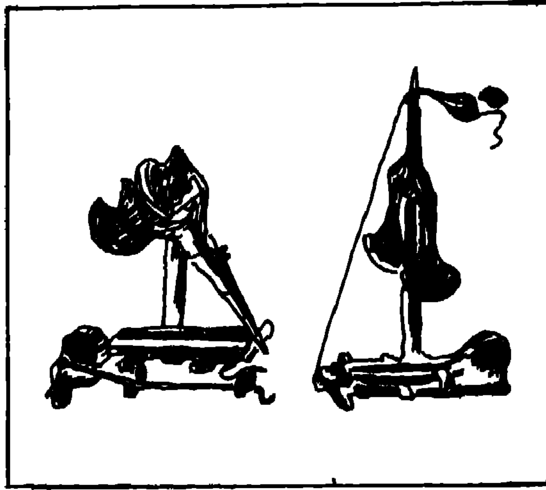
فلما سمع الأمير أسوار نائب حلب بذلك ، رحل فيمن عنده من العساكر إلى الأثارب ، فأوقع بمن فيها من الروم ، فقتلهم وخلص الأسرى والسبى ، وعاد إلى حلب . وأما الملك يوحنا فإنه قصد قلعة شيزر لأنها من أمنع الحصون ، وحصرها لعلمه بأنها لم تكن لزنكى فلا يكون له فى حفظها اهتمام لأنها كانت للأمير أبى العساكر سلطان بن على منقذ الكنانى ، فنصب عليها ثمانية عشر منجنيقاً ، فأرسل صاحبها إلى زنكى يستنجده ، فسار إليه فنزل على نهر العاصى بينها وبين حماة ، فكان يركب كل يوم فى عساكره ويسير إلى شيزر بحيث يراه ملك الروم ، ويرسل السرايا تخطف من يخرج من عساكرهم للميرة والنهب ، ثم يعود آخر النهار .

وكان الروم والإفرنج قد نزلوا شرقى شيزر ، فأرسل إليهم زنكى يقول لهم إنكم قد تحصنتم بهذه الجبال فاخرجوا عنها إلى الصحراء حتى نلتقى ، فإن ظفرتم أخذتم شيزر وغيرها ، وإن ظفرت بكم أرحت المسلمين من شركم ، وكان لم يكن له بهم مطمع لكثرتهم ، وإنما كان يفعل هذا ترهيباً لهم .

فأشار الإفرنج على الملك يوحنا بلقائه وقتاله وهونوا أمره ، فقال لهم الملك أتظنون أن معه من العساكر ماترون وله البلاد الكثيرة وإنما هو يريكم قلة من

معه لتطمعوا وتصحروا له (أى تخرجوا له فى الصحراء) فحينئذ ترون من كثرة عسكره مايعجزكم .

وكان أتابك زنكى مع هذا يراسل إفرنج الشام ، ويحذرهم ملك الروم ، ويعلمهم أنه إن ملك بالشام حصناً واحداً أخذ البلاد التى بأيديهم منهم ، وكان يراسل ملك الروم يتهدده ويوهمه أن الإفرنج معه ، فاستشعر كل واحد من الإفرنج والروم بالخوف من صاحبه ، فرحل ملك الروم عنها فى رمضان سنة ٥٣٢ وكان مقامه عليها أربعة وعشرين يوماً .


(صورة منجانيقات لرمى الحجارة بدل مدافع اليوم)

وترك المنجنيقات وآلات الحصار بحالها ، فسار زنكى خلفهم وظفر بطائفة منهم فى ساقة العسكر ، فغنم منهم وقتل وأسر ، وأخذ جميع ما خلفوه ورفعه إلى قلعة حلب ، وكفى الله المؤمنين القتال .

وكان المسلمون بالشام قد اشتد خوفهم ، وعلموا أن الروم إن ملكوا حصن شيزر لايبقى لمسلم معهم مقام ، ولاسيما مدينة حماة لقربها .

ولما يسر الله تعالى هذا الفتح ، مدح الشعراء أتابك زنكى فأكثروا ، منهم أبو المجد المسلم بن الخضر بن المسلم بن قسيم الحموى بقصيدة منها :

بعزمك أيها الملك العظيم تذل لك الصعاب وتستقيم
ألم تر أن كلب الروم لما تبين أنك الملك الرحيم
فجاء يطبق الفلوات خيلاً كأن الجحفل الليل البهيم
وقد ترك الزمان على رضاه فكان لخطبه الخطب الجسيم
فحين رميته بك فى خميس تيقن أن ذلك لايدوم

ولما عاد ملك الروم إلى بلاده نزل أتابك إلى حصن عرقة ، وهو من أعمال طرابلس فحصره وفتحه عنوة ونهب ما فيه وأسر حاميته من الافرنج وخربه ، وعاد سالماً غانماً .

محاصرة زنكى دمشق واستيلاء الإفرنج على بانياس

فى سنة ٥٣٤ سار عماد الدين أتابك زنكى فى ربيع الأول إلى دمشق ، فنزل بالبقاع وأرسل إلى جمال الدين محمد صاحبها يطلب منه تسليم دمشق ، واختيار أى بلد بدلها ، فلم يجبه إلى ذلك ، فرحل وقصد دمشق ، فنزل على داريا فى ثالث عشر ربيع الأول ، فالتقت الطلائع واقتتلوا ، وكان الظفر لعسكر زنكى وعاد الدمشقيون منهزمين وقتل كثير منهم ، ثم تقدم زنكى إلى الموصل فنزل هناك ولقيه جمع كثير من جند دمشق فقاتلوه ، فانهزم الدمشقيون وأخذهم السيف فقتل منهم وأكثر وأسر كذلك ومن سلم عاد جريحاً ، وهدد البلد ذلك اليوم بالأخذ وان يملك .

لكن زنكى أمسك عنه عشرة أيام ، وتابع الرسل إلى صاحب دمشق ، وبذل له بعلبك وحمص وغيرهما مما يختاره من البلاد ، فمال إلى التسليم ، فمنعه أصحابه وخوفوه عاقبة فعله ، فلما لم يسلموا عاد القتال والزحف ، ثم إن جمال الدين مرض وتوفى ثامن شعبان ، فطمع زنكى حينئذ فى البلد ، وزحف عليه زحفاً شديداً ظاناً وقوع الخلاف بين المقدمين فيبلغ غرضه ، وكان ما أمله بعيداً .

وتولى بعد جمال الدين مجير الدين آبق ولده وتولى ترتيب دولته معين الدين أنز فأحسن التدبير ، ولما رأى أنز أن زنكى لايفارقهم ، راسل فولك ملك القدس واستدعاه إلى نصرته لدفع زنكى عن دمشق واعداً إياه بأنه يحصر بانياس ويسلمها للافرنج ، وخوفه من زنكى إذا ملك دمشق ، فأيقن بصحة قوله وعلموا أن ملكها لايبقى لهم معه بالشام مقام .

فلما سمع بذلك زنكى سار إلى حوران خامس رمضان عازماً على قتال الافرنج قبل وصوله دمشق ، ولما سمعت الإفرنج خبره لم يفارقوا بلادهم ، ولما رآهم كذلك عاد إلى حصر دمشق ، ونزل بعذرا شماليها سادس شوال ، وأحرق عدة قرى من المرج والغوطة ، ورحل عائداً إلى بلاده .

ثم وصلت الإفرنج إلى دمشق واجتمعوا بصاحبها ، فسار معين الدين انز بعسكره إلى قلعة بانياس وهو فى طاعة زنكى ليحصرها ويسلمها للافرنج ، وكان واليها قد سار قبل ذلك منها بأسبوع إلى مدينة صور للإغارة عليها ، فنازلها معين الدين وقاتلها وضيق على من بها ومعه طائفة من الإفرنج ، فاستولى عليها وسلمها إلى الإفرنج ، فلما سمع بذلك زنكى فرق عساكره للإغارة على حوران وأعمال دمشق ، وسار هو فنازل دمشق سحراً ، ولم يعلم به أحد من أهلها ، فلما أصبح الناس ورأوا عسكره خافوا ، وارتجت البلد واجتمع العسكر والعامة على السور ، وفتحت الأبواب وخرج الجند فقاتلوه ، فلم يتمكن زنكى من الإقدام فى القتال لقلة جنوده ، لأن عساكره كانت متفرقة ، ولما اجتمعت عاد بها إلى بلاده .

وفاة فولك ملك القدس وتولية ولده بودوين الثالث

فى سنة ٥٣٧ الموافقة سنة ١١٤٢ توفى فولك دى ألينو ملك القدس ، وكانت وفاته فى سهل مدينة عكا حيث كان راكباً جواده فسقط عن ظهره عند جماحه فمات ، وله ولدان أكبرهما اسمه بودوين وعمره ثلاث عشرة سنة والثانى اسمه أمورى ، فاستحق ولده الأكبر الولاية ، وتسمى بودوين الثالث تحت وصاية والدته ميليسيندا، إلى أن بلغ الرابعة عشرة سن رشده حسب عادتهم ، وأصبح بعدئذ بودوين ملكا حراً .

فتح زنكى مدينة الرها والبلاد الجزرية

كان صاحب مدينة الرها جوسلين الأول قد توفى ، فجلس على تختها ولده جوسلين الثانى ، وكان شجاعاً ماكراً يغير على البلاد الجزرية ويمتلكها ، فأراد أتابك زنكى محاصرة مدينة الرها ، ولعلمه بأنه متى قصد حصرها اجتمع فيها الافرنج فيمنعوه ، ويتعذر عليه ملكها لما هى عليه من الحصانة فاشتغل بمحاربة ديار بكر ليوهم الإفرنج أنه غير متفرغ لقصدبلادهم ،فلما رآه جوسلين الثانى مشغولا بمحاربة ملوك ديار بكر اطمأن على بلاده وفارق مدينة الرها وعبر الفرات إلى البلاد الغربية .

فجاءت عيون أتابك إليه ، وأخبروه بما كان فنادى فى معسكره بالرحيل وأن لايتخلف عن الرها أحد من غديومه ، وسار بالعساكر إلى أن وصل إلى مدينة الرها فحاصرها ونازلها وقاتلها ثمانية عشر يوماً بآلات الحصار التى كان قد أحضرها من حلب ، وكان معه أبراج خشبية تعلو عن سور المدينة ، وقدم النقابين فنقبوا سور البلد ، ولح فى القتال خوفاً من اجتماع الإفرنج والمسير إليه واستنقاذ البلد منه ، فسقطت البدنة التى نقبها النقابون ، وأخذ البلد عنوة وقهراً ، وحصر قلعتها فملكها أيضاً ونهب الناس الأموال وقتلوا الرجال .

فلما رأى أتابك البلد أعجبته ، ورأى أنه لايجوز تخريب بلد مثلها ، فأمر بالمناداة فى العساكر برد ماأخذوه من الأسرى من رجال ونساء إلى بيوتهم ، وإعادة ماغنموه من أثاثهم وأمتعتهم ، فردوا جميع ذلك عن آخره ولم يفقد منه شىء ، فعادت البلد على حالها الأول وجعل فيها عسكراً يحفظها .

ثم سار أتابك زنكى فتسلم مدينة سروج وسائر الأماكن التى كانت بيد الإفرنج شرقى الفرات ماعدا ألبيره ، فإنها حصينة منيعة وعلى شاطىء النهر ، فسار إليها وحصرها وكانوا قد أكثروا ميرتها ورجالها ، فبقى على حصارها إلى أن وصله خبر قتل نصير الدين نائبه بالموصل ، فرحل عنها وأرسل نائباً إلى الموصل . وأقام ينتظر الخبر فخاف من بالبيرة من الفرنج أن يعود إليهم ، وكانوا يخافونه خوفاً شديداً ، فأرسلوا إلى نجم الدين صاحب ماردين وسلموها إليه فملكها المسلمون .

قتل أتابك عماد الدين زنكى وتولية أولاده

فى سنة ٥٤١ حصر آتابك زنكى حصن جعبر ، وهو مطل على الفرات وكان بيد سالم مالك العقبلى . ففى اليوم الخامس من شهر ربيع آخر قتل الشهيد أتابك عماد الدين زنكى بن اقسنقر صاحب الموصل وبلاد الشام ومدينة الرها وبلاد الفرات الشرقية ، قتله جماعة من مماليكه ليلاً غيلة ، وهربوا إلى قلعة جعبر ، فصاحوا على من بها من أهلها من العسكر يعلمونهم بقتله وأظهروا الفرح ، فدخل أصحابه إليه فأدركوه وبه رمق وفاضت نفسه رحمه الله .

وكان حسن الصورة أسمر اللون مليح العينين قد خطه الشيب ، وكان عمره يزيد عن الستين ، ودفن بالرقة ، وكان شديد الهيبة على عسكره ورعيته ، عظيم السياسة ، وكان يمنع القوى من ظلم الضعيف ، محباً لعمار البلاد ، وكان أشجع خلق الله ، ورثاه الحكيم أبى الحكم المغربى بقصيدة منها :

عين لاتدخرى المدامع وابكى — واستهلى دمعاً على فقد زنكى
لم يهب شخصه الردى بعد أن — كانت له هيبة على كل تركى
خير ملك ذى هيبة وبهاء — وعظيم بين الأنام بزرك
يهب المال والجياد لمن يممه — مادحاً بغير تلكى
أى فتك جرى له فى الأعادى — بعد ما استفتح الرها أى فتك
بعد ما كاد أن تدين له الروم — ويحوى البلاد من غير شك

وخلف من الأولاد سيف الدين غازى ونور الدين محمود الملك العادل وقطب الدين مودود وهو أبو الملوك ونصرة الدين أمير أميران وبنتاً . وبعد وفاته أخذ خاتمه من يده نور الدين محمود الملك العادل ، وكان حاضراً معه ، وسار إلى حلب فملكها وكان ذلك بإشارة أسد الدين شيركوه ، وكان حينئذ يتولى ديوان زنكى ويحكم فى دولته جمال الدين محمد بن على ، وهو المنفرد بالحكم ومعه أمير حاجب صلاح الدين محمد الباغيسيانى فاتفقا على حفظ الدولة .

وكان مع الشهيد أتابك الملك ألب أرسلان بن السلطان مسعود ، فسيره إلى الموصل مع جماعة من أكابر دولة أبيه ، وقال لهم إن وصل أخى سيف

الدين غازى إلى الموصل فهى له وأنتم فى خدمته ، وإن تأخر فأنا أقرر أمور الشام وأتوجه إليكم .

وكان سيف الدين غازى بناحية شهر زور وهى إقطاعة من أبيه ، وساعده على ذلك جمال الدين . واستقر أمر سيف الدين غازى بالموصل وجعل جمال الدين وزيره ، وأرسلوا إلى السلطان مسعود فاستحلفوه لسيف الدين فحلف له وأقره على البلاد ، وأرسل له الخلع ، وكان سيف الدين هذا قد لازم خدمة السلطان مسعود فى أيام أبيه ، وكان السلطان يحبه ولذلك لم يتوقف فى تقرير اليمين له .

عصيان أهل الرها واستيلاء نور الدين عليها

لما قتل أتابك زنكى كان جوسلين الثانى صاحب الرها بناحية تل باشر ومايجاورها من ولايته ، فراسل أهلها وعامتهم وحملهم على العصيان والامتناع من المسلمين ، وتسليم البلد إليه فأجابوه إلى ذلك ، وواعدهم على يوم يصل إليهم فيه ، وسار فى عساكره إلى الرها ، وملك البلد ، وامتنعت القلعة عليهم بمن فيها من المسلمين ، فقاتلهم وأرسل إلى جميع الصليبيين بالشام يستنجدهم على المسلمين .

فبلغ الخبر إلى نور الدين محمود بن زنكى وهو بحلب ، فسار مجداً إليها فى عسكره ، فلما قاربها خاف منه جوسلين خصوصاً لعدم ورود أحد من الإفرنج لنجدته ، فخرج هارباً عائداً إلى بلده ، ودخل نور الدين المدينة ونهبها وسبى أهلها ، ففى هذه الدفعة نهبت وخلت من أهلها ، ولم يبق بها منهم إلا القليل . وكان ذلك فى سنة ٥٤١ ، وكان قد بلغ خبر عصيانها إلى سيف الدين غازى بن الشهيد أتابك زنكى ، فسير إليها العساكر وفى أثناء مسيرهم إليها بلغهم خبر استيلاء الملك العادل نور الدين عليها فعادوا .

ابتداء الحروب الصليبية الثانية
طلب الصليبيين النجدة من البابا ومن ملوك أوروبا

فى سنة ٥٤٢ فتح الملك العادل نور الدين (ارتاج) بالسيف (وحصن باراه وبصرفوت وكفر لاثا) وأخذها من الافرنج الذين كانوا قد طمعوا فظنوا أنهم بعد قتل الشهيد يستردون ما أخذ منهم ، فلما رأوا قوة وبطش نور الدين علموا أن ما أملوه بعيد ، وخافوا منه أن يأخذ جميع بلادهم ، فلذلك اجتمعت رؤساؤهم في مدينة القدس ، وقرروا طلب الإعانة والنجدة من البابا ومن ملوك أوروبا جميعاً .

ثم أرسلوا وفداً إلى البابا أوجانيوس الثالث الذى كان مقيماً فى مدينة فيتاريو ، ولما وصل إليه الوفد وقابله فأعلمه بما جرى على المسيحيين بالشام ، وأن نور الدين إذا دام على قتالهم أفناهم خصوصاً استيلاء المسلمين على مدينة الرها – تلك المدينة عظيمة القدر عندهم – فبكى البابا وتذكر مافعله سلفه البابا أوربانوس الثانى وبما فاز به من ثمرة أعماله ، فشرع فى تحرير الرسائل إلى ملوك أوروبا مملوءة بالتحريض والاستحلاف بأن ينهضوا لأجل نجدة إخوتهم المسيحيين الذين فى المشرق ، ويخص بالتحريض ملك فرنسا لويس السابع .

وكذلك أرسل إلى القديس برنردوس معلمه رئيس دير كلارفوكس كامبروسيوس ، وأعلمهم بأن مدينة القدس فى خطر من سيوف المسلمين ، فلما وردت رسالة البابا على الملك لويس السابع ملك فرنسا عقد جمعية فى مدينة بورغاس من الرؤساء الكنائسيين ومن أشراف المملكة ، وأبلغهم اعتماده على الحرب المقدسة ، ثم إنه عمل بمشورة القديس برنردوس ، فأرسل وفداً إلى رومية لمقابلة البابا الذى قابله بمسرة ، ودعا للملك لويس بالنصر ، وأرسل منشوراً رسولياً إلى المسيحيين جميعهم يحرضهم فيه ويمنحهم الإنعامات والاختصاصات جميعها الممنوحة من سلفه أوربانوس الثانى للصليبيين الأولين . وقد أناب عنه معلمه القديم القديس برنردوس ، فأقامه رئيساً رسولياً للجيوش الصليبية ، وفوض إليه دعوة جميع المسيحيين إلى هذه الحرب المقدسة .

جمعية فينزالاى بفرنسا

أمر الملك لويس بعقد جمعية أخرى فى مدينة (فينزالاى) الصغيرة من إقليم بورغونيا تحت رئاسته ورئاسة القديس برنردوس، وحضر هذه الجمعية عدد عظيم من الإكليروس والأشراف والرجال من كل سن ورتبة . وكان اجتماع هذه الجمعية فى يوم حد الشعانين فى سنة ١١٤٦ ميلادية موافقة سنة ٥٤١ هجرية أمام باب المدينة المذكورة ، وهناك ظهر الملك بالزينة الملكية وبرنردوس بثوبه الرهبانى ، وجلسا فوق تخت نصب لهذه الغاية . ثم إنه وقف برنردوس وقرأ بصوت عال المنشور الباباوى ، وأخبر الشعوب بسقوط إمارة الرها بيد المسلمين فشمل الحاضرين الكدر ، وسلوا سيوفهم واعتمدوا على الحرب .

ولأجل أن يوطدهم على هذا العزم ويحميهم بالغيرة الدينية ، خطب فيهم الخطبة الآتية بحروفها قائلاً (أيها السامعون أقوالى لاتلتمسوا بعد الآن بالتنهد والدموع صلاح الله التماساً باطلاً ، ولاتلبسوا المسوح بل تدرعوا بالأسلحة التى تغلب ، فقعقعة آلات الحرب وإضامات السفر والمشقات والأضرار الزمنية ومعركات الحرب ، إنما هى أعمال التوبة التى يرسمها الله عليكم ، فاذهبوا افدوا خطاياكم بالانتصار ، واستخلاصكم الأماكن المقدسة من الأخطار الملمة بها هو ثمن ندامتكم وتوبتكم عن زلاتكم ، فلو أتاكم مخبر قائلا لكم إن الأعداء قد استولوا على مدينتكم أو حصونكم أو أراضيكم واختطفوا نساءكم وبناتكم للسبى ودنسوا معابدكم ، فمن منكم عند هذا السماع لايركض متناولاً أسلحته للمحاربة ، فهذه المصائب كلها أحاقت بإخوتكم وشرور أعظم منها مزمعة أن تحل على الآخرين أيضا من إخوتكم عليه يسوع المسيح التى عيلتكم ، فأى شىء إذاً أنتم تنتظرون لكى تصلحوا هذا المقدار العظيم من الشرور ؟ ولكى تنتقموا عن إهانات مثل هذه كلية الأنواع ، فحينما الرب يستدعيكم إلى حماية ميراثه أفهل تظنون أن ذارعه الإلهى أضحى الآن أقل قوة من ذى قبل وأضعف اقتداراً مما سلف أو أنه تعالى لايستطيع أن يرسل اثنى عشر طغمة من الملائكة ، أو يقول كلمة واحدة بها يكردس أعداءه إلى التراب ؟ وأنتم أيها النبلاء الشرفاء المحامون عن الصليب المقدس تذكروا نموذجات آبائكم الذين استنقذوا

أورشليم من العبودية ، وأسماؤهم مكتوبة فى السماء ، فاعملوا نظيرهم الخيرات البايدة لكى تأخذوا رايات الغلبة العديمة الفساد ، وتكتسبوا ملكاً عديم لنهاية) أ هـ .

فصرخوا جميعاً قائلين الله يريد هذا الله يريد هذا . وقد أثرت فيهم هذه الخطبة كما أثرت خطبة البابا أوربانوس الثانى فى مؤتمر كلارمون . ثم انطرح لويس على أقدام هذا القديس ملتمساً منه صليب الحرب ، وقد حرض جميع رعاياه الفرنساويين على اتباع أثره فيها ، وكذلك زوجته (اليونوره) فإنها استلمت صليب حرب ، فاتبعهما كونت دى سان جيلاس وطولوز ، وأنريكوس بن طبيوا كونت دى شامبانيا وتيادى كونت دى فسلاندره ، وغليوم دى نافار ، ورانود كونت دى طوتار ، وأنياس كونت دى سواسون ، وأرشامبود دى بوربون وهوكوز دى لويزنيان ، ثم الكونت دى دروكس أخو السلطان ، والكونت دى بوريان عمه ، وأساقفة نوبون ولانكراس ، وأراش وليزيو ، وآخرون كثيرون من الرؤساء الكنائسيين على محاربة المسلمين .

وفرح القديس برنردوس من تتويج أعماله بالنجاح ، وصار ينتقل فى مملكة فرنسا فى مدينة إلى أخرى محرضاً على الحروب الصليبية ، ففى مدينة شارتراس تجمعت العساكر والأشراف ، وطلبوا منه أن يكون قائدهم فى الحرب ، ولما تفكر هذا القديس ماجرى لبطرس السائح رفض طلبهم هذا ، ولخوفه أن يلزموه بذلك حرر رسالة إلى الباب أوجانيوس يناشده بأن يعفيه من ذلك ، فأتاه الجواب حسب مرغوبه .

تحريض الملك كونراد ملك ألمانيا باتحاد مع الصليبيين

ثم إن القديس برنردوس المذكور سافر من مملكة فرنسا قاصداً مملكة النمسا يتجول فى كل إقليم منادياً بالحروب الصليبية ، ثم سار إلى سبيريا الألمانية ، وكان منعقداً هناك مجلس عام للملكة بأمر الملك كونراد الثالث ، فدخل القديس الكنيسة التى بها الملك وعظماء دولته ، وشرع بتقديم الذبيحة الإلهية ، ثم ابتدأ فى القداس وصور المسيح حاضراً والصليب فى يده مخاطباً الملك كونراد بتوبيخ صارم على فتوره ، فخجل الملك وأقسم بأن يلبس ثوب الصليبيين منادياً بالحرب المقدسة ، وكذلك أشراف المملكة .

ثم اجتمعت جمعية من الرؤساء الكنائسيين فى مدينة (راتيسبون) فقرروا قبول الرسائل المحررة لهم من القديس برنردوس بالتحريض على الحروب الصليبية المقدسة ، وكان من هؤلاء أساقفة ياصاف وراتيسبون وفربزبحان . ومن العظماء لاديسلاس دوك دى بوهومبا وأوداكر أمير ستريا وراناد كونت دى كارينتينا ، وفريد ريكوس نسيب الملك كونراد ، أما القديس برنردوس فإنه عاد من ألمانيا إلى بلاد فرنسا .

جمعية مدينة اتامبيس بفرنسا والاستعداد لسفر الصليبيين

لما عقد ملك فرنسا النية على السفر ، أمر باجتماع جمعية المملكة العامة فى أتامبيس فى شهر فبراير سنة ١١٤٧ لانتخاب نائب عنه يدبر أمور المملكة فى غيابه ، فانتخبوا الأنبا سوجار رئيس كنيسة القديس ديونيسيوس فرفض سوجار قبول هذه الوظيفة ؛ ولكن طاعته للأوامر البابا وية والملوكية ألزمته بقبولها .

ثم إنه حضر هذه الجمعية رسل من الملك روجار ملك بوليا وسيسيليا واعدين بأن يرسلوا إلى الصليبيين مراكب بحرية مع الذخيرة والمؤن وأن ابن الملك يذهب معهم فى المراكب إلى الأراضى المقدسة وبناء على هذه المواعيد قرروا بعد تردد السفر براً .

سفر الصليبيين واجتماعهم بالقسطنطينية

ثم أرسل القديس برنردوس الأوامر ، فكانت تعلق فى المدن على الجدران ، وتتلى فوق المنابر بالكنائس بخصوص السفر ، فاجتمع أمير مونت فارات والكونت دى موريا ما خال لويس السابع ، وجمعا العساكر الصليبية واجتازا بهم الجبال الألبية وحدود رونا ولومبارديا ونيومونت ، وكذلك الصليبيون الإنكليز فإنهم نزلوا فى المراكب من ينامابيكا . وساروا قاصدين الشرق ، وأما العساكر الفرنساوية فكان موعد اجتماعهم بمدينة ماطنس ، والعساكر الألمانية والنمساوية بمدينة راتيسبون .

وقد نزل الملك كونراد بعساكره فى المراكب النهرية مجتازاً نهر الدانوب ذاهباً إلى مدينة راتيسبون ، لأجل تتويج ابنه بتسمية سلطان الرومانيين وترك تدبير

المملكة فى غيابه إلى الأنبا كوربى ، وسار قسم من عساكره فى البر لابساً الخوذات مزينة بريش النعام والزرد بالحديد اللامع ومدججون بالأسلحة الذهبية .

وأما الملك لويس السابع فإنه قبل سفره توجه إلى كنيسة القديس دبونيسيوس ليستلم السنجق الشايع الصيت الذى كان ملوك فرنسا يسيرونه مرفوعاً أمامهم فى ذهابهم إلى الحروب ، وكان البابا أوجانيوس الثالث قد حضر إلى فرنسا وحضر الاحتفال وبيده سلم الملك لويس السنجق القديم مع دبوس وغدارة علامة لسفره فى الحرب المقدسة .

ثم ودع سوجار وأوصاه بالمملكة وسار هو وزوجته وفريق من بلاطة من باريس متوجهاً نحو مدينة ماطنس ، حيث اجتمع بعساكره ، ثم سار منها إلى بلاد ألمانية ومنها قاصداً القسطنطينية المحل المعين لاجتماع جميع الصليبيين تحت سناجق الحرب المقدسة لينطلقوا منها إلى مقابلة الأخطار العظيمة وطلب الانتصار .

أخبار الصليبيين فى القسطنطينية

كان جالساً فى ذلك الزمان على تخت مملكة الروم التى عاصمتها القسطنطينية الملك عمانويل الشاب ابن الملك اليكسيوس الأول وأخو الملك يوحنا السابق ذكره ، فجاءته أخبار ورود العساكر الصليبية الثانية ، فخاف منهم على مملكته وليس له قوة على ممانعتهم .

ثم وصل الملك كونراد ملك ألمانيا والنمسا بعساكره وجميع من تبعه من الصليبيين ، فاتخذ عمانويل كل الطرق والحيل لمنعه ، فحصل بينهما خصام أفضى إلى الحرب ، فكانت المحاربة بين مدينة نيكوبولى ومدينة أدريانوبلى ، ثم دارت المخابرة بينهما بواسطة معتمدين من الجهتين ولكن خوف الملك عما نوبل من الصليبيين ، وكدر كونراد من خباثة الروم جعلت المخابرة بدون فائدة إلى أن عقد الصلح ، فأخذ ملك الروم يتدبر حيلة يهلك بها عساكر الصليبيين ، فأمر بخلط الدقيق المطحون وغشه بالكلس الأبيض ، ليباع إلى الصليبيين ثم ضرب نقوداً مغشوشة تشبه الذهب والفضة ، وأمر أن يشترى بها

من عساكر كونراد جميع مايرغبون بيعه ، أما الملك كونراد وعساكره فإنهم كانوا ناصبين خيامهم فى سهول (ساليفريا) بالقرب من القسطنطينية ، فهبت عواصف شديدة وأعقبتها أمطار غزيرة فجرت المياه من الجبال على المعسكر حتى غرقت خيامهم وأمتعتهم ورحلوا قاصدين أراضى آسيا .

ثم وردت الأخبار إلى الملك عمانويل بقدوم الملك لويس السابع ملك فرنسا . فخرج لملاقاته وفد من عند ملك الروم ، وقدموا له الاحترام اللائق بمقامه ، فنوجه معهم إلى قصر الملك بالقسطنطينية ثم تبعه قواده .

وكان ملك الروم يقدم كل يوم للصليبيين عهوداً ومواثيق فى الظاهر ، ويرسل إلى ملك إيقونيه ببلاد الإسلام يحرضه عليهم مبيناً له نوايا الصليبيين ، وإنهم قادمون لأخذ باقي البلاد من المسلمين فشعروا بذلك ، فقرر مجلس شوراهم بأن البلاد التى يملكونها وتكون من مملكة الروم لايسلمونها إلى ذلك الملك .

ولكثرة خوف الملك عما نويل من الصليبيين ومن إقامتهم ببلاده ، أشاع فى مدينته بأن الصليبيين الذين بصحبة الملك كونراد قد انتصروا على المسلمين ، فاتباعاً لهذه الإشاعة الكاذبة فرح الصليبيون وأمروا جيشهم بالمسير حالا لمشاركة إخوانهم ، ثم ساروا إلى أن وصلوا إلى بحيرة إسكانوس بقرب مدينة نيقية . وأثناء إقامتهم هناك انكسفت الشمس فتشاءموا وخافوا ، واتفق أن خوفهم هذا صادف محله لأنه وردت لهم الأخبار بأن الملك كونراد وعساكره كسرهم المسلمون شر كسرة .

مسير العساكر النمساوية والألمانية

وكان الملك كونراد ومن معه من الصليبيين قد استصحب من الروم من يدله على الطريق فى بلاد آسيا . فسار الروم أمامهم وأرادوا توصيلهم من نيقيه إلى إيقونيا . فساروا بهم فى الجبال بغير الطريق الحقيقى حتى فرغ مامعهم من الزاد ، وحينئذ علمت الإفرنج بأن الروم قد خانوهم ومكروا بهم وأضلوهم بطريق وعرة المسلك بدون زاد ولاماء ، ففر الروم وتركوهم عند الجبل طاوروس ، فسار الإفرنج بعد ذلك ثلاثة أيام بحال يرثى لها من التعب والمشقات وعدم الأكل والشرب فطلعت عليهم العساكر الإسلامية ، وكانوا كامنين لهم بالجبل وانقضوا عليهم كالصواعق من كل ناحية .

فاحتارت العساكر الصليبية وهى لاتقدر لا على الرجوع ولاعلى التقدم،وبعد قتل أكثرهم هرب الملك كونراد وتبعه باقى عساكره ومن سلم من الصليبيين الآخرين إلى مدينة نيقية ، فتبعهم المسلمون وقتلوا معظمهم وهم منهزمون ، ولما وصلوا إلى مدينة نيقية قابلهم الملك لويس ملك فرنسا بجيشه ثم جددا التحالف بمحاربة المسلمين ولكون الملك كونراد لم يكن له قوة بالمسير صحبة ملك فرنسا رجع إلى القسطنطينية وطلب من ملك الروم مساعدته بمراكبه إلى القدس كما يأتى .

سفر العساكر الفرنساوية

سار الملك لويس بعسكره حتى بلغ أراضى برغاما وأزمير حيث وردت إليه رسل ملك الروم فلم يلتفت إليهم ، وسار بعسكره نحو المشرق وضرب خيامه فى واد بالقرب من كابسترا (وهو الآن وادى الغزلان) واحتفلوا هناك بعيد ميلاد المسيح ، ثم ساروا بطريق اللاذقية إلى أن بلغوا فم نهر ليكوس وهناك أرادت العساكر الإسلامية منعهم من عبور النهر .

ولكن الملك لويس شجع عساكره ورتبهم وسار بهم بدون مبالاة إلى أن وجدوا سهلاً فيه اجتياز النهر ، فدفعوا أنفسهم برئاسة الكونت أنريكوس وتادوريكوس فعبروا النهر . وكذلك اجتاز النهر الملك لويس وهجموا على العساكر الإسلامية فانهزموا من أمامهم ، وسمع بذلك أهل اللاذقية القريبة من محل الواقعة فخافوا وأخلوا المدينة .

ثم سار الملك لويس وعسكره إلى أن وصل إلى مدينة ساطاليا مجتازين فى طرقات جبل كادموس مع جبال أخرى مخيفة (التى سموها جبال اللعنة) وهناك وجدوا العساكر الإسلامية واقفة لهم بالمرصاد ، فخاف الملك لويس وأرسل قسما من عسكره تحت رئاسة عمه كونت دى موريانا مع جوفرودى رنكوت ، فاغتنمت العساكر الإسلامية فرصة انقسام الصليبيين ، وانقضوا على الباقين فى الجبل بصرخات مهيلة ورموهم بالنبال ، فالتجأوا إلى قمة جبل تحتها واد عميق فضايقتهم العساكر الإسلامية ، وأخذوا يقتلونهم ويكردسونهم فى هذا الوادى .

أما الملك لويس وباقى عسكره فإنه هجم على المسلمين وسير جيشه أمامه فهجمت عليه العساكر الإسلامية ، وفرقت بين جيشه وبين فرسانه وأوقعوا بهم ، ففر الملك لويس من هذه الموقعة ، ولحق بمن نجا من جيشه وساروا إلى أن وصلوا إلى سور مدينة ساطاليا عند فم نهر جاسنيوس وعند مشاهدتهم هذه المدينة ظنوا بأنهم سيحتمون فيها لعلمهم بأنها تابعة لملك الروم . ولكن أملهم خاب ، فوالى المدينة الرومى أمر بقفلها فى وجوههم ، مع أنهم كانوا فى غاية الشدة والجوع ووجدوا أنفسهم ملتزمين بالاستمرار على المسير فى البرارى ، وأخيراً طلبوا منه أن يرسل لهم مراكبه ليسيروا بها إلى أنطاكية فأمر لهم بالمراكب ولما وجدوها غير كافية لحملهم ، انقسموا قسمين قسم ركب البحر ومعه الملك لويس وقسم سار فى البر تحت رياسة كونت دى فلاندرا وارشامبود دى بوربون .

ودفع الملك لويس إلى والى ساطاليا خمسين وزنة من الفضة ليوصل العساكر المسافرة براً إلى طرسوس ، ولكن هذا الوالى أهملهم ولم يرسل أحداً يدلهم على الطريق السهل ، وسار الملك لويس بحراً إلى أن وصل أنطاكية فخرج رايموند دى بوانياس صاحبها ، وقابل الملك بالاحتفال والإكرام ، وقد فرح به وطلب الاشتراك معه فى الحرب وقال له الأفضل أن نحارب مدينتى حلب وقيسارية لأن امتلاكهما يوطد الأمان لجميع الصليبيين ، ويضعف قوة نور الدين .

ولكن ملك فرنسا وقواده رفضوا هذا الطلب ، وقالوا لانحارب إلا بعد زيارة القدس . ثم بعد إقامته بانطاكية أياماً قليلة عزم على المسير إلى القدس ، فسار هو وقواده إلى أن وصلوها ، فخرج بودوين الثالث ملكها مع الإكليروس والأمراء والشعوب حاملين أغصان الزيتون ، فدخل المدينة بين هتاف وتهليل وذلك سنة ١١٤٧ الموافق سنة ٥٤٢ هـ ، وأقام بها إلى أن وصل الملك كونراد ملك النمسا وألمانيا ، فتوجها إلى كنيسة القيامة فشكرا الله على نجاتهما .



المشورة بالحروب الصليبية الثانية

بعد إقامة الملوك الصليبيين بالقدس عقد بودوين الثالث ملك القدس مجلساً للمشورة على محاربة الإسلام حضره الملكان المذكوران وأعضاء مملكة القدس والرؤساء الكنائسيون ، وكان ذلك المجلس بمدينة عكا فقرروا محاصرة مدينة دمشق الشام ظانين بأنهم إذا فازوا بهذه المدينة وامتلكوها وايالتها المحضنة لم يبق عليهم خوف من حروب جديدة تضايقهم فيها المسلمون وتصير مدينة القدس محمية بدمشق . وفى شهر مايو سنة ١١٤٨ ، سار كل من الملك كونراد ملك النمسا والمانيا والملك لويس السابع ملك فرنسا والملك بودوين الثالث ملك القدس بجميع عساكرهم ، وكذلك رهبان جمعية القديس يوحنا المعمدان ورهبان جمعية الهيكليين مقدمين أمامهم البطريرك حاملاً الصليب الخلاصى الحقيقى ، وساروا إلى أن وصلوا إلى سهل مدينة دمشق .

محاصرة الصليبيين مدينة دمشق

فى سنة ٥٤٣ هجرية حاصر الصليبيون مدينة دمشق وفيها صاحبها مجير الدين آبق بن محمد بن بورى بن طغتكين ، وليس له من الأمر شيء وإنما كان الأمر إلى مملوك جده طغتكين وهو معين الدين أنز ، فهو كان الحاكم والمدبر للبلد والعسكر ، وكان عاقلا ديناً خيراً حسن السيرة ، فجمع العسكر وحفظ البلد وحصرهم الصليبيون ، فزحفوا إليهم سادس ربيع أول فخرج العسكر وأهل البلد لمنعهم ، وكان فيمن خرج الشيخ حجة الدين أبو الحجاج يوسف بن دوناس المغربى الفندلاوى شيخ السادة المالكية بدمشق ، وكان شيخاً كبيراً زاهداً عابداً ، خرج راجلاً فرآه معين الدين فقصده وسلم عليه وقال له ياشيخ أنت معذور ونحن نكفيك ، وليس بك قوة على القتال ، فقال قد بعت واشترى فلا نقيله ولا نستقيله يعنى قول الله تعالى ﴿ **إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة** ﴾ الآية وتقدم وخرج معه أيضاً الشيخ الزاهد عبد الرحمن الحلحول فقاتلا حتى استشهدا رحمهما الله .

وقوى أمر الصليبيين وتقدموا وضعف أهل البلد عن ردهم ، وتقدم الملك كونراد فنزل بالميدان الأخضر فأيقن الناس بأنه يملك البلد ، وكان معين الدين

قد أرسل إلى سيف الدين غازى يستغيث به ويستنجده ، فجمع عساكره وسار إلى الشام واستصحب معه أخاه نور الدين محمود من حلب ، فنزلوا بمدينة حمص ، وأرسل إلى معين الدين يقول له قد حضرت ومعى كل من يحمل السلاح من بلادى فأريد أن يكون نوابى بمدينة دمشق لأحضر وألقى الإفرنج ، فإن انهزمت دخلت أنا وعسكرى البلد واحتمينا به ، وإن ظفرنا فالبلد لكم لا أنازعكم فيه ، فأرسل معين الدين إلى الصليبيين يهددهم إن لم يرحلوا عن البلد ، وكان قد حصل بينهم انقسام لأنهم ظنوا امتلاك المدينة فتشاحنوا على من يكون ملكها ، فلما سمعوا بمجيء سيف الدين ضعف قلبهم وأرسل اليهم معين الدين يهددهم ، ويقول لهم إن ملك المشرق قد حضر فإن رحلتم وإلا سلمت البلد إليه ، وحينئذ تندمون ، وأرسل أيضاً إلى إفرنج الشام يقول لهم بأى عقل تساعدون هؤلاء الصليبيين الغرباء علينا ، وانتم تعلمون أنهم إن ملكوا دمشق أخذوا ما بأيديكم من البلاد الساحلية وأما أنا فإن رأيت الضعف عن حفظ البلد سلمته إلى سيف الدين . وأنتم تعلمون أنه إن ملك دمشق لايبقى لكم معه مقام فى الشام ، فأجابوه إلى التخلى عن الصليبيين ، وبذل لهم تسليم حصن بانياس إليهم فاجتمع الملك بودوين وأرباب مملكته بالملك كونراد والملك لويس وخوفوهم من سيف الدين وكثرة عساكره وتتابع الأمداد إليه وأنه ربما أخذ دمشق ونضعف عن مقاومته .

فباكرهم المسلمون وقد قويت شوكتهم ونفوسهم ، وزال عنهم روعهم وتثبتوا بازائهم وأطلقوا فيهم السهام . وفى الغد أحاطوا بهم فى مخيمهم وقد تحصنوا بأشجار البساتين ، فأحجم الإفرنج عن البروز وخافوا وفشلوا ولم يظهر منهم أحد ، وظن المسلمون أنهم يدبرون مكيدة أو حيلة ولم يظهر منهم إلا النفر اليسير من الخيل والرجل على سبيل المطاردة والمناوشة خوفا من المهاجمة إلى أن يجدوا لحملتهم مجالاً ، وليس يدنو منهم أحد إلا صرع برشقة أو طعنة ، وطمع فيهم نفر كثير من رجالة الأحداث وجعلوا يقصدونهم فى المسالك فيقتلون من ظفروا به ويحضرون رءوسهم لطلب الجوائز عليها ، فرحلوا فى سحر يوم الأربعاء عشر ربيع الأول ، فبعد رحيلهم عن دمشق أشار بعض المقدمين بحصار مدينة عسقلان ولكن جميع الصليبيين ضعفت قلوبهم وذهبت شجاعتهم ولذلك رفضوا هذه المشورة وعاد كل منهم إلى بلاده .

استيلاء نور الدين على حصن العزيمة

بعد رحيل الصليبيين عن دمشق سار معين الدين أنز إلى بعلبك ، وأرسل إلى نور الدين وهو مع أخيه سيف الدين يسأله أن يحضر إليه ، فاجتمعا فوصلهما كتاب القمص يونس صاحب طرابلس يشير عليهما بقصد حصن العزيمة وأخذه ممن فيه من الإفرنج ، وكان سبب ذلك أن ابن الملك روجار صاحب صقلية خرج مع الملك كونراد ملك ألمانيا إلى الشام وتغلب على الحصن المذكور ، وأخذه من القمص وأظهر له أنه يريد أخذ طرابلس أيضاً وكان روجار صاحب صقلية قد غزا إفريقية ، وفتح مدينة طرابلس الغرب ، فلما استولى ابنه على حصن العزيمة كاتب القمص نور الدين ومعين الدين فى قصده ، فسارا إليه مجدين فصبحاه وكتبا إلى سيف الدين يستنجدانه ويطلبان منه المدد فأمدهما ، فحصروا الحصن ونقبوا السور فأذعن الافرنج واستسلموا وألقوا مابأيديهم ، فملك المسلمون الحصن وأخذوا كل من فيه من رجل وصبى وامرأة وفيهم ابن روجار واخربوا الحصن ، وعادوا إلى سيف الدين وعاد نور الدين إلى حلب ومعه ابن روجار وأمه ومن أسر معهم ، وعاد معين الدين إلى دمشق .

انهزام الإفرنج « بيغرى »

فى سنة ٥٤٣ أيضاً هزم نور الدين محمود بن زنكى الإفرنج بمكان اسمه « يغرى » من أرض الشام ، وكانوا قد تجمعوا ليقصدوا أعمال حلب ليغيروا عليها بقيادة رايموند صاحب أنطاكية ، فعلم نور الدين فسار إليهم فى عسكره فالتقوا « بيغرى » واقتتلوا قتالاً شديداً ، فانهزم الإفرنج وقتل كثير منهم وأسر جماعة من مقدميهم ، ولم ينج من ذلك الجمع إلا القليل . وأرسل من الغنيمة والأسرى إلى أخيه سيف الدين وإلى الخليفة ببغداد وإلى السلطان مسعود . وفى هذه الواقعة يقول ابن القيسرانى بقصيدته التى أولها :

ياليت أن الصد مصدود   أو لا فليت النوم مـردود

ومنها فى ذكر نور الدين :

وكيف لايثنى على عيشنا المحمود والسلطان محمود

وصارم الإسلام لاينثنـــــــى إلاوشلــو الكفــر مقـــدود
مكــارم لــم تك موجــودة إلا ونــور الديــن موجــود
وكم له من وقعة يومهــا عند ملوك الكفر مشهــود

قتل رايموند صاحب أنطاكيه

في صفر سنة ٥٤٤ سار نور الدين بعساكره إلى حصن « حارم » وهو للإفرنج ، فحصره وخرب ربضه ونهب سواده . ثم رحل عنه إلى حصن « آنب » فحصره فاجتمعت الإفرنج مع رايموند صاحب أنطاكية ، وساروا إليه ليرحلوه عن (آنب) فلم يرحل ، بل لقيهم وتصاف الفريقان واقتتلوا وصبروا وظهر من نور الدين من الشجاعة والصبر فى الحرب على حداثة سنه ماتعجب منه الناس ، وانجلت الحرب عن هزيمة الإفرنج ، وقتل المسلمون منهم خلقاً كثيراً وقتل أيضاً رايموند صاحب أنطاكيه . ثم تخلف بعده على أنطاكية ولده الصغير المدعو بوهيموند فتزوجت أمه « قسطانسا رانود دى شاتيلون » أحد الإفرنج ليدبر شئون البلد إلى أن يبلغ ولدها ويستلم الحكم .

ثم سار نور الدين إلى حصن (فاميه) وهو للإفرنج أيضاً وقريب من مدينة حماة ،وهو حصن منيع على تل مرتفع من أحصن القلاع وأمنعها ، وكان من فيه من الإفرنج يغيرون على أعمال حماة وشيزر وينهبونها . فكان أهل تلك الأعمال معهم تحت الذل والصغار ، فسار نور الدين إليه وحصره وضيق عليه ومنع من فيه عن الفرار ليلا ونهاراً ، وتابع عليهم القتال ومنعهم الاستراحة ، فاجتمعت الإفرنج من سائر بلادهم ، وساروا نحوه ليزحزحوه عنها ، فلم يصلوا إليه إلا وقد ملك الحصن وملأه ذخائر من طعام ومال وسلاح ورجال وجميع ما يحتاج إليه ، فلما بلغه قرب الفرنج سار نحوهم ، فحين رأوا جده في لقاهم رجعوا واجتمعوا ببلادهم وصالحوه على ما أخذه .

﴿ وفاة الحافظ لدين الله خليفة مصر وولاية الظافر بأمر الله ﴾

في اليوم الخامس من شهر جمادى الآخرةسنة ٥٤٤ هـ، توفى الحافظ لدين الله عبد المجيد بن الأمير أبى القاسم العلوى بمصر بعلة القولنج ، وكان كثير الإصابة بها ، فعمل له موسى النصرانى طبل القولنج ، وهو عبارة عن طبل مركب من سبعة معادن عليه الكواكب السبعة ، وكان من خاصته أن الانسان إذا ضربه يخرج الريح من مخرجه ، ولهذه الخاصة كان ينفع في القولنج وكان سن الحافظ عند وفاته ثمانين سنة ، ومدة حكمه ١٩ سنة و ٧ أشهر ، ولم يكن من التدبير والحكمة على شيء فكان يعهد بإدارة الأحكام لوزرائه مكتفياً بالسلطة الدينية المحصورة في كل خليفة . ولم يكن لديه من السلطة السياسية إلا الإمضاء على الأوامر في تثبيت الأمراء على إماراتهم ، شأن الدول عند قرب انحلال ملكها ، إلا أن تغيير الوزراء جعل فيه بعض الاهتمام فى الأحكام .

واستخلف ابنه إسماعيل أبا المنصور فبويع له ولقب بالظافر بأمر الله ، ولكن هذا الاسم لم ينطبق على المسمى ، وكان سنه ١٧ سنة وهو أصغر أولاد أبيه سناً ، وكان كثير اللهو والتفرد بالجوارى واستماع الأغانى ، فكان ينظر إلى الدسائس الجارية فى قصره الآيلة إلى خراب مملكته بعين المتردد المتهامل ، وبمثل ذلك كان ينظر إلى تهديد جنود الملك روجار صاحب سيسليا بعد استيلائه على أكثر بلاد المغرب . ولولا لطف الله ووقوع الخلاف بين ملك سيسليا المذكور والملك عمانويل ملك الروم ، وحصول الحرب بينهما ، وموت جورجى وزير روجار بعد إصابته بمرض البواسير والحصا ، لكان حاصر مصر .

﴿ أسر جوسلين ﴾

فى سنة ٥٤٥ سار نور الدين إلى بلاد جوسلين ، وهى القلاع التى شمال حلب ، منها تل باشر ، وعين تاب ، وعزاز ، وغيرها من الحصون ، فجمع جوسلين الفرنج فارسهم وراجلهم ، وبقى نور الدين فكان بينهما حرب شديدة انجلت عن انهزام المسلمين ، وظفر الفرنج وأخذ جوسلين سلاح دار نور الدين أسيراً وأخذ مامعه من السلاح ، فأرسله إلى السلطان مسعود بن قليج أرسلان

صاحب قونيه ، وكان نور الدين قد تزوج ابنته ، وأرسل مع السلاح إليه يقول قد أنفذت لك بسلاح صهرك ، وسيأتيك بعد هذا غيره ، فعظمت الحادثة على نور الدين ، وأعمل الحيلة على جوسلين ، وعلم إن هو جمع العساكر الإسلامية لقصده ، جمع جوسلين الإفرنج وحذر وامتنع .

فأحضر نور الدين جماعة من التركمان ، وبذل لهم الرغايب من الإقطاع والأموال إن هم ظفروا بجوسلين إما قتلا وإما أسراً . فاتفق أن جوسلين خرج من عسكره وأغار على طائفة من التركمان ، فنهب وسبي فاستحسن من السبي امرأة منهم خلا معها تحت شجرة فعاجله التركمان فركب فرسه ليقاتلهم فأخذوه أسيرا ، فصانعهم على مال بذله لهم فرغبوا فيه ، وأجابوه إلى ذلك وأخفوا أمره عن نور الدين . فأرسل جوسلين في إحضار المال فأتي بعض التركمان إلى نائب نور الدين بحلب فأعلمه بما كان ، فسير معه عسكراً أخذوا جوسلين من التركمان قهراً .

وكان نور الدين حينئذ بحمص ، وفرح المسلمون لأسره وعظمت المصيبة علي الإفرنج ، وخلت بلادهم من حاميها وسهل أمرهم على المسلمين بعده ، وكان كثير الغدر والمكر ولا يقف علي يمين ولا يفى بعهد ، وطالما صالحه نور الدين وهادنه فإذا آمن جانبه بالعهود والمواثيق نكث وغدر ، فلقيه غدره وحاق به مكره ، وبعد أسره فتح كثيراً من بلادهم وقلاعهم ، فمنها عين تاب ، وعزاز ، وفورس ، والراوندون ، وحصن البان ، وتل خالد ، وكفر لاثا ، وكفر سوب ، وحصن نسر فوب بجبل بني علبم ، ودلوك ، ومرعش ، ونهر الجوز ، وبرج الرصاص ، وكان نور الدين إذا فتح حصناً لا يرحل عنه حتي يملأه رجالا وذخائر تكفيه عشر سنين خوفا من نصرة تتجدد للإفرنج على المسلمين ، فتكون الحصون مستعدة غير محتاجة إلى شيء .

قتل ابن السلار وزير الخليفة الظافر ووزارة عباس

في شهر محرم سنة ٥٤٨ هـ قتل العادل بن السلار وزير الظافر بالله الخليفة العلوي بمصر ، قتله ربيبه عباس بن أبي الفتوح بن يحيى الصنهاجي ، أشار إليه بذلك الأمير أسامه بن منقد ، ووافق عليه الخليفة الظافر بالله ، فأمر ولده

نصراً فدخل على العادل وهو عند جدته أم عباس فقتله ، وولى الوزارة بعده ربيبه عباس ، وكان عباس قد قدم من المغرب إلى مصر ، فتزوج ابن السلار بأمه وأحبه وأحسن تربيته فجازاه بأن قتله ، وولى بعده وكانت الوزارة في مصر لمن غلب والخلفاء وراء الحجاب والوزراء كالمتملكين .

امتلاك الصليبيين مدينة عسقلان

كانت مدينة عسقلان تابعة للديار المصرية وكان الوزراء فى كل سنة يرسلون إليها من الذخائر والأسلحة والأموال والرجال من يقوم بحفظها ، وكانت حصينة منيعة ، وطالما حاربها الإفرنج وارتدوا عنها خائبين . وفي سنة ٥٤٨ هـ لما علم بودوين الثالث ملك القدس ماحصل بمصر من اختلاف الوزراء انتهز الفرصة وراسل جميع الإفرنج المقيمين بالشام بمساعدته ، وسار من القدس وصحبته إفرنج الشام ، ورهبان جمعية الهيكليين ، ورهبان جمعية القديس يوحنا المعمدان ، إلى أن وصل إلى أسوار مدينة عسقلان من البر وحصرها ، وكان قد سير إليها خمسة عشر مركباً فى البحر برئاسة جيرار صاحب صيدا وحاصرها بحراً .

ثم تصادف ورود جموع من الصليبيين لمساعدة الإفرنج وكذلك ورود مراكب أوروباوية ، فانضافوا إلى العمارة البحرية تحت رئاسة جيرار المذكور ، وكان مع بودوين برج كبير من الخشب أعلى من أسوار المدينة مركب على دواليب سهل النقل ، وركبوا منجانيقات وكبوشاً ، ونازلوا المدينة وأخذوا يقاتلونها ويرمونها بالمنجنيقات ، وكذلك أهل عسقلان يرمونهم بالنبال والمنجانيقات حتي أشرفوا على الهلاك من داخل المدينة ، ثم وردت عمارة مصرية لنجدة المدينة فاستبشر أهها وقويت نفوسهم واشتدوا في القتال ، فرموا على الأخشاب الحربية التى مع الصليبيين ناراً من أعلى السور ، فاتقدت بسرعة عظيمة ، ولكن الريح عكست النار فأرمتها على سور المدينة فظلت مشتعلة أربعا وعشرين ساعة ، حتى وقع من السور جزء فانفتح مجال للصليبيين يدخلون منه المدينة .

وكان بالقرب من هذه الجهة رهبان جمعية الهيكليين الذين طلبوا الدخول إلى المدينة وحدهم وامتلاكها ، ولما دخلوا من هذا الجزء المهدوم ، وجدهم المسلمون قليلين ، فانقضوا عليهم وقتلوهم ، فهرب باقيهم إلى خارج السور ، فانكسرت قلوب الإفرنج ، ثم إن المسلمين أخذوا يقاتلون بشدة ، ولما وجدوا عجزهم عن المقاومة أرسلوا إلى بودوين بتسليم المدينة ، بشرط أن يخرجوا سالمين بعائلاتهم وأمتعتهم ، فأجابهم إلى ذلك وأعطاهم ميعاداً ثلاثة أيام ، وبعدها سلموا المدينة إليهم ، وخرجوا منها سالمين وكانت مدة الحصار خمسة أشهر .

استيلاء نور الدين على مدينة دمشق

بينما كان الإفرنج محاصرين عسقلان كما تقدم ، كان نور الدين يتلهف ولا يقدر على الوصول إلى عسقلان لنجدة أهلها،وكان السبب فى ذلك أن عسقلان واقعة بين بلاد مصر وبلاد الإفرنج ومدينة دمشق . وكان بدمشق مجير الدين ، فلما علم الإفرنج ضعفه صاروا يغيرون عليه ، وينهبون الأهالى حتى جعلوا على المدينة إتاوة سنوية يأخذونها ، فلذلك لم يتمكن نور الدين من العبور منها ، فعزم أن يستولى عليها ، وقال أنا أحق بحمايتها ، فأرسل الأمير أسد الدين شيركوه فى العشر الثانى من محرم سنة ٥٤٩ هـ ، فوصل إلى ظاهر دمشق ، وخيم بناحية القصلب من المرج فى عسكر يناهز الألف ، فأنكر ذلك مجير الدين وخاف منه ، فلم يخرج لتلقيه والاختلاط إليه ، وتراسلا فلم تسفر المراسلات عن سداد ولانيل مراد .

وغلا سعر الأقوات لانقطاع الواصلين بالغلات ، ووصل نور الدين في عسكره إلى شيركوه ثالث صفر ، وخيم بعيون الفاسريا عند دومة ، ورحل فى الغد ونزل بيت الآبار من الغوطة ، وزحف إلى البلد من شرقيه ، وزحف إليه من عسكر البلد وأحداثه الخلق الكثير ، ووقع الطراد بينهم ، ثم عاد كل من الفريقين إلى مكانه . ثم زحف يوماً بعد يوم وتأكد الزحف يوم الأحد عاشر صفر ، وظهر إليه العسكر الدمشقى ، فاندفع بين أيديهم إلى سور قبلى البلد .

وتولى القتال أسد الدين شيركوه ، وأبلى الجهد فكسر عساكر دمشق إلى الأسوار من قبلي البلد ، ولم يكن أحد من المقاتلة على السور من ذلك الجانب ، لأن نور الدين كان من شرقها وجل العسكر مقابله ، ورأى من كان مع نور الدين من الجانداريه والحلبيين خلو السور من المقاتلة ، فأسرعوا إلى السور وتعلقوا به ، وطلعوا فى الحال إلى أعلاه ، ويقال إن امرأة كانت على السور فدلت حبلا فصعدوا عليه ونصبوا علما وصاحوا بشعار نور الدين ، وامتنع الأجناد والرعية من الممانعة لما هم عليه من المحبة لنور الدين ، وكسروا الباب ودخلت منه العساكر ، وفتح باب توما أيضاً ، وكان مجير الدين لما أحس بالغلبة ، قد انهزم من ضواحيه إلى القلعة فأنفذ إليه نور الدين أمنه على ماله ونفسه ، وخرج إلى نور الدين فطيب خاطره ، وكان مجير الدين قد راسل الإفرنج وطلب منهم المساعدة على نور الدين فلما حضروا وجدوا نور الدين قد استلم البلد فخافوا منه ورجعوا إلى بلادهم .

قتل الخليفة الظافر وولاية ابنه الفائز

لما ورد خبر امتلاك الإفرنج مدينة عسقلان ، جاء خبر آخر أشد وطأة ، وهو ان العمارة السيسيلية نزلت على سواحل مصر ، وأحرقت مدينة تانس فى منتصف بحيرة المنزله ، ونهبت الفرما إلا أنها لم تتقدم فأخذت ما أمكنها حمله من الغنائم وعادت من حيث أتت .

كان ذلك والخليفة الظافر غارق فى الشهوات الوحشية ، مشتغلا عن مهام الدولة ، فشق ذلك على وزيره العباس ، فأوعز إلى ابنه نصر أن يقتله وينجى البلاد من شره ، ويتخلص مما كان يقوله الناس فى عرضهما من معاشرته ، فاستدعاه إلى دار أبيه سراً بحيث لم يعلم به أحد ، وتلك الدار هى المدرسة الحنيفية التى تعرف بالسيوفيه ، فقتله بها وأخفى قتله فى منتصف محرم سنة ٥٤٩ ، فاتي نصر إلى أبيه العباس وأعلمه بذلك من ليلته .

ولما كان الصباح أقبل عباس إلى القصر على جاري عادته في الخدمة وأظهر عدم الاطلاع على قضيته ، وطلب الاجتماع به ، ولم يكن أهل القصر قد علموا بقتله لأنه خرج من عندهم خفية وما علم أحد بخروجه ، فدخل الخدم لموضعه

ليستأذنوا للعباس فلم يجدوه ، فدخلوا إلى قاعة الحرم فقيل إنه لم ينتبِ هنا ، فتطلبوه فى جميع مظانه فى القصر فلم يقفوا له على خبر ، فتحققوا قتله ، فأخرج عباس أخوى الظافر وهما جبريل ويوسف وقال لهما أنتما قتلتما إمامنا ، وما نعرف حاله إلا منكما ، فأصرا على الإنكار وكانا صادقين في ذلك ، فقتلهما في الوقت لينفى عن نفسه وابنه التهمة .

فاستدعى العباس الفائز بن الظافر وكان عمره خمس سنوات وقيل سنتين ، فحمله على كتفه ووقف في صحن الدار ، وأمر أن تدخل الأمراء فدخلوا فقال لهم هذا ولد مولاكم وقتل عماه أباه وقد قتلتهما به كما ترون ، والواجب إخلاص الطاعة لهذا الطفل ، فقالوا بأجمعهم سمعنا وأطعنا وصاحوا صيحة واحدة اضطرب منها الطفل ، وبال على كتف عباس ، وسموه الفائز وسيروه إلى أمه وقد اختل من تلك الصيحة ، فصار يصرع فى كل وقت ويخلج ، فأخذ عباس من ذلك الحين يدبر الأمور وانفرد بالتصرف ، ولم يبق على يده يد .

وأما أهل القصر فإنهم اطلعوا على باطن الأمر وأخذوا فى إعمال الحيلة في قتل عباس وابنه ، فكاتبوا بذلك الصالح طلائع بن رزيك الأرمنى ، وهو أبو الغارات الملك الصالح فارس المسلمين نصير الدين ، كان قد سار إلى زيارة مشهد الإمام على بن أبى طالب بأرض النجف من العراق في جماعة من الفقراء ، وكان من الشيعة الإمامية فتنبأ له الإمام أنه سيتولى مصر بناء على رؤية رآها في منامه ، فسار من ساعته إلى مصر وصار يترقى فى الخدم حتى ولى منية ابن خصيب .

فلما صار أهل القصر إلى ماساروا إليه ، كتبوا إلى طلائع وسألوه الانتصار لهم ولمولاهم والخروج علي عباس ، وقطعوا شعورهم وسيروها في طي الكتاب وسودوا الكتاب ، فلما وقف الصالح عليه أطلع من حوله من الأجناد عليه ، وتحدث معهم فى المعنى ، فأجابوا إلى الخروج ، واستمال جمعاً من العرب ، وساروا قاصدين القاهرة ، وقد لبسوا السواد . فلما قاربوها خرج إليهم جميع من بها من الأمراء والأجناد والسودان ، وتركوا عباساً وحده ، فخرج عباس من ساعته من القاهرة وخرج معه ولده نصر ومعهما شيء من المال وجماعة يسيرة من أتباعهم ، وقصدوا طريق الشام على أيله ، وذلك فى ١٤ ربيع أول

سنة ٥٤٩ . أما الصالح بن رزيك فإنه دخل القاهرة بدون قتال ، وماقدم شيئاً على النزول بدار عباس المتقدم ذكره . واستحضر الخادم الصغير الذى كان مع الظافر ساعة قتله وسأله عن الموضع الذى دفن فيه فعرفه به ، وقلع البلاطة التى كانت عليه وأخرج الظافر ومن معه من المقتولين فحملوا وقطعت لهم الشعور ، وانتشر البكاء والنواح فى البلد ، ومشى الصالح والخلق قدام الجنازة ، وتكفل الصالح بالخليفة الصغير ودبر أحواله . وأما عباس فأخت الظافر كاتبت إفرنج عسقلان بشأنه ، واشترطت لهم مالا جزيلا إذا أمسكوه ، فخرجوا عليه وصادفوه فتوافعوا وقتلوا عباساً وأخذوا ماله وولده و انهزم بعض أصحابه . وسيرت الإفرنج نصر بن عباس إلى القاهرة تحت الحفظ في قفص من حديد ، فلما وصل تسلم رسولهم ماشرطته لهم من المال فأخذوا نصراً وضربوه بالسياط ومثلوا به وصلبوه بعد ذلك على باب زويلة ثم أنزلوه وأحرقوه .

محاصرة نور الدين حصن حارم

في سنة ٥٥١ حاصر نور الدين قلعة حارم ، وهي لحصن غربى حلب بالقرب من أنطاكيه ، وضيق على أهلها وهي من أمنع الحصون وأحصنها فى نحور المسلمين . فاجتمعت الافرنج من قرب منها ومن بعد ، وساروا نحوه لمنعه وكان بالحصن مقدم كبير منهم ، فأرسل إليهم يعرفهم قوتهم وأنهم قادرون على حفظ الحصن والذب عنه بما عندهم من العدد والعدد وحصانة القلعة ، ويشير عليهم بالمطاولة وترك اللقاء وقال لهم إن لقيتموهم هزموكم وأخذوا حارم وغيرها ، وإن حفظتم أنفسكم منه أطقنا الامتناع عليه ، ففعلوا ماأشار به عليهم ، وارسلوا نور الدين في الصلح علي أن يعطوه حصة من حارم فأبى أن يجيبهم إلا على مناصفة الولاية فأجابوه إلى ذلك فصالحهم وعاد .

انتصار العساكر النورية على الإفرنج

في أوائل سنة ٥٥٢ ، حصلت زلازل كثيرة بأراضى الشام ، وهدمت كثيرا من الحصون والقلع والبيوت وجميع المباني . وفي شهر ربيع أول كان نور الدين بناحية بعلبك ، فأتته الأخبار من ناحية حمص وحماه بإغارة الإفرنج على تلك الأعمال . وفى ١٥ منه ورد المبشر من المعسكر المنصور برأس الماء

بأن ناصر الدين أمير أميران لما انتهى إليه خبر الإفرنج ، وأنهم قد أنهضوا سرية وافرة العدد إلى ناحية بانياس لتقويتها ، أسرع إليهم وعدتهم سبعمائة فارس سوى الرجالة ، فأدركهم قبل الوصول إلى بانياس ، وقد خرج إليهم من كان فيها من حماتها فأوقع بهم ، وكان قد كمن لهم في مواضع كمناً من شجعان الأتراك ، واندفع المسلمون بين أيديهم في أول المجال ، وظهر عليهم الكمناء فأنزل الله نصره على المسلمين ، وقتلت الإفرنج وأسر باقيهم وحصل في أيدى المسلمين من خيولهم وسلاحهم وأموالهم وأسراهم ورؤوس قتلاهم ، ومحققت السيوف عامة رجالتهم ، ووصلت الأسرى والغنائم إلى دمشق .

ثم وردت بشرى ثانية من أسد الدين شيركوه ، باجتماع عدد كثير إليه من شجعان التركمان ، وأنه قد ظفر بسرية وافرة من الإفرنج ظهرت في معاقلهم من الشمال فانهزمت ، وتخطفوا من ظفروا به . ووصل أسد الدين إلى بعلبك ومن معه من الشجعان ، واجتمعوا بنور الدين وقرروا قصد بلاد الافرنج لتدويخها والابتداء بالنزول على بانياس ، وقدم نور الدين دمشق في الاستعداد وتجهيز العساكر ، فخرج وتبعه كثير من الأحداث والمتطوعة والفقهاء والصوفية في آخر شهر ربيع أول ونزل على حصن بانياس وضايقه بالمنجانيقات .

وفي أثناء ذلك الحصار ، ورد خبر انتصار أسد الدين شيركوه بناحية « هونين » على سرية من الافرنج ، ثم إن نور الدين قوى الحصار والحرب ، ففتح الحصن المذكور بالسيف قهراً ، بعد مضى أربع ساعات بعد انتهاء النقب وسقوط البرج ، فأخذوا الحصن وهرب بعضهم إلى القلعة فحاصرها أيضاً ، فطلبوا الأمان ثم بلغه خبر جمع ملك الإفرنج عسكره بين طبرية وبانياس بقصد استخلاصها ، فسار إليه فلما شارفهم وهم غارون ورأوا راياته قد أظلتهم ، بادروا بلبس السلاح والركوب وافترقوا أربع فرق وحملوا على المسلمين ، فعند ذلك ترجل الملك العادل نور الدين فترجلت معه الأبطال وأرهقوهم بالسهام وخرصان الرماح حتى تزلزلت بهم الأقدام ودهمهم البوار والحمام ، وانتصر المسلمون وتمكنوا من فرسانهم قتلا وأسراً ، واستأصلت السيوف الرجالة وهم العدد الكثير فلم يفلت منهم غير عشرة أنفار .

محاربة المصريين غزة وعسقلان

في أوائل سنة ٥٥٣ أرسل الملك الصالح بن رزيك وزير الخليفة الفائز بنصر الله تجريدة عسكرية فى البر ، ومثلها فى البحر بأسطول كبير يقصد محاربة أهل غزة وعسقلان ، فسارت العساكر المصرية بقيادة الأمير ضرغام وأغارت على أعمال غزة وعسقلان ، وخرج الإفرنج الذين بعسقلان تحت رياسة صاحبها أمورى واقتتلوا معاً فظفر المسلمون بهم قتلا وأسراً فلم يفلت منهم إلا اليسير ، وغنموا غنائم كثيرة وعادوا سالمين . وكان مقدم العساكر البحرية قد ظفر بعدة مراكب مشحونة بالإفرنج فقتل وأسر منهم العدد الكثير ، وحاز من أموالهم وعددهم وأثاثهم مالايكاد يحصى ، وعاد ظافراً غانماً .

وقد أرسل مؤيد الدولة أسامة بن منقذ قصيدة يشرح فيها حال هذه الغزوة ، ويحرض فيها نور الدين على قتال الافرنج ، ويذكره بما من الله عليه من العافية والسلامة من المرض الذى كان قد ألم به في رمضان في السنة الماضية ، ومن القصيدة ما يأتى :

ألا هكذا في الله تمضى العزائم
وتنضى لدى الحرب السيوف الصوارم

وتستنزل الأعدا من طول عزهم ... وليس سوى سمر الرماح سلالم
ويوفي الكرام الناذرون بنذرهم ... وإن بذلت فيها النفوس الكرائم
نذرنا مسير الجيش في صفر فما ... انثني نصفه حتي انثنى وهو غانم
بعثناه من مصر إلى الشام قاطعاً ... مفاوز وجد العيش فيهن دائم
فما هاله بعد الديار ولا أثنى ... عزيمته جهد الظما والسمائم
يباري خيولا ماتزال كأنهـا ... إذا ماانقضت فهي النسور القشاعم
يسير بها ضرغام في كل مارق ... ومايصحب الضرغام إلا الضراغم
ورفقته عين الزمان وحاتـم ... ويحيي وإن لاقي المنية حاتم
وواجههم جمع الفرنج بحملة ... يهون على الشجعان فيها الهزائم
فلقوهم زرق الأسنة وانطووا ... عليهم فلم يرجع من الكفر ناجم
ومازالت الحرب العوان أشدها ... إذا ماتلاقى العسكر المتضاجم
وعادوا إلى حز السيوف فقطعت ... رءوس وحزت للفرنج غلاصم

فلم ينج منهم يوم ذاك مخبر ولاقبل هذا اليوم واحد سالم
نقتلهم بالرأى طوراً وتارة تدوسهم منا المذاكى الصلادم
فقولوا لنور الدين لافُل حدُّه ولاحكّمت فيه الليالى الغواشم
تجهز إلى أرض العدو ولا تهِن وتظهر فتوراً إن مضت منك حارم
فعندك من ألطاف ربك مابه علمنا يقيناً أنه بك راحم
أعادك حياً بعد أن زَعم الورى بأنك قد لاقيت ماالله حاتم
بوقت أصاب الأرض ماقد أصابها رحلت بها تلك الدواهى العظائم
وخيم جيش الكفر في أرض شيزر فسيقت سبايا واستحلت محارم
وقد كان تاريخ الشآم وهلكه ومن يحتويه أنه لك عادم
فقم واشكر الله الكريم بنهضة إليهم فشكر الله للخلق لازم
فنحن على ماقد عهدت نروعهم ونحلف جهداً أننا لانسالم
وغاراتنا ليست تفتر عنهم وليس ينجى القوم منا الهزائم
فأسطولنا أضعاف ماكان سائراً إليهم فلا حصن لهم منه عاصم
ونرجو بأن يحتاج باقيهم به ونحوي الأسارى منهم والغنائم

وفاة الخليفة الفائز بنصر الله وولاية العاضد لدين الله العلوى

في سنة ٥٥٥ توفي الخليفة الفائز بنصر الله العلوي صاحب مصر ، ولم يحكم إلا مدة ست سنوات ، وكانت مصر قد انحطت في أيامه إلى مهاوى الضعف ، وبعد وفاة الخليفة الفائز أخذ الملك الصالح يهتم فى إقامة من يخلفه ، فقدم السراى فقدموا له شيخا من العائلة الفاطمية لم يكن ثم أحق منه للخلافة ، فهم إلى مبايعته ، فجاء أحد أصدقائه وهمس في أذنه قائلا (إن سلفك فى الوزارة كان أحسن تدبيراً منك لأنه لم يسلم نفسه لخليفة سنه أكثر من خمس سنوات) فوقعت هذه العبارة فى أذن الوزير ، فعدل عن تنصيب هذا الشيخ ، وعمد إلى عبد الله بن يوسف بن الحافظ لدين الله ، ولم يكن بالغاً رشده فبايعه ولقبه بالعاضد لدين الله ، وهو الخليفة الرابع عشر للدولة الفاطمية العلوية ثم زوجه ابنته ومعها ثروة عظيمة .

وفاة الخليفة المقتفي لأمر الله العباسي وخلافة المستنجد بالله

وفي هذه السنة أيضاً توفى أمير المؤمنين المقتفى لأمر الله أبو عبد الله أحمد ابن المستظهربالله أبي العباس أحمد بن المقتدى بأمر الله . وكانت خلافته أربعاً وعشرين سنة وثلاثة أشهر وستة عشر يوماً . ومات في ٢ ربيع الأول ، وكان حليما كريماً عادلا حسن السيرة ، وهو أول من استبد بالعراق منفرداً عن سلطان يكون معه ، وأول خليفة تمكن من الخلافة وحكم على عسكره ، وكان شجاعاً مقداماً مباشراً للحروب بنفسه .

ثم بويع للمستنجد بالله أمير المؤمنين واسمه يوسف بعد موت والده . وكان للمقتفى حظية وهى أم ولده على ، فلما اشتد مرض المقتفى ويئست منه ، أرسلت إلى جماعة من الأمراء ، وبذلت لهم الإقطاعات الكثيرة والأموال الجزيلة ، ليساعدوها على أن يكون ولدها خليفة ، فقالوا كيف الحيلة مع ولى العهد ؟ فقالت إذا دخل على والده قبضت عليه ، وكان كل يوم يدخل على أبيه ، فلما استقرت القاعدة بينهم ، استحضرت أم علي بعض جوار وأعطتهن السكاكين ، وأمرتهن بقتل ولى العهد المستنجد بالله .

وكان له خصي صغير يرسله كل وقت يتعرف أخبار والده ، فرأى الجوارى بأيديهن السكاكين ورأى بيد على ووالدته سيفين ، فعاد إلى المستنجد وأخبره ، وأرسلت إلى المستنجد تقول له إن والده قد حضره الموت ليحضر ويشاهده ، فاستدعى أستاذ دار عضد الدولة وأخذه معه وجماعة من الفراشين ودخل الدار وقد لبس الدرع وأخذ بيده السيف ، فلما دخل ثاربه الجواري فضرب واحدة منهن فجرحها ، وكذلك أخرى ، وصاح ، ودخل أستاذ الدار ومعه الفراشون ، فهربت الجوارى وأخذ أخاه أبا على وأمه فسجنهما ، وأخذ الجوارى فقتل منهن وغرق منهن ودفع الله عنه .

ولما توفي المقتفى جلس للبيعة فبايعه أهله وأقاربه ، وأولهم عمه أبو طالب ثم أخوه أبوجعفر وكان أكبر من المستنجد ثم بايعه الوزير ابن هبيرة والقاضى وأرباب الدولة والعلماء .

تاريخ جامع سيدنا الحسين رضي الله عنه

كان أمير الجيوش أثناء حروبه في سوريا ، قد ظفر بمدفن رأس الإمام الحسين في عسقلان ، فابتنى عليه مشهداً عظيما . فمن أعمال الملك الصالح طلائع بن رزيك وزير مصر أنه لما علم بوجود مشهد سيدنا الحسين رضى الله عنه بتلك الجهة ، خاف عليه من هجمات الافرنج ، فعزم على نقله إلى مصر ، فابتنى له جامعاً مخصوصاً خارج باب زويلة ، دعاه جامع الصالح نسبة إليه (ولم يزل موجوداً الآن بأول قصبة رضوان) بنية أن يجعل فيه الرأس الشريفة ، فلما فرغ من بنائه لم يمكنه الخليفة من ذلك بدعوى أنه لا يليق أن يكون ذلك الأثر الشريف خارج سور المدينة ، فكانت حجته حقاً وأبى إلا أن يجعله فى بعض أجزاء قصره المدعو قصر الزمرد ، فأقام له مشهداً هناك .

ثم في سنة ٧٤٠ هجرية ، احترق المشهد في ولاية السلطان الناصر محمد بن قلاوون الثالثة ، فأعيد بناؤه ، وقد اعتني به السلاطين والأمراء في كل عصر بعمارته وزخرفته وتحليته وإعلاء شأنه . وأخيراً أقيم فى جواره جامع ، حتى إذا كانت أيام الأمير عبد الرحمن كتخدا أحد أمراء المماليك ، أعيد بناء المشهد الحسيني في سنة ١١٧٥ . وبعد ذلك أعيد بناؤه برمته في أيام الخديوى الأسبق اسماعيل باشا سنة ١٢٨٢ ، وكان الناظر على الأوقاف المصرية الأمير راتب باشا ، وتمت عمارته فى ٢٨ محرم سنة ١٢٩٠ إلا المئذنة ، فتمت فى سنة ١٢٩٥ ، وأدخل في الجامع عدة بيوت ، ولم يبق من البناء القديم إلا القبة المغطية لمقام الإمام التى جرى تصليحها في سنة ١٣١٦ بأمر أفندينا الحالى عباس باشا الثانى ، فأصبح على مانشاهده الآن ، وهو الجامع المعروف بجامع سيدنا الحسين بالسكة الجديده بالقاهره تجاه خان الخليلى .

قتل الصالح بن رزيك وزير مصر

كانت إدارة الأحكام بمصر منوطة بالوزير ، ولذلك كان النفوذ الأكبر للملك الصالح طلائع بن رزيك ، ولم يكن الخليفة العاضد لدين الله أقل استعباداً من سلفه ، ولقب الصالح بلقب ملك ثم لقب بالسلطان ، ففتحت أعين الأعداء عليه وفى جملتهم عمة الخليفة فعزمت على قتله ، فأرسلت أولاد الداعى فكمنوا

له في دهليز القصر ، وضربوه حتي سقط على الأرض على وجهه ، وحمل جريحاً لايعى إلى داره وفيه حياة ، فأرسل إلى العاضد يعاتبه على الرضا بقتله مع أثره فى خلافته ، فأقسم العاضد أنه لايعلم بذلك ولم يرض به ، فقال إن كنت بريئا فسلم عمتك إلى حتى أنتقم منها ، فأمر بأخذها فأرسل إليها فأخذها قهراً وأحضرت عنده فقتلها ووصى بالوزارة لابنه محيي الدين رزيك ، ولقبه بالملك العادل ، وكنيته أبو شجاع ، ومات يوم الاثنين ١٩ رمضان سنة ٥٥٦ ، وكان شجاعا كريماً فاضلا محباً لأهل الأدب جيد الشعر وفيه عقل وسياسة وتدبير ، وكان مهابا فى شكله عظيما فى سطوته وغناه ، وكان محافظاً علي الصلوات فرائضها ونوافلها شديد المغالاة في التشيع ، صنف كتابا سماه « الاعتماد في الرد على أهل العناد » جمع له الفقهاء وناظرهم عليه وهو يتضمن إمامة على بن أبى طالب، والكلام على الأحاديث الواردة في ذلك ، وله شعر كثير يشتمل على مجلدين .

وفاة بودوين الثالث وولاية أخيه أمورى



الملك أومرى ملك القدس

كان الملك بودوين الثالث ملك القدس مقيما بمدينة انطاكيه فاعترته الحمي فأمر بنقله إلى مدينة طرابلس ومنها إلى مدينة بيروت ، وهناك فاجأته الوفاة ، وكان ذلك سنة ١١٦٢ ميلادية الموافقه لسنة ٥٥٨ هجرية فنقل جسمه إلى

القدس لكى يدفن تحت جبل الجلجلة ، فحزنت عليه الافرنج لما كان معروفا به بينهم من العدل وكرم الأخلاق والشجاعة ، ولم يكن له ولد يرث ملكه بعده والذي يستحق الملك هو أخوه أمورى صاحب عسقلان ويافا .

ولما كانت صفات وأخلاق أمورى المذكور بعكس أخيه ، عارض رؤساء المملكة بتوليته ، وأخيراً توجوه ملكا عليهم ، وكان متصفاً بالكبر والبخل والطمع .

وزارة شاور ووزارة ضرغام بعده

كان شاور في ابتداء أمره يخدم الصالح بن رزيك ، ثم ولاه الصالح حكم الصعيد وهو أكبر وظيفة بعد الوزارة ، فظهرت منه كفاية عظيمة ، وتقدم زائد ، واستمال الرعية والمقدمين من العرب وغيرهم ، فعسر أمره علي الصالح ولم يمكنه عزله ، فأدام استعماله خوفا من الخروج عن طاعته ، فلما جرح الصالح أوصي ابنه ألا يتعرض لشاور قائلا له إننى أنا أقوي منك ، وقد ندمت على استعماله ولم يمكننى عزله ، فلما توفي الصالح وولى ابنه العادل الوزارة حسن له أهله عزل شاور واستخدام بعضهم مكانه ، فأرسل إليه بالعزل فجمع جموعا كثيرة وسار إلى القاهرة بهم ، فهرب منه العادل بن الصالح فأخذ وقتل ، وصار شاور وزيراً للخليفة العاضد لدين الله .

وكان ذلك في صفر سنة ٥٥٨ وتلقب بأمير الجيوش ، وأخذ أموال بنى رزيك وودائعهم وذخائرهم . وكان الملك الصالح قد رتب فى عهد وزارته الأمراء البرقية ، وجعل في مقدمتهم ضرغام أبا الأشبال ، فترقي هذا الرجل حتى صار صاحب الباب ، فلما تولى شاور الوزارة طمع ضرغام فى سلبها منه ، فجمع رفقته مخاف شاور وجمع إليه رجاله ، فاصبح الجيش فرقتين ، فرقة مع ضرغام وأخرى مع شاور ، وفي شهر رمضان من السنة المذكورة ، ثار ضرغام على شاور فأخرجه من القاهرة ، وقتل ولده الأكبر المسمى بطى وبقى شجاع المنعوت بالكامل وخرج شاور من القاهرة يريد الشام ، واستقر ضرغام فى وزارة العاضد لدين الله ، وتلقب بالملك المنصور ، فشكر الناس سيرته وكان فارس عصره كاتباً جميل الصورة عاقلا كريماً .

في دخول أسد الدين شيركوه مصر أول مرة

لما خرج شاور من مصر ، سار إلى نور الدين بدمشق الشام يستنجده ليعيده إلى الوزارة فأحسن وفادته وأكرم مثواه ، فطلب منه إرسال العساكر إلى مصر ليعيده إليها ويكون له فيها ثلث دخل البلاد بعد إقطاعات العساكر وأنه يتصرف طبق أمره ونهيه ؛ فأخذ نور الدين يقدم في ذلك رجلا ويؤخر أخرى تارة تحمله رعاية شاور وطلب الزيادة فى الملك والتقوى على الإفرنج ، وتارة يمنعه خطر الطريق ووجود الإفرنج فيه إلى أن قرر العمل واستخار الله تعالى ، وأمر أسد الدين شيركوه أحد رجاله بالتأهب للمسير معه قضاء لحق الوافد المستصرخ وحباً بالبلاد والوقوف على أحوالها ، وكان ذلك موافقاً لهوى أسد الدين إذ كان فى صدره من الشجاعة وقوة النفس مالا يبالى معه بمخافة ، فتجهز وسار مع شاور فى جماد الأولى سنة ٥٥٩ وساروا جميعاً وسار معهم نور الدين إلى أطراف بلاد المسلمين مهدداً الافرنج بعساكره ، ليشغلهم عن التعرض لأسد الدين فكان قصارى هم الافرنج حفظ بلادهم من نور الدين .

وفى أثناء ذلك قصد الملك أمورى ملك القدس بلاد مصر ، لأخذ مال الهدنة المقرر على مصر دفعه للإفرنج من يوم أخذوا عسقلان ، وهو ثلاث وثلاثون ألف دينار . فلما وصلت الإفرنج إلى حصن بلبيس وملكوا بعض السور ، خرج إليهم همام أخو ضرغام وحاربهم فغلبوه ، ثم عادوا إلى بلادهم وعاد همام عوداً رديئاً فما هو إلا أن قدم رسل الإفرنج على ضرغام فى طلب مال الهدنة المقررة ثم وصل أسد الدين شيركوه إلى مصر سالماً ومعه شاور .

ولما علم ضرغام بذلك اضطرب وأصبح الناس خائفين على أنفسهم وأموالهم ، فجمعوا الأقوات والماء وتحولوا من مساكنهم ، وخرج همام بالعسكر في أول جماد الآخر سنة ٥٥٩ فسار إلى بلبيس فقابل أسد الدين وشاور وحصلت بينهم وقعة انهزم فيها همام وامتلك أسد الدين وشاور جميع ما كان مع عساكره ، وأسروا عدة ونزلوا إلى التاج (قليوب) ظاهر القاهره يوم الخميس ٦ جماد الآخر ، فجمع ضرغام الناس وضم إليه الطائفة الريحانية والطائفة الجيوشية بداخل القاهرة ، وأسد الدين وشاور مقيمان فى التاج مدة أيام ثم ساروا ونزلوا فى المقس (الأزبكية) فخرج إليهم عسكر ضرغام فقاتلوه فانهزم

ضرغام هزيمة قبيحة وساروا إلى بركة الحبش ونزلوا بالشرف الذى عرف بعد ذلك بالرصد ، وملك أسد الدين مدينة مصر القديمة وأقام فيها أياما فأخذ ضرغام مال اليتامى المودع عند الحاكم فكرهه الناس واستعجزوه ، ومالوا الى شاور فتنكر منهم ضرغام ، وتحدث بإيقاع العقوبة بهم فزاد بعضهم له ، ونزل أسد الدين وشاور في أرض اللوق خارج باب زويلة ، وطارد أسد الدين رجال ضرغام وزحف إلى باب سعادة وباب القنطرة ، وأضرم النار في اللؤلؤة وماحولها من الدور وعظمت الحروب بينهم ، وفنى كثير من الطائفة الريحانية ، فبعثوا إلى شاور ووعدوه بأن يكونوا أعواناً له ، فانحل أمر ضرغام فأرسل العاضد إلى الرماة يأمرهم بالكف عن الرمى ، فخرج الرجال إلى شاور وصاروا من جملته وفترت همة أهل القاهرة ، وأخذ كل منهم يعمل الحيلة في الخروج إلى شاور .

فأمر ضرغام بضرب الأبواق والطبول من فوق الأسوار ، فلم يخرج إليه أحد وانفك عنه الناس ، وسار إلى باب الذهب من أبواب القصر ومعه ٥٠٠ فارس ، فوقف وطلب من الخليفة أن يشرف عليه من الطاق وتضرع اليه وأقسم عليه بآبائه فلم يجبه أحد ، واستمر واقفاً إلى العصر والناس تنحل عنه حتى بقي فى نحو ٣٠ فارساً فوردت عليه رقعة مكتوب فيها (خذ نفسك وانج بها) وإذا بالأبواق والطبول قد دخلت من باب القنطرة ومعها عساكر أسد الدين وشاور ، فمر ضرغام إلى باب زويلة فصاح الناس عليه ولعنوه وتخطفوا من معه وأدركه القوم فرموه عن فرسه قريباً من الجسر الأعظم من القاهرة ومصر القديمة قرب جامع السيدة نفسية ، وجزوا رأسه في غاية جمادي الآخرة ، وفر منهم أخوه إلى جهة المطرية فأدركه الطلب وقتل عند مسجد تبر خارج القاهره ، وقتل أخوه الآخر عند بركة الفيل ، وبقى ضرغام ملقي على الأرض يومين ، ثم حمل إلى القرافة ودفن بها .

وأعيدت وزارة مصر إلى شاور فاستلم زمامها وصار يدفع إلى أتابك نور الدين ثلث الدخل مقابلة لما بذله في إعادته إليها وأقام أسد الدين بظهر القاهرة حسب الاتفاق الذى عمل مع نور الدين بأن يكون أسد الدين موجوداً بمصر ، فاستاء من ذلك شاور وأراد أن يغدر به . وعاد عما كان قرره لنور الدين من

البلاد المصرية ولأسد الدين أيضاً . وأرسل إليه يأمره بالعود إلى الشام ، فأنف أسد الدين من هذا الحال ، وأعاد الجواب بطلب ما كان استقر فلم يجبه شاور إليه فلما رأى ذلك أرسل أسد الدين نوابه فاستولوا على بلبيس وباقي الجوف الشرقى ، فأرسل شاور إلى الملك أمورى ملك القدس يستمده ويخوفه من نور الدين إن ملك مصر ، وكان الإفرنج قد أيقنوا بالهلاك إن ملكها نور الدين . فلما أرسل شاور إليهم يستنجدهم ويطلب منهم أن يساعدوه على إخراج أسد الدين من البلاد ، جاءهم فرج لم يحسبوه وأسرعوا ملبين دعوته وبادروا إلى نصرته ، وطمعوا في ملك ديار مصر ، وكان قد بذل لهم مالا على المسير إليه فتجهزوا وساروا . فلما بلغ نور الدين خبر تجهيزهم للمسير سار بعسكره فى أطراف بلاده مما يلي بلاد الإفرنج ليمتنعوا من المسير ، فلم يمتنعوا لعلمهم أن الخطر فى مقامهم إذا ملك أسد الدين مصر أشد من الخطر فى مسيرهم ، فتركوا فى بلادهم من يحفظها .

وسار الملك أمورى في باقي عسكره وكان قد وصل إلى ساحل الشام جمع كثير من الإفرنج فى البحر ، لزيارة بيت المقدس ، فاستعان بهم الملك أمورى فأعانوه وساروا معه فلما دنا الإفرنج من مصر ، فارقها أسد الدين وقصد مدينة بلبيس وأقام بها هو وعسكره وجعلها ظهراً يتحصن به ، فاجتمعت العساكر المصرية والإفرنجية ونازلت أسد الدين بمدينة بلبيس وحصروه بها ثلاثة أشهر ، فامتنع بها وسورها من طين قصير جداً وليس له خندق ولا جبل يحميها ، وهو يغاديهم بالقتال ويراوحهم ، فلم يبلغوا منه غرضا ، ولا نالوا منه مأرباً ، فبينما هم كذلك إذ أتاهم الخبر بهزيمة الإفرنج بحارم واستيلاء نور الدين على الحصن ومسيره إلى بانياس ، فحينئذ أرادوا العود إلى بلادهم ليحفظوها ، ولعلهم يدركون بانياس قبل أخذها ، فلم يدركوها إلا وقد ملكها على ماسيأتى .

وراسلوا أسد الدين في الصلح والعودة إلى الشام ومفارقة مصر وتسليم مابيده فيها إلى المصريين ، فأجابهم إلى ذلك لأنه لم يعلم بما فعله نور الدين بالإفرنج فى الساحل ، فأخرج أسد الدين أصحابه بين يديه من بلبيس وبقى فى آخرهم وبيده لت من حديد يحمي ساقتهم ، والمصريون والإفرنج ينظرون فأتاه إفرنجى

فقال له أما تخاف أن يغدر بك هؤلاء المصريون والإفرنج وقد أحاطوا بك وبأصحابك فلا يبقى لك معهم بقية ؟ فقال شيركوه ياليتهم فعلوا حتي كنت ترى مالم تر مثله ، كنت والله أضع فيهم السيف فلا أقتل حتى أقتل رجلا وحينئذ يقصدهم الملك العادل نور الدين وقد ضعفوا وفني أبطالهم فيملك بلادهم ويفنى من بقي منهم ، ووالله لو أطاعنى هؤلاء يعنى أصحابه لخرجت إليكم أول يوم لكنهم امتنعوا فصفع الإفرنجى على وجهه وقال كنا نستعجب من إفرنج الشام ومبالغتهم في صفتك وخوفهم منك والآن فقد عذرناهم ثم رجع عنه . وسار شيركوه إلى الشام وعاد سالماً وفى قلبه من شرشاور الإحن ، وكيف تمت بغدره تلك المحن .

فتح حارم

فى سنة ٥٥٩ اغتنم نور الدين خلو الشام من الإفرنج ، فراسل أخاه قطب الدين بالموصل ، وفخر الدين قرا أرسلان بالحصن ، ونجم الدين ألبى بماردين ، وطلب منهم مساعدته بالجيوش فى حرب الإفرنج ، فوردت إليه الأمداد من كل جهة ، وسار نحو حارم فنزل عليها وحصرها ، وبلغ الخبر إلى من بقى من الإفرنج بالساحل ، فحشدوا جيوشهم وجاءوا وفى مقدمتهم رايمند صاحب طرابلس ، وبوهيموند الثالث أمير أنطاكية ، ودوك الروم ومقدمتها وجمعوا معهم من الجيوش مالايقع عليه إحصاء ، وقد ملأوا الأرض ، فحرض نور الدين أصحابه وفرق نفائس الأموال على شجعان الرجال ، فلما قاربه الإفرنج رحل عن حارم إلى أرتاح طمعاً أن يتبعوه ، ويتمكن منهم إذا لاقوه ، فساروا حتي نزلوا وتيقنوا أنه لاطاقة لهم بقتاله ، ولا قدرة لهم على نزاله ، فعادوا إلى حارم وتبعهم نور الدين ، فلما تقاربوا اصطفوا للقتال ، وبدأت الإفرنج بالحملة على ميمنة المسلمين وبه عسكر حلب ، فبددوا نظامهم ، وزلزلوا أقدامهم ، وولوا الأدبار وتبعهم الإفرنج .

وكان ذلك باتفاق ورأى دبروه ، ومكر مكروه ، وهو أن يبعدوا عن راجلهم فيميل عليهم من بقي من المسلمين ويضعوا فيهم السيوف ، فإذا عادت فرسانهم من أثر المنهزمين لم يلقوا راجلا يلجأون إليه ، ويعود المنهزمون فى إثارهم وتأخذهم سيوف المسلمين من بين أيديهم ومن خلفهم فكان الأمر كذلك .

لأن الإفرنج لما تبعوا المنهزمين عطف زين الدين في عسكر الموصل على راجلهم فأفناهم قتلاً وأسراً ، وعاذت فرسانهم فلم تجد غير جثث القتلى ورأوا أنهم قد ضلوا ، وارتد عليهم عسكر حلب المنهزمون فأخذ الإفرنج في الوسط وقد أحاط بهم المسلمون من كل جانب ، فحينئذ حمى الوطيس وباشر الحرب المرءوس والرئيس ، وقاتل الإفرنج قتال من يرجو النجاة ، وحاربوا حرب من أيس من الحياة .

وانقضت العساكر الإسلامية عليهم فمزقوهم وقد أوقعوا فيهم القتل والأسر بكثرة ، فأسروا البرنس بوهيموند الثالث صاحب أنطاكية ، ورايمند صاحب طرابلس ودوك الروم وغيرهم من قوادهم . وسار نور الدين بعد ذلك إلى حارم فملكها في ٢١ رمضان من تلك السنة ، وبث سراياه فى تلك الأعمال والولايات فنهبوا وسبوا وأوغلوا فى البلاد حتي بلغوا اللاذقية والسويدا ، وعادوا سالمين . ثم إن نور الدين أطلق بوهيموند صاحب أنطاكية بمال جزيل أخذه منه وأسرى كثيرة من المسلمين أطلقهم .

فتح بانياس

لما فتح حارم نور الدين كما تقدم ، أمر عساكر الموصل وديار بكر بالعود إلى بلادهم ، وأظهر أنه يريد محاربة طبرية فجعل من بقي من الإفرنج همهم في حفظها وتقويتها ، فسار نور الدين إلى بانياس لعلمه بقلة من فيها من الحماة المدافعين عنها ، ونازلها وضيق عليها وقاتلها ، وكان في جملة عسكره أخوه نصرة الدين أمير أميران ، فأصابه سهم فأذهب إحدي عينيه ، فلما رآه نور الدين قال له لو كشف الله لك عن الأجر الذى أعد لك لتمنيت ذهاب الأخرى ، ثم جد في حصارها فسمع الإفرنج فجمعوا رجالهم ، ولم تتكامل عدتهم حتى فتحها . على أن الإفرنج كانوا قد ضعفوا بقتل رجالهم بواقعة حارم وأسرهم ثم ملك القلعة وملأها ذخائر وعدة ورجالا وشاطر الإفرنج فى أعمال طبرية ، وقرروا له على الأعمال التي لم يشاطرهم عليها مالا في كل سنة .

ثم عاد نور الدين منها إلى دمشق وكان بيده خاتم بفص ياقوت من أحسن الجوهر يسمى الجبل لكبره وحسنه ، وفي أثناء مسيره سقط من يده في جهة كثيرة الأشجار ملتفة الأغصان ولما بعد عن هذا المحل تذكره ، فأرجع بعض رجاله للبحث عنه ودلهم على الموقع الذى كان آخر عهده به فوجدوه .

في دخول أسد الدين شيركوه مصر المرة الثانية

بعد خروج أسد الدين من بلبيس التقي بنور الدين فحارب معه الصليبيين وانتصرا ، إلا أن انتصارهما لم يقلل شيئاً من رغبة أسد الدين فى افتتاح مصر ، فكان من وقت إلى آخر يحث نور الدين على ذلك . وكان مما يهيجه على العود إلى مصر زيادة حقده على شاور فأذن له نور الدين بالمسير ومعه جماعة من الأمراء وابن أخيه صلاح الدين يوسف بن أيوب .

فلما علم شاور وزير مصر وتأكد أنه إذا لم يسارع إلى ملاقاة الخطب ، لاتلبث مصر حتى تصير في يد نور الدين ، على أن الصليبيين من الجهة الأخرى لا ينفكون ليلهم ونهارهم ساعين إلى افتتاح مصر وقد قطعوا السبيل على جيوش أسد الدين فى سيرها إلى مصر ، فساروا بجيش عظيم تحت قيادة الملك أمورى حتي لم يبق صليبى إلاسار فى ذلك الجيش ، أما أسد الدين فقطع سوريا حتي بلغ حدود مصر ودخلها فى ربيع أول سنة ٥٦٢ ، وكان الصليبيون قد ساروا بقيادة ملكهم في الصحراء ، فلم يظفروا بأحد ثم عادوا إلى غزة فالعريش ثم إلى بلبيس ، أما جيش أسد الدين فكان قد تجاوز بلبيس حتى بلغ عطاس فعسكر قرب القاهرة وتهددها .

فخاف شاور من قدوم الجيشين المذكورين وكل منهما يحاول الفوز لنفسه ، ففضل أن يسلم القاهرة للصليبيين ويحملهم على قتال أسد الدين الذى كان على بعد ١٢ ميلا من تلك العاصمة . فرأى أسد الدين شيركوه أن جيشه بعد أن قاسى الأهوال في عبور الصحراء لايسهل عليه الهجوم على هذه المدينة ، فاجتاز النيل إلى البر الغربى بقرب أطفيح ونزل بالجيزة تجاه مصر ، وبنى له استحكامات تقيه من العدو .

فدخل الصليبيون القاهرة ولكنهم لم يوافقوا شاورا على ماأراد إلا بعد أن تعهد لهم بزيادة الجزية السنوية عما كان يدفعه للملك أمورى قائد تلك الحملة ، فعين معتمدين من قبله لعقد المعاهدة بذلك ، فأنهوها على ماأراده الصليبيون ، فقبضوا منه مبلغ مائتي ألف دينار نقداً على وعد أن يقبضوا مثله بعد مدة يسيرة .

ثم أراد الملك أمورى مهاجمة أسد الدين شيركوه على جسر يصنعه من القوارب ، فجعل شيركوه كلما ابتدأوا فى بناء الجسر يشغلهم عن إتمامه فبقى الجيشان فى مثل ذلك نحو ٥٠ يوماً وأكثر ، تمكن أثناءها شيركوه من تملك الضفة الغربية للنيل .

محاربة أسد الدين شيركوه المصريين والصليبيين

فبعد تملك أسد الدين البلاد الغربية للنيل ، سار إلى الصعيد حتي بلغ مكانا يعرف بالبانين ، أما الصليبيون فإنهم اجتازوا إلى البر الغربى عند رأس الدلتا ومعهم العساكر المصرية ، فأدركوهم هناك في ٢٥ جماد أول سنة ٥٦٢ ، وكان قد أرسل إليهم جواسيس ، فعادوا وأخبروه بكثرتهم وجدهم في طلبه ، فعزم على قتالهم ولقائهم وأن يحكم السيوف بينه وبينهم إلا أنه خاف أن تضعف نفوس أصحابه عن الثبات في هذا المقام الخطير الذى عطبهم فيه أقرب من السلامة لقلة عددهم وبعدهم عن بلادهم .

فاستشارهم فكلهم أشاروا عليه بعبور النيل إلى الجانب الشرقى والعود إلى الشام . وقالوا له إن نحن انهزمنا وهو الذى لاشك فيه فإلى أين نلتجيء وبمن نحتمي ، وكل من في هذه الديار من جندى وعامي وفلاح عدولنا ويودون لو شربوا من دمائنا (وحق لعسكر عدده ألفا فارس قد بعدوا عن ديارهم وقل ناصرهم أن يرتاعوا من لقاء عشرات الألوف مع أن كل فرد من أهل البلاد عدو لهم) فلما قالوا ذلك قام رجل من المماليك النورية يقال له شرف الدين برغش ، وكان مشهوراً بالشجاعة وقال من يخاف القتل والجراح والأسر فلا يخدم الملوك بل يكون فلاحاً أو مع النساء في بيته ، والله لئن عدتم إلى الملك العادل نور الدين من غير غلبة وبلاء تعذرون فيه ليأخذن إقطاعاتكم وليعودن عليكم بجميع ما أخذتموه إلى يومنا هذا ، ويقول لكم أتأخذون أموال المسلمين وتفرون من عدوهم وتسلمون مثل هذه الديار المصرية يتصرف فيها الكفار .

فقال أسد الدين هذا رأيي وبه أعمل ووافقهما صلاح الدين يوسف بن أيوب ثم كثر الموافقون لهم علي القتال فاجتمعت الكلمة على اللقاء ، فأقام بمكانه حتى أدركه المصريون والصليبيون وهو على تعبئة وقد جعل الأثقال في القلب

يتكثر بها ولأنه لم يمكنه أن يتركها بمكان آخر فينهبها أهل البلاد ثم إنه جعل صلاح الدين ابن أخيه فى القلب وقال له ولمن معه إن الصليبيين والمصريين يظنون أننى في القلب فهم يجعلون كل قوتهم بازائه وحملتهم عليه ، فإذا حملوا عليكم فلا تصدقوهم القتال ولا تهلكوا نفوسكم واندفعوا بين أيديهم ، فإذا عادوا عنكم فارجعوا في أعقابهم .

واختار من شجعان أصحابه جمعاً يثق إليهم ويعرف صبرهم وشجاعتهم ، ووقف بهم في الميمنة ، فلما تقابل الطائفتان فعل الصليبيون ماذكره أسد الدين وحملوا على القلب ظانين أنه فيه فقاتلهم من به قتالا يسيراً ثم انهزموا من أمامهم فتبعوهم ، فحينئذ حمل أسد الدين فيمن معه على من تخلف من الصليبين الذين حملوا على القلب فهزمهم ، ووضع السيف فيهم فأثخن وأكثر القتل والأسر وانهزم الباقون ، فلما عاد الصليبيون من أثر المنهزمين الذين كانوا فى القلب ، رأوا مكان المعركة من أصحابهم بلقعاً ليس فيه منهم مقاتل فانهزموا أيضاً ، وكان هذا من أعجب مايؤرخ (إن ألفى فارس تهزم عساكر مصر والصليبيين) .

استيلاء أسد الدين على الإسكندرية ومحاربة المصريين والصليبيين

بعد الواقعة المذكورة ، سار أسد الدين إلى ثغر الإسكندرية وجبي الأموال من القرى التي فى طريقها ، فلما وصل سلمت من غير قتال فاستناب بها صلاح الدين ابن أخيه وعاد إلى الصعيد وتملكه وجبي أمواله وأقام فيه حتي صام رمضان ، أما المصريون والصليبيون فإنهم عادوا إلى القاهرة وجمعوا أصحابهم فاستعاضوا عمن قتل منهم واستكثروا وحشدوا ، وساروا إلى الإسكندرية وبها صلاح الدين فى عسكر يمنعها منهم وقد أعانه أهلها خوفاً من الصليبيين الذين حاصروها وضيقوا عليها فصبر أهل الاسكندرية وصدقوا مع صلاح الدين فى الجهاد وقل الطعام بالبلد فصبر أهله على ذلك ، ثم إن أسد الدين سار من الصعيد نحوهم وكان قد استمال شاور بعض من معه من التركمان بالمال ووصله رسول المصريين والصليبيين يطلبون الصلح وبذلوا له خمسين ألف دينار سوى مايأخذه من البلاد فأجابهم إلى ذلك .

في رجوع أسد الدين والصليبيين من مصر

لما عرض الصليبيون والمصريون على أسد الدين كما تقدم أجابهم بشرط أن ينسحب الصليبيون وأسد الدين من الديار المصرية بسلام وترجع الإسكندرية إلى شاور ، وأن الصليبيين لايملكون من مصر ولا قرية فقبل الفريقان هذه الشروط ، وسلم مدينة الإسكندرية إلى شاور فى منتصف شهر شوال سنة ٥٦٢. وعاد أسد الدين شيركوه ومعه ابن أخيه صلاح الدين يوسف إلى دمشق في ١٨ ذى القعدة وعادوا إلى الخدمة النورية فامتدحه الشعراء والأفاضل ومنهم العماد امتدحه بقصيدة طويلة منها :

بغلت بالجد مالا يبلغ البشر ... ونلت ماعجزت عن نيله القدر
من يهتدى للذى أنت اهتديت له ... ومن له مثل ما أثرته أثر
أسرت أم بسراك الأرض قد طويت ... فأنت إسكندر في السير أم خضر
تناقلت ذكرك الدنيا فليس لها ... إلا حديثك ما بين الورى سمر
فأنت من زانت الأيام سيرته ... وزاد فوق الذى جاءت به السير
لو فى زمان رسول الله كنت أتت ... في هذه السيرة المحمودة السور
أصبحت بالعدل والإقدام منفرداً ... فقل لنا أعلى أنت أم عمر
إسكندر ذكروا أخبار حكمته ، ... ونحن فيك رأينا كل ماذكروا
ورستم خبرونا عن شجاعته ... وصار فيك عياناً ذلك الخبر
افخر فإن ملوك الأرض أذهلهم ... ماقد فعلت فكل فيك مفتكر
سهرت إذ وقدوا بل هجت إذ سكنوا ... وصلت إذ جنبوا بل طلت إذ قصروا

وأما الصليبيون فلم يريدوا مبارحة القاهرة حتي استقر بينهم وبين شاور أن يكون لهم بالقاهرة حامية ويكون أبوابها بيد فرسانهم ليمنع الملك العادل نور الدين من إنفاذ عسكر إليهم ويكون للصليبيين من دخل مصر كل سنة مائة ألف دينار ، وجرى هذا كله بين الصليبيين وشاور بدون علم خليفة مصر العاضد لأن شاور حكم عليه وحجبه ، وعاد الصليبيون إلى بلادهم بعد ماتركوا جماعة من فرسانهم ومشاهيرهم وأعيانهم بمصر والقاهرة على القاعدة المذكورة .

في محاربة نور الدين بلاد الإفرنج

في هذه السنة جمع نور الدين العساكر ، فسار إليه أخوه قطب الدين من الموصل وغيره فاجتمعوا على حمص ، فدخل نور الدين بالعساكر بلاد الإفرنج فاجتازوا حصن الأكراد ، فأغاروا ونهبوا وقصدوا عرقه فنازلوها وحصروها وحصروا حلية وأخذوها وخربوها ، وسارت عساكر المسلمين في بلادهم يميناً وشمالا تغير وتخرب البلاد وفتحوا العربمة وصافينا ، وعادوا إلى حمص فصاموا بها رمضان ، ثم ساروا إلى بانياس وقصدوا حصن (هونين) وهو للإفرنج ومن أمنع حصونهم ومعاقلهم ، فانهزم الإفرنج عنه وأحرقوه ، فوصل نور الدين فى الغد فهدم سوره جميعه وأراد الدخول فى بيروت فتجدد فى العسكر خُلف أوجب التفرق ، فعاد قطب الدين إلى الموصل وأعطاه نور الدين مدينة الرقة على الفرات فأخذها في طريقه وهو عائد .

في تجهيز الملك أمورى عسكره للاستيلاء على الديار المصرية

لما رجع الملك أمورى إلى القدس تزوج بابنة أخي الملك عمانويل ملك الروم بالقسطنطينية ، وقد زاد طمعه وأخذ رجاله المقيمون بمصر والقاهرة يكاتبونه ويطلبون منه القدوم إلى مصر لاستلامها ، قائلين له إنها خالية من حام يحميها أو يدافع عنها ، ومتى حضرت تستلمها بدون حرب وقتال ، فجمع مجلس شوراه بمدينة القدس ، وأعلمهم بالمكاتبات الواردة إليه من مصر وعزمه على المسير إليها واستيلائه عليها ، فعارضوه وخصوصاً رئيس جمعية الرهبان الهيكليين وجمعية ضيوف الغرباء (مارى يوحنا المعمدان) قائلين إنه لايصح نقض المعاهدة المحررة بينه وبين شاور وزير مصر ، وإننا لا نقصدها فإنها طعمة لنا وأموالها تساق إلينا نتقوى بها على نور الدين ، وربما إذا قصدناها لنملكها لا يسلمها صاحبها وعساكره وأهلها إلينا ، ويقاتلوننا دونها ويسلمونها إلى نور الدين فلم يصغ إلى قولهم وظل مصمماً على الدخول إليها والاستيلاء عليها وذلك لما انكشف له من عوارها ، وظهر له من ضعف من بقى فيها .

وكان يوجد فى مصر بعض الأمراء الذين يكرهون شاور ، فأرسلوا إليه وطلبوا قدومه ليسلموه مصر مكيدة فى شاور ، فلما سار الملك أمورى ووصل إلى الداروم ، كتب إلى شاور يقول له ، إني قد قصدت الخدمة على ماقررته لى من العطا فى كل عام ، فأجابه شاور إن الذى قررته لك إنما جعلته متي احتجت إليك أو إذا قدم على عدو ، فأما مع خلو بالى من الأعداء فلا حاجة لى بك وليس لك عندى مقرر . فأجابه أمورى أن لابد من حضورى وأخذى المقرر فعلم شاور أنه غدر بالعهد ونقض الأيمان وأنه قد طمع في البلاد .

استيلاء الصليبيين على بلبيس

لما علم شاور بغدر الصليبيين كما تقدم ، أخذ فى تجنيد الرجال وحشد العساكر إلى القاهرة وأنفذ إلى بلبيس فرقة من الجيش بقيادة طى ولده ، أما الملك أمورى فإنه سار يجدّ إلى أن وصل إلى بلبيس فى أول صفر سنة ٥٦٤ ، فخيم عليها وكان معه جماعة من المصريين منهم علم الملك بن النحاس ، وابن الخياط يحيي ، وابن قرجله ، وهم الذين كانوا قد كاتبوه ، وطلبوا قدومه ، فأرسل إلى طى بن شاور وقال له أين ننزل ، فقال على أسنة الرماح ، وقال له أتحسب أن بلبيس جبنة تأكلها ، فأرسل إليه أمورى يقول نعم هم جبنة والقاهرة زبدة ، ثم قاتل بلبيس ليلاً ونهاراً حتى افتتحها بالسيف قهراً ، وقتل من أهلها خلقاً عظيما وخرب أكثرها ، وأحرق حلل أدرها ثم أخرج الأسرى إلى ظاهر البلد وحشرهم فى مكان واحد وحمل في وسطهم برمحه ففرقهم فرقتين ، فأخذ الفرقة التى كانت عن يمينه لنفسه ، وأطلق الفرقة التي كانت عن يساره لعسكره ، وقال لفرقته قد أطلقتكم شكراً لله تعالى على ما أولانى من فتح بلاد مصر ، فإنى قد ملكتها بلا شك ووقف إلى أن عبر أكثرهم النيل إلى جهة منية حمل ، وأخذ العسكر نصيبهم من الأسرى فاقتسموهم وبقى أهل بلبيس الذين أسروا أكثر من أربعين سنة فى أسر الصليبيين وهلك أكثرهم فى أيديهم وأفلت منهم اليسير لأن الملك الناصر لما ملك ديار مصر وقف مغل بلبيس على كثرته على فكاك الأسرى منهم وسامح أهل بلبيس بخراجهم إلى آخر أيامه .

محاربة الصليبيين مدينة القاهرة

لما اتصل بشاور ماجرى على أهل بلبيس من القتل والأسر ، وأن الصليبيين شحنوها بالرجال والعدد وجعلوها لهم ظهراً ، أشفق من ذلك وطلب الإذن بالدخول على الخليفة العاضد ، فلما اجتمع به بكى بين يديه وقال اعلم أن البلاد قد ملكت ، ولم يبق إلا أن تكتب إلى نور الدين وتشرح له ماجرى وتطلب نصرته ومعونته ، فكتب جميع ذلك وسود أعاليها بالمداد وقيل إن الذى أشار بكتابة ذلك هو شمس الخلافة محمد بن مختار لأنه لما رجع من مقابلة الملك أمورى اجتمع بالكامل بن شاور وقال له عندى أمر لايمكننى أن أخبرك به إلا بعد أن تحلف لى بأنك لاتطلع أباك عليه ، فلما حلف له قال له إن آباك قد وطن نفسه على المصابرة وآخر أمره يسلم البلاد إلى الصليبيين ولايكاتب نور الدين ، وهذا عين الفساد فاصعد أنت إلى الخليفة وألزمه بأن يكتب إلى نور الدين فليس لهذا الأمر غيره .

وأما الصليبيون فإنهم ساروا إلى مصر ، ولما قربوا من المدينة أمر شاور بإحراقها وأنذر أهلها ، فخرج الناس منها على وجوههم وتشتتوا فى جميع الأنحاء وترك الناس أكثر أموالهم فنهبت وأحرقت مصر في تاسع صفر سنة ٥٦٤ وأقامت النار تعمل فيها أربعة وخمسين يوماً (ومدينة مصر المذكورة هى مصر القديمة الآن التى على ساحل النيل) ثم نزل الصليبيون فى بركة الحبش ، وانبثت أخبارهم في الأطراف وتخطفوا من ظفروا به ، فأنفذ شاور إلى أمورى شمس الخلافة ، فلما دخل عليه سأله أن يخرج معه إلى باب الخيمة ففعل ، فأراه شمس الخلافة جهة مصر وقال له أترى دخانا فى السماء قال نعم قال هذا دخان مصر ، فإنى ما أتيت إلا وقد أحرقت بعشرين ألف قارورة نفط وفرقت فيها عشرة آلاف مشعل وما بقى فيها ما يؤمل بقاؤه ونفعه ، فخل الآن عنك مدافعتى وكن كلما قلت لك ، انزل فى مكان تقدمت إلى غيره وما بقى لك إلا أن تنزل القاهرة ، فقال : هو كما تقول ، ولابد من نزول القاهرة ومعى إفرنج من رواء البحر قد طمعوا فى أخذها .

ثم رحل فنزل على القاهرة مما يلى باب البرقية نزولا قارب به البلد حتي صارت سهام البرج تقع في خيمته ، فقاتلوا البلد أياماً ولما تيقن شاور الضعف

عدل إلى طريق المخادعة والمخاتلة والمغاررة والمدافعة ، إلى أن تصل عساكر الشام ، فأنفذ شمس الخلافة إلى أمورى برسالة طويلة وفي ضمنها (إن هذا بلد عظيم وفيه خلق كثير ولا يمكن تسليمه البتة ولا أخذه إلا بعد أن يقتل من الفريقين عالم عظيم ، وما تعلم أنت ولا أنا لمن الدائرة ، والرأى أن تحقن دماء أصحابك ودماء أصحابي وتحصل شيئا أدفعه لك فيحصل لك عفواً) .

فاستقرت المصانعة على أربعمائة ألف دينار ، وقيل مليوناً ، يعجل له منها مائة ألف دينار . فأجاب أمورى إلى ذلك ، وانعقدت الهدنة وحلف أمورى ورحل إلى بركة الحبش ، وحمل شاور إليه مائة ألف دينار في عدة دفعات سوف فيها الأوقات ، ثم أخذ يماطله بالباقى انتظاراً لقدوم العساكر ويوهم أنه يجمع لهم الأموال .

دخول أسد الدين شيركوه مصر ثالث مرة

لما وصل كتاب الخليفة العاضد إلى نور الدين ، انزعج انزعاجاً عظيما ، وأنفذ أسد الدين وكان ذلك غاية مناه ، وأرسل معه الفقيه عيسى الهكارى إلى مصر برسالة ظاهرة إلى شاور يعلمه بقدوم العساكر ، ورسالة سرية إلى الخليفة العاضد ، وأمره أن يستحلفه على أشياء عينها وأن يكتم ذلك عن شاور ، فلما وصل أسد الدين شيركوه إلى القاهرة ، نزل بأرض اللوق وأخرج إليه شاور الاقامات الحسنة والخدم الكثيرة .

ثم أرسل شمس الخلافة إلى الملك أموري يستطلق منه بعض المال ، فصار إليه واجتمع به وقال قد قل علينا المال فقال أمورى اطلب منه شيئاً ، قال أشتهى أن تهب لى النصف ، قال قد فعلت ، فقال شمس الخلافة ما بلغني أن ملكا مثلك وهب مثل هذه الهبة ، فقال أمورى أنا أعلم أنك رجل عاقل ، وأن شاور ملك وأنكما ما سألتمانى هذا المال إلا لأمر حدث ، فقال له صدقت ، هذا أسد الدين قد وصل نصرة لنا وما بقي لك مقام ، وشاور يقول لك إن ترحل ونحن باقون على الهدنة فإنه أوفق لك ولنا ونحن نراضى هذا الرجل بشيء من هذا المال ، وتحمل الباقي إليك متى قدرنا ، وإن راضيناه بأكثر من هذا المال ، عدنا عليك بما يبقى علينا من المقدار ، فقال أمورى : أنا راض بذلك

وإن بقى على شيء حملته إليكم ، وعول على الرحيل ، فقال له بعد أن تطلق طي بن شاور ومن بقي من أسري بلبيس معكم ولا تأخذ من بلبيس بعد انصرافك شيئاً ، فأجابه إلى جميع ذلك .

ورحل الصليبيون عن مصر ، ولما نزل أسد الدين بأرض اللوق كما تقدم ، أرسل له العاضد هدية عظيمة وخلعاً كثيرة ، وأخرج إلى خدمته أكابر أصحابه ، ثم إنه خرج إليه في الليل سراً متنكراً واجتمع به فى خيمته ، وأفضى إليه بأمور كثيرة ، منها قتل شاور . ثم عاد إلى قصره وكان شاور قد رأى ليلة نزل أسد الدين علي القاهرة كأنه دخل دار الوزارة ، فوجد على سرير ملكه رجلا وبين يديه دواة الوزارة وهو يوقع منها بأقلامه ، فسأل عنه فقيل هذا محمد رسول الله ﷺ ، ولما أقام أسد الدين بالديار المصرية ورحل عنها الإفرنج أمنت البلاد ، وتراجع الناس إلى بيوتهم وأخذوا في إصلاح ماشعثه الصليبيون وأفسدوه ، وتقاطر الناس إلى خدمة أسد الدين ، فتلقاهم بالرحب والسعة ، وأحسن إليهم ، وكذلك شاور فإنه أخذ في التودد إلى الأسد والتقرب إليه بجميع ما وجد السبيل إليه ، وأقام له ولعسكره الميرة الكثيرة والنفقات الغزيرة حتي استحوذ على قلبه وقوى تبقيته فى ملكه وصفا له قلبه .

قتل شاور ووزارة أسد الدين شيركوه

لما أقامت عسكر الشام بمصر تحت رئاسة أسد الدين شيركوه ، ورأوا طيب بلادها وكثرة خيرها وسعة أموالها ، تاقت أنفسهم إلى الإقامة بها ، واختاروا سكانها ورغبوا فيها رغبة عظيمة ، وقوى طمع أسد الدين في الاستيلاء عليها والاستبداد بملكها ، ثم علم أنه لا يتم له ذلك وشاور باق فيها ، فأخذ في إعمال الحيلة عليه ، فجمع أصحابه وشاورهم فى أمر شاور ، وقال لهم قد علمتم رغبتى في هذه البلاد ومحبتي لها وحرصى عليها ، لاسيما وقد تحققت أن عند الصليبيين ماعندى ، وعلمت أنهم كشفوا عورتها وعلموا مسالكها وتيقنت أني متي خرجت منها ، عادوا إليها وملكوها ، وهي معظم دار الإسلام وحلوبة بيت مالهم ، وقد قوى عندى أن أثب عليها قبل وثوبهم ، وأملكها قبل أن يملوكها ، وأتخلص من شاور الذى يلعب بناوبهم ، ويضرب بناوبهم ، وقد

ضيع صنيع أموال هذه البلاد فى غير وجهها ، وقوي بها الصليبيين علينا ، وما كل وقت ندرك الصليبيين ونسبقهم إلى هذه البلاد التي قلت رجالها وهلكت أبطالها ، فقالوا جميعاً لايتم أمر إلا بعد قتل شاور ، وتفرقوا على إيقاع القبض عليه .

وكان شاور يركب في الأبهة العظيمة والعدة الحسنة ، على عادة الوزراء ، لأنه كان الوزير إذا ركب سار في موكبه الطبل والبوق ، وكان شاور قليل الركوب ، فأخذ الأمراء يترصدونه إلى أن ركب يوماً في أبهته وجلالته ، فلما عاينه الأمراء هابوه وأحجموا عنه ، وكان يوماً عظيم الضباب ، وكان خروج شاور من باب القنطرة للسلام على أسد الدين فتقدم صلاح الدين فسلم عليه ودخل في وسط موكبه ثم سايره ثم مد يده إلى تلابيبه وصاح عليه فرجله ، ولما رأي ذلك عسكر الشام قويت عزائمهم وأوقعوا في عسكر شاور فنهبوا ما كان مع رجاله وقتلوا منهم جماعة ، وحمل الملك الناصر شاوراً راجلا إلى خيمة لطيفة ، وأراد قتله فلم يقدر من غير مشاورة أسد الدين .

وفي الحال ورد على أسد الدين توقيع من العاضد على يد خادم يأمره فيه بقتل شاور ، فأنفذ التوقيع إلى صلاح الدين فقتله في الحال وأنفذ رأسه إلى القصر ، فخلع الخليفة العاضد على أسد الدين وقلده الوزارة بدل شاور وذلك في ١٧ ربيع أول سنة ٥٦٤ فسار أسد الدين ودخل القصر وترتب وزيراً ولقب بالملك المنصور أمير الجيوش وقصد دار الوزارة فنزلها وهى التى كان بها شاور وسلفاؤه ، وكتب له منشوراً بالوزارة من القصر ، كتب العاضد في طرته بخطه (هذا عهد لاعهد لوزير بمثله وتقلد أمانة رآك أمير المؤمنين أهلا لحمله والحجة عليك عند الله بما أوضحه لك من مراشد سبله ، فخذ كتاب أمير المؤمنين بقوة واسحب ذيل الفخار بأن اعتزت خدمتك إلى نبوة النبوة ، واتخذه للفور سبيلا ولاتنقض الأيمان بعد توكيدها وقد جعلت الله عليكم وكيلا) وجاء في المنشور ما يأتى :

(من عبد الله ووليه أبي محمد العاضد لدين الله أمير المؤمنين إلى السيد الأجل الملك المنصور سلطان الجيوش ولى الأئمة ، مجير الأمة أسد الدين ، كافي قضاة المسلمين ، وهادي دعاة المؤمنين ، أبى الحارس شيركوه

العاضدى ، عضد الله به الدين ، وأمتح بطول بقائه أمير المؤمنين ، وأدام قدرته وأعلى كلمته ، سلام عليك .... فإنه يحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو ، ويسأله أن يصلى على محمد خاتم النبيين وسيد المرسلين وعلي آله الطاهرين والأئمة المهديين وسلم تسليما الخ .. فأمر بقراءته على رؤوس الأشهاد ، وفرح به غاية الفرح ، وأعيدت قراءته عليه عدة مرات استحساناً لمعانيه . ثم إن الخليفة العاضد أرسل إلى أسد الدين طبقاً من الفضة فيه رأس الكامل بن شاور ورؤوس أولاد إخوته ، وكان الكامل لما سمع بقتل أبيه قد التجأ إلى القصر فقتله الخليفة .

حكم الملك المنصور أسد الدين شيركوه ووفاته

لما استقر أسد الدين بالوزارة ، ولم يبق له منازع ، ولى الأعمال من يثق إليه واستبد بالولاية ، فأقطع البلاد للعساكر التي قدمت معه ، وصلاح الدين مباشر للأمور مقرر لها وزمام الأمر والنهي مفوض إليه لكفايته ودرايته وحسن تأنيه وسياسته . وطلب أسد الدين من القصر كاتب إنشاء للوزارة ، فأرسل إليه عبد الرحيم البيساني ومدحه الشعراء ومنهم العماد بقصيدة طويلة منها :

بالجد أدركت ما أدركت لا اللعب كم راحة جنيت من دوحة التعب
ياشيركوه بن شاذى الملك دعوة من نادى فعرف خير ابن بخير أب
جرى الملوك وما حازوا بركضهم من المدى في العلا ماحزت بالخبب
تمل من ملك مصر رتبة قصرت عنها الملوك فطالت سائر الرتب
فتحت مصرا وأرجو أن تصير بها ميسرا فتح بيت القدس عن كثب
قد أمكنت أسد الدين الفريسة من فتح البلاد فبادر نحوها وثب
أنت الذى هو فرد من بسالته والدين من عزمه فى جحفل لجب

وفي حكمه شدد على النصارى وأمرهم بشد الزنانير على أواسطهم ومنعهم من إرخاء الذؤابة التى تسمي بالعزبة فكتب المهذب ابن أبى المليح زكريا وكان مسيحياً إلى أسد الدين بقوله :

يـاأسد الديـن ومـن عدلـــه يحفـظ فينـا سنـة المصطفـى
كفـى غيـاراً شد أوساطنـــا فما الذى أوجب كشف القفا

فلم يسعفه بطلبه ولا مكنه من إرخاء الذؤابة وعندما أيس من ذلك أسلم . وكان شيركوه يعتبر نفسه نائباً لنور الدين في مصر وأنه قائم بمنصب الوزارة باسمه ، ولكن لم تطل مدته لأنه كان مواظباً علي تناول اللحوم السمينة وكانت تتواتر عليه التخم والخوانيق ، فاعتراه خانوق عظيم ذهب بحياته في ٢٢ جمادى الثانية سنة ٥٦٤ ، ولم يمكث في منصبه إلا شهرين وخمسة أيام ، ودفن في القاهرة ثم نقل إلى مدينة الرسول ﷺ . وكان شجاعا بارعا قويا ذا صولة عفيفاً ديناً كثير الخير ، وكان يحب أهل الدين والعلم كثير الإيثار حدبا على أهله وأقاربه ، وخلف مالا كثيراً وترك كثيراً من الخيل والدواب وخمسمائة مملوك وهم الأسديه ، وهو مشيد قواعد الدولة الشاذية والمملكة الناصرية ، وكان ابتداء أمره يخدم مع صاحب تكريت على إقطاع مبلغه تسعمائة دينار ، وتنقل فى خدمة الملك العادل محمود نور الدين إلى أن ملك الديار المصرية وعقد له العزاء بالقاهرة ثلاثة أيام .

وزارة الملك الناصر صلاح الدين يوسف

لما توفى أسد الدين كما تقدم ، أصبح كل من الأمراء النوريه الذين كانوا قد صحبوا أسد الدين يطلب التقدم على العساكر وولاية الوزارة ، منهم الأمير عين الدولة الياروقى ، وقطب الدين خسروا بن تليل وهو ابن أخى أبو الهيجاء ، وسيف الدين على بن أحمد الهكارى ، وشهاب الدين محمود الحارمي وهو خال صلاح الدين ، ومالت الأسدية إلى صلاح الدين ، فأنفذ الخليفة العاضد يسأل عمن يصلح للوزارة ، فأرشد من جماعة من الأمراء على شهاب الدين الحارمي ، فأنفذ إليه وأحضره وخاطبه في تولى الوزارة فامتنع من ذلك ، وأشار بولاية صلاح الدين وكان الحارمي أولا قد رغب فى الوزارة وتحدث فيها ، فلما رأى مزاحمة عين الدولة بن ياروق وغيره عليها ، خاف أن يشتغل بطلبها فتفوته وربما تفوت صلاح الدين ، فأشار عليه لأنها إذا كانت لابن اخته كانت في بيته وكان صلاح الدين قد وقع من العاضد بموقع وأعجبه عقله وسداد رأيه وشجاعته وإقدامه على شاور في موكبه وقتله حين جاءه أمره مع صغر سنه ،

فسارع إلى تقليده الوزارة وماخرج شهاب الدين من حضرة العاضد إلا وخلعة الوزارة قد أرسلت إلى صلاح الدين .


صلاح الدين يوسف الأيوبى

وتلقب بالملك الناصر ، وكانت خلعة الوزارة عمامة بيضاء تنيسي بطرز ذهب ، وثوب ديبقى بطرازى ذهب ، وجبة تحتها سقلاطون بطرازى ذهب ، وطيلسان ديبقى بطراز دقيق ذهب ، وعقد جوهر قيمته عشرة آلاف دينار ، وسيف محلى مجوهر قيمته خمسة آلاف دينار ، وفرس حجر صفراء من مراكب العاضد قيمتها ثمانية آلاف دينار ، لم يكن بالديار المصرية أسبق منها ، وطوق وتخت وسر فسار ذهب مجوهر ، وفى رقبة الحجر مشدة بيضاء ، وفى رأسها مائتا حبة جوهر ، وفى أربع قوائم الفرس أربع عقود جوهر ، وقصبة ذهب في رأسها طالعة مجوهرة وفي رأسها مشدة بيضاء بأعلام ذهب . ومع الخلعة عدة بقج وعدة من الخيل وأشياء أخر ، ومنشور الوزارة ملفوف فى ثوب أطلس أبيض . وكان ذلك يوم الاثنين الخامس والعشرين من جمادى الآخرة سنة ٥٦٤ .

وقرىء المنشور بين يدى الملك الناصر يوم جلوسه فى دار الوزارة ، وحضر جميع أرباب الدولتين المصرية والنورية ، وكان يوماً عظيما ، وخلع المالك الناصر على جميع الأمراء والكبراء ووجوه البلد وأرباب دولة العاضد ، وعم الناس جميعهم بالهبات مع أنه قبل هذا المنصب كرهاً وقد جاء إلى مصر صحبة عمه أسد الدين كرهاً أيضاً (إن الله ليعجب من قوم يقادون إلى الجنة بسلاسل) وأما الأمراء فإنهم لم يلتفتوا إليه ولا خدموه .

وكان الفقيه ضياء الدين عيسى الهكارى معه فسعي عند سيف الدين على بن أحمد حتى أماله إليه قائلا له إن هذا الأمر لا يصل إليك مع وجود عين الدولة والحارمى وابن تليل ، فمال إلى صلاح الدين ثم قصد أيضاً إلى قطب الدين وقال له إن صلاح الدين قد أطاعه باقى الأمراء ولم يبق سواك ، فالأحسن أن تطيعه وهكذا حتى أماله وسار إلى عين الدولة الياروقى وفعل معه كما فعل مع سلفائه فلم يقبل منه ذلك ، وسار بعسكره إلى نور الدين بالشام .

وأما صلاح الدين فإنه كان بصفته نائب عن الملك العادل محمود نور الدين وقائمقامه بالديار المصرية ، وكانت الخطبة فى جميع البلاد باسم الملك العادل بعد ذكر الخليفة العاضد ، وكان الملك العادل نور الدين يكاتب الملك الناصر صلاح الدين بالأمير الإسفهسلار ، وصار يحكم في الرعية بالعدل المملوء حلماً حتى أحبته الرعية ، واستمال قلوبهم وبذل لهم المال ، فقويت نفسه على ذلك ، وضعف أمر الخليفة العاضد ، وطلب صلاح الدين من نور الدين إرسال إخوته فلم يجبه إلى ذلك وقال أخاف أن يخالف أحد منهم أوامرك فتفسد البلاد .

وبعد مدة سير نور الدين إلى مصر إخوة صلاح الدين منهم شمس الدولة تورانشاه بن أيوب وهو أكبر من صلاح الدين ، وقال له إن كنت تسير إلى مصر وتنظر إلى أخيك يوسف الذى كان يخدمك ، فلا تسر فإنك تفسد البلاد فأُعاقبك ، وإن كنت تنظر إليه أنه صاحب مصر وقائم فيها مقامى وتخدمه بنفسك كما تخدمني ، فسر إليه واشدد أزره وساعده على ماهو بصدده ، فقال أفعل معه من الخدمة والطاعة مايصل إليك فكان كما قال .

وكان نور الدين قد أثر عنده تنصيب صلاح الدين على الديار المصرية حتى قال ما أخطأت إلا في نفاذى أسد الدين إلى مصر بعد علمى برغبته فيها ، وكان

يبلغ الملك الناصر صلاح الدين من أقوال نور الدين وبعض أصحابه أشياء تؤلمه ، غير أنه يلقاها بصدر رحب ، وخلق عذب ، وأمر صلاح الدين بإبطال المكوس والمظالم ما يقدر من ذلك بديوان صناعة مصر مائة ألف دينار ، وما يستخرج بالأعمال البحرية والقبلية بمائة ألف دينار ، فسامح بجميع ذلك وأصدر بهم منشوراً يقرأ على المناير ، وسامح أيضاً فى كثير غير ذلك وامتدحه الشعراء وقال أحدهم شعرا :

فالشام يغبط مصرا مذحللت بها ... كما الفرات عليكم يحسد النيلا
نلتم من الملك عفواً ما الملوك به ... عنوا قديماً وراموه فما نيـلا

وقال بعضهم :

لك الحسب الباقى على عقب الدهر ... بل الشرف الراقى إلـى قمـة الـنسر
كذا فليكن سعى الملوك إذا سعت ... بها الهمم العليا إلى شرف الذكر
نهضتم بأعباء الوزارة نـهضة ... أقلتم بها الإقدام من زلة العثر
كشفتم عن الإقليم غمته كما ... كسفتم بأنوار الغنى ظلمة الفقر
حميتم من الإفرنج سرب خلافة ... جريتم لها مجرى الأمان من الذعر
ولما استغاث ابن النبي بنصركم ... ودائرة الأنصار أضيق من شبر
جلبتم إليه النصر أوسا وخزرجاً ... وما اشتقت الأنصار إلا من النصر
كتائب فى جبرون منها أواخر ... وأولها بالنيل من شاطيء مصر
طلعتم فأطلعتم كواكب نصرة ... أضاءت وكان الدين ليلا بلافجر
وأبت إليكم يا ابن أيوب دولة ... تراسلكم فى كل يوم مع السفر
حمي الله فيكم عزمة أسديـة ... فككتم بها الإسلام من ربقة الأسر

قتل جوهر مؤتمن الخلافة وواقعة العبيد

لما استقام صلاح الدين بالوزارة ، وعظم نفوذه وكثرت نصراؤه ، داخل الحسد مؤتمن الخلافة جوهر الخصى ، وحدثته نفسه بخلع صلاح الدين ، وواقعه كثير من الأمراء المصريين والجند ، واتفق رأيهم أن يبعثوا إلى الصليبيين ببلاد الساحل يستدعونهم إلى القاهرة ، حتى إذا خرج صلاح الدين لقتالهم بعسكره ثاروا وهم فى القاهرة واجتمعوا مع الصليبيين على إخراجه من مصر .

فسيروا رجلا إلى الصليبيين ، وجعلوا كتبهم معه فى نعل ، فسار الرجل إلى أن وصل إلى البير البيضاء قريباً من بلبيس ، فإذا ببعض أصحاب صلاح الدين قابل الرجل هناك ، فأنكر أمره لأنه حمل نعله فى يده وليس فيها أثر مشى ، والرجل رث الهيئة ، فارتاب فيه وأخذ النعلين وشقهما ، فوجد الكتب بداخلهما ، فحمل الرجل والكتب إلى صلاح الدين فتتبع خطوط الكتب حتي عرفت ، فإذا الذى كتبها من اليهود الكتاب ، فلما أحضروه ليسألوه ويعاقبوه على خطه نطق بالشهادة قبل كلامه ، ودخل في عصمة إسلامه ثم اعترف بما جناه ، وأن الذى أمره هو مؤتمن الخلافة جوهر ، فبلغ ذلك إلى جوهر فخاف على نفسه ولزم القصر وامتنع من الخروج ، فأعرض صلاح الدين عن ذلك جملة ، وطال الأمد .

فظن الخصى أنه قد أهمل أمره وشرع يخرج من القصر ، وكانت له منظرة بناها بناحية الخرقائية بقرب قليوب فى بستان ، فخرج إليها في جماعة وبلغ ذلك صلاح الدين ، فأنهض إليه عدة هجموا عليه وقتلوه في يوم الأربعاء ٢٥ ذى القعدة سنة ٥٦٤ واجتزوا رأسه وأتوا به إلى صلاح الدين ، فاشتهر ذلك فى القاهرة وأشيع ، فغضب العسكر المصرى ، وساروا بأجمعهم وقد انضم إليهم عالم عظيم من الأمراء والعامة حتي أصبح عددهم نيفاً و٥٠ ألفاً ، وساروا إلى دار الوزارة وفيها صلاح الدين ، وقد استعدوا بالأسلحة ، فبادر شمس الدولة فخر الدين تورانشاه أخو صلاح الدين ونادى بالعساكر الغز (الشامية) ورتبهم ، ووقفت الطائفة الريحانية ، والطائفة الجيوشية ، والطائفة القرنجية ، وغيرهم من الطوائف السودانية ، ومن انضم إليهم في محلة بين القصرين ، فثارت الحرب بينهم وبين صلاح الدين ، واشتد الأمر وعظم الخطب حتى لم يبق إلا هزيمة صلاح الدين وأصحابه ، وعند ذلك أمر تورانشاه بالحملة على السودانيين فقتل منهم أحد مقدميهم ، فانكسرت شوكتهم قليلا وعظمت حملة الغز عليهم ، فانكسروا إلى باب الذهب ثم إلى باب الذهومة ، وقتل حينئذ عدة من أمراء المصريين وكثير من سواهم .

وكان العاضد في هذه الواقعة يشرف من المنظرة فلما رأى أهل القصر كثرة السودانيين وعساكر مصر ، رموا الغز من أعلى القصر بالنشاب والحجارة حتى

انكوا فيهم وكفوهم عن القتال وكاد هؤلاء ينهزمون ، فأمر حينئذ صلاح الدين بإحراق المنظرة ، فأحضر شمس الدولة النفاطين وأخذوا فى إعداد قارورة النفط ، وصوبوها الى المنظرة ، حيث يقيم العاضد فخاف على نفسه وفتح زعيم الخلافة باب المنظرة وقال بصوت عال (أمير المؤمنين يسلم على شمس الدولة ويقول دونكم والعبيد الكلاب أخرجوهم من بلادكم) فلما سمع السودانيون ذلك ضعفت قلوبهم وتخاذلوا ، فحمل عليهم الغز فانكسروا وركب القوم أقفيتهم إلى أن وصلوا إلى سوق السيوفيين ، فقتل منهم كثير وأسر منهم كثير ، وامتنعوا هناك على الغز بمكان فأحرق بهم .

وكان في دار الأرمن قريباً من بين القصرين كثير من هذه الطائفة وكلهم رماة ولهم جراية في الدولة تجري عليهم ، فعندما قرب منهم الغز رموهم عن يد واحدة حتى امتنعوا عن أن يسيروا إلى العبيد ، فأحرق شمس الدولة دارهم حتى هلكوا حرقا وقتلا ومروا إلى العبيد فصاروا كلما دخلوا مكانا أحرق عليهم وقتلوا فيه إلى أن وصلوا إلى باب زويلة ، وكان مغلقاً فحصروا هناك واستمر فيهم القتل مدة يومين ، وكان صلاح الدين قد أحرق المنصوره وهى حارة لهم بجهة باب زويلة وأعظم حاراتهم ، وأخذت عليهم أفواه السكك فايقنوا أنهم قد أخذوا لا محالة ، وطلبوا الأمان فأمنوا . وذلك يوم السبت ٢٨ ذى القعدة وفتح لهم باب زويلة فخرجوا إلى الجيزة فعدى عليهم شمس الدولة فى العسكر ، وقد قووا بأموال المهزومين وأسلحتهم وحكموا فيهم السيف حتى لم يبق منهم إلا الشريد ، وتلاشي بعده هذه الواقعة أمر العاضد ودعيت بواقعة العبيد .

ومن غرائب الاتفاق أن الذى فتح مصر للدولة الفاطمية ، وبني القاهرة يدعى جوهراً ، والذى كان سبباً في زوال هذه الدولة وخراب القاهرة يدعى أيضاً جوهر الملقب بمؤتمن الخلافة . فلما انتهت هذه الواقعة ، واستؤصلت جرثومة الفساد ، عاد صلاح الدين إلى السكون فولى أخاه تورانشاه قوص وأصوان وعيذاب مكافأة لما أظهره من البسالة فى هذه الواقعة وجعل البلاد المذكورة له إقطاعا فكان دخلها في تلك السنة (٢٦٦٠٠٠) دينار .

محاصرة الصليبيين ثغر دمياط

لما علم الملك أمورى ملك القدس ، خبر تملك أسد الدين شيركوه مصر ، خاف على بلاده لأنه صار بين عدوين ، نور الدين من الشام ، وأسد الدين من مصر ، فجمع مجلس شوراه وقر رأيهم على إرسال فريدريك بطريرك صور ، ومعه يوحنا أسقف عكا للالتجاء بملوك فرنسا وانكلترا وسيسيليا وغيرهم من ملوك أوروبا . فلم تنجح مسعاهم ، ثم أرسل إلى عم زوجته ملك الروم بالقسطنطينية ، فأرسل إليه عمارة بحرية مؤلفة من مائة وخمسين مركباً ملآنة بالذخائر والمؤن والعدة والرجال ، فاتخذت بباقي الصليبيين الموجودين بالشام ، وساروا براً وبحراً إلى مصر ، حتى إذا بلغوا الفرما ، ساروا إلى دمياط فعسكروا بينها وبين البحر في أول صفر سنة ٥٦٥ . وكانت هذه الحملة بقيادة الملك أمورى أيضاً فظن أنه يقدر على أخذ دمياط بالهجوم ويملكونها ليجعلوها ظهراً لهم يملكون به ديار مصر ، إلا أنه رأى منها مقاومة ودفاعاً اضطره لإقامة الحصار فأقامه .

فأرسل إليها صلاح الدين العساكر في النيل ، وحشر فيها كل من عنده وأمدهم بالمال والسلاح والذخائر ، وأرسل إلى نور الدين يشكوا ماهو فيه من المخاوف ، ويقول إنه إذا تخلف عن دمياط ملكها الصليبيون ، وإن سار إليها وأخلى القاهرة خاف من غدر المصريين به ، وطلب منه المدد فجهز نور الدين إليه العساكر إرسالا كلما تجهزت طائفة أرسلها .

ثم سار نور الدين إلى بلاد الصليبيين بالشام فنهبها وأغار عليها واستباحها ، ووصلت غاراته إلى مالم تبلغه لخلو البلاد من ممانع ، وكذلك الخليفة العاضد فإنه أمد صلاح الدين بمليون دينار مصرى سوى الثياب وغيرها ، وأرسل صلاح الدين ابن أخيه تقي الدين وخاله شهاب الدين الحارمى إلى دمياط وطال أمد الحصار حتى نفذت مئونة الصليبيين ، فأرادوا العبور فى النيل ليأتوا بالزاد فأوقفهم حاجز أقامه المسلمون فى عرض النهر ، وهو عبارة عن سلسلة قوية من الحديد طرفها الواحد ممكن بمتاريس دمياط والطرف الآخر ببرج هائل منيع الجانب ، وكانت ترد الإمدادات إلى حامية دمياط من القاهرة بكل سهولة .

أما الصليبيون فكان انتظارهم للمدد من سوريا عبثاً ، فانتشر الجوع في معسكرهم ، فحدث الشقاق بين الفرنساويين وهم الذين كانوا في سوريا واليونانيين الذين أتوا بالمدد من القسطنطينية ، واشتد حتى أفضى إلى الانفصال التام بعد أن بلغ منهم الجوع مبلغاً عظيما ، فكانوا يتخاصمون على كسرة خبز ويمضغون أقنان النخيل ، ومما زاد تعاستهم تكاثر الأمطار والزوابع على معسكرهم بدون انقطاع حتى أصبحوا كأنهم في طوفان عظيم ، وحصل من هياج الإعصار نوء في النيل أسرع جريه فتزاحمت مراكب الصليبيين وتلاطمت ، فلم يعد استخدامها ممكناً لوقوعها بين قوتين متضادتين الريح ومجرى النيل فتكسر معظمها .

وكان نور الدين قد أرسل حملة بقيادة الأمير قطب الدين خسرو الهمدانى ، فنزل دمياط فى ١٥ ربيع أول سنة ٥٦٥ وأحرقت العساكر الإسلامية باقى مراكب الصليبيين ومنجانيقاتهم وآلات حربهم وقتلوا منهم كثيراً . فلما حل بالصليبيين ذلك لم يروا بداً من العود على أعقابهم إلى سوريا صفر الأيدي بعد أن تعاهدوا مع المسلمين أن لايعارضهم معارض فى سيرهم فرجعوا خائبين فى ٢١ ربيع أول . وصدق فيهم المثل (ذهبت النعامة تطلب قرنين فعادت بلا أذنين) .

وكان صلاح الدين قد أعد في القاهرة جيوشاً ليسير بها مدداً إلى دمياط لكنها لم تبلغها حتى فارقت الجيوش الصليبية مراكزها ، فشق عليه ذلك ووبج الأمراء الذين سمحوا لهم بالانسحاب ثم عاد إلى القاهرة وامتدحه عمارة اليمنى بقصيدة منها :

من شاكر والله أعظم شاكر ما كان من نعمى بنى أيوب
طلب الهدى نصراً فقال وقد أتوا حسبى فأنتم غاية المطلوب
جلبوا إلى ديماط عند حصارها عز القوى وذلة المغلوب
وجلوا عن الإسلام فيها كربة لو لم يجلوها أتت بكروب
فالناس من أعمال مصر كلها عتقاءلهم من نازح وقريب
إن لم تظن الناس قشراً فارغا وهم اللباب فأنت غير لبيب

مسير نجم الدين أيوب وباقي عائلته إلى مصر

ثم أرسل صلاح الدين إلى نور الدين يطلب قدوم والده وباقي عائلته ، وكان الخليفة المستنجد بالله العباسي ببغداد قد أرسل إلى نور الدين يعاتبه من تأخير إقامة الدعوة له بمصر ، فاغتنم هذه الفرصة وأحضر الأمير نجم الدين أيوب وألزمه الخروج إلى ولده بمصر وسلمه رسالة منها (وهذا أمر تجب المبادرة إليه لنحظي بهذه الفضيلة الجليلة والمنقبة النبيله قبل هجوم الموت وحضور الفوت ، لاسيما وأمام الوقت متطلع إلى ذلك بكليته وهو عنده من أهم أمنيته) ثم إن الأمير نجم الدين جهز حاله للمسير إلى مصر وسار معه نور الدين مشيعا إلى رأس الماء ، وعاد نور الدين بعد توديعه .

وسار نجم الدين إلى أن وصل بالسلامة إلى مصر في ٢٧ رجب سنة ٥٦٥ ، فخرج الخليفة العاضد من قصره لاستقباله ، وكذلك جميع الأمراء والأعيان وباقى أرباب الدولة المصرية إلى ظاهر باب الفتوح ، عند شجرة الأهليلج ، ولم يجر بذلك عادة لهم ، وكان من أعجب يوم شهده الناس وخلع الخليفة العاضد عليه ولقبه الملك الأفضل ، وحمل إليه من القصر الألطاف والتحف والهدايا وأظهر صلاح الدين من بره وتعظيم أمره ما أحرز به الشكر والأجر ، وأفرد له داراً بجانب داره وأقطعه الاسكندرية ودمياط والبحيره ، ومدح صلاح الدين عمارة اليمنى بقصيدة منها :

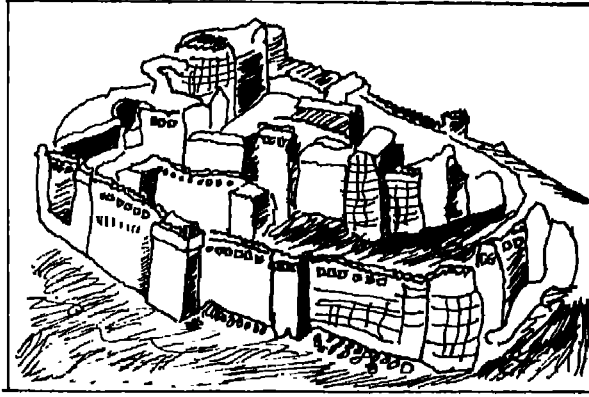
صحت به مصر وكانت قبله   تشكو سقاماً لم يعن بطبيب
عجباً لمعجزة أتت في عصره   والدهر ولاد لكل عجيب
رد الإله به قضية يوسف   نسقاً على ضرب من التقريب
جاءته إخوته ووالده إلى   مصر على التدريج والترتيب
فاسعد بأكرم قادم وبدولة   قد ساعدتك رياحها بهبوب

ومن قصيدة للحكيم عبد المنعم :

فى مشرق المجد نجم الدين مطلعه   وكل أبنائه شهب فلا أفلوا
جاءوا كيعقوب والأسباط إذ وردواعلى العزيز من أرض الشام واشتملوا
لكن يوسف هذا جاء إخوته   ولم يكن بينهم نزع ولازلل
وملكوا أرض مصر في شماخته   ومثلها لرجال مثلهم نزل

محاربة نور الدين حصن الكرك والزلزله الكبري

بعد ماودع نور الدين الأمير نجم الدين ، سار بعسكره إلى بلاد الكرك في مستهل شعبان سنة ٥٦٥ ، ونزل أياماً بالبلقاء على عمان ، وأقام على الكرك أربعة أيام فحاصرها .



(صورة قلعة الكرك)

ونصب عليها منجانيقين ، فورد إليه الخبر بأن الصليبيين قد تجمعوا ووصلوا إلى ماء عين ، فرحل إليهم نور الدين ، فلما سمعوا بارتداده عليهم ولوا مدبرين . وعاد نور الدين إلى حوران فخيم بعشترا ، وأقام ينتظر حركتهم ليلقاهم فلم يبرحوا من مكانهم خوفاً منه ، وقصد نور الدين بلادهم حتى توسطها ، فنهب ماكان على طريقه ، وفى هذه السنة أيضاً فى ١٢ شوال ، حصلت زلزلة عظيمة لم ير الناس مثلها ، عمت أكثر البلاد من الشام ومصر والجزيرة والموصل والعراق ، إلا أن أشدها وأعظمها كان بالشام ، فخربت بعلبك وحمص وحماة وشيزر وبعرين وغيرها ، وتهدمت أسوارها وقلاعها وسقطت الدور على أهلها وهلك من الناس كثير .

فسار نور الدين إلى بعلبك لتعمير سورها فرتب من يحميها ويعمرها وسار إلى حمص ففعل مثل ذلك وسار منها إلى غيرها ماراً بجميع البلاد لخوفه من هجوم الصليبيين ، إلى أن وصل إلى حلب فوجد أكثرها متهدما فأقام بنفسه

على عمارتها . وأما بلاد الصليبيين ، فإن الزلزلة أضرت بها أكثر من سواها وهدمت أسوار مدنها فاجتهدوا في تعميرها خوفاً من نور الدين ، وهكذا فإن كلا من الفريقين انشغل عن الآخر وكانت هذه الزلزلة قد حصلت في يوم عيدهم وهم في الكنائس فوقعت عروشها عليهم .

محاربة صلاح الدين بلاد الصليبيين

في السنة التالية للزلازل ، سار صلاح الدين في جيش عظيم إلى سوريا لمحاربة الذين ضايقوه في السنة الماضية ، فدخل فلسطين سنة ٥٦٦ فعلم الملك أموري وهو في عسقلان أن صلاح الدين قد حاصر قلعة دارون ، وهو دير قديم للنصارى ، وموقعه على قمة جبل وعر على أربعة أميال من غزة ، اتخذه الصليبيون حصناً ، فأسرع لمهاجمة صلاح الدين في ذلك المكان ، وكان قد علم صلاح الدين بقدومه فسار لملاقاته فلاقاه في منتصف الطريق ، وحاربه وغلبه ونزل على غزه فاستولى عليها واستبشر المسلمون بهذه الانتصارات ، ولكنهم اكتفوا بها أخذاً بالثار ، فتركوا في غزه حامية كافية وعادوا إلى مصر .

ثم بلغ صلاح الدين بأن الصليبيين قد احتلوا آيلة وتحصنوا فيها ، وهي قلعه على البحر الأحمر ، فسار إليها ومعه عصبة من رجاله الأقوياء وحمل معه مراكب مفككة نقلها على الجمال ، ولما وصل إلى البحر عند آيلة ، ركب تلك المراكب وأنزلها إلى البحر وهاجم آيله في ربيع أول سنة ٥٦٦ براً وبحرا ، وظل عليها حتى فتحها رجاله وقتلوا من كان فيها من الصليبيين . وجعل فيها صلاح الدين جماعة من ثقاته ، وقواهم بما يحتاجون إليه من سلاح وغيره وعاد إلى مصر .

وفاة الخليفة المستنجد بالله وخلافة المستضيء بأمر الله

في يوم السبت تاسع ربيع آخر سنة ٥٦٦ توفي الإمام المستنجد بالله أبي المظفر يوسف بن المقتضى بالله ، وكانت خلافته إحدى عشرة سنة و٦ أيام وهو الثاني والثلاثون من خلفاء بني العباس ، وهذا العدد له بحساب الجمل اللام والباء وفيه يقوم بعض الأدباء :

أصبحت لب بنى العباس كلهم — إن عددوا بحساب الجمل الخلفاء

وكان من أحسن الخلفاء سيرة مع الرعية عادلا فيهم كثير الرفق بهم ثم بويع بالخلافة ابنه المستضيء بأمر الله أبو محمد الحسن .

وفاة الخليفة العاضد لدين الله بمصر والخطبة فيها لبنى العباس

كان نور الدين قد أرسل إلى صلاح الدين ، يطلب منه الخطبة للعباسيين بمصر كما تقدم ، فاعتذر إليه صلاح الدين بالخوف من وثوب أهل مصر وامتناعهم عن الإجابة إلى ذلك لميلهم إلى العلويين ، فلم يصغ نور الدين إلى قوله وأرسل إليه يلزمه بذلك إلزاماً لافسحة فيه ، واتفق أن الخليفة العاضد مرض ، وكان صلاح الدين قد عزم على قطع الخطبة له فاستشار الأمراء كيف يكون الابتداء بالخطبة العباسية فمنهم من أقدم على المساعدة وأشار بها ، ومنهم من خاف ذلك ، إلا أنه لم يمكنه إلا امتثال أمر نور الدين ، وكان قد دخل مصر إنسان أعجمى اسمه أمير عالم ، فلما رأى ماهم فيه من الإحجام قال أنا ابتدى بها .

فلما كان أول جمعة من المحرم سنة ٥٦٧ ، صعد المنبر في أكبر جامع وخطب بالناس ودعا للخليفة المستضيء بأمر الله ، فلم ينكر ذلك أحد عليه ، وكان موجوداً بالمسجد الأمير نجم الدين وجماعة من الأمراء خوفا من حصول حادث لكى يعتذر صلاح الدين عن نفسه ، وفى الجمعة الثانية أمر صلاح الدين جميع خطباء القاهرة ومصر بقطع خطبة العاضد وأن يخطب للمستضيء العباسي ففعلوا ولم يعارضهم أحد ، وكتب بذلك إلى سائر الديار المصرية ، وكان العاضد قد اشتد مرضه فلم يعلمه أهله وأصحابه بذلك ، وقالوا إن سلم فهو يعلم وإن توفى فلا ينبغى أن تنغص عليه هذه الأيام الباقية من عمره ، فتوفي يوم عاشورا . ولم يعلم بشيء من ذلك .

وبعد وفاته جلس صلاح الدين للعزاء ، واستولى على قصره وعلى جميع مافيه ، وكان قد رتب فيه قبل وفاة العاضد بهاء الدين قراقوش ، وهو خصيه لحفظه وجعله كأستاذ دار العاضد بعد قتل جوهر مؤتمن الخلافة ، وكان لايدخل القصر شيء أو يخرج منه إلا بأمر صلاح الدين ، فحفظ مافيه حتي تسلمه صلاح الدين ونقل أهل العاضد إلى مكان منفرد ، ووكل لحفظهم وجعل

أولاده وعمومته وأبناءهم فى القصر الكبير الكائن بحارة بيرجوان ، وكان عيشهم فيها طيباً ، ثم نقلوا بعد الدولة الأيوبية منها وجعل عندهم من يحفظهم وأبعد عنهم النساء ، وأخرج من كان بالقصر من العبيد والجوارى ، فأعتق البعض ووهب البعض وباع البعض وأخلى القصر من أهله وسكانه .

ودخلت مصر في حماية الخلافة العباسية الدينية فى بغداد بعد خروجها منها مدة مائتين وثمان وستين سنة ، ولما اشتد مرض العاضد أرسل إلى صلاح الدين يستدعيه فظنها مكيدة فلم يمض إليه ، فلما توفي علم صدقه وندم صلاح الدين على استعجاله بقطع خطبته وهو مريض ، وقال لوعلمت أنه يموت من هذا المرض ماقطعتها إلى أن يموت .

وفتح الخزائن التى بالقصر وأخذ كل ماصلح له ولأهله ولأمرائه ولخواص مماليكه من الذخائر وزواهر الجواهر ، ونفائس الملابس ، ومحاسن العرائس ، وقلائد الفرائد ، والدرة اليتيمة ، والياقوتة العالية غالية القيمة ، والمصوغات التبرية ، والمصنوعات العنبرية ، والأواني الفضية ، والصوانى الصينيه ، والمنسوجات المغربية والكرائم والبنائم ، والعقود والتمائم ، والنقود والمنظوم ، والمنضود ، والدر والياقوت ، والبسط والفرش ومالا يعد إحصاؤه ولايحد استقصاؤه وأسرف في العطاء وأطلق البيع في كل حديث وعتيق ولبيس وسحيق ورخيص وغال ، واستمر البيع فيه عشر سنين .

ومن أعجب ماوجد فيه قضيب زمرد طوله شبر ونيف قطعة واحدة ، وكان حجمه مقدار الإبهام ووجد فيه طبل للقولنج ، فإنه دفع إلى بعض الأكراد فلم يدر ماهو فكسره لأنه ضرب عليه فحبق ووجد إبريقاً عظيما من الحجر المانع ، وأن القضيب الزمرد فإن صلاح الدين أحضر صانعا ليقطعه فأبى الصانع قطعه ، فرماه بنفسه فانقطع ثلاث قطع ففرقه على نسائه ، وأما الإبريق فأنفذه إلى الخليفة ببغداد .

ومن جملة ماباعه خزانة الكتب وكانت من عجائب الدنيا لأنه لم يكن في جميع بلاد الإسلام دار كتب أعظم من الدار التي بالقاهرة داخل القصر ، ويقال إنها كانت تحتوى على مليونى كتاب ، واقتسم الناس بعد ذلك القصر وامتدحه

الناس وقال العرقلة :

أصبح الملك بعد آل علي مشرقا بالملوك من آل شاذى
وغدا الشرق يحسد الغرب للقوم ومصر تزهو على بغداد
ماحووها إلا بحزم وعزم وصليل الفولاذ في الفولاذ
لاكفرعون والعزيز ومن كان بها كالخصيب والأستاذ

ثم أرسل صلاح الدين البشائر إلى نور الدين بالخطبة للعباسيين بمصر ، وعمل نور الدين قصيدة لتتلى أمام الخليفة ببغداد ، وأرسل شهاب الدين أبو المعالى المطهر بهذه البشارة فمنها :

قد خطبنا للمستضىء بمصر نائب المصطفى إمام العصر
وخذ لنا لنصرة العضد العا ضد والقاصر الذى بالقصر
وأشعنا بها شعار بنى العبا س فاستبشرت وجوه النصر
وتركنا الدعى يدعو ثبوراً وهو بالذل تحت حجر وحصر
وتباهت منابر الدين للخطبة للهاشمى فى أرض مصر
واستنارت عزائم الملك العا دل نور الدين الكريم الأغر

فلما وصل شهاب الدين إلى بغداد ، خرجوا بموكب لمقابلته وكذلك خرج أهل بغداد وكان يوماً مشهوداً ، وأنعم الخليفة على الملك العادل محمود نور الدين بتشريف عظيم القدر ومعه سيفان إشارة إلى تملكه مصر والشام وعلى صلاح الدين بتشريف آخر ، ولما وصل التشريفان إلى الملك العادل أخذ تشريفه وأرسل إلى صلاح الدين تشريفه بمصر مع جملة خلع عظيمة من عنده ليفرقها على أرباب الدولة المصرية ، وكذلك جملة أعلام ورايات سود للخطباء بمصر .

وانتهت مدة الدولة الفاطمية أو العلوية التي حكمت البلاد من سنة ٢٩٩ إلى سنة ٥٦٧ وكانوا أربعة عشر خليفة ثلاثة منهم بأفريقيه بالمغرب وهم الملقبون بالمهدى والقائم والمنصور ، وأحد عشر بمصر وهم الملقبون بالمعز والعزيز والحاكم والظاهر والمستنصر والمستعلى والآمر والحافظ والظافر والفائز والعاضد ، وكانوا يدعون الشرف والنسبة إلى الإمام على ، والحقيقة أنهم ينسبون إلى مجوسى أو يهودى ، كما ذكر ذلك بكتب العلماء الأعلام ، وكانوا يسبون الصحابة ويقتلون من يحبهم .

محاربة نور الدين الصليبيين بناحية حصن عرقه وغيره

في سنة ٥٦٧ أيضا خرجت مراكب تجاريه من مصر قاصدة الشام ، فأخذ إفرنج اللاذقية مركبين منها مملوءتين بالأمتعة والتجار وغدروا بالمسلمين ، وكان نور الدين قد هادنهم فنكثوا فلما سمع بعملهم استعظمه ، وراسل الصليبيين في ذلك ، وأمرهم بإعادة ما أخذوه فغالطوه واحتجوا بأمور منها إن المركبين كانا قد دخلهما ماء البحر لكسر فيهما ، وكانت العادة بينهم أخذ كل مركب يدخله الماء ، ولكنهم كانوا كاذبين ، فلم يقبل مغالطتهم وهو لايهمل أمراً من أمور رعيته ، فلما لم يردوا شيئاً ، جمع العساكر من الشام والموصل وبث السرايا في بلادهم بعضهم نحو انطاكية وبعضهم نحو طرابلس وحصر هو حصن عرقة وأخرب ربضة ، وأرسل طائفة من العسكر إلى حصني صافيثا وعريمة فأخذهما عنوة ، وكذلك غيرهما ونهب وخرب وغنم المسلمون كثيراً ، وعادوا إليه وهو في عرقه ، فسار في العساكر جميعها إلى قريب من طرابلس يخرب ويحرق وينهب .

وأما الذين ساروا إلى انطاكية فإنهم فعلوا في ولايتها مثل مافعل من النهب والتحريق والتخريب بولاية طرابلس ، فراسله الصليبيون وطلبوا منه الهدنة وإعادة ما أخذوه من المركبين فأجابهم إلى ذلك وصح فيهم المثل (اليهودى لايعطي الجزية حتي يلطم) وكذلك الصليبيون فإنهم لم يعيدوا أموال التجار بالتى هي أحسن حتي نهبت بلادهم وخربت .

بريد الحمام

لما اتسعت بلاد نور الدين ، وطالت مملكته حتي أصبحت من حدود النوبة إلى همذان لايتخللها سوى بلاد الصليبيين الذين ربما نازلوا بعض الثغور فلا يبلغه الخبر ليسير إليهم إلا بعد أن يبلغوا الغرض ، فلذلك أمر فى سنة ٥٦٧ باتخاذ الحمام الهوادى ، وهى المناسيب التي تطير من البلاد البعيدة إلى أوكارها ، فاتخذت فى سائر بلاده وترتب لها جرايات ورجال لتربيتها ، فوجد بها راحة كبيرة وكانت الأخبار تأتيه في حينها لأنه كان له فى كل ثغر رجال

مرتبون ومعهم من حمام المدينة التي تجاورهم ، فإذا رأوا أو سمعوا أمراً كتبوه بورقة علقوها بالطائر وأطلقوه الى المدينة التي هو منها فيصلها فى ساعته فتنقل الرقعة منه إلى طائر المدينة الثانية ، وهكذا إلى المدينة المقيم فيها الملك العادل فانحفظت الثغور بذلك حتى إن طائفة من الصليبيين نازلوا ثغرا له فأتاه الخبر فى أول يوم فكتب نور الدين إلى العساكر المجاورة إلى ذلك الثغر بالاجتماع والمسير بسرعة وكبس العدو ، وأرسله على طائر الحمام ففعلوا ذلك فظفروا فما كان أحسن نظره للرعاية والبلاد .

النفور بين صلاح الدين ونور الدين

كان صلاح الدين مع تظاهره فى تأييد سلطة الخلفاء العباسيين لايفتر ساعياً إلى إتمام مقاصده التى كانت لاتزال تحت طى الخفاء وهى استقلاله بمصر ، فأخذ في تربية الأحزاب وإعداد القوات إلى مايمكنه من الاستقلال بمصر ومقاومة نور الدين إذا عارضه بذلك ، فأحس بذلك نور الدين فبعث إليه يستقدمه ومعه فرقة من رجاله مظهرا استنجاده في حربه مع الصليبيين عند الكرك ، وإنما كان قصده الحقيقي أن يخرج من مصر ويبقيه عنده تحت ملاحظته فأمن من غائلته . فأدرك صلاح الدين مقصده هذا لكنه لم يستصوب مخالفة أوامره لئلا تتنافر القلوب فتتعرقل مساعيه ، فكتب إليه أنه إذعانا لأمره قد برح القاهرة بفرقة من الجند فى ٢٠ محرم سنة ٥٦٨ لملاقاة جيوش نور الدين في الكرك .

فلما وصل نور الدين إليها لم يجد فيها أحداً فانتظر فلم يقدموا ثم ورد إليه كتاب ثان من صلاح الدين يخبره أنه برح القاهره بجنده إلى الكرك فعرض له في الطريق ماألجأه إلى العود حالا إلى مصر وكان رجوعه فى منتصف ربيع أول ، فعلم نور الدين أنها مماطلة مقصودة ، فأقر على المسير بنفسه إلى مصر والاشتغال بصلاح الدين عن الصليبيين ، ولكنه قبل ذهابه بعث إلى صلاح الدين يهدده بالعزل إذا لم يبادر إلى ماأمر به ، فاستدعى صلاح الدين رجال عائلته وفيهم أبوه نجم الدين أيوب وخاله شهاب الدين الحارمي ، ومعهم سائر الأمراء فلما تكامل الجمع أعلمهم بما كان بينه وبين نور الدين وما بلغه من عزمه على

المجيء إليه واستشارهم فلم يجبه أحد بكلمة ، فنهض تقى الدين عمرو بن شاهنشاه أخو صلاح الدين فقال (الرأى إذا جاءنا نور الدين قاتلناه ومنعناه عن البلاد) ووافقه غيره من أهلهم .

فشتمهم نجم الدين أيوب والد صلاح الدين واستعظم أقوالهم وشتم تقى الدين وأقعده وقال لصلاح الدين (ها أنا أبوك وهذا شهاب الدين خالك وهل تظن بين هذا الجمع من يحبك ويخلص لك أكثر منا قال لافقال : اعلم يايوسف أننا والله لو رأينا نور الدين لم نمكث إلا أن نقبل ركابه ونقتل بين يديه ، ولو أمرنا أن نضرب عنقك بالسيف لفعلنا فإذا كنا نحن هكذا فما ظنك بغيرنا ؟ وكل الذين تراهم عندك من الأمراء لو رأوا نور الدين وحده لم يتجاسروا على الثبات على سروجهم وهذه البلاد له ونحن مماليكه ونوابه فيها ، فإن أراد سمعنا وأطعنا والرأي أن تكتب كتابا مع نجاب تقول فيه بلغنى أنك تريد الحركة إلى هذه البلاد فأى حاجة إلى هذا يرسل المولى نجابا يضع فى رقبتى منديلا ويأخذنى إليك وماهنا من يمنع) .

ثم قام الأمراء وغيرهم وتفرقوا على هذا وأكثرهم أرسل إلى نور الدين بما تم ثم خلا نجم الدين أيوب بولده صلاح الدين فقال له (أنت جاهل قليل المعرفة تجمع هذا الجمع العظيم وتطلعهم على مافى نفسك ، فإذا سمع نور الدين أنك عازم على منعه من البلاد جعلك أهم الأمور إليه ويقصدك فلم ترمعك من هذا العسكر أحداً ، وكانوا أسلموك إليه ، أما الآن بعد هذا المجلس فسيكتبون إليه ويعرفونه قولى وماأظهرنا من الطاعة له تركنا ، واشتغل بغيرنا والأقدار تعمل عملها ووالله لو أراد نور الدين قصبة من قصب السكر لقاتلته أنا عليها حتى أمنعه أو أقتل) ففعل صلاح الدين ماأشار به أبوه .

فلما وصل كتاب صلاح الدين إلى نور الدين كما قصه أبوه سكن روعه وتوقف عن المسير إلى مصر ، ثم أرسل صلاح الدين إلى نور الدين ستين ألف دينار ومعها جملة من الهدايا ، فقال نور الدين ماكانت بنا حاجة إلى هذا المال ولانسد به خلة الإقلال ، فهو يعلم أنا ما أنفقنا الذهب فى ملك مصر وبنا إلى الذهب فقر وتمثل بقول أبى تمام :

لم ينفق الذهب المربى بكثرته   على الحصاوبه فقر إلى الذهب

وقال إنه يعلم أن ثغور الشام مفتقرة إلى السداد ووفور الأعداد من الأجناد ويجب عليه المعونة بالامداد وأرسل الموافق القيسرانى وزيره إلى مصر وأمره بعمل حساب البلاد وإيرادها ومصروفها لأجل تقرير شيء على صلاح الدين يدفعه فى كل سنة .

محاربة نور الدين وصلاح الدين الصليبيين

في سنة ٥٦٨ سار كل من نور الدين بجيشه وصلاح الدين بجيشه لمحاربة الإفرنج ، فسار نور الدين إلى مرعش فحاصرها وفتحها فى شهر القعدة ، ثم سار إلى بهسنى فنازلها وأخذها فى شهر الحجة واتفق خروج الملك أمورى للإغارة على رواد من ناحية حوران وهو فى جميع كثير من عساكره فنزلوا فى قرية تعرف بسمسكين ، فركب نور الدين إليهم وأقبل بعساكره عليهم فلما عرفوا وصوله رحلوا إلى الفوار ثم إلى السواد ثم نزلوا بالشلالة ، ونزل نور الدين فى عشترا ، فأرسل سرية إلى أعمال طبرية واغتنم خلوها فتوجهت إليها السرية وأغارت عليها ونهبتها ، فلما عادت لحقها الصليبيون عند المخاضة فوقفت الشجعان حتي عبرت السرية بما معها من الغنائم ولم يلحق بها ضرر .

أما صلاح الدين فإنه سار قاصداً بلاد الكرك والشوبك لأنها أقرب إليه وكانت فى الطريق تمنع من يقصد الديار المصرية ولا يمكن أن تصل قافلة حتى يخرج هو بنفسه يعبرها بلاد العدو ، فأراد توسيع الطريق وتسهيله لتتصل البلاد بعضها ببعض وتسهل على السابلة ، فخرج إلى الكرك وحاصرها وجرى بينه وبين الصليبيين وقعات كثيرة فبرح بهم وفرق عنهم عربها وخراب عماراتها وفرق على أعمالها سراياه بغاراته فامتنعت عنها العرب بعد ما كانت تتحد مع الإفرنج دائما .

فتح بلاد النوبة

اجتمع السودانيون ببلاد النوبة ، وخرجوا فى أمم عظيمة قاصدين ملك بلاد مصر ، وصاروا إلى أعمال أسوان وكان بها الأمير كنز الدولة فأنفذ بعلم الملك الناصر صلاح الدين ، وطلب منه نجدة فأنفذ فرقة من جيشه مع الشجاع البعلبكى ، فلما وصل إلى أصوان ، وجد العبيد قد عادوا عنها بعد أن أخربوا

أرضها فأتبعهم الشجاع والكنز فجرت بينهم حرب عظيمة قتل فيها كثير من الفريقين . ورجع الشجاع إلى القاهرة وأخبر بفعال العبيد وتمكنهم من بلاد أسوان .

فأنفذ الملك الناصر أخاه شمس الدولة في عسكر كثيف فوجدهم قد دخلوا بلاد النوبة ، فسار قاصداً بلادهم وشحن مراكب كثيرة في البحر بالرجال والميرة وأمرها بإلحاقه إلى بلاد النوبة ، فلما وصل نزل على قلعة إبريم وافتتحها بعد ثلاثة أيام وغنم جميع ما كان فيها من المال والميرة ، وخلص جماعة من الأسرى وأسر من وجده فيها وهرب صاحبها .

ثم رجع شمس الدولة إلى أصوان ثم إلى قوص وكان في صحبته أمير يقال له ابراهيم الكردى ، فطلب من شمس الدولة قلعة ابريم فأقطعه إياها ، وأنفذ معه جماعة من الأكراد البطالين ، فلما وصلوها فرقا فرقاك وكانوا يشنون الغارة على بلاد النوبة حتى برحوا بها واكتسبوا أموالا كثيرة ، فنمت أرزاقهم وكثرت مواشيهم واتفق أنهم عدوا إلى جزيرة من بلاد النوبة تعرف بجزيرة زيدان فغرق أميرهم ابراهيم وجماعة من أصحابه ، ورجع من بقى منهم إلى قلعة ابريم وأخذوا جميع ما كان فيها وأخلوها ، فعاد السودانيون إليها وملكوها .

وأنفذ ملك النوبة رسولا إلى شمس الدولة وهو مقيم بقوص ومعه كتاب يطلب الصلح ومع الرسول هدية جارية وعبد فكتب إليه الجواب وأعطاه زوجي نشاب وقال مالك عندى جواب إلا هذا ، وجهز معه رسولا يعرف بمسعود الحلبى وأوصاه أن يكشف له خبر البلاد ليدخلها فسار الحلبى مع الرسول حتى وصل دنقله وهي مدينة الملك ، فوجدها بلاداً ضيقة ليس بها زرع إلا الأذرة وعندهم نخل صغار وليس بالمدينة عمارة إلا دار الملك فقط وباقيها أخصاص ، ولما مثل أمام الملك أمر أن تكوى يده فكوي عليها هيئة صليب وأمر له بخمسين رطل من الدقيق وصرفه .

وفاة نجم الدين أيوب وبعض سيرته

فى أثناء مجاصرة صلاح الدين الكرك والشوبك ، توفى والده نجم الدين أيوب بمصر وكان راكبا فرسه بالقاهرة فشب به عند باب النصر يوم الاثنين

١٨ ذى الحجه سنة ٥٦٨ وحمل إلى منزله وعاش ثمانية أيام وتوفي الى رحمة ربه في ٢٧ منه ، فدفن بالقاهرة إلى جانب أخيه أسد الدين بالدار السلطانيه إلى أن نقلا إلى المدينة المنورة ، وكان كريما رحيماً عطوفاً حليماً وبابه مزدحم الوفود ، وهو متلف الموجود ببذل الجود وكان شديد الركض ولعاً بعلب الكرة ، فلما وصل خبره إلى ولده صلاح الدين اشتد روعه وحزن عليه حزناً شديداً وتجلد بالصبر وقال :

وتخطفته يد الردى في غيبتى هبنى حضرت فكنت ماذا أصنع

وهو الأمير نجم الدين أيوب بن شاذى ولايعرف في نسبه أكثر من والده شاذى وكان مولده بلد شبختان وقيل بجبل جور وربي في بلد الموصل ونشأ شجاعاً باذلا وخدم السلطان محمد بن ملكشاه ، فرأى منه أمانة وعقلا وسداداً وشهامة فولاه قلعة تكريت ، فقام في ولايتها أحسن قيام وضبطها أعظم ضبط ، وأجلي عن أرضها المفسدين وقطاع الطريق ، حتى عمرت وحسن حال أهلها .

فلما ولى السلطان مسعود الملك أقطع قلعة تكريت لمجاهد الدين بهروز خادم شحنة بغداد ومتولى العراق ، فأقر الأمير نجم الدين فى ولاية تكريت وأضاف إليه النظر فى جميع الولاية المتاخمة له ، وجعل بهروز قلعة تكريت خزانة أمواله وبيت عقائله وجعل جميع ذلك منوطاً بالأمير نجم الدين ، وكان السلطان مسعود وأتابك زنكي قد طمعا ببغداد ، فسارا إلى أن وصلا تكريت فتقابلا مع قراجه الساقى وهو أتابك بن السلطان محمود فجرد ألف فارس عليهم ثم أردفهم بعسكر كثير ، فانهزم زنكى وقتل جماعة من أصحابه وجملة ممن كان في عسكره ولجأ إلى سور تكريت وبه عدة جراحات ، وعلم به الأمير نجم الدين وأخوه شيركوه ، فأصعداه القلعة بجبال وداويا جراحاته وخدماه أحسن خدمة فأقام عندهم بتكريت خمسة عشر يوما ثم سار إلى الموصل ، وأعوزه الدهر فأعطياه جميع ماكان عندهما من الدواب حتى إنهما أعطياه جملة من البقر حمل عليها ما سلم معه من أمتعته ، فكان زنكى يرى لأيوب هذه اليد ويعرف له هذه الصنيعة ويواصله بالهدايا والألطاف مدة إقامته فى تكريت .

وفى ذات يوم نزل أسد الدين من القلعة لبعض أشغاله ثم عاد إليها وكان بينه وبين كاتب صاحب القلعة وهو نصراني ضغائن ، فاتفق في ذلك اليوم أن

النصراني صادف أسد الدين صاعداً إلى القلعة فعبث به بكلمة ممضة فجرد أسد الدين سيفه وقتل النصراني وصعد إلى القلعة وكان مهيبا فلم يتجاسر أحد على معارضته وأخذ النصراني برجله وألقاه من القلعة فبلغ بهروز صاحب القلعة ما جرى وحضر عنده من خوفه جراءة أسد الدين لأنه ذو عشيرة كبيرة ولأن أخاه نجم الدين استحوذ على قلوب الرعايا وربما كان منهما أمر تخشي عاقبته ويصعب استدراكه ، فكتب إلى نجم الدين ينكر عليه ماجرى من أخيه ويأمره بتسليم القلعة إلى نائب سيره صحبة الكتاب ، فأجاب نجم الدين إلى ذلك بالسمع والطاعة ، وأنزل من القلعة جميع ماكان له فيها من أهل ومال واجتمع هو وأخوه أسد الدين وصمما على قصد عماد الدين زنكي بالموصل .

وعظم على أهل تكريت خروج نجم الدين من القلعة وخرجوا جميعاً لتوديعه وبكوا وأسفوا على مفارقته ولما اتصل بعماد الدين زنكي خبر قدومهما فرح لذلك وأمر الموكب بلقائهما وأكرمهما وإكراما عظيما وأقطعهما في بلد شهر زور إقطاعا سنيا وقيل إنه أقطع أسد الدين بالموزر ، وجرى بين أسد الدين وجمال الدين الوزير مودة عظيمة .

وساعد أسد الدين وأخاه نجم الدين حتي قربهما من قلب أتابك ، وجعلهما عنده في منزلة عالية وخرجا معه إلى الشام وشهدا معه حروب الصليبيين ، وكان لأسد الدين في تلك المواقع اليد البيضاء ، وأقاما في خدمة ولده الملك العادل محمود نور الدين إلى أن أرسل أسد الدين لفتح مصر كما تقدم ، وأرسل نجم الدين إلى ولده صلاح الدين بشأن قطع خطبة الفاطميين والخطبة للعباسيين .

ومما يحكى عن نجم الدين أنه بينما كان جالسا مع ولده صلاح الدين فى دار الوزارة وحولهما أرباب الدولة إذ تقدم كاتب نصرانى كان فى خدمة الأمير نجم الدين فقبل الأرض بين يدى السلطان الملك الناصر ووالده نجم الدين والتفت إلى نجم الدين وقال له يامولاى هذا تأويل مقالتى لك حين ولد هذا السلطان ، فضحك نجم الدين وقال صدقت والله ثم حمد الله وشكره والتفت إلى الحاضرين الذين حوله من قضاة وأمراء وقال لكلام هذا النصراني حكاية عجيبة ، وذلك أنني ليلة رزقت هذا الولد يعنى السلطان الملك الناصر ، أمرني

صاحب قلعة تكريت بالرحلة عنها بسبب الفعلة التى كانت من أخى أسد الدين وقتله النصرانى ، وكنت قد ألفت القلعة وصارت لي كالوطن ، فثقل على الخروج منها والتحول عنها ، واغتممت لذلك .

وفي ذلك الوقت جاءنى البشير بولادته فتشاءمت به وتطيرت لما جرى على ، ولم أفرح به ولم استبشر وخرجنا من القلعة وأنا على طيرتي به لا أكاد أذكره ولا أسميه ، وكان هذا النصراني معي كاتبا فلما رأى مانزل بى من كراهية الطفل والتشاؤم به طلب منى أن أذن له فى الكلام فأذنت له فقال يامولاى قد رأيت ماحدث عندك من الطيرة بهذا الصبي وأى شيء له من الذنب وبما استحق ذلك وهو لاينفع ولايضر ولا يغني شيئاً ، وهذا الذى جرى عليك قضاء من الله ، ثم مايدريك أن هذا الطفل يكون ملكاك عظيم الصيت جليل القدر فعطفنى كلامه عليه ، وها هو قد أوقفنى على ما كان قاله فتعجب الجماعة من هذا الاتفاق .

استيلاء بهاء الدين قراقوش على طرابلس الغرب وغيرها

في سنة ٥٦٨ هجرية أيضاً سار طائفة من الترك بقيادة بهاء الدين قراقوش من الديار المصرية إلى جبال نفوسه ، واجتمع به مسعود بن زمام المعروف بمسعود البلاط ، وهو من أعيان الأمراء هناك ، وكان خارجاً عن طاعة عبد المؤمن صاحب الغرب ، فاتفقا وكثر جمعهما ونزلا على طرابلس الغرب فحاصراها وضيقا على أهلها وفتحاها بالقوة ، فاستولى عليها قراقوش وأسكن أهله قصرها وملك كثيراً من بلاد الغرب ماخلا المهدية وسفاقس وقفصة وتونس وما والاها من القرى والمواضع ، وصار مع قراقوش عسكر كثير ، فحكم على تلك البلاد باسم الديار المصرية وجمع منها أموالا عظيمة خزنها في مدينة قابس وقويت نفسه وحدثته بالاستيلاء على جميع بلاد المغرب .



استيلاء شمس الدولة تورانشاه علي بلاد اليمن

جرت فى مصر مؤامرة سرية بالانتقام من الدولة الأيوبيه لم ينفذها أصحابها لخوفهم من عقباها عليهم وخصوصاً من قوة تورانشاه ، فلذلك أخذ أحد المتآمرين ، المدعو عمارة اليمني الشاعر ، يصف في بلاد اليمن لتورانشاه ويعظمها فى عينه ، ويطلب منه الخروج إليها للاستيلاء عليها ، ففى شهر رجب سنة ٥٦٩ أمر صلاح الدين أخاه شمس الدولة تورانشاه بالمسير ، فسار بعد أن جند الأجناد وتجهز بآلات الحرب قاصداً اليمن ، فوصل إلى مكة المكرمة وسار منها إلى زبيد ، فلما قرب منها خرج إليه صاحبها عبد النبى ومعه رجاله وتقاتلوا ، فانهزم أهل زبيد فتبعهم شمس الدولة بعسكره إلى أن وصل إلى سور المدينة ، فلم يجدوا من يمنعهم فنصبوا السلالم وصعدوا على السور ، وملكوا المدينة عنوة ونهبوها ، وأخذ عبد النبى وزوجته أسيرين وولى على المدينة سيف الدين مبارك ابن منقذ .

ثم سار إلى عدن وهي محصنة من جهة البر تحصيناً عظيما ، وصاحبها اسمه ياسر ، فخرج بعسكره إلى شمس الدولة لمحاربته ، فانهزم ياسر ومن معه وسبقهم بعض عسكر شمس الدولة ، فدخلوا البلد قبل أهله فملكوه وأخذوا صاحبه ياسر أسيراً ، وأرادوا نهب البلد فمنعهم شمس الدولة وقال ماجئنا لنخرب البلاد ، وإنما جئنا لنملكها ونعمرها ، فاستناب فيها عز الدين عثمان الزنجيلي ، ثم فتح حصن نعز وغيره واستولى على مدينة الجند وصنعاء التى حرقت قبل دخوله ، ثم عاد إلى زبيد فوجد ابن منقذ قتل عبد النبى ، بعد أن وقف منه على معرفة جميع كنوزه المدفونة .

وأرسل إلى شمس الدولة صاحب طمار وباقي الملوك وصالحوه على أداء المال ، فكتب شمس الدولة تورانشاه إلى أخيه صلاح الدين بمصر يعلمه بما من الله عليه من الفتح وأنه أبطل الخطبة المهدية (التى كانت لعبد النبى لأنه كان يدعي الإمامة) وخطب للعباسيين .

ظهور المؤآمرة وصلب أعضائها

بعد مسير شمس الدولة إلى البلاد اليمنية ، اجتمع جماعة منهم عمارة بن أبي الحسن اليمني الشاعر ، وعبد الصمد الكاتب ، والقاضى العوريس وداعى الدعاة وغيرهم ، من جند المصريين والسودانيين وحاشية القصر ، ووافقهم جماعة من أمراء صلاح الدين وجنده واتفق رأيهم على استدعاء الافرنج من ساحل الشام وجزيرة صقلية إلى مصر ليملكوها ، ويعيدوا الدولة الفاطمية العلوية على شيء بذلوه من المال والبلاد ، ووعدوهم بأنهم متي حضروا إلى مصر ، وخرج صلاح الدين لمحاربتهم ثاروا هم في القاهرة ، وأعادوا الدولة العلوية ، وإن بقى صلاح الدين بمصر فيكون عساكره بعيدة عنه فيثبوا عليه ويقبضوه باليد .

واشترك معهم زين الدين على بن نجا الواعظ ، فعينوا الخليفة والوزير فكل من بنى رزيك وبنى شاور طلبها لنفسه ورتبوا القضاة وداعى الدعاة والحاجب ، ثم توجه زين الدين إلى صلاح الدين وأعلمه بواقعة الحال ، فأمره بملازمتهم ومخالطتهم ومواطأتهم على مايريدون ، وأن ينقل إليه أخبارهم يوما فيوما ففعل ، وأطلعه على كل مايجرى ثم وصل رصول من ملك الافرنج أموري بهدية ورسالة وهو فى الظاهر لصلاح الدين وفى الباطن للجماعة المؤامرين ، وكان يرسل إليهم بعض النصارى وتأتيه رسلهم فأتي الخبر إلى صلاح الدين من بلاد الافرنج بجلية الحال .

فوضع صلاح الدين على الرسول بعض من يثق إليه من النصاري وداخله فأخبره الرسول بالخبر على حقيقته ، فقبض حينئذ على جميع المؤامرين وصلبهم في ثاني يوم رمضان سنة ٥٦٩ وفي مقدمتهم عمارة اليمني ، وفى هذه القضية قال العلامة تاج الدين الكندى :

عمارة في الإسلام أبدى جناية	وبايـع فيهـا بيعـة وصليبـا
وأمسى شريك الشرك في بغض أحمد	فأصبح في حب الصليب صليبا
وكان خبيث الملتقى إن عجمته	تجد منه عوداً في النفاق صليبا
سيلقى غداً ما كان يسعى لأجله	ويسقي صديداً في لظي وصليبا

وصليبا في البيت الأول بمعنى النصارى وفي الثانى بمعنى مصلوب وفي الثالث بمعنى الصلابة وفى الرابع ودك العظام ، وقيل إنه الصديد أيضا أى يسقي مايسيل من أهل النار وكان عمارة هذا عربياً فقيهاً أديباً .

وفاة الملك العادل محمود أتابك نور الدين

ظل الملك العادل نور الدين حانقاً على صلاح الدين ، لأنه رأي منه فتوراً في محاربة الصليبيين ، فأرسل إلى الموصل وديار بكر وديار الجزيرة يطلب العساكر للمسير إلى مصر لإخراج صلاح الدين منها ، ووافق ذلك عيد الفطر ، ففى ثانى يوم خرج نور الدين ومعه أمراؤه إلى أن نزل الميدان وكان معهم همام الدين مودود وهو من أكابر دولته ، فقال لنور الدين هل نكون هنا في مثل هذا اليوم من العام القابل فقال نور الدين قل هل نكون بعد شهر فإن السنة بعيدة .

ثم إن نور الدين مرض بعلة الخوانيق وطلب بعض الأطباء فلم ينفع فيه الدواء وعظم الداء ، فمات يوم الأربعاء الحادى عشر من شوال سنة ٥٦٩ ، وكان شجاعا باسلا وفاضلا باراً وكان محبوباً معتبراً عند المسلمين والصليبيين أعدائه ، وكانت مملكته شاملة جميع سوريا الشرقية وقسم من سوريا الغربية والموصل وديار بكر وديار الجزيرة ومصر وبعض بلاد المغرب وبلاد اليمن وكانت وفاته بدمشق ودفن فيها وقال فيه العماد :

يا ملكا أيامه لم تزل ... لفضله فاضلة فاخرة
غاصت بحار الجود مذغيبت ... أنملك الفائضة الزاخرة
ملكت دنياك وخلفتها ... وسرت حتى تملك الآخرة

وقال أيضاً

لفقد الملك العادل ... يبكي الملك والعدل
وقد أظلمت الآفاق ... لاشمس ولاظل
ولما غاب نور الدين ... عنا أظلم الحفل
وزال الخصب والخير ... وزاد الشر والمحل

ومــات البــأس والجــود وعــاش اليــأس والبخــل
وعــز النــقص لمــا هــان أهــل الــفضل والــفضل
وهل ينفق ذو العلم إذا مانفق الجهل وما كان لنور الدين لولا نجله مثل

وملك بعده ابنه الملك الصالح اسماعيل ولم يبلغ الحلم وحلف له الأمراء والمقدمون بدمشق ، وأقام بها وأطاعه الناس في سائر بلاد الشام ، وتولى تربيته الأمير شمس الدين محمد بن المقدم ، ثم كتب الملك الصالح الى الملك الناصر صلاح الدين يوسف كتابا يخبره فيه بوفاة والده طالباً منه المساعدة والمعاونة على قتال الصليبيين ، فخطب الملك الناصر له بمصر وضرب السكة باسمه وأرسل إليه صلاح الدين كتابا بتعزيته ونصحه مع رجال دولته ومما فيه :

(الله الله إن تختلف القلوب والأيدى فتبلغ الأعداء مرادها ، وتعدم الآراء رشادها ، وتنتقل النعم التى تعبت الأيام فيها إلى أن أعطت قيادها ، فكونوا يداً واحدة ، وأعضاداً مقاعدة ، وقلوبا يجمعها ود ، وسيوفا يضمها غمد ، ولاتختلفوا فتنكلوا ، ولاتنازعوا فتفشلوا ، وقوموا على أمشاط الأرجل ولا تأخذوا الأمر بأطراف الأنمل ، فالعداوة محدقة بكم من كل مكان ، والكفر مجتمع على الإيمان ، ولهذا البيت منا ناصر لانخذله وقائم لانسلمه ، وقد كانت وصيته إلينا سبقت ، ورسالته عندنا تحققت ، بإن ولده القائم بالأمر وسعد الدين كمشتكين الأتابك بين يديه ، فإن كانت الوصية ظهرت وقبلت ، والطاعة فى النيبة والحضور أديت وفعلت ، وإلا فنحن لهذا الولد يد على من ناوأه وسيف على من عاداه ، وإن أسفر الخير عن معافاة فهو الغرض المطلوب والنذر الذى يحل علي الأيدى والقلوب) .



حصار الصليبيين حصن بانياس وعودهم عنه

لما مات نور الدين اجتمع الصليبيون لطمعهم في بلاده ، وساروا إلى قلعة بانياس من أعمال دمشق ، فحصروها فجمع شمس الدين محمد بن عبد الملك ابن المقدم العساكر بدمشق ، وراسل الافرنج ولاطفهم ثم أغلظ لهم فى القول وقال لهم : إن انتم صالحتمونا وعدتم عن بانياس فنحن على ماكنا عليه وإلا فنرسل إلى سيف الدين صاحب الموصل ونعلمه ونصالحه ونستنجده ، ونرسل إلى صلاح الدين بمصر فنستنجده ونقصد بلادكم من جهاتها كلها ، وأنتم تعلمون طمع صلاح الدين في بلادكم وإذا طلبناه لذلك فلا يمتنع ، فعلموا صدقه فصالحوه على شيء من المال أخذوه ، وأسرى كانوا عند المسلمين أطلقوهم ، وتقررت الهدنة .

فلما سمع صلاح الدين بذلك أنكره ولم يعجبه ، وكتب إلى جماعة الأعيان كتبا دالة علىٰ التوبيخ والملام ، ومن جملتها كتاب إلى الشيخ شرف الدين بن أبي عصرون يخبره فيه أنه لما بلغه قدوم الصليبيين ، خرج وسار أربعة مراحل ثم جاءه خبر الهدنة المؤذنة بذل الإسلام من دفع القطيعة وإطلاق الأسارى وإن ذلك لايصح وكان يجب الانتظار لحين حضوره .

وفاة الملك أمورى وتولية ابنه الملك الأبرص

في سنة ٥٧٠ توفي الملك أمورى ملك القدس ، وقد كان طماعا عديم الفطنة حتي إنه أنفق جميع خزائنه في طلب امتلاكه الديار المصرية ، ولم يحصل له ثمرة مطلقا خلاف الخسائر التي عادت عليه وعلى قومه لأنه قبل حروبه مصر كانت مراكبهم تأتى إليها بالتجارة ، وتأخذ منها المحصولات ، ولما علموا غدره منعوا من دخول البلاد المصرية ، وكان كثيراً ماتخرج المراكب المصرية فى البحر تبحث على مراكب الصليبيين وتنهبها وتأخذها .

وبعد وفاته تولى ابنه بودوين الرابع وكان عمره ثلاث عشرة سنة وذلك في سنة ١١٧٤ افرنكية ولهذا الملك صفات جليلة ولكن لسوء حظه ابتلى بمرض البرص ولذلك لقبوه بالملك الأبرص ، ولمرضه وعجزه عن تدبير المملكة أقيم له وكيل ملوكى (نائب الملك) وهو رايموند صاحب طرابلس وهو رابع أولاد رايموند دى سان غيلاس .

ورود أسطول جزيرة صقلية ومحاصرة الاسكندرية

تقدم أن جماعة من المصريين كاتبوا الصليبيين فى سوريا وجزيرة صقليه ، ولما أحس بهم صلاح الدين صلبهم ورسول الصليبيين في مصر ، فأعلم أصحابه فى سوريا بما كان ، أما ملك صقلية فلم يعلم ماتم فأرسل أسطولا عظيما فى أواخر شهر الحجه سنة ٥٦٩ إلى ثغر الإسكندرية ، ففى يوم الأحد ٢٦ منه وقت الظهر وصل أول الأسطول وظل يتتابع إلى وقت العصر ، وكان ذلك على حين غفلة من المتوكلين بالنظر (الناضورجيه) فملأ البحر لوفور عدته وكثرة مراكبه لأنه كان يحتوى على ٣٦ طريدة تحمل الخيل و ٢٠٠ شينى (مركب حربيه) فى كل شينى ١٥٠ راجلا ، وكانت عدة السفن التي تحمل آلات الحرب والحصار وغيرها ست سفن وأربعين مركباً تحمل الأزواد وصناع المراكب فكان عدد المقاتلين ثلاثين ألفاً ماعدا صناع المراكب وأبراج الزحف والدبابات والمنجنيقات فيبلغ عدد جميعهم ٥٠ ألف رجل ، ولما تكاملوا نزلوا على البر وحملو على المسلمين حملة أوصلوهم إلى السور ، وفقد من أهل الثغر سبعة أنفس وقتل محمود بن البصار .

وزحفت مراكب الإفرنج داخلة إلى المينا وكان بها مراكب حربية ومراكب تجارية فنصب الافرنج المنجنيقات والدبابات وقاتلوا أشد قتال وصبر لهم أهل البلد ولم يكن عندهم من العسكر إلا القليل ، ورأى الافرنج من شجاعة أهل الإسكندرية وحسن سلاحهم ماراعهم ، أما أهلها فإنهم أرسلوا إلى صلاح الدين وكان مقيما بفاقوس — بواسطة الحمام — يعلمونه بالخبر ، ويطلبون منه المساعدة لدفع العدو عنهم ، ودام القتال أول يوم وعاود الإفرنج القتال فى اليوم التالى ، ولازموا الزحف حتى وصلت الدبابات إلى قرب السور ، ووصل في ذلك اليوم من العساكر الإسلامية كل من كان فى إقطاعه قريباً من الاسكندرية فقويت بهم نفوس أهلها وأحسنوا القتال والصبر .

فلما كان اليوم الثالث فتح المسلمون باب البلد وخرجوا منه علي الافرنج ، واشتد القتال فوصل المسلمون إلى الدبابات فأحرقوها وصبروا للقتال حتى ظهرت لهم أمارات النصر ، ولم يزل القتال إلى آخر النهار ، ودخل أهل البلد

وهم فرحون مستبشرون بما رأوا من ظفرهم ، وفشل الافرنج وفتور حربهم وكثرة القتال والجراح فى العدو .

وأما صلاح الدين فلما وصله الخبر ، سار بعساكره وسير مملوكا له ومعه ثلاث جنائب ليجد السير عليها إلى الاسكندرية مبشراً بوصوله ، وسير طائفة من العسكر إلى دمياط خوفاً عليها واحتياطاً لها فسار ذلك المملوك فوصل الاسكندرية من يومه وقت العصر والناس قد رجعوا من القتال ، فنادى فى البلد بمجيء صلاح الدين والعسكر مسرعين ، فلما سمع الناس ذلك عادوا إلى القتال وقد زال مابهم من التعب وألم الجراح ، وكل منهم يظن أن صلاح الدين معه فهو يقاتل قتال من يريد أن يشاهد قتاله .

وسمع الفرنج بقرب صلاح الدين وعساكره فكلت أيديهم وازدادوا تعبا وفتوراً ، فهاجمهم المسلمون عند اختلاط الظلام ووصلوا إلى خيامهم فغنموها بما فيها من الأسلحة الكثيرة والتحملات العظيمة ، وكثر القتل فى رجالة الافرنج فهرب كثير منهم إلى البحر وقربوا شوانيهم إلى الساحل ليركبوا فيها ، فسلم بعضه وركب البعض وغرق بعضهم وغاص بعض المسلمين فى الماء وخرق بعض شوانى الافرنج فغرقت ، فخاف الباقون من ذلك فولوا هاربين واحتمى ثلثمائة من فرسانهم على رأس تل ، فقاتلهم المسلمون إلى بكرة ودام القتال إلى أن أضحي النهار ، فغلبهم أهل البلد وقهروهم فساروا بين قتيل وأسير ، ونهب المسلمون مالايحصى وأقلعت باقى مراكب الأسطول في يوم الخميس أول محرم سنة ٥٧٠ .

واقعة الكنز وقتله

الكنز هو رجل مصرى كان مقدماً على فرقة من الجيش ، وفى أول محرم سنة ٥٧٠ قام المذكور في الصعيد ، وجمع من كان في البلاد من العربان والعبيد وغيرهم خلق كثير ، وكان هناك أمير من الأمراء الصلاحية أخ لحسام الدين أبو الهيجاء السمين ففتك به وبمن معه هناك ، فعظم قتله على أخيه وهو من أكبر الأمراء وأشجعهم ، وطلب أخذ الثأر وساعده سيف الدين (أخو صلاح الدين) وعز الدين موسك ابن خاله وعدة من أمرائه ورجاله وجاءوا إلى

مدينة طود فاحتمت عليهم فقاتلوا من فيها فظفروا بهم وقتلوا منهم كثيراً وذلوا بعد العز ، ثم قصدوا الكنز ورجاله وحاربوهم وقتلوا الكنز ومن معه من الأغراب والعبيد ، واطمأنت بعد قتله البلاد ، ولم يبق للدولة الصلاحية بعد كنزها كنز يفسد عليها بلادها وكان ذلك في شهر صفر سنة ٥٧٠ .

عزم صلاح الدين على المسير إلى بلاد سوريا

بعد انقضاء واقعة الكنز وخلو الديار المصرية من الفتن ، بلغ صلاح الدين أن سيف الدين غازى بن قطب الدين سار وملك بلاد الجزيرة ، ولم يرسل من مع الملك الصالح بن نور الدين من الأمراء إلى صلاح الدين ولا أعلموه بما كان ، فكتب إلى الملك الصالح يعاتبه حيث لم يعلمه قصد سيف الدين بلاده ليحضر في خدمته ويمنعه .

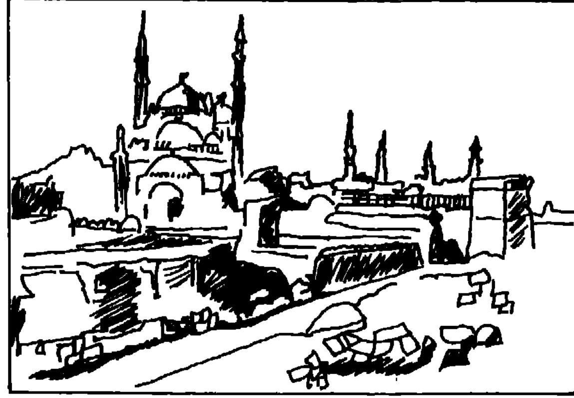
وكتب إلى الأمراء يقول (إن الملك العادل لو علم أن فيكم من يقوم مقامي أو يثق إليه مثل ثقته بي لسلم إليه مصر التي هى أعظم ممالكه وولاياته ، ولو لم يعجل عليه الموت لأقامني وصياً على ابنه ، وأرى أنكم تحاولون إخراج يدى ولكني سأذهب إلى دمشق بنفسى وأقدم عبوديتى إلى هذا السلطان الجديد معترفا بالأفضال العظيمة التي حملنيها أبوه . أما أنتم فسأعاملكم بمقتضى تصرف كل واحد منكم فإنى أعتبركم قوماً تلقون القلاقل والفتن فى البلاد) ثم إن صلاح الدين أقام خصيه بهاء الدين قراقوش حاكما على مصر في غيابه وتجهز للسفر إلى البلاد السورية .

حكم قراقوش وبناء القلعة والسور وغيرهم

لما عزم صلاح الدين على السفر إلى سوريا ، وأقام بهاء الدين الأسدى قراقوش حاكما بمصر مدة غيابه ، وعهد إليه تدبير الأحكام وأمره أن يقيم البنايات اللازمة لرونق البلاد ومنعتها ومنفعتها ، فأنفذ بهاء الدين ما عهد إليه بغيرة ونشاط وكانت جسور النيل قد أهمل شأنها منذ تولى الخلفاء الفاطميين ، فكان إذا فاض طفت مياهه على الأراضي وخربت الطرق وأفسدت الزرع .

فمهد الطرق واحتفر الترع ، وأقام الجسور والسدود ، واستخدم لذلك حجارة بعض الأهرام الصغيرة التى كانت تحيط باهرام الجيزة وغيرها من أبنية

المصريين القداماء ، وأنشأ طريقاً تمتد طولا على ضفة النيل فتقيها من صدمات المياه وتسهل صلات العاصمة مع مصر العليا والسفلي ، وشاد فوق الترعة التي كانت تجرى بين الجيزة وأهرامها جسراً عظيما مؤلفاً من أربعين قنطرة لايزال بعضها باقياً الآن .



(صورة قلعة القاهرة الآن)

ولم يكن لصلاح الدين إذ ذاك مسكن إلا القصران اللذان كانا مسكناً للخليفة والوزير السابقين ، ولم يكونا منيعين حق المنعة ، فجعلها منزلا لضباط الحكومة وقواد الجيوش ، وشاد عند الطرف الشمالى من جبل المقطم على سفحه قلعة منيعة لإرهاب الأهالى إذا حاولوا العصيان ، وجعل فيها قصراً لبلاطه ، وكان فى ذلك المكان بناء قديم من عهد الدولة الطولونيه يعرف بقصر الهوى ، فهدمه وأقام القلعة على أنقاضه وأتي بحجارتها من خرائب منف والأُهرام وغيرها فجاءت قلعة منيعة الجانب تشرف على كل المدينة ، وليس فى القاهرة بناء آخر أعز موقعاً منها ، وهى التي لاتزال باقية إلى هذا العهد ، وتعرف بقلعة الجبل أو قلعة القاهرة .

وجعل قراقوش فى القلعة بئراً نقراً في الصخر عميقاً جداً يسع كلما تحتاج إليه الحامية من الماء ، ولايزال البئر والقصر إلى هذه الساعة يعرفان باسمه فالبئر (يدعى ببئر يوسف) ويظن بعض العامة أنه سمي هكذا نسبة إلى يوسف الصديق بن يعقوب والصحيح نسبته إلى يوسف صلاح الدين الذى أمر باحتفاره ،

والمظنون أن هذه البئر كانت محفورة من أيام قدماء المصريين ثم طمرت بالرمال ، فأعاد صلاح الدين حفرها ، وتسمى أيضاً بالحلزون وما بقي من القصر يعرف بديوان يوسف أو ديوان صلاح الدين .

وابتنى قراقوش أيضاً حواصل كبيرة فى الفسطاط (مصر القديمة) لخزن الحاصلات التي ترد من الأقاليم سنوياً ، ولا تزال تدعى إلى يومنا هذا بمخازن يوسف ، وقد ظن بعض المتفرجين والعامة أنها من بناء فرعون في أيام يوسف الصديق .

وبعد أن فرغ قراقوش من إصلاح الترع والخلجان والطرق وبناء القلعة ، أخذ يهتم بإتمام سور القاهرة ، وكان صلاح الدين ابتدأ بعمارته سنة ٥٦٦ وهو يومئذ على وزارة العاضد ، فعمل له قراقوش رسما عظيم الاتساع يحيط بالقاهرة والفسطاط وقصر الشمع وما بينها من الأرض ، إلا أنه استعظم بناءه بهذا الاتساع فجعله محيطاً بالقاهرة والقلعة فقط ، واضطر لقيام مشروعه هذا أن يهدم جوامع وبيوتاً وقبوراً كثيرة كانت قائمة في مكان السور ، ولم يكن الأهالى معتادين على الإذعان لأوامر صلاح الدين كسلطان ، وكان بعضهم لايزال متشيعا للدولة الفاطمية ، فاتهموه بالاستبداد ولقبوا بهاء الدين بقراقوش ، أي الطير الأسود وهو العقاب .

ولايزال بعض عامة الشرقيين يصفون هذا الاسم بالاستبداد والعسف وينسبون إليه أحكاما عجيبة في ولايته ، حتى أن الأسعد بن مماتى له كتاب لطيف سماه (الغاشوش فى أحكام قراقوش) وفيه أشياء يبعد وقوع مثلها منه ، والظاهر أنها موضوعة لأن صلاح الدين كان معتمداً فى أحوال المملكة عليه ولولا وثوقه بمعرفتهِ وكفاءته مافوضها إليه ، وكان قراقوش رجلا سعيداً وصاحب همة عالية .

وهذه هى المرة الثالثة لبناء سور القاهرة ، ففى المرة الأولى بناه جوهر ، وفى الثانية بناه أمير الجيوش ، وفي الثالثة قراقوش بأمر صلاح الدين ، فزاد فيه قطعة من باب القنطرة إلى باب الشعرية ومن باب الشعرية إلى باب البحر ، وبنى قلعة المقس وهي برج كبير جعله على النيل بجانب جامع المقس الذى يعرف اليوم بجامع أولاد عنان وهو خارج باب البحر على يسار الذاهب من

الشارع الجديد إلى محطة السكة الحديد وانقطع السور من هناك . وزاد في سور القاهرة قطعة مما يلي باب النصر ممتدة إلى البرقية وإلى درب بطوط وإلى خارج باب الوزير يتصل بسور قلعة الجبل ، فانقطع من مكان يقرب الآن من الصوة تحت القلعة ، وجاء طول هذا السور المحيط بالقاهرة ٢٩٣٠٢ بالذراع الهاشمي .

وقلعة المقس المذكورة كانت برجاً مطلا علي النيل في شرقي جامع المقس ولم تزل حتى هدمها الوزير الصاحب شمس الدين عندما جدد الجامع المذكور سنة ٧٠٧ هجرية وجعل فى مكان البرح المذكور جنينة . وحفر بهاء الدين خارج السور خندقاً جعله من باب الفتوح إلى المقس ومن الجهة الشرقية خارج باب النصر إلى باب البرقية وما بعده ، وجعل خارج هذا الخندق سوراً آخر بأبراج مبنية بالحجارة ، إلا أن هذا السور الثاني هدم جميعه والخندق ردم إلا فى بعض الأماكن .

مسير الملك الناصر صلاح الدين إلى سوريا واستيلاؤه على دمشق وغيرها

بعد تولية قراقوش حكم مصر ، سار صلاح الدين قاصداً سوريا ، فخرج إلى البركة في مستهل صفر سنة ٥٧٠ ، وأقام حتى اجتمع العسكر ثم رحل إلى بلبيس فى ١٣ ربيع أول ، وكانت رسل شمس الدين صاحب بصرى ، وشمس الدين بن المقدم عنده ، تستوري فى الحث والبعث زنده ، وتستقدمه وجنده ، وسار مجداً حتى أناخ على بصرى فاستقبله صاحبها وشد أزره .

وسار صلاح الدين في آخر شهر ربيع الأول إلى أن وصل إلى دمشق ودخلها وكان يظن عكس ذلك ، ودخل إلى دار العقيقى مسكن أبيه وبقي في قلعة دمشق جمال الدين ريحان الخادم بدون تسليم ، فراسله حتى استماله بالمال ، وتملك المدينة والقلعة ، ونزل بالقلعة سيف الإسلام أخو صلاح الدين وأظهر أنه جاء لتربية الملك الصالح وحفظ ماله وبلاده وتدبير ملكه فهو أحق بصيانة حقه ، واجتمع به أعيانها وفرق فيهم المال ، وخطب للملك الصالح ومدحه وجيش الأسدى بقصيدة أولها :

قد جاءك النصر والتوفيق فاصطحبا ... فكن لأضعاف هذا النصر مرتقبا
لله أنت صلاح الدين من أسد ... أدني فريسته الأيام إن وثبا
رأيت حلق ثغراك لا نظير له ... فجئتها عامراً منها الذى خربا
نادتك بالذل لما قل ناصرها ... وأزمع الخلق من أوطانها هربا
أحييتها مثل ما أحييت مصر فقد ... أعدت من عدلها ما كانا قد ذهبا
ويوم دمياط والاسكندرية قد ... أصارهم مثلا في الأرض قد ضربا
والشام لو لم يدارك أهله اندرست ... آثاره وعفت آياته حقبا

ولما اتصل بمن في حلب دخول الملك الناصر دمشق ، وميل الناس إليه ، خافوا منه وأجمعوا على مراسلته ، وأرسلوا إليه قطب الدين ينال بن حسان برسالة أرعدوا فيها وقالوا له (هذه السيوف التي ملكتك مصر بأيدينا والرماح التى حويت بها قصور المصريين على أكتافنا والرجال التى ردت عنك تلك العساكر هى تردك وأنت فقد تعديت طورك وتجاوزت حدك وأنت أحد غلمان نور الدين وممن يجب عليه حفظه في ولده) .

ولما بلغ السلطان ورود ابن حسان ، تلقاه بموكبه وبنفسه وبالغ فى إكرامه ثم أحضره بعد ثلاثة أيام لسماع الرسالة منه ، فلما فاه ابن حسان بتلك الشقاشق الباطلة ، وقعقع بتلك التمويهات العاطلة ، لم يعره صلاح الدين طرفاً ولاسمعاً ، وضرب عنه صفحاً وتغاضيا وخاطبه بكلام لطيف رقيق وقال له (يا هذا اعلم أنني وصلت إلى الشام لجمع كلمة الإسلام ، وتهذيب الأمور ، وحياطة الجمهور ، وسد الثغور ، وتربية ولد نور الدين ، وكيف عادية المعتدين) فقال له ابن حسان إنك إنما حضرت لأخذ الملك لنفسك ونحن لانطاوعك على ذلك ، ودون ماترومه خرط القتاد ، وأيتام الأولاد ، فلم يلتفت لمقاله ، وأومأ إلي رجاله ، بإقامته من بين يديه ، ونادى فى عساكره للاستعداد بقصد الشام الأسفل ، ورحل متوجها إلى حمص فتسلمها وقاتل قلعتها ولم ير تضييع الزمان عليها ، فوكل بها من يحصرها ، ورحل إلى جهة حماة فلما وصل إلى الرستن ، خرج صاحبها عز الدين جرديك ، وأمر من فيها من العساكر بطاعة أخيه شمس الدين على واتباع أوامره .

وسار جرديك حتى لقى صلاح الدين ، واجتمع به بالرستن ، وأقام عنده يوماً وليلة وظهر من نتيجة اجتماعه به أنه سلم إليه مدينة حماة وسأله أن يكون السفير بينه وبين من بحلب فأجابه إلى ذلك ، فلما وصل حلب اجتمع بالأمراء والملك الصالح ، وأشار عليهم بمصالحة الملك الناصر ، فاتهمه الأمراء بالمخامرة وردوا مشورته وأشاروا بقبضه ، فامتنع الملك الصالح ، ولج سعد الدين كمشتكين في القبض عليه فغل بالحديد ، وحمل إلى الجب الذى فيه أولاد الداية ، ولما دلوه إلى الجب وأحس به أولاد الداية قام إليه منهم حسن وشتمه أقبح شتم ، وحلف بالله إن أنزل اليهم ليقتلنه ، فامتنعوا من تدليته وأعلموا سعد الدين كمشتكين ، فحضر إلى الجب وصاح على حسن وشتمه وتوعده فسكن حسن وأنزل جرديك الجب .

ولم يزل صلاح الدين مقيما على الرستن ثم طال عليه الأمر ، فسار إلى جباب التركمان فلقيه أحد غلمان جرديك وأخبره بما جرى لسيده من الاعتقال والقهر ، فرحل صلاح الدين من ساعته عائداً إلى حماة وطلب من أخي جرديك تسليم حماة إليه وأخبره بما جرى على أخيه ففعل وولاها لأحد أمرائه مبارز الدين على بن أبي الفوارس ، وذلك مستهل جمادى الآخرة ، وسار صلاح الدين إلى حلب ونزل على أنف جبل جوشن فوق مشهد الدكة فى ثالث الشهر وامتدت عساكره إلى الخناقية وإلى السعدى .

فلما رأى من بحلب عساكر صلاح الدين ، خافوا من الحلبيين أن يسلموا البلد كما فعل أهل دمشق ، فأشاروا على الملك الصالح أن يجمعهم في الميدان ويخاطبهم بنفسه ، فأمر أن ينادى باجتماع الناس إلى ميدان باب العراق ، فاجتمعوا فنزل الصالح من باب الدرجة ، وسعد من الخندق ، ووقف في رأس الميدان من الشمال ، وقال لهم يا أهل حلب أنا ربيبكم ونزيلكم واللاجىء إليكم ، كبيركم عندى بمنزلة الأب ، وشابكم بمنزلة الأخ وصغيركم عندى يحل محل الولد ، وخنقته العبرة وسبقته الدمعة ، فافتتن الناس وصاحوا صيحة واحدة ، ورموا بعمائمهم وضجوا بالبكاء والعويل ، وقالوا نحن عبيدك وعبيد أبيك نقاتل بين يديك ونبذل أموالنا وأنفسنا لك .

وأرسل صلاح الدين إلى حلب رسولا يطلب الصلح فامتنع كمشتكين فاشتد صلاح في قتال البلد . واجتمع الأمراء بالملك الصالح ليدبروا الحيل فى قتل صلاح الديـــن فأجمعـــوا آراءهـــم علـــى مراسلة سنان صاحب الحشيشية ومقدمهم ليرسل من يفتك بصلاح الدين ، وضمنوا له على ذلك أموالا جمة وعدة من القرى ، فأرسل سنان جماعة من أصحابه الفتاكين ، فجاءوا إلى جبل جوشن واختلطوا بالعساكر ، فعرفهم الأمير ناصح الدين خمارتكين صاحب بوقبيس لانه كان مثاغراً لهم ، فقال ياويلكم كيف تجاسر تم على الوصول ، فقتلوه خوفاً من غائلته ، وجاء قوم للدفاع عنه فجرحوا بعضهم وقتلوا البعض ووثب أحد الاسماعيليه وبيده سكينة مشهورة ليقتل السلطان في خيمته ، فلما صار إلى باب الخيمة اعترضه طغريل أمير جاندار فقتله ، وطلب الباقيين فقتلوا بعد أن قتلوا جماعة ولما يئس من بحلب من هذه الحيلة ، راسلوا رايموند صاحب طرابلس ونائب الملك بودوين الرابع وضمنوا له أشياء كثيرة متي رحل صلاح الدين عن حلب .

فأرسل رايموند إلى صلاح الدين في أمر الحلبيين وأخبره أن الصليبيين تعاضدوا وساروا يداً واحدة فقال صلاح الدين لست ممن يرهب تألب الصليبيين ، وها أنا سائر إليهم ثم أنهض قطعة من جيشه وأمرهم بقصد انطاكية فغنموا غنيمة حسنة وعادوا ، فقصد رايموند جهة حمص ، فرحل صلاح الدين من حلب إليها فسمع رايموند فنكص راجعاً إلى بلاده وحصل الغرض من رحيل صلاح الدين عن حلب ووصل إلى حمص ، فتسلم القلعة ورتب فيها والياً من قبله ، وقال العماد في فتح حمص من قصيدة طويلة :

إياب بن أيوب نحـو الشا م على كل ما يرتجيه ظهور
يـــوسف مصر وأيامــــه تقـر العيـون وتشفـى الصدور
رأت منك حمص لها كافيـا فـواتك منهـا القـوى العسيـر

ثم سار صلاح الدين إلي أن وصل إلى بعلبك ، وكان فيها والى يقال له يمن ، فلما شاهد كثرة عساكر صلاح الدين اضطرب في أمره ، وراسل من بحلب على جناح طائر فلم يرجع إليه منهم خبر ، فطلب الأمان وسلم بعلبك إلى صلاح الدين فى رابع رمضان وعاد إلى حمص .

فى استقلال صلاح الدين بالملك وسلطنته

كان أمراء حلب قد راسلوا سيف الدين صاحب الموصل يطلبون منه نجدة ابن عمه الملك الصالح ، فأرسل لهم جيشا كبيراً بقيادة أخيه عز الدين مسعود ، فوصل إلى حلب بعد رحيل صلاح الدين عنها فخرجت معه عساكر حلب جميعها ، وساروا إلى أن وصلوا حماة وحاصروها ، فلما علم صلاح الدين ، سار بفرقة من جيشه فتأخرت عساكر الموصل وحلب إلى قرون حماة .

وراسلوا صلاح الدين في الصلح فأجابهم ، فطلبوا منه تسليم جميع القلع والحصون وأنه يقنع بدمشق وحدها نائباً فيها عن الملك الصالح فأجاب ، فلما رأوه قد أجابهم طمعوا فيه وقالوا الا بدمن المصاف ظناً منهم أنه لكثرتهم وقلته يغلبونه ، وساروا يناوشونه القتال إلى أن وصلت العساكر المصرية بقيادة تقى الدين عمر ، وقام المصاف بين العسكرين فانكسرت العساكر الحلبية والموصلية وانهزموا وتبعتهم عساكر صلاح الدين واستباحوا أموالهم وخيامهم ، وأسروا منهم جماعة ، وأمر صلاح الدين عساكره أن لا يوغلوا في طلبهم ولا يقتلوا من رأوه منهزماً ثم رحل حتى نزل بمرج قرأ حصار ولم يزل هناك حتى عيد الفطر فجاءته رسل الملك الصالح يسألونه المهادنة وأن يقر الملك الصالح على ما فى يده وماهو جار تحت حكمه من الشام الأسفل إلى بلد حماة ، فلم يرض بذلك فجعلوا له مع حماة المعرة وكفر طاب ، فرضى بذلك وحلف لهم على ذلك وعاد .

ثم رأى صلاح الدين قواته وأنه لايمكن أحد يعارضه فى شيء مماطا لما تمناه من استقلاله بالملك ، فصرح بسلطاته على مصر والشام ولما وصل إلى حماة ، وصلت إليه رسل الخليفة المستضيء العباسى ومعهم التشريفات الجليلة والأعلام السود وتوقيع من بالديوان بالسلطة ببلاد مصر والشام ، وفى ذلك يقول ابن سعدان الحلبى :

يأيها الملك العزيز فضله   لقد غدوت بالعلى مليا
كفى أمير المؤمنين شرفاً   أنك أصبحت له وليا
طارحك الود على شحط النوى   فكنت ذاك الصادق الوفيا

أولاك مــن لبــاسه زخرفــة لــم يولهــا قبــلك آدميــا
نـاسبت الـروض سنا وبهجــة حتــى حكتــه رونقــاً وريــا

ثم سار السلطان صلاح الدين إلى حصن بعرين وحاصره حتى تسلمه .

حرب السلطان مع المواصلة وهدنة الصليبيين

لما دخلت سنة ٥٧١ والسلطان نازل بمرج الصفر من أعمال دمشق ، جاءه رسول الصليبيين بطلب الهدنة ، فأجابه السلطان على ذلك بعد أن اشترط عليهم أموراً التزموها ، وأصاب الشام فى ذلك العام جدب فأذن السلطان للعساكر المصرية بالرحيل إلى بلادهم ، ولما علم سيف الدين صاحب الموصل بما جرى بين السلطان والحلبيين ، عتب عليهم ووبخهم ونسبهم إلى العجلة وأنفذ من أخذ على الحلبيين المواثيق بنقض العهد .

ثم توجه ذلك الرسول إلى دمشق ليأخذ من السلطات العهد القديم ، فلما خلا به طالبه السلطان بنسخة العهد (أي الذى تعاهدوا عليه) فى السنة الماضية فغلط الرسول وأخرج نسخة يمين الحلبيين لهم فتأملها واطلع على ما اتفقوا عليه من نقض العهد فردها إليه وقال لعلها قد تبدلت ، فعرف الرسول أنه قد غلط وقال السلطان ، كيف حلف الحلبيون للموصليين ومن شرط إيمانهم أنهم لايعتمدون إلا بمراجعتهم إيانا واستئذاننا ، ثم شاع خبر خروج الموصليين فى الربيع ، فأرسل إلى أخيه العادل بمصر يعلمه بذلك ويأمره أن يأمر العساكر بالاستعداد والخروج فى شعبان .

وكتب إلى الخليفة ببغداد يعلمه بما جرى من الموصلين والحلبيين ونقضهم العهد وأنه الآن بين عدوين عدو متظاهر بالإسلام وهم المذكورون ، وعدو آخر وهم الصليبيون ، وطلب منه أن يأمر ملوك الأطراف بمساعدته على الصليبيين ، أما سيف الدين فإنه قصد حلب واجتمع بالملك الصالح ، ثم سار إلى أن وصل إلى تل السلطان ومعه جمع كثير وأهل ديار بكر ، وكانت العساكر المصرية قد وصلت فسار بها السلطان حتى أتى قرون حماة ، فبلغهم أنه قد قارب عسكرهم ، فأخرجوا اليزك وتعبوا تعبية القتال ، وأصبح القوم على مصاف ، وذلك يوم الخميس عشرة شوال فالتقي العسكران وتصادما وجرى

قتال عظيم ، وحمل السلطان بنفسه فانكسر القوم وأسر منهم جمعاً عظيماً من كبار الأمراء ، منهم الأمير فخر الدين عبد المسيح فمن عليهم وأطلقهم .

وعاد سيف الدين إلى حلب ووكل السلطان ابن أخيه عز الدين فرخشاه بسرادق سيف الدين ، ثم أمر السلطان بالكشف عن باقى العساكر ، وتسلم مافي السرادق من الأموال وما يتبعه من الاصطبلات ، وفرق جميع ذلك على عسكره . ورأى في السرادق طيوراً من القمارى والبلابل والهزار والببغاء فى الأقفاص ، فاستدعي مظفر الأقرع أحد الندماء وقال خذ هذه الأقفاص واذهب بها إلى سيف الدين وقل له عد إلى اللعب بهذه الطيور ، فهى سليمة لاتوقعك في مثل هذا المحذور ، وأنها ألذ من مقاساة الحروب .

ثم نزل السلطان على حصن بزاغه وتسلمه في ٢٢ شوال وفتح منبج فى ٢٩ منه وكان فيها الأمير قطب الدين ينال بن حسان ، فأخرجه منها وتسلم جميع ما بها من الخزائن والذخائر ، ومن جملة أموالها ٣٠٠ ألف دينار ، ومن الفضة والآنية الذهبية والأسلحة والذخائر ماينا هز ألفى ألف دينار ، وحانت من السلطان التفاته فرأي مكتوباً على الأكياس والآنية اسم يوسف فسأل عن هذا الاسم فقيل له كان ولد يحبه اسمه يوسف ويدخر هذه الأموال له ، فقال السلطان أنا يوسف وقد أخذت ما خبيء لى فتعجب الناس من ذلك .

ثم نزل على عزاز نصب عليها عدة منجانيقات وجد فى القتال فتسلمها حادى عشر ذى الحجه بعد حصارها ٣٨ يوماً وقال العماد قصيدة منها :

أعطاه رب العالمين دولة عزت أهل الدين في إعزازها
حاز العلى ببأسه وجوده وهو أحق الخلق باحتيازها
بجده أفنى كنوزاً فنى الملوك في الجد على اكتنازها
مهلك أهل الشرك طرا رومها أرمنها افرنجها ابخازها
تفاخر الإسلام من سلطانه تفاخر الفرس بأبر بأبروازها

ماجرى للسلطان مع الحشيشيين

في حادي عشر ذى القعدة بينما كان السلطان محاصراً عزاز وجالساً في خيمة الأمير جاولى الأسدى قريباً من المنجنيقات ، إذ وثب عليه أحد الحشيشية أو الإسماعيلية فضرب رأسه بسكين فمنعته الزردية لأنه كان دائماً متخوفاً من هؤلاء الملاعين فلم تؤثر ضربة الحشيشى شيئاً وأحس بصفائح الحديد على رأس السلطان فمد يده بالسكينة إلىّ خده فخدشته فثبت جأش السلطان ، وقبض علي رأس الحشيشى وجذبه ووقع عليه وأدركه سيف الدين باز كوج وقتل الحشيشى ، وجاء حشيشي آخر فاعترضه الأمير داود بن منكلان فمنعه وجرحه الحشيشي في جنبه ومات بعد أيام ، وجاء آخر فعانقه الأمير علي بن أبى الفوارس وضمه من تحت إبطيه وبقيت يد الحشيشى من ورائه لايتمكن من الضرب فصاح الأمير على اقتلونى أنا وإياه ، فجاء ناصر الدين محمد بن شيركوه فطعن بطن الحشيشى بسيفه ، ومازال يخضخض فيه حتى مات ، ونجا على بن أبي الفوارس وخرج حشيشي آخر منهزماً فقابله شهاب الدين الحارمى خال السلطان فتزحزح الحشيشى عن طريقه ، فقصده أصحابه وقطعوه بالسيوف .

أما السلطان فسار إلى خيمته فهاج العسكر وماج فاضطر السلطان للركوب والخروج ليراه جميع العسكر ، فسكن هياجهم ، وكان سبب ذلك أن أهل حلب خافوا من السلطان فأرسلوا إلى سنان رئيس الإسماعيليين مرة ثانية وطلبوا منه قتل السلطان ووعدوه كما فعلوا أولا ، فأرسل أربعة من أعاظم رجاله فتزيوا بزى عساكر السلطان ، واندسوا بينهم وهم محاصر عزاز ، وحاربوا مع عساكره وأظهروا بسالة عظيمة ثم حصل منهم ماتقدم وقتلوا .



استيلاء تورانشاه على حضرموت واستيلاء قراقوش على بعض بلاد المغرب

في سنة ٥٧١ سار شمس الدولة تورانشاه إلى بلاد حضرموت ، ففتحها واستناب عنه بها رجلا كردياً يسمى هارون ، ثم ولى ثغر تعز مملوكه ياقوت ، وجعل إليه أمر الجند ، وولى قلعة بعكر مملوكه قايماز ، ثم سار قاصدا سوريا فوصلها ولحق بأخيه وهو يحارب سيف الدين صاحب الموصل ، فكانت له اليد البيضاء في ذلك .

وبلغ قراقوش بأن قلعة ازبري هى بوغاز المغرب وكانت خراباً . فأشير عليه بعمارتها وقيل له متى عمرت وسكنها جنود أقوياء شجعان ملكت برقة ، وإذا ملكت برقة ملكت ماوراءها ، فسار بهاء الدين قراقوش ومعه جماعة من أجناده ومماليكه إلى القلعة ، وشرعوا في عمارتها ، واجتمع بقراقوش رجل من المغرب فحدثه عن بلاد المغرب ، وذكر له كثرة خيرها ، وغزارة أموالها ، وضعف أهلها ورغبه فى دخولها ، فأخذ جماعة من أصحابه وسار في حادى عشر المحرم من هذه السنة ، فكان يكمن النهار ويسير الليل مدة خمسة أيام ، فأشرف على مدينة أوجلة فلقيه صاحبها وأكرمه واحترمه ، وسأله المقام عنده ، ليعتضد به ويزوجه بنته ، ويحفظ البلاد من العرب وله ثلث ارتفاعها ففعل قراقوش ذلك فحصل له من ثلث الارتفاع ثلاثون ألف دينار ، فأخذ عشرة آلاف لنفسه وفرق على رجاله عشرين ألف دينار .

وكان إلى جانب أوجلة مدينة يقال لها مدينة الأزراقية ، فبلغ أهلها صنيع قراقوش فى أوجلة وأنه حرس غلالهم ، فساروا إليه ووصفوا له بلدهم ، وكثرة خيره ، وطيب هوائه ، ورغبوه فى المسير إليهم على أنهم يملكونه عليهم ، فأجاب سؤلهم واستخلف على أوجلة رجلا من أصحابه يقال له صباح ، ومعه تسعة فوارس من أصحابه ، فحصل لقراقوش أموال كثيرة واتفق أن صاحب أوجلة مات ، فقتل أهل أوجلة أصحاب قراقوش فجاء قراقوش وحاصرها وفتحها عنوة ، وقتل من أهلها سبعمائة رجل ، وغنم أصحابه منها غنيمة عظيمة ، واستولى على البلد ، ثم إن أصحابه طلبوا العودة إلى مصر وخشى قراقوش الإقامة وحده فرجع معهم .

حصار حلب وحرب الاسماعيلية

لما فرغ السلطان من حرب عزاز ، سار قاصدا حلب فحاصرها ، وضرب خيمته على رأس الباروقية فوق جبل جوشن ، ودخلت سنة ٥٧٢ والسلطان مشدد حصارها ، فرأى أهل حلب أن لاطاقة لهم به فدخلوا من باب التذلل وطلبوا الصلح فأجابهم وعفى عنهم ، وأبقى للملك الصالح حلب وأعمالها ، وأرسل الملك الصالح إلى السلطان أخته خاتون وهى صغيرة فوقف إجلالالها قائما وقبل الأرض وبكى علي والدها نور الدين ، فسألته أن يرد عليهم عزاز ، فقال سمعاً وطاعة فأعطاها إياها ، وقدم لها من الجواهر والتحف والمال شيئاً كثيراً .

واتفق مع الملك الصالح أن يكون للسلطان من حماة ومافتحه إلى مصر وأن يطلق الملك الصالح أولاد الداية ، وكان الصلح عاماً لحلب والموصل وديار بكر ، وبعد ذلك تذكر السلطان ثأره عند الاسماعيلية ، وكيف رموه بتلك البلية ، فرحل يوم الجمعة لعشربقين من المحرم ، فحصر حصنهم مصيات ونصب عليه المنجنيقات الكبار ، وأوسعهم قتلا وأسراً ، وساق أبقارهم وخرب ديارهم ، وهدم أعمارهم ، وهتك أستارهم ، حتي تشفع فيهم خاله شهاب الدين محمود بن تكش الحارمى صاحب حماة ، وكانوا قد راسلوه فى ذلك لأنهم جيرانه فرحل عنهم وقد انتقم منهم .

وكان الصليبيون قد أغاروا على البقاع ، فخرج إليهم شمس الدين محمد بن عبد الملك المعروف بابن المقدم وهو متولى بعلبك ، فحاربهم وقتل منهم وأسر أكثر من مائتى أسير ، وأحضرهم إلى السلطان وهو محاصر مصيات ، فجدد شوقه لغزو الصليبيين ، وكان هذا من دواعى مصالحة سنان ، وعاد إلى دمشق وكان شمس الدولة قد خرج منها لمحاربة الصليبيين أيضا عند مابلغه خبر خروجهم لانشغال السلطان بمحاربة حلب وغيرها ، فحاربهم عند عين الجر فى تلك المروج فلم يقو عليهم ووقع من أصحابه عدة فى الأسر ، فبلغ ذلك السلطان فارسل اليه جنوداً مصرية ، فأرجعوا الصليبيين على أعقابهم ، وعاد شمس الدولة إلى دمشق وتقابل مع السلطان ، وفوض السلطان إليه دمشق ليكون أمام الصليبيين ، وعاد هو إلى مصر وكان خروجه من دمشق فى يوم الجمعة ٤ ربيع أول فوصل القاهرة يوم السبت ١٦ منه .

تقوية أسطول مصر وبعض فتوحات

بعد رجوع السلطان إلى مصر أعجبه حسن تنظيمها ، وسافر منها فى شعبان إلى دمياط لتفقدها ، ومنها إلى اسكندرية ، وهناك عرض عليه الأسطول المصرى فوجد مراكبه قد لحقها ضرر كثير ، فأمر بإصلاحها وتقويتها وجعل لها ديواناً مخصوصاً (يشابه البحرية) وأقام عليه أحد الأمراء وكتب إلى جميع الثغور بأن يكون الأمر أمر قائد الأسطول وله أن يأخذ مايحتاج من العساكر والمال . وكان ذلك في رمضان فرجع إلى القاهرة ، وأما بهاء الدين قراقوش فإنه سافر إلى أوجلة وفتح بلاد قزان بأسرها ، وخرج السلطان من القاهرة قاصداً أعمال الشرقية فأقام بمرج فاقوس وهو يركب إلى الصيد والقنص والتطلع لأحوال الصليبيين ، وفي أثناء ذلك بينما السلطان قد عزم على محاربة الصليبيين بغزة ، إذ وصلت أساطيل ثغرى دمياط واسكندرية بأسرى الافرنج وقد أربوا على الألف ففرح السلطان بهذا الانتصار .

حرب السلطان مع الصليبيين وواقعة الرملة

في شهر جمادى الأولى سنة ٥٧٣ ، سار السلطان بعساكره قاصداً بلاد الإفرنج فوصل إلى مدينة عسقلان في يوم الأربعاء ٢٩ منه ، فحارب الصليبيين وكسرهم وأخذ أكثرهم أسرى وتفرق عسكره في الأعمال مغيرين ومبيدين آمنين من طوارق الحدثان ، فلما رأوا أن الصليبيين خامدون استرسلوا وتوسط السلطان البلاد ، واستقبل يوم الجمعة مستهل جمادى الآخرة بالرملة قاصداً بعض المعاقل ، فاعترضه نهر عليه تل الصافية فازدحمت العساكر للعبور .

وكان بودوين الرابع ملك القدس قد بلغه خروج السلطان صلاح الدين قاصداً عسقلان ، فسار بعساكره وعساكر الجمعيات الرهبانيين ، فأخذوا طريق شط البحر وأخفوا مسيرهم السريع بكيمان الرمل إلى أن وصلوا إلى عسقلان بدون علم السلطان صلاح الدين ، ولما كانت عساكره مزدحمة على عبور النهر ، إذ فاجأته العساكر الصليبية بغتة وسرايا المسلمين في القرى مغيرة ، فوقف الملك المظفر تقى الدين ونازلهم الحرب فاستشهد من أصحابه عدة من الكرام ،

وكان لتقي الدين ولد اسمه أحمد قد طرشار به فاستشهد أيضاً بعد ماقتل من الصليبيين كثيرين ، وكان له ولد آخر اسمه شاهنشاه قد أسر بيد الصليبيين بحيلة عملها معه أرمني بدمشق ، ثم سلمه إلى جمعية الهيكليين الرهبانية ، وتفرقت العساكر الإسلامية بالصحراء .

وحمل الصليبيون على السلطان فثبت ووقف ومعه من الأمراء ابراهيم ابن قنابر ، وفضل الفيضى ، وسويد بن غشم المصرى ، وصار السلطان يسير ويقف حتى لم يبق من ظن أنه تخلف أحد من العساكر ودخل الليل وسلك الرمل ولاماء ولادليل ، وقد تعسفوا السلوك فى تلك الرمال ، وبقوا أياماً وليالى بغير ماء ولازاد ، حتي وصلوا إلى الديار ووقع في الأسر كثير من المسلمين ، منهم الفقيه ضياء الدين عيسى وأخوه الظهير ، وقد انتهت هذه الواقعة بظفر الصليبيين .

محاربة الصليبيين حماة وحارم ورجوعهم إلى بلادهم

وصل في سنة ٥٧٣ إلى ساحل سوريا من البحر ، ملك يقال له اقلندس ، وكان يعتقد خلو الشام من حامية ، فاجتمع بالصليبيين واتحدوا وساروا إلى حماة في ٢٠ جمادى الاولى ، وكان صاحبها شهاب الدين محمود الحارمى مريضاً وسيف الدين على بن أحمد المشطوب بالقرب منها فدخلها وخرج للحرب وتقاتل مع الصليبيين قتالا شديداً انتهى بكسرهم ورحيلهم عنها بعد حصارهم أربعة أيام .

ولما قتل من الصليبيين مايزيد عن ألف فارس انهزموا من حماة ، ونزلوا على حصن حارم ، فخرج إليهم الملك الصالح وكانت حارم تابعة كمشتكين ، فطلب أخذها فأبوا تسليمها إليه ، ولما حاصرها الصليبيون جاء الملك الصالح لمحاربتهم ، وأقام الحصار من ابتداء شهر جمادى الآخرة ، فلما رأى أهل القلعة الخطر المحدق بهم من الصليبيين ، سلموها إلى الملك الصالح فى العشر الأواخر من شهر رمضان ، وما اتصل ذلك بالصليبيين حتي رحلوا عنها عائدين إلى بلادهم وعاد الملك الصالح إلى حلب .

واجتمع قسم من الصليبيين وقصدوا أعمال حمص ، فنهبوها وغنموا وأسروا وسبوا ، فسار ناصر الدين محمد بن شيركوه صاحب حمص وسبقهم وكمن

لهم في الطريق ، فلما وصلوا إليه خرج عليهم من كمينه ووضع السيف فيهم فقتل أكثرهم ، وأسر جماعة من مقدميهم ، ومن سلم منهم لم يفلت إلا وهو مثخن بالجراح واسترد منهم جميع ماغنموه فرده على أصحابه وكان ذلك فى سنة ٥٧٣ .

مسير السلطان صلاح الدين إلى سوريا ومحاربة الصليبيين

فى شوال سنة ٥٧٣ ، سار السلطان صلاح الدين قاصداً سوريا فنزل دمشق ، وأخذ ينتقل من بلد إلى أخرى متفقداً القلاع والحصون . وفى شهر ربيع أول سنة ٥٧٤ ، سار جمع كثير من الصليبيين إلى مدينة حماه . وكثر جمعهم من الفرسان والرجالة طمعاً فى النهب والغنيمة ، فشنوا الغارة ونهبوا وخربوا القرى وأحرقوا وأسروا وقتلوا ، فلما سمع العسكر المقيم بحماة ، سار إليهم فالتقوا واقتتلوا وصدق المسلمون القتال فانهزم الصليبيون وكثر القتل والأسر فيهم ، واسترد منهم ما غنموه .

وكان صلاح الدين نازلا بظاهر حمص ، فحملت الرؤوس والأسرى والأسلاب إليه فأمر بقتل الأسرى . وفي شهر القعدة سار الملك بودوين الرابع بجيشه إلى دمشق ، فأغار على أعمالها فنهبوها وأسروا وقتلوا ، فأرسل السلطان عز الدين فرخشاه في جمع من العسكر إليهم ، وأمره إذا قاربهم يرسل إليه يخبره على جناح الطائر ليسير إليه وتقدم إليه أن يأمر أهل البلاد بالانتزاح من بين يدى الصليبيين .

فسار فرخشاه في عسكره يطلبهم فلم يشعر إلا والصليبيون قد خالطوه ، فاضطر إلى القتال فاقتتلوا أشد قتال رآه الناس ، وألقى فرخشاه نفسه عليهم وغشى الحرب ولم يكلها إلى سواه ، فانهزم الصليبيون ونصر المسلمون عليهم ، وقتل من مقدميهم جماعة ومنهم هنفرى وغيره ، ولم يزد عدد عساكر فرخشاه على ألفى فارس ، وفى هذه السنة أغار البرنس رانود دى شاتيلون على جمع من التركمان ، فأجحف بأموالهم ، وكان صلاح الدين على حصن بانياس ، فسير إليه ولد أخيه تقي الدين عمر إلى حماة ، وابن عمه ناصر الدين محمد بن شيركوه إلى حمص ، وأمرهما بحفظ البلاد وحياطة أطرافها من العدو .

محاربة الصليبيين بمرج عيون وانتصار الأسطول المصري

في ثاني محرم سنة ٥٧٥ ، جاء الخبر إلى السلطان بأن الصليبيين قد خرجوا ، فالتقاهم وتقاتلوا قتالا شديداً ، وانتصر المسلمون على الصليبيين وأسرت فرسانهم ، وشجعانهم ، وانهزمت رجالهم في أول اللقاء ، فكان من جملة الأسرى مقدم جمعية الهيكليين الرهبانية ، ومقدم جمعية القديس يوحنا المعمدان ، وصاحب طبريه ، وأخو صاحب جبيل ، وابن بارزان صاحب الرملة ، وقسطلان يافا وابن صاحب مرقية ، وكثير من خيالة القدس وعكا وغيرهم من المقدمين الأكابر مازاد عن مائتين ونيف وسبعين ، ثم عرضوا الأسرى على السلطان ، فأمر بنقلهم إلى دمشق ومات مقدم جمعية الهيكليين ، فطلب الصليبيون جثته فأفدوها بأسير مسلم ، وطال أسر الآخرين فمنهم من افتدى بمال وأطلق ، ومنهم من مات ومنهم من بقى مسجونا .

وهذه الواقعة كانت فى مرج عيون وكانت عدة الصليبين عشرة آلاف فارس ، وانهزم ملكهم مجروحا وكان لعز الدين فرخشاه في هذه الواقعة بلاء حسن ، ومن أحسن ما اتفق أنه فى اليوم الذى كسر فيه الصليبيين بمرج عيون ، ظفر الأسطول المصرى ببطسة كبيرة ، فاستولى عليها وعلى أخرى ، وعاد إلى الثغر مستصحباً ألف رأس من السبى ، فما أقرب ما النصرين فى المصرين وانظر كيف عم النصر وتساوى فى البر والبحر .

تخريب حصن بيت الأحزان

كان الصليبيون قد بنوا حصناً عند مخاضة بيت الأحزان سموه بحصن بيت الأحزان ، فلما بلغ خبره إلى السلطان أشار عليه الأمراء بمخابرتهم فى هدمه ، لأن بقاء هذا الحصن يضر بالمسلمين كثيراً ، فأرسل السلطان إلى الصليبيين يطلب منهم هدم الحصن ، فقالوا لانهدمه إلا إذا أعطانا تكاليفه ، وكان هذا الحصن لجمعية الهيكليين الرهبانية ، فجعل لهم السلطان ستين ألف دينار فأبوا ، فزادهم إلى أن جعل المبلغ مائة ألف دينار فأبوا ، فقال تقى الدين عمر للسلطان الأحسن أن تصرف هذا المبلغ فى العساكر وهم يهدمونه بالقوة .

فسار السلطان بجيشه إلى أن وصل إلى المخاضة في يوم السبت ١٩ ربيع أول سنة ٥٧٥ ، فخيم بالقرب منها وضاق ذلك المرج عن العساكر واحتاج إلى نصب ستاير ، فركب السلطان بكرة الأحد ٢٠ منه إلى ضياع صفد ، وكانت قلعة صفد يومئذ للداوية ، وهي الجمعية المذكورة ، فأمر بقطع كرومها وحمل أخشابها ، فأخذ كل مااحتاج إليه ورجع بعد الظهر ورجعوا إلى الحصن بعد العصر ، فما أمسي المساء إلا وهم قد استولوا على الباشورة ، وانتقلوا بكليتهم إليها وباتوا طول الليل يحرسون ، وخافوا أن يفتح الصليبيون الأبواب ويغيروا عليهم على غرة منهم ، وإذا بالصليبيين قد أوقدوا النار خلف كل باب ليأمنوا من المسلمين اغتراراً ، فاطمأن المسلمون وقالوا مابقى إلا نقب البرج ، ففرقه السلطان على الأمراء .

فأخذ فرخشاه الجانب القبلى ، وأخذ السلطان الجانب الشمالى ، وقصد ناصر الدين شيركوه بقربه نقباً ، وكذلك تقى الدين وكل كبير فى الدولة جعل له قسما ، وكان البرج محكم البناء فصعب نقبه ، لكنماانقضى يوم الأحد إلا وقد تم نقب السلطان وعلق وحشى بالحطب ليلة الاثنين وحرق ، وكان النقب في طول ثلاثين ذراعاً في عرض ثلاثة أذرع ، وكان عرض السور تسع أذرع ، فما تأثر بذلك فاحتاج السلطان صبيحة يوم الاثنين إلى إطفاء النيران ليتم نقبه وقال من جاء بقربة ماء فله دينار ، فكانت الناس للقرب حاملين ولأوعية الماء ناقلين ، حتى أغرقوا تلك الثقوب فخمدت ، فعاد نقابوها وقد بردت فخرقوه وعمقوه وفتحوه وشقوا حجره وفلقوه ثم حشوه وعلقوه واستظهروا فيه يوم الثلاثاء والأربعاء ثم أحرقوه ، واشتد الحرص عليه ، لأن الخبر أتاهم بأن الصليبيين قد اجتمعوا بطبرية في جمع كثير ، فلما أصبح يوم الخميس الرابع والعشرين من الشهر وتعالى النهار انقض الجدار واستبشر المسلمون ، وكان الصليبيون قد جمعوا وراء ذلك الموضع المتداعى حطباً .

فلما وقع الجدار دخلت الرياح فردت النار عليهم وأحرقت بيوتهم وطائفة منهم ، فاجتمعوا إلى الجانب البعيد من النار وطلبوا الأمان ، فلما خمدت النار دخل الناس وقتلوا وأسروا وغنموا مائة ألف قطعة من الحديد من جميع أنواع الأسلحة وشيئاً كثيراً من الأقوات وغيرها ، وجيء بالأسارى إلى السلطان فمن كان مرتدياً أو رامياً ضربت عنقه وأكثر من أسر قتلة المتطوعين فى الطريق ،

وكان عدد الأسارى نحو ٧٠٠ وخلص من الأسر أكثر من مائة مسلم ، وسير باقى الأسارى إلى دمشق وأقام السلطان في منزلته حتى هدموا الحصن إلى الأساس .

وكان الصليبيون قد حفروا فى وسطه جب ماء معين ، فأمر السلطان برمى القتلى فيه ، وكان عند السلطان رسول من رايموند قمص طرابلس وهو يشاهد بلية قومه وأهل ملته ، ومدة مقام السلطان على الحصن فى أيام فتحه وبعدها ، حتي دكها أربعة عشر يوماً ، وبعد ذلك سار السلطان إلى أعمال طبرية وصور وبيروت وغيرها ، فأغار عليها وأرجف قلوبهم بوصوله إليها ، ثم رجع إلى دمشق ومرض جماعة من الأمراء المسلمين لأن الحر كان شديداً ، وأنتنت الجثث فتفشى الوباء ، وتوفى أكثر من عشرة أمراء .

محاربة الأسطول المصرى ميناء عكا

سار الأسطول المصري يغزو بلاد الصليبيين ومراكبهم ، وكانت قوة الأسطول قد زادت فى هذه السنة ، واستخدم فيه عساكر بحرية مغربية ممن سبق لهم غزو الإفرنج ، وكذلك رجالة المصريين الأقوياء المعروفين بالشهامة والقوة ومراكبه كانت كنائن إلا أنها تمرق مروق السهام ، ورواكد هى مدائن إلا أنها تمر مر السحاب غير الجهام فلا أعجب أن تسمي غربانا وتنشر من ضلوعها أجنحة الحمام وتسمى جوارى وكم يسر مجراها من النصر ، فوصلت في الأحد حادى عشر جمادى الأولى سنة ٥٧٥ ميناء عكا ، وكانت مملوءة بمراكب الصليبيين ومراكب التجارة ، فاستولى الأسطول على عدة من المراكب تحطيما وتكسيراً وأخلى المينا من الباقى ، وهذا مما لم يعهد من أسطول إسلامي في سالف الدهر ومما يذكر أن عساكر الأسطول قتلوا بعض رجال قلعة عكا رمياً بالسهام من بعد كبير .

وفاة المستضيء بأمر الله وخلافة الناصر لدين الله

في ثاني ذى القعده سنة ٥٧٥ ، توفى الإمام المستضىء بأمر الله أمير المؤمنين أبو محمد الحسن بن يوسف المستنجد رضى الله عنه ، وأمه أم ولد أرمنيه تدعى غضة ، وكانت خلافته تسع سنين وستة أشهر وواحداً وعشرين

يوماً ، وكان عادلا حسن السيرة فى الرعية ، كثير البذل للأموال ، والناس معه في أمن عام ، وإحسان شامل ، وطمأنينة وسكون ، لم يروا مثله ، وكان حليما قليل المعاقبة على الذنوب ، محبا للعفو والصفح عن المذنبين فقد كانت أيامه كما قيل .

كأن أيامه من حسن سيرته مواسم الحج والأعياد والجمع

ثم أخذت البيعة لولده الناصر لدين الله ، فبايعه أخوه الأمير أبو منصور هاشم ثم بنو أعمامه وخواصه ثم الولاة وأرباب المناصب والأعيان ، وكان والده المستضيء قبل وفاته قد عهد إليه وسمي ولى العهد .

محاربة السلطان بلاد الأرمن

في سنة ٥٧٦ استمال ابن لاوون ملك الأرمن بعض التركمان ليرعوا مواشيهم فى مراعى بلاده ، ثم غدر بهم وأسرهم ، فلما بلغ ذلك إلى السلطان صلاح الدين ، سار بجيشه ودخل بلاد الأرمن ، وحارب ملكهم وأذل أعوانه وأجناده ، ومن خوف ملكهم أمر بإحراق قلعة شامخة تعرف بالمناقير ، فبادر المسلمون إلى إخراج مافيها من الآلات والغلات فتقووا بها وتمموا هدمها إلى الأساس ، ووجد المسلمون فى أرضها صهريجاً مملوءاً بآلات من نحاس وفضة وذهب مضى عليها زمن طويل .

وأخذ السلطان كثيراً من الأرمن أسرى ، فبذل ملكهم كثيراك من المال ، وتعهد أن يطلق من عنده من الأسارى لأجل خروج السلطان من بلاده ، فلم يرض السلطان بما بذله فزاد في المال وأنه يشترى خمسمائة أسير من بلاد الصليبيين ويعتقهم ، فأجاب السلطان وأخذ منهم رهينة على ذلك وأذعن الأرمنى وذل وأطلق مابيده من الأسارى واشترى الأسرى من الصليبيين وعتقهم ، ورجع السلطان منصوراً .

فقال الجمال الواسطي أبو غالب محمداً وكان مشاهداً هذه الواقعة قصيدة منها :

لقد جمل الله منك الورى بأوفى مليك وفى هجان
ازرت ابــــن لاوون لأواءه فأضحى به خيراً عن عيان
ودان من الذل لايرعوى حذاراً من الراعفات اللدان

وفاة شمس الدولة وورود التشريف للسلطان ورجوعه إلى مصر

كان السلطان قد أنفذ أخاه شمس الدولة تورانشاه إلى الاسكندرية ، وجعل إليه ولايتها ، فلما أقام بها لم توافقه ، وكان يعتاده القولنج فمات به فى ٥ صفر سنة ٥٧٦ ودفن بقصر الاسكندرية ثم نقلته منها أخته ست الشام بنت أيوب ، ودفنته في مدرستها التى أنشأتها بظاهر مدينة دمشق ، فهناك قبره وقبرها هي وولدها حسام الدين عمر بن لاجين ، وقبر زوجها ناصر الدين بن أسد الدين شيركوه ، وكانت قد تزوجته بعد لاجين .

ووصل الخبر إلى السلطان وهو نازل بظاهر حمص فحزن عليه حزنا شديداً لأنه كان شجاعاً باسلا عظيم الهيبة واسع الصدر جواداً كريماً . قال فيه ابن سعدان قصيدة منها :

هو الملك إن تسمع بكسرى وقيصر فإنهما فى الجود والبأس عبداه
وما حاتم ممن يقاس بمثله فخذ ما رأيناه ودع ما رويناه
ولذ بذراه مستجيرا فإنه يجيرك من جور الزمان وعدواه
فلا تتحمل للسحائب منة إذا هطلت جوداً سحائب جدواه
ويرسل كفيه بما اشتق منهما فلليمن يمناه ولليسر يسراه

وفي رجب من السنة المذكورة ، وصلت رسل الديوان العزيز الناصرى صدر الدين الشيخ أبو القاسم عبد الرحيم ، ومعهم شهاب الدين بشير الخاص بالتفويض والتقليد والتشريف الجديد ، فخرج السلطان للقائهم بموكبه ، وقابلهم بالاحترام اللائق والتعظيم والتبجيل ، ثم ركبوا ودخلوا المدينة ، وهذه أول خلعة وصلت من الإمام الناصر إلى السلطان الناصر .

وهذه الخلعة هى ثوب أطلس أسود واسع الكم مذهب وبيقار أسود مذهب وطيلسان أسود مذهب ومشدة سوداء مذهبة وطوق وتخت وسرفسار وجواد كميت من ركائب الخليفة عليه سرج أسود وسلال أسود وطوق مجوهر وقصبة ذهب وعلم أسود وعدة خيول وبقج وركب السلطان بالخلعة وكان يوم عظيم زينت له دمشق وأولمت الولائم لرسل الخليفة . ثم أراد السلطان الرجوع إلى مصر فأناب عنه بالشام بن أخيه عز الدين فرخشاه لقوته ليكون أمام الصليبيين .

محاربة عز الدين فرخشاه رانود صاحب الكرك

في سنة ٥٧٧ كان رانود دي شاتيلون ، من أشد الصليبيين عداوة للمسمين ، قد عزم على المسير فى البر إلى تيمل ومنها إلى المدينة المنورة بأراضى الحجاز ، وكان دائماً ينفض عهوده فجمع جيشه واستعد لذلك ، فسمع عز الدين فرخشاه فجمع العساكر الدمشقية ، وسار إلى الكرك ونهبها وخربها ، وعاد إلى أطراف بلاد الصليبيين ، وأقام بها ليمنع البرنس رانود من العبور إلى بلاد المسلمين ، ولما طال مقام كل منهما فى مقابلة الآخر ، وخاف رانود من العساكر الإسلامية أمر بتفريق عساكره إلى بلادهم ، وانقطع طمعه من الحركة فساد عز الدين فرخشاه إلى دمشق .

وفاة الملك الصالح اسماعيل بن نور الدين

فى التاسع من رجب سنة ٥٧٧ مرض الملك الصالح اسماعيل بن نور الدين ، وكان مرضه بالقولنج ، فلما اشتد عليه وصف له الأطباء شرب الخمر تداوياً بها ، فقال لا أفعل حتى استفتى الفقهاء فاستفتى فأفتاه فقيه من مدرسى الحنفية بجواز ذلك ، فقال له أرأيت إن قدر الله تعالى بقرب الأجل أيؤخره شرب الخمر ، فقال له الفقيه لا والله ، فقال الصالح والله لالقيت الله سبحانه وقد استعملت ماحرمه علىّ فلم يشربه .

فلما آيس من نفسه أحضر الأمراء وسائر الأجناد وأوصاهم بتسليم البلد إلى ابن عمه عز الدين مسعود بن مودود صاحب الموصل واستحلفهم بذلك فقال له بعضهم إن عماد الدين ابن عمك أيضاً وزوج أختك وكان والدك يحبه ويؤثره وتولى تربيته ، وليس له غير سنجار فلو أعطيته البلد لكان أصلح وعز الدين بلاده واسعة ولاحاجة به إلى بلدك فقال أعلم ذلك ، ولكن قد علمتم بأن صلاح الدين قد ملك أكثر الشام سوى مابيدى ومتي سلمت حلب إلى عماد الدين ، يعجز عن حفظها ، وإن سلمتها إلى عز الدين أمكنه حفظها بكثرة عساكره وبلاده ، فاستحسنوا قوله وعجبوا من فطنته مع شدة مرضه وصغر سنه ثم مات فى الخامس والعشرين منه ، وكان حليما كريماً عفيف اليد والفرج واللسان وكان عمره ١٩ سنه ، وبعد وفاته أرسلوا إلى ابن عمه عز الدين فحضر واستلم حلب وأقام بها واستلم جميع الخزائن والسلاح ثم بادل بها ابن عمه عماد الدين بسنجار فاستلم عماد الدين حلب واستلم عز الدين سنجار .

في سفر السلطان صلاح الدين إلى الشام ومحاربة الصليبيين

لما بلغ السلطان خبر وفاة الملك الصالح ، خاف على بلاده من عز الدين وندم على سفره من الشام ، وعزم على العودة إليها لحفظ بلاده وفى هذه السنة أيضاً سار بهاء الدين قراقوش إلى بلاد الغرب ، فأوغل فيها ونهب ماقدر عليه ، وحارب عسكر ابن عبد المؤمن بالقيروان ، ثم بلغه أن ابراهيم السلحدار ، احتوى على أهل قراقوش وبلده فرجع إليه فهرب ابراهيم ، وسار إلى خدمة ابن عبد المؤمن وملك قراقوش ماكان بيد ابراهيم .

أما السلطان صلاح الدين فإنه رأى أن عز الدين قد خرق المعاهدة بتملكه ، واتصل به أيضاً أن أمراء الموصل تآمروا عليه سراً مع الصليبيين ، فجمع عساكره واستصحب نصف العسكر وأبقى النصف الآخر لحفظ الثغور المصرية ، ثم سار السلطان من البركة وأخذ على طريق صدر وآيلة في المفاوز ، فبات بالبويب ، ثم سار على الجسر ووادى موسى حتى وصل عقبة أيلة ، وهناك سمع باجتماع الصليبيين على الكرك ، فاحترز بحفظ الأطراف وانحاز بحمحى ثم عقبة شتار ثم القربتين ، وأغار في تلك الأيام على أطراف بلاد العدو ، ثم تجرد السلطان بكمانه وسلك بهم سمت الكرك إلى الحسى .

وأمر أخاه تاج الملوك بوري على العسكر ، وأمره أن يسير بهم على يمينه ففعل واجتمع بالسلطان بالأزرق بعد أسبوع ، ووصل الخبر بظفر الملك المنصور عز الدين فرخشاه ، لأنه لما بلغه تجمع الصليبيين علي الكرك ، اغتنم خلو ديارهم فأغار على بلاد طبريه وعكا وفتح دبورية ، وجاء إلى حبيس جلدك بالسواد وهو شقيف يشرف علي بلاد المسلمين ، ففتحه وأسكن المسلمين فيه ، فبقى عيناً على الصليبيين بعد ما كان لهم ، ورجع بالأسرى والغنائم منصوراً ومعه ألف أسير وعشرون ألف رأس من الأنعام . ثم وصل السلطان بصرى ودخل دمشق فى ١٧ صفر سنة ٥٧٨ ، وفى أوائل ربيع أول خرج السلطان وأغار علي بلاد طبرية وبيسان والتحم القتال بينه وبين الصليبيين تحت حصن كوكب ، فانهزمت الصليبيون وقتل وأسر منهم كثير وعاد السلطان منصوراً .

محاصرة بيروت براً وبحرا ومسير السلطان إلى الموصل

أمر السلطان الأسطول المصرى بالمجيء إلى بيروت ، فسار إليهاونازلها وأغار عليها ، وسار السلطان فوافاه إليها ونهب مالم يصل الأسطول إليه وحصرها عدة أيام ، فأتاه الخبر وهو عليها أن قد نزل دمياط جمع عظيم من الإفرنج ، وكانوا قد خرجوا من بلادهم لزيارة القدس فأسروا من بها بعد أن غرق منهم كثير ، فكان عدة الأسرى ألفا وستمائة وستا وسبعين أسيراً . ثم أرسل إليه مظفر الدين كوكبرى صاحب حران وأعلمه أنه معه وطلب منه سرعة قدومه إلى الفرات ، فجد صلاح الدين فى السير مظهرا أنه يريد حصر حلب تسترا ، فلما قارب الفرات سار إليه مظفر الدين واجتمع به فقصد البيرة ، وكان صاحبها معه ثم سار الى الرها فحاصرها في جماد الأولى سنة ٥٧٨ ، وقاتلها أشد قتال ووالى الزحف عليها وكان بها الأمير فخر الدين مسعود ، فلما رأى شدة القتال أذعن للتسليم وطلب الأمان وسلم البلد ، وسار في خدمة صلاح الدين الذى سلمها إلى مظفر الدين مع حران .

ثم سار السلطان إلى الرقة فملكها ومنها إلى نصيبين فملكها أيضاً ، وجمع أمراءه واستشارهم فى أي البلاد يبدأ بالموصل أو سنجار أو جزيرة ابن عمر ، فأشاروا عليه بالموصل فسار إليها وحاصرها فوجدها منيعة جداً ، وعلم أن ليس له قدرة عليها ولكنه لازم حصارها ، ثم حصل تردد فى الصلح فلم يتم وأخيراً تركها ، وسار إلى سنجار وحاصرها وجد في قتالها إلى أن تسلمها بالأمان وقفل عائداً .

الصليبيون في البحر الأحمر أو بحر القلزم وهلاكهم

في سنة ٥٧٨ أيضاً طمع البرنس رانود بالاستيلاء على أراضي الحجاز ، فأنشأ المراكب ونقل أخشابها على الجمال إلى الساحل ثم ركبها وشحنها بالرجال وآلات القتال وجعلها قسمين ، قسما سار إلى جزيرة قلعة آيله فمنع أهلها من ورود الماء فنال أهلها شدة وضيق عليهم ، والقسم الثانى سار نحو عيذاب وأفسد في السواحل ونهب وأخذ ماوجد من المراكب الإسلامية ومافيها من التجار ، وبغتوا الناس في بلادهم على حين غفلة ، لأنهم لم يعهدوا بهذا البحر أفرنجياً لاتاجراً ولا محارباً .

وكان بمصر الملك العادل أبو بكر بن أيوب نائب عن أخيه صلاح الدين ، فعمر أسطولا في بحر القلزم بقيادة الحاجب حسام الدين لؤلؤ ، وشحنه بالرجال البحريين ذوى التجربة من أهل النخوة للدين ، وسار إلى آيله فظهر بمراكب العدو بعد ماخرقها وأخذ جندها ، ومن هرب منهم في البرية تتبعته العرب وأحضرته إليه ، ثم سار نحو عيذاب مقتفيا أثر الباقى من مراكب الصليبيين فوجدهم قد قتلوا أهل عيذاب وأسروهم ونهبوهم وساروا فتبعهم فوجدهم قد قطعوا طريق التجار ، وشرعوا في القتل والنهب وتوجهوا إلى أرض الحجاز فعظم البلاء على الناس ، وأشرف أهل المدينة ومكة على خطر .

وسار لؤلؤ يتبعهم فوصل رابغ ساحل الحوراء ، فأدركهم هناك فأوقع بهم من القتل والأسر ، فلما رؤوا العطب وشاهدوا الهلاك ، خرجوا إلى البر واعتصموا ببعض تلك الشعاب ، فنزل لؤلؤ من مراكبه إليهم وقاتلهم أشد قتال وأخذ خيلا من عرب البلاد فركبها وقاتلهم فرساناً ورجالة ، فظفر بهم وقتل أكثرهم وأخذ الباقين أسري وأرسل بعضهم إلى منى لينحروا بها عقوبة لمن رام إخافة البلاد الحرام ، وعاد بالباقين إلى مصر فقتلوا جميعاً لئلا يدل من يظل منهم حيا على تلك الجهات ، فقال أبو الحسن بن الذروى يمدح لؤلؤا ، بقصيدة منها :

مر يوم من الزمان عجيب كاد يبدى فيه السرور الجماد
إذ أتي الحاجب الأجل بأسرى قرنتهم في طيها الأصفاد
بجمال كأنهن جبال وعلوج كانهم أطواد
قلت بعد التكبير لما تبدى هكذا هكذا يكون الجهاد
حبذا لؤلؤ يصيد الأعادي وسواه من الآلىء يصاد

استيلاء السلطان على حلب

فى سنة ٥٧٩ سار السلطان إلى آمد وحصرها وفتحها عنوة بعد حرب شديدة ، وسلمها إلى صاحب الحصن نور الدين ، ثم سار إلى تل خالد فحاصره واستلمه ، وسار إلى عينتاب فتسلمها أيضاً بالأمان ، ثم سار إلى حلب وحاصرها وشدد حصارها ، وأقام عليها أياماً والقتال بين العسكرين كل يوم ، فلما رأى عماد الدين صاحب حلب كثرة المصاريف شح بالمال ، فحضر عنده بعض

الأجناد ، وطلبوا منه شيئاً فأعتذر إليهم بقلة المال عنده ، فقال له بعضهم من يريد أن يحفظ مثل حلب ، يخرج الأموال ولو باع حلى نسائه ، فمال عماد الدين إلى تسليم حلب وأخذ العوض عنها ، وأرسل إلى السلطان الأمير طمان الياروقي بأنه يسلم حلب ويأخذ عوضها سنجار ونصيبين والخابور والرقة وسروج ، وجرى اليمين على ذلك فنزل منها في ١٨ صفر سنة ٥٧٩ وسلمها واستلم البدل عنها ونصب سلطان علمه الأصفر فوق السور ، وقال محيي الدين ابن الزكى قاضى دمشق في مدح السلطان قصيدة منها :

وفتحكم حلباً بالسيف في صفر مبشر بفتوح القدس فى رجب

فوافق فتح القدس في رجب سنة ٥٨٣ وهو من الاتفاق العجيب وجعل فيها ولده الملك الظاهر غازى .

في تنازل بودوين الرابع وولاية بودوين الخامس

في سنة ٥٧٩ عمى السلطان بودوين الرابع المسمى بالملك الأبرص وصار كفيفاً ، ولذلك انتدب غوى دى لوزينا زوج أخته سبيلا وأقامه نائباً على الملك ، وكان ضعيفاً طائش الرأى ، فسار مرة في عشرة آلاف مقاتل فلقاه السلطان صلاح الدين ، فهزمه وقتل رجاله ولذلك كرهه الصليبيون وعزله بودوين الرابع وأقام وكيلا عنه رايموند صاحب طرابلس ، ثم إن الملك بودوين الرابع تنازل عن الملك لابن أخته سبيلا من زوجها الأول غويليوم دى مونت فراتا وعمره خمس سنوات ، فهذا الفتي صعد على كرسى سلطنة القدس (أورشليم) سنة ١١٨٣ ميلاديه ولقب ببودوين الخامس .

مناوشات الصليبين مع العساكر الإسلامية

انتهت سنة ٥٧٩ في مناوشات تقع بين الصليبين وعساكر السلطان صلاح الدين ، وكان النصر دائماً ملازماً لعساكر السلطان ، لانه في كل واقعة كان يقتل ويؤسر بعض الصليبيين ، خصوصاً فى جهات بيسان ، فإنهم استولوا على أشياء كثيرة من أمتعة وقماش وغلال ، والجالوت وهي قرية عامرة فإنهم عثروا على نجدة للصليبيين كانت قاصدة الشوبك والكرك ، فانقضوا عليهم وقتلوهم وأسروا منهم زهاء مائة نفر .

م بلغ السلطان أن الصليبيين اجتمعوا فى صفوريه ورحلوا إلى الفوله وهي قرية معروفة وكان غرضه المصاف ، فلما سمع ذلك تعبي للقتال ، وسار للقاء العدو فالتقوا وجرى قتال عظيم ، فقتل من العدو جماعة وجرح منهم جماعة وهم ينضم بعضهم إلى بعض يحمي راجلهم فارسهم ولم يخرجوا للمصاف ، وظلوا سائرين حتى أتوا العين فنزلوا عليها ونزل السلطان حولهم والقتل والجرح يعمل فيهم ليخرجوا إلى المصاف وهم لايخرجون ، فرأى السلطان أن يرحل عنهم قليلا لعلهم يخرجون ، فيضرب معهم المصاف فرحل ونزل تحت الجبل مترقبا خروجهم ، فنكص الصليبيون على أعقابهم ، فزحف عليهم وأخذ يرميهم بالنشاب ويطلب مصافهم فلم يخرجوا ولم يزل السلطان وراءهم حتى نزلوا الفوله راجعين إلى بلادهم فعاد . ثم طلب السلطان أخاه العادل نائبه بمصر وولاه حلب وأرسل تقي الدين إلى مصر نائباً عنه وأناب سيف الإسلام على جميع اليمن .

محاصرة الكرك ودخول السلطان بلاد الصليبيين

فى سنة ٥٨٠ طلب السلطان العساكر المصرية إلى الكرك ، وسار اليها بمن معه وحاصرها بعد مجيء العساكر المصرية وركب المنجانيقات عليها وضيق عليهم الحصار ، ولما بلغ الصليبيون ذلك خرجوا براجلهم وفارسهم ، فملك المسلمون الربض وبقى الحصن وهو والربض على سطح جبل واحد إلا أن بينهما خندقاً عظيما عمقه نحو ستين ذراعاً ، فأمر السلطان بإلقاء الأحجار والتراب لردمه ، فلم يقدر أحد على الدنو منه لكثرة الرمي عليهم بالسهم والأحجار من المنجانيقات ، فأمر أن يبنى بالأخشاب سقايف يمكن الرجال يمشون تحتها لردمه ومنجانيقات المسلمين مع ذلك ترمي الحصن ليلا ونهاراً .

أما الصليبيون فإنهم زحفوا لنجدة إخوانهم ، فلما بلغ السلطان قدومهم ، سار ليمنعهم وكانوا قد نزلوا في مكان يقال له (الواله) . فسار حتي نزل بالبلقاء على قرية يقال لها (حسبان) أمام الصليبيين في طريقهم ورحل منها إلى موضع يقال له ماء عين ثم رحل الصليبيون إلى الكرك فسار بعض العسكر وراءهم فقاتلوهم إلى آخر النهار ولما رأى السلطان تصميم الصليبيين على الكرك ورأى الساحل خالياً سار بعساكره فأغار على نابلس ونهبها وغنم مافيها ، ثم

سار إلى سبسطيه وبها مشهد زكريا عليه السلام وبها كنيسة وجماعة من أسرى المسلمين ، فاستنقذهم ورحل إلى جنين فنهبها وخربها وعاد إلى دمشق ونهب ماعلى طريقه وخربه وبث السرايا في طريقه يمينا وشمالاً يغنمون ويخربون .

مرض السلطان وصلحه مع عز الدين صاحب الموصل

في سنة ٥٨١ سار السلطان بعسكره قاصداً الموصل فوصلها وحاصرها وضايق أهلها ، ثم أصابه مرض وهو يقيم الحصار فاغتنم عز الدين صاحب الموصل فرصة مرضه ، وأرسل إليه يطلب الصلح فصالحه بشروط أن تبقي البلاد بيد عز الدين ويخطب للسلطان فيها وأن السلطان إذا طلب عسكراً للجهاد يكون عز الدين ملزوماً بالسفر بنفسه للمساعدة ثم رجع السلطان إلى حران وهو مريض واشتد به المرض حتي يئس الناس منه ، وسافر إليه أخوه العادل ومعه الأطباء من حلب وعاده جميع الأمراء والعساكر ، وفي أثناء مرضه أشار عليه بعض الزائرين أن ينذر لله نذراً إذا شفاه الله من مرضه هذا وهو أن يشتغل بفتح البيت المقدس ، وأنه لايصرف بقية عمره إلا فى قتل الأعداء الصليبيين ، ثم أخذ السلطان فى التقدم فى الشفاء من ذاك المرض شيئاً فشيئاً إلى أن عوفى تماماً ففرح جميع المسلمين بذلك .

وفاة بودوين الخامس وولاية غوي دى لوزينانا

فى سنة ٥٨١ توفى الملك بودوين الخامس ابن أخت بودوين الرابع وهو صغير السن كما تقدم ، وكانت مدة حكمه سنتين وكان النائب عنه البرنس رايموند صاحب طرابلس ، وقبل وفاة المذكور بأيام قليلة ، توفي بودوين الرابع الذي كان كفيفاً وتنازل عن الملك كما تقدم .

ثم بعد وفاة بودوين الخامس تولت المملكة والدته سبيلا أخت بودوين الرابع ، وتنازلت عن الملك لزوجها غوى دى لوزينانا ، وألبسته التاج أمام القسوس والبطاركة ورؤساء جمعية مارى يوحنا المعمدان وجمعية الهيكليين ، وأمرتهم باتباع أحكامه وأوامره فأجابوها بالسمع والطاعة ، وصار من ذلك الوقت ملكا على القدس .

حساب المنجمين بخراب الكون

في سنة ٥٨٢ حكم الفلكيون رصاد النجوم أنه فى الثامن والعشرين من جمادى الآخرة من هذه السنة ، تقترن الكواكب السيارة الخمس والشمس والقمر في برج الميزان ، ويثير ذلك هواء عظيما وغيما سموميا ، وفي يوم الثلاثاء التاسع والعشرين تهلك جميع البلاد وتحمل الرمل ، وقالوا يكون أشد ذلك من ليلة الثلاثاء إلى نصف ليلة الأربعاء ، وخوفوا من ذلك جميع ملوك العجم والروم وأشعروهم بتأثيرات النجوم .

فشرعوا فى حفر مغارات في التخوم ، وتعميق السراديب وتوثيقها ، وسد منافسها على الريح ، ونقلوا إليها الماء والزاد ، وانتقلوا إليها وانتظروا الميعاد ، وخاف كذلك جميع الرعايا في كل البلدان ، ولما جاءت ليلة الميعاد فكانت ليلة هادية وما تحرك فيها ريح قط فخزى أهل التنجيم من ذلك وعملت الشعراء في كذبهم أشعاراً قال أبو الغنائم منها :

قل لأبى الفضل قولَ معترف	مضى جمادي وجاءنا رجب
وما جرت زعزع كما حكموا	ولا بدا كوكب له ذنب
كلا ولا أظلمت ذكاء ولا	أبدت أذى في قرانها الشهب
يقضى عليها من ليس يعلم ما	يقضى عليه هذا هو العجب
فارم بتقويمك الفرات والاصطر	لاب خير من سفرة الخشب
قد بان كذب المنجمين وفى	أى مقال قالوا فما كذبوا
مدبر الأمر واحد ومتى	للسبع في كل حادث سبب
لا المشترى سالم ولا زحل	باق ولا زهرة ولا قطب
تبارك الله حصحص الحق	وانجاب التمادى وزالت الريب
فليبطل المدعون ما وضعوا	فى كتبهم ولتحرق الكتب

اختلاف الصليبيين وانحياز رايموند إلى السلطان صلاح الدين

كان رايموند صاحب طرابلس وصياً على بودوين الخامس ، ولما توفي بودوين وتولى بعده زوج أمه غوى دى لوزينانا ، طالب البرنس رايموند بحساب ما جباه من الأموال مدة ولاية الصبي ، فادعي أنه أنفقه عليه وزاده ذلك الأمر

نفورا وكدراً ، وجاهر بالعداوة ، وراسل السلطان صلاح الدين وانتمى إليه واعتضد به وطلب منه المساعدة على بلوغ غرضه من الفرنج الصليبيين .

ففرح صلاح الدين والمسلمون بذلك ، ووعده النصرة والسعى له في كل مايريد وضمن له أن يجعله ملكا مستقلا للصليبيين قاطبة ، وكان عنده جماعة من فرسان رايموند أسرى فأطلقهم ، فحل ذلك عنده أعظم محل وأظهر طاعة صلاح الدين ووافقه على مافعل جماعة من الصليبيين ، فاختلفت كلمتهم وتفرق شملهم وكان ذلك في سنة ٥٨٢ هجرية .

غدر رانود صاحب الكرك بالهدنة

كان البرنس رانود صاحب الكرك من أشد أعداء المسلمين ، وكان يوالى غدراتهم ، وكان السلطان يحاصره المرة بعد الأخرى حتي أذله فخضع وطلب الهدنة فهادنه وتحالفا بعدم التعرض لأحد ، وترددت القوافل من الشام إلى مصر ومن مصر إلى الشام ، ففى هذه السنة اجتازت به قافلة عظيمة غزيرة الأموال كثيرة الرجال ، ومعها جماعة من الجند كانت واردة من مصر فغدر رانود بهم ، وأخذهم عن آخرهم ، وغنم أموالهم ودوابهم وسلاحهم وأودعهم السجن ، فناشدوه الله والصلح الذى بينه وبين المسلمين ، فاستخف بهم وقال قولوا لمحمدكم يخلصكم فبلغ ذلك السلطان وراسله فى إطلاقهم فأبى فحمله الدين والحمية على أنه نذر إن ظفر به قتله .

واقعة صفورية وحصار الكرك

فى أول محرم سنة ٥٨٣ برز السلطان من دمشق فى العسكر العرمرم ، فلما وصل إلى رأس الماء ، أمر ولده الملك الأفضل بالإقامة هناك لمقابلة الأمراء القادمين لمساعدته من جميع البلاد ، وسار السلطان إلى بصرى وخيم على قصر السلامة ، ثم سار ونزل على الكرك وأخاف أهله وأخذ ما كان حوله ورعي زرعهم ، وقطع أشجارهم وكرومهم ، ثم سار إلى الشوبك وفعل به مثل ذلك ووصل عسكر مصر فتلقاه وفرقه على أعمال القلعتين ، وأقام على هذه الحالة شهرين ، والملك الأفضل مقيم برأس الماء ومعه جميع العساكر القادمة ينتظر أمراً من أبيه ، فلما طال به الانتظار سار بسرية منهم قاصداً الإغارة على أعمال طبرية حتي أصبح

صفورية فخرج إليهم الصليبيون من جمعية الهيكليين (الداويه) وجمعية مارى يوحنا المعمدان (الاسبتاريه) واقتتلوا قتالا شديداً ، وخرج من الصليبيين فارس راكب حصاناً أبيض ، وهو يدعى يعقوب دى مالى رئيس الاستبارية ، وهجم على العساكر الإسلامية فقتلوه ، وقتلوا باقي قومه وأسروا أكثرهم ، وأيقن باقى الصليبيين بالهلاك وهرب مقدم الهيكليين . وعادت العساكر الإسلامية سالمة غانمة فكانت هذه الواقعة باكورة البركات .

وجاءت البشرى إلى السلطان وهو على الكرك والشوبك ، فسار السلطان حتي خيم بعشترا ، ثم سار حتي قابل العساكر الإسلامية فعبى العسكر قلبا وجناحين وميمنة وميسرة وجاليشية وساقة ، وعرف كل منهم موضعه ، وسار على تعبية فنزل بالأقحوانة بقرب طبرية ، وكان البرنس رايموند المنتمى لصلاح الدين قد اصطلح مع قومه لأن ملكهم غوى قد أرسل له البطرك والقسوس والرهبان فقالوا له لاشك أنك أسلمت وإلا لما كنت تصبر على مافعله المسلمون في صفورية ، وتهدده البطرك أن يحرمه ، فلما رأى رايموند شدة الأمر عليه ، خاف واعتذر وتاب وسار معهم إلى القدس وتصالح مع الملك غوي .

(فتح طبرية ومجلس مشورة الصليبيين)

لما رأى الصليبيون ماحصل لهم جمعوا عساكرهم بأراضى صفورية . ثم عرض السلطان عساكر . فى منتصف ربيع الآخر على تل يعرف بتل تسيل ورتبهم ، واندفع قاصداً بلاد العدو فى وسط نهار الجمعة ، وكان دائماً يقصد بوقعاته الجمع ، لاسيما أوقات صلاة الجمعة تبركا بدعاء الخطباء على المنابر ، فربما كانت أقرب إلى الإجابة ، فسار ونزل على بحيرة طبريه غربى المدينة على سطح جبل لتعبئة الحرب منتظراً أن الصليبين إذا بلغهم ذلك قصدوه ، فلم يتحركوا من مكانهم ولافارقوا خيامهم ، فنزل وأمر عساكره . بالنزول أمام عساكر الصليبيين لأجل منعهم من القتال ، ونزل بجريدة من عسكر إلى طبرية وقاتلها ونقب بعض أبراجهاوأخذ المدينة عنوة فى ساعة ، ولجأ من بها إلى قلعتها فامتنعوا بها وفيها زوجة رايموند وأولاده ، فنهب المدينة وأحرقها ، ولما بلغ الصليبيون مافعله صلاح الدين من أخذ طبرية وإحراقها بعد سلب مابها ، عقدوا مجلسهم للمشورة بمدينة القدس ، فقام رايموند وقال إنى متنازل عن مدينة

طبرية للعدو ويلزمنا التجمع حول القدس لحفظه من العدو ، لأنى مارأيت قط جيشا مثل هذا ذاقوه وبطش ، فقام رانود صاحب الكرك وقال له قد أطلت فى التخويف من المسلمين ، ولاشك أنك تريدهم وتميل إليهم وإلا ماكنت تقول هذا ، وأماقولك إنهم كثيرون فإن النار لايضرها كثرة الحطب ، فقال رايموند هاأنا واحد منكم وبين أيديكم فقرروا بمسير العساكر إلى مرج صفورية ، فزحفوا وكان أمامهم رايموند مع عساكره وغوى سلطان القدس مع الفرسان الهيكليين (الداوية) وضياف الغربا أى جمعية مارى يوحنا المعمدان (الإسبتارية) ، كانوا وراء الجيوش بصفة خفراء وكان فى الوسط باقى الصليبيين مع مطران عكاحاملا الصليب الحقيقى (صليب الصلبوت الذى صلب عليه المسيح كما يدعون) ، فلما بلغ ذلك السلطان صلاح الدين عاد عن طبرية إلى عسكره وكان قريباً منه وإنما كان قصده من محاربة طبرية . أن الصليبيين يفارقون مكانهم ليقاتلهم ، وكان المسلمون قد نزلوا على الماء وكان الوقت قيظاً شديد الحر فحصل للصليبيين عطش ولم يتمكنوا (من الوصول إلى ذلك الماء من المسلمين وقد أفنوا ماهناك من ماء الصهاريج ولم يتمكنوا من الرجوع خوفا من المسلمين ، فبقوا على حالهم إلى الغد وهو يوم الجمعة ، وقد أخذ العطش منهم ، وأما المسلمون فإنهم طمعوا فيهم وكانوا من قبل يخافونهم فباتوا يحرض بعضهم بعضاً وقد وجدوا ريح النصر والظفر وكلما رأوا حال الصليبيين بخلاف عادتهم مما ركبهم من الخذلان زاد طمعهم وجراءتهم ، فأكثروا التكبير والتهليل طول ليلتهم ورتب السلطان تلك الليلة الجاليشية وفرق فيهم النشاب .

(واقعة حطين وأخذ المسلمين صليب الصلبوت)

لما كان صبح يوم الجمعة ٢٣ ربيع آخر ، ركب العسكران وتصادما وذلك بأرض قرية تسمى اللوبيا ولم يزل القتال مشتبكا إلى أن حال بينهم الظلام وجرى فى ذلك اليوم من الوقائع العظيمة مالم يره السابقون ، وبات كل فريق شاكياً سلاحه ، ينتظر خصمه فى كل ساعة ، وفى صباح يوم السبت ٢٤ منه ركب السلطان وتقدم إلى الصليبيين وركبت الصليبيون بترتيبهم السابق ، حتى إذا دنا بعضهم من بعض اقتتلوا واشتد القتال وصبر الفريقان ورمى جاليشية المسلمين من النشاب ماكان كالجراد المنتشر فقتلوا من خيول الصليبيين كثيراً فاجتمع

الصليبيون وقد اشتد بهم العطش وهم يقاتلون ، فساروا نحو طبرية لعلهم يردون الماء ، فلما علم السلطان صلاح الدين ذلك صدهم عن مرادهم ووقف بالعسكر فى وجوههم وطاف بنفسه فى المسلمين يحرضهم ويأمرهم بما يصلحهم ، وينهاهم عما يضرهم ، والناس يتبعون أوامره ، فحمل مملوك من مماليكه الصبيان حملة منكرة على صف الصليبيين فقاتل قتالا عجب منه الناس ، ثم تكاثر الصليبيون عليه فقتلوه ، فلما قتل حمل المسلمون حملة منكرة ضعضعوا معها الصليبيين وقتلوا منهم كثيراً فلما رأى رايموند شدة الأمر وعلم أن لاطاقة لهم على المسلمين ، اتفق هو وجماعة وحملوا على من بينهم ، وكان مقدم المسلمين فى تلك الناحية تقى الدين عمر ابن أخى صلاح الدين ، فلما رأى حملة الصليبيين حملة مكروب علم أن لاسبب للوقوف فى وجوههم أمر أصحابه أن يفتحوا لهم طريقا يخرجون منه ، وكان بعض المتطوعة قد اشعل فى تلك الأرض ناراً فالتهب الهشيم الكثير وهبت الريح فحملت حر النار والدخان إليهم ، فاجتمع عليهم العطش وحر الزمان وحر النار والدخان وحر القتال وانهزم رايموند وتبعه بعض عسكره ، وحمل الصليبيون حملات متداركة ، فكانوا يحملون الحملة فيرجعون وقد قتل منهم كثير ، فوهنت لذلك قواهم وهناً عظيماً ، فأحاط بهم المسلمون إحاطة الدائرة بقطرها ، واعتصم من بقى من الصليبيين بتل حطين ، وهى قرية هناك عندها قبر النبى شعيب عليه السلام ، وأرادوا أن ينصبوا خيامهم ويحموا نفوسهم بها ، فاشتد عليهم القتال من سائر الجهات ، ومنعوهم عما أرادوا ولم يتمكنوا إلا من نصب خيمة ملكهم وأخذ المسلمون صليبهم الأعظم (صليب الصلبوت) فكان ذلك عليهم من أعظم المصايب وأيقنوا بعده بالقتل والهلاك ، ودام فيهم القتل والأسر وبقى الملك على التل فى قسم من جيشه ومعه الأمراء والقواد فحمل عليهم المسلمون حملة شديدة حتى هلك الصليبيون ، فنزلوا عن خيولهم وتراموا إلى الأرض فأخذتهم العساكر الإسلامية أسرى باليد وكان فى جملتهم الملك غوى ملك القدس والبرنس رانود صاحب الكرك والشوبك وجميع ضباط الصليبيين ، حتى كان من يرى القتلى لايظن أنهم أسروا أحداً ، ومن يرى الأسرى لايظن أنهم قتلوا أحداً ، ولم يصب الصليبيون منذ خرجوا من بلادهم إلى فلسطين أى من سنة ٤٩١ إلى الآن بمثل هذه الواقعة ، فلما فرغ المسلون من ذلك ، نزل صلاح الدين فى خيمته ،

وأحضر ملك الصليبيين غوى دى لوزينانا ورانود دى شانيلون صاحب الكرك وأجلس الملك غوى إلى جانبه وقد أهلكه العطش ، فسقاه ماء مثلوجا فشرب ، وأعطى الباقى إلى رانود فشرب ، فقال السلطان صلاح الدين للترجمان إن هذا الملعون لم يشرب الماء بإذنى بل الذى سقاه الملك . وكان من جميل عادة العرب أن الأسير إذا أكل أو شرب من مال من أسره أمن ، فقصد السلطان بقوله هذا أن الملك غوى أمن ، وأما رانود فلم يأمن ثم أمر السلطان بمسيرهم إلى موضع معين لنزولهم فمضوا وأكلوا شيئاً ثم استحضرهم بين يديه ، فأقعد الملك غوى فى الدهليز وأوقف رانود وقال له على ماحصل منه ثم قال السلطان هاأنا أنتصر لمحمد ﷺ ثم عرض عليه الإسلام فأبى ، ثم سل سيفه وضربه بنفسه فأطار هامته فسحب إلى باب الخيمة فارتعدت فرائض الملك ، ولم يشك فى أنه يثنى به ، فاستحضره وطيب قلبه وقال لم تجر عادة الملوك أن يقتلوا الملوك ، أما هذا فإنه جاوز الحد .

(أخذ قلعة طبرية)

لما فرغ السلطان من هذه الواقعة فى يوم السبت ، أقام بموضعه باقى يومه ، فلما أصبح يوم الأحد ٢٥ ربيع آخر ، عاد إلى طبرية ونازلها ، فأرسلت صاحبتها زوجة رايموند صاحب طرابلس ، تطلب الأمان لها ولأولادها وأصحابها ومالها ، فأجابها إلى ذلك فخرجت بالجميع فوفى لها ، فسارت آمنة ثم أمر الملك غوى وجماعة من أعيان الصليبيين الأسرى ، فأرسلوا إلى دمشق وأمر بمن أسر من الداوية (الهيكليين) والإسبتارية (جمعية مارى يوحنا) الرهبانيين ، بأن يجمعوا ليقتلهم ، وأمر بأن كل من عنده أسير منهم يأخذ بدله خمسين ديناراً مصرياً ، ولما جمعوهم أمر بقتلهم وقد خص هؤلاء بالقتل لأنهم أشد شوكة من جميع الصليبيين ، فأراح الناس من شرهم ، وكتب إلى نائبه بدمشق ليقتل من دخل البلد منهم ، أما القمص رايموند صاحب طرابلس الذى هرب من الوقعة السابقة ، فإنه ذهب إلى صور ثم قصد طرابلس ولم يلبث إلا أياماً قلائل ومات ومدح العماد السلطان بقصيدة منها :

يايوم حطين والأبطال عابسة وبالعجاجة وجه الشمس قد عبسا
رأيت فيه عظيم الكفر محتقراً معفراً خده والأنف قد تعسا

ياطهر سيف برى رأس البرنس فقد أصاب أعظم من بالشرك قد نجسا
وغاص إذ طار ذاك الرأس فى دمه كأنه ضفضع فى الماء قد غطسا
مازال يعطس مزكوماً بغدرتـه والقتل تشميت من بالغدر قد عطسا
عرى ظباء من الأغماد مهرقة دما من الشرك ردا هابه وكسا
من سيفه فى دماء القوم منغمس من كل من لم يزل فى الكفر منغمسا
أفناهم قتلهم والأسر فانتكسوا وبيت كفرهم من خبثهم كنسا

(فتح عكا وغيرها من الحصون)

لما فرغ السلطان من طبرية ، سار عنها فى يوم الثلاثاء ٢٧ ربيع آخر سنة ٥٨٣ ، ووصل إلى عكا يوم الأربعاء ٢٨ منه ، وقد صعد أهلها على سورها يظهرون الامتناع والحفظ ، فتعجب السلطان لأنهم علموا أن عساكرهم من فارس وراجل ، بين قتيل وأسير ، وأنه لم يسلم منهم إلا القليل إلا أنه نزل يومه وركب يوم الخميس ٢٩ منه وقد صمم على الزحف على البلد وقتاله ، فبينما هو يمعن النظر فى اختيار الجهة التى يزحف منها ويقاتل إذ خرج كثير من أهلها يطلبون الأمان ، فأجابهم إلى ذلك وأمنهم على أنفسهم وأهلهم وأموالهم ، وخيرهم بين الإقامة والظعن فاختاروا الرحيل خوفاً من المسلمين ، وساروا عنها متفرقين وحملوا ماأمكنهم حمله من أموالهم وتركوا الباقى على حاله ، ودخل المسلمون إليها يوم الجمعة غرة جمادى الأولى وصلوا بها الجمعة فى جامع كان للمسلمين قديماً جعله الفرنج بيعة لهم ، ثم جعله صلاح الدين جامعاً وهذه أول جمعة أقيمت بالساحل الشامى بعد أن ملكه الصليبيون ، واستنقذ ماكان بها من أسرى المسلمين وهمماينوف عن أربعة آلاف مسلم ، وسلم البلد إلى ولده الأفضل وأعطى جميع ماكان فى البلد ملكا للداوية (الهيكليين) للفقيه عيسى ، وغنم المسلمون مابقى مما لم يطق الصليبيون حمله ، وكان من كثرته يعجز الإحصاء عنه ، فرأوا فيها من الذهب والجوهر والسقلاط والبندقى والسلاح وغير ذلك من الأمتعة كثيراً ، لأنها كانت ميناء عمومية لتجار الإفرنج والروم وغيرهم ، ففرق صلاح الدين وابنه الأفضل ذلك جميعه على أصحابهما ، وفى مدة إقامة السلطان فى عكا أرسل عساكره إلى الناصرة وقيسارية وحيفا وصفورية ومعليا والشقيف والفولة وغيرها من البلاد المجاورة لمدينة عكا ،

فملكوها ونهبوها وأسروا رجالها وسبوا نساءها ، وقدموا من ذلك ماسد الفضاء ، وأرسل صلاح الدين إلى أخيه العادل بمصر يبشره بما فتحه الله على يديه ، ويأمره بالمسير إلى بلاد الصليبيين من جهة مصر بمن بقى عنده من العسكر ومحاصرة مايليه منها ، فسارع إلى ذلك وسار عن مصر ، فنازل حصن مجدل يابا وحصره وغنم مافيه ، وسار إلى مدينة يافا وهى على الساحل فحصرها وملكها عنوة ونهبها وأسر الرجال وسبى الحريم ، وجرى على أهلها مالم يجر على أحد من تلك البلاد ، وورد كتابه بذلك إلى صلاح الدين . وقد سير السلطان حسام الدين عمر بن لاجين فى عسكر إلى نابلس ، فأتى سبسطيه وبها قبر زكريا عليه السلام ، فأخذه من أيدى الصليبيين وسلمه إلى المسلمين ووصل إلى نابلس ، فدخلها وحصر قلعتها واستنزل من فيها بالأمان وتسلم القلعة وأقام أهل البلد به وأقرهم على أملاكهم وأموالهم . وسير تقى الدين فنزل على تبنين ليقطع الميرة عنها وعن صور .

(فتح تبنين وصيدا وجبيل وبيروت)

لما وصل تقى الدين إلى تبنين نازلها وأقام عليها ، فرأى حصرها لايتم إلا بوصول عمه صلاح الدين إليه ، فأرسل إليه يعلمه بالأمر ويحثه على المسير إليه ، فرحل من عكا فى ثامن جمادى الأولى ونزل عليها فى ١١ منه ، فحصرها وضايقها وقاتلها وهى من القلاع المنيعة على جبل ، فلما ضاق عليهم الأمر واشتد الحصر ، أطلقوا من عندهم من أسرى المسلمين ، وهم يزيدون على مائة رجل ، فلما انضموا إلى عسكر السلطان ، أحضرهم إليه وكساهم وأعطاهم نفقة وصيرهم إلى أهلهم ، وبقى الصليبيون محصورين خمسة أيام ، ثم أرسلوا يطلبون الأمان فأمنهم على أنفسهم ، فسلموا إليه ووفى لهم وسيرهم إلى مأمنهم ، ثم سار السلطان إلى صيدا فاجتاز بطريقه بصرفند ، فأخذها صفواً عفوا بغير قتال وسار عنها إلى صيدا وهى من مدن الساحل المعروفة ، فلما سمع صاحبها بمسيره نحوه سار عنها وتركها خالية من مانع ومدافع ، فلما وصلها صلاح الدين ، تسلمها ساعة وصوله فملكها فى ٢١ منه ، ثم سار عنها فى يومه نحو بيروت وهى من أحصن مدن الساحل وأنزهها وأطيبها ، فوصل إليها من الغد فرأى أهلها قد صعدوا على سورها وأظهروا القوة والجلد ، وقاتلوا

على سورها قتالا شديداً ، واغتروا بحصانة البلد وظنوا أنهم قادرون على حفظه ، وزحف المسلمون إليهم مرة بعد أخرى ، فبينما الصليبيون يقاتلون إذ سمعوا من البلد جلبة عظيمة وضوضاء زائدة ، فأتاهم من أخبرهم أن البلد قد دخله المسلمون من الناحية الأخرى قهراً وغلبة ، فأرسلوا الرسل يستطلعون فلم يجدوا أحداً ، فأرادوا تسكين الخواطر ، فلم يمكنهم ذلك لكثرة ماااجتمع فيه من السواد ، فلما خافوا على أنفسهم من الاختلاف الواقع أرسلوا يطلبون الأمان فأمنهم على أنفسهم وأموالهم وتسلمها فى ٢٩ منه ، فكانت مدة حصرها ثمانية أيام ، وفى أثناء حصار بيروت كان صاحب جبيل من جملة الأسرى المسجونين بدمشق ، ففاوض نائب السلطان بدمشق فى تسليم جبيل بشرط إطلاقه ، فأعلم صلاح الدين بذلك فأحضره إليه مقيداً فسلم حصنه للعساكر الإسلامية وأطلق مابه من أسرى المسلمين وأطلقه السلطان كما اشترط .

(فتح عسقلان ومايجاورها من البلاد والحصون)

لما ملك السلطان بيروت وجبيل وغيرهما لم يبق عنده أهم من فتح عسقلان والقدس ، فسار عن بيروت نحو عسقلان واجتمع بأخيه العادل ومن معه من عساكر مصر ، فنازلوها يوم الأحد سادس عشر جمادى الآخرة .

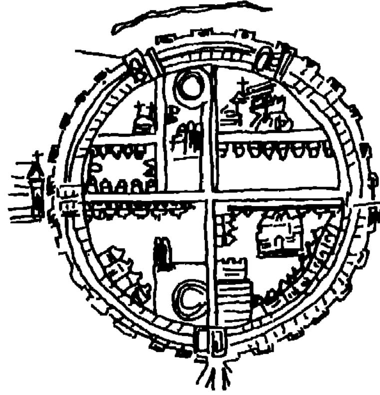
وكان صلاح الدين قد أحضر الملك غوى ومقدم الداوية (الهيكليين) إليه من دمشق وقال لهما إن سلمتما لى البلاد فلكما الأمان ، فأرسلا إلى من بعسقلان من الصليبيين يأمرانهم بتسليم البلد ، فلم يسمعوا أمرهما وردوا عليهما أقبح رد فلما رأى السلطان ذلك جد فى قتال المدينة ونصب المنجنيقات عليها ، وزحف مرة بعد أخرى وتقدم النقابون إلى السور فنالوا من باشورته شيئاً ، وصار ملكهم يكرر لهم الإرسال بالتسليم ويشير عليهم ويعدهم أنه إذا أطلق من الأسر أضرم البلاد على المسلمين ناراً ، واستنجد بأهل أوروبا وأجلب الخيل والرجال من أقاصى البلدان وهم لايجيبون إلى مايقول ولايسمعون مايشير به ، ولما رأوا أنهم كل يوم يزدادون ضعفاً ووهناً ، وإذا قتل منهم الرجل لايجدون له عوضاً ولا لهم نجدة ينتظرونها راسلوا صلاح الدين فى تسليم البلد على شروط اقترحوها فأجابهم إليها وكان قد قتل أثناء الحصار من الأمراء الأكابر ، حسام الدين إبراهيم بن حسين المهرانى ، فخاف الصليبيون أن تأخذ عشيرته منهم

بثأره إذا خرجوا فاحتاطوا بذلك فيما اشترطوا لأنفسهم ، فأجيبوا إلى ذلك جميعه وسلموا المدينة فى آخر شهر جمادى الآخرة ، وكانت مدة الحصار أربعة عشر يوماً ، وسيرهم صلاح الدين ونساءهم وأموالهم وأولادهم إلى بيت المقدس ووفى لهم الأمان . وأقام السلطان بظاهر هاوبث السرايا فى أطراف البلاد المجاورة لها ففتحوا الرملة والداروم وغزة ومشهد إبراهيم الخليل عليه السلام وتبنين وبيت لحم وبيت جبريل والنطرون وجميع ماكان للداوية .

(فتح البيت المقدس شرفه الله)

لما تسلم السلطان عسقلان والأماكن المحيطة بالقدس شمر عن ساعد الجد والاجتهاد فى قطنده ، واجتمعت إليه العساكر التى كانت متفرقة فى الساحل بعد قضاء لبانتها من النهب والغارة ، فسار نحوه معتمداً على الله منتهزاً فرصة فتح باب الخير الذى حث على انتهازه إذا فتح بقوله عليه الصلاة والسلام (من فتح له باب خير فلينتهزه فإنه لايعلم متى بغلق دونه) وكان القدس مملوءاً من الصليبيين حتى قدرهم بعض المؤرخين بستين ألف مقاتل ماعدا النساء والصبيان والجميع بدون ملك فلذلك انتخبوا عليهم رئيساً عسكرياً وهو باليان دى إيبالين ، فاجتهد فى الاستعداد لمحاصرة المدينة من داخلها وسار السلطان صلاح الدين إلى أن قرب من المدينة ، فأرسل إلى الصليبيين رسولا من قبله يخاطبهم بما يأتى حسب تقرير مؤرخى فرنسا قائلا لهم (إننى أنا نظيركم أعرف أن أورشليم (القدس) هى بيت الله فأنا لست آتياً لكى أدنس قداستها بسفك الدماء فأنتم اتركوها لى وأنا أخصصكم بقسم من خزائنى وأعطيكم أراضى بمقدار ماتستطيعون أن تقوموا بأعمالها) . فأجابه سكان المدينة بقولهم (إننا لانقدر أن نترك لك مدينة قد مات فيها إلهنا بالجسد ، وبأكثر من ذلك لانقدر أن نبيعها انتهى) وكان السلطان قد أرسل إلى مصر يطلب الأسطول الذى بها فى جمع من المقاتلة ومقدمهم حسام الدين لؤلؤ الحاجب ، وهو معروف بالشجاعة والشهامة ، فسار الأسطول يقطع الطريق على الافرنج بحراً ويغنم مايجده من مراكبهم . واجتمع الصليبيون بيت المقدس كما تقدم وحصنوه بما وجدوا إليه سبيلا وصعدوا على سوره بحدهم وحديدهم ، مجتمعين على حفظه والذب عنه بجهدهم وطاقتهم مظهرين العزم على المناضلة بقدر استطاعتهم ونصبوا

المنجنيقات ليمنعوا من يريد الدنو منه والنزول عليه ، ولما قرب صلاح الدين زحف فرحاً إلى القدس الأمير جمال الدين شروين بن حسن الزرزارى ، فقابله فريق من الصليبيين كان قد خرج للاستطلاع فقاتله ليلا فى موضع يعرف بالقبيبات فاستشهد رحمه الله ، ولما علم بذلك صلاح الدين ، أسرع بالمسير ونزل على القدس فى منتصف رجب سنة ٥٩٣ بالجانب الغربى ، وكان مشحوناً بالمقاتلة من الفرسان والرجالة .



(صورة بيت المقدس عند الفتح)

ثم انتقل إلى الجهة الشمالية نحو باب عمودا وكنيسة صهيون فى عشرين منه ونصب تلك الليلة المنجنيقات فأصبح من الغدو قد فرغ من نصبها ورمى بها ، ونصب الصليبيون على السور منجنيقات ورموا بها ، وقاتلوا أشد قتال لأن كل واحد من الفريقين كان يرى ذلك القتال دينياً وحتماً واجباً فلا يحتاج فيه إلى أمر سلطانى وكانت فرسان الصليبيين تخرج كل يوم إلى ظاهر البلد يقاتلون ويبارزون فيقتل خلق كثير من الفريقين وممن استشهد من المسلمين الأمير عز الدين عيسى بن مالك وهو من أكابر الأمراء وأبوه صاحب قلعة جعبر وكان عز الدين يباشر القتال كل يوم بنفسه فقتل وكان محبوباً عند الخاص والعام ، فلما رأى المسلمون مصرعه عظم عليهم فحملوا حملة رجل واحد ، فأزالوا الصليبيين عن مواقفهم وأدخلوهم بلدهم وزحفوا إلى الخندق فاجتازوه ووصلوا إلى السور فنقبوه وزحف الرماة يحمونهم والمنجنيقات ترمى دراكاً وتمكن النقابون من عملهم . ولما علم الصليبيون أنهم قد أشرفوا على الهلاك

اجتمع مقدموهم للمشاورة فيما يفعلون ، فاتفق رأيهم على طلب الأمان وتسليم البيت المقدس إلى صلاح الدين . فأرسلوا جماعة من كبرائهم وأعيانهم فى طلب الأمان ، فلما ذكروا ذلك للسلطان امتنع من إجابتهم وقال لاأفعل بكم إلا كما فعلتم بأهله المسلمين حين ملكتموه سنة ٤٩٢ هجرية من القتل والسبى وجزاء السيئة بمثلها ، فلما رجع الرسل خائبين محرومين أرسل باليان دى إيبالين رئيسهم العسكرى وطلب الأمان لنفسه ليحضر إلى السلطان صلاح الدين فى هذا الأمر ، فأجيب ذلك وحضر عنده ورغب فى الأمان وسأل فيه فلم يجبه إلى ذلك واستعطفه فلم يعطف ، فلما يئس من ذلك قال له أيها السلطان ، أعلم أننا فى هذه المدينة فى خلق كثير لايعلمهم إلا الله ، إنما هم يفترون عن القتال رجاء الأمان ظانين أنك تجيبهم إليه كما أجبت غيرهم ، وهم يكرهون الموت ويرغبون فى الحياة ، فإذا رأينا الموت لابد منه ، فو الله لنقتلن أبناءنا ونساءنا ، ونحرق أموالنا وأمتعتنا ولا نترككم تغتنمون منها ديناراً واحداً ولادرهما ولاتسبون وتأسرون رجلا ولا امرأة ، وإذا فرغنا من ذلك أخربنا الصخرة والمسجد الأقصى وغيرهما من المواضع ، ثم نقتل من عندنا من أسارى المسلمين وهم خمسة آلاف أسير ، ولا نترك لنا دابة أو حيواناً إلا قتلناه ثم خرجنا إليكم كلنا قاتلناكم قتال من يريد أن يحمى دمه ونفسه ، وحينئذ لايقتل الرجل منا حتى يقتل أمثاله ونموت أعزاء أو نظفر كراماً فاستشار صلاح الدين أصحابه فأجمعوا على إجابتهم إلى الأمان وألا يخرجوا ويحملوا على ركوب مالا يدرى عاقبة الأمر فيه عن أى شيء تنجلى . وقالوا نحسب أنهم أسارى بأيدينا فنبيعهم نفوسهم بما يستقر بيننا وبينهم ، فأجاب صلاح الدين حينئذ إلى بذل الأمان للصليبيين ، فاستقر أن يؤخذ عن الرجل عشرة دنانير يستوى فيه الغنى والفقير ، ومن كل طفل من الذكور أو الإناث دينارين ، ومن كل امرأة خمسة دنانير ، فمن أدى ذلك إلى أربعين يوما فقد نجا ، وإن انقضت الأربعون يوماً عنه ولم يؤد ماعليه فقد صار مملوكا) فأجيب إلى ذلك وسلمت المدينة يوم الجمعة السابع والعشرون من رجب سنة ٥٨٣ أى فى صباح ليلة المعراج وكان يوماً مشهوداً ورفعت الأعلام الإسلامية على أسوار المدينة ، ورتب صلاح الدين على أبواب البلد فى كل باب أميناً من الأمراء ليأخذوا من أهله مااستقر عليهم .

فاستعملوا الخيانة ولم يحفظوا فى عملهم الأمانة ، واقتسم الأمناء الأموال ، ولو

أديت كلها لملأت الخزائن لأن المدينة كانت مملوءة لكثرة مااجتمع فيها من عسقلان والداروم والرملة وغزه وغيرها ، ودفع باليان ثلاثين ألف دينار ، وبقى بعد ذلك من لم يكن معه مايعطى ، وأخذ أسيراً نحو ستة عشرة ألف مابين رجل وامرأة وصبى ، ثم قام جماعة من الأمراء ادعى كل واحد منهم أن جماعة من رعية إقطاعه مقيمون بالبيت المقدس ، فكان يطلق ويأخذ هو قطيعتهم ، واحتال آخرون بأن ألبسوا الصلبيين زى الجند المسلمين وأخرجوهم وأخذوا منهم قطيعة قرروها ، واستوهب جماعة من صلاح الدين عدداً من الصلبيين فوهبهم لهم ، فأخذوا قطيعتهم ولم يصل خزائن السلطان إلا القليل . وكان بالقدس الملكة سبيلا زوجة الملك غوى المأسور ، وزوجة البرنس رانود وغيرهم من نساء مقدمى الصليبيين ، فأطلقهم بخدمهم ، وحشمهم ، واستأذنته الملكة سبيلا فى المسير إلى زوجها الملك غوى ، وكان محبوساً بقلعة نابلس فأذن لها ، فتوجهت إليه وأقامت عنده ، وأتته امرأة البرنس رانود وطلبت إطلاق ولدها محبوس فى الأسر فقال لها صلاح الدين إن سلمتى لى قلعة الكرك أطلقته ، فتوجهت إلى الكرك فلم يرض الصليبيون الذين بها تسليمها فلم يطلق ولدها ، وخرج البطريرك الأورشليمى إيرا كلوس يتبعه الإكليروس ومعهم الأوانى المقدسة مع خزنة كنيسة قبر المسيح وغيرها وكان له من المال كثير فقيل للسلطان أن يأخذ مامعه فقال لاأغدر به ، وسير الجميع مع من يحميهم إلى مدينة صورو كان هذا اليوم يوم فرح وافتخار لجيش المسلمين فتقاطر الشعراء من سائر الأنحاء لتهنئة السلطان صلاح الدين بما أتاه الله من الفتح ، ونظموا القصائد وألقيت الخطب وسالت أقلام الكتاب وفاضت قرائحهم ، فكنت ترى فيهم إما خطيباً يبشر ويحرض ، وإما شاعراً يحمد الله ويمدح الفتح ، أو مؤرخاً يذكر الحادثة بما فيها من الفخر لجيش الإسلام ، وقد أشار العماد فى قصيدة طويلة إلى ذلك منها :

قل للمليك صلاح الدين أكرم من ... يمشى على الأرض أو من يركب الفرسا
من بعد فتحك بيت القدس ليس سوى ... صور فإن فتحت فاقصد طرابلسا
أثر على يوم أنطرسوس ذا لجب ... وابعث إلى ليل أنطاكية العسسا
واخل ساحل هذا الشام أجمعه ... من العداة ومن فى دينه وكسا

ولاتدع منهم نفساً ولانفساً فإنهم يأخذون النفس والنفسا
نزلت بالقدس فاستفتحته ومتى تقصد طرابلسا فانزل على قدسا

وقال أبو الحسين بن جبير الأندلسى من قصيدة :

هو الفاتح البيت المقدس بعد ما تحامته سادات الدنا ومسودها
فضيلة فتح كان ثانى خليفة من القوم مبديها وأنت معيدها

وقال الرشيدى بن بدر النابلسى من قصيدة طويلة :

هذا الذى كانت الآمال تنتظر فليوف لله أقوام بما نذروا
بمثل ذا الفتح لا والله ماحكيت فى سالف الدهر أخبار ولاسير
حين به حان هلك المشركين فيا لله طيب العشايا منه والبكر
الآن قرت جنوب فى مضاجعها ونام من لم يزل حلفاً له السهر
يابهجة القدس إذ أضحى به علم الإ سلام من بعد طى وهو منتشر

وقال فخر الكتاب أبو على الحسن بن على الجوينى المقيم بمصر من أهل بغداد هذه القصيدة فى الفتح وهى مشتملة على ذكر ملوك الإسلام وإهمالهم له تسعين عاماً حتى تجرد له صلاح الدين نذكر منها مايأتى :

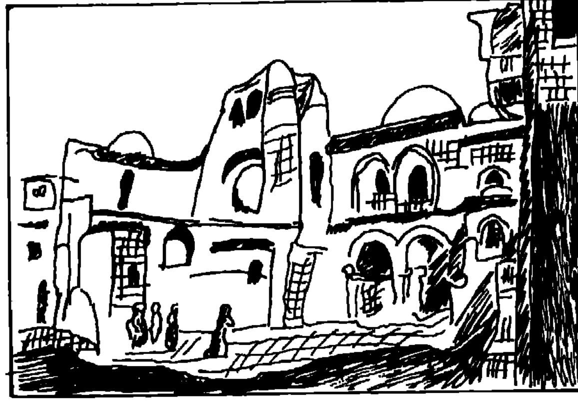
جند السماء لهذا الملك أعوان من شك فيهم فهذا الفتح برهان
متى رأى الناس ماتحكيه فى زمن وقد مضت قبل أزمان وأزمان
هذا الفتوح فتوح الأنبياء وما له سوى الشكر بالأفعال أثمان
أضحت ملوك الفرنج الصيد فى يده صيدا وماضعفوا يوماً وماهانوا
كم من فحول ملوك غودرواوهم خوف الفرنجة ولدان ونسوان
استصرخت بملكشاه طرابلس فخام عنها وصمت منه آذان
هذا وكم ملك من بعده نظر الإ سلام يطوى ويحوى وهو سكران
تسعون عاماً بلاد الله تصرخ والإ سلام أنصاره صم وعميان
فالآن لبى صلاح الدين دعوتهم بأمر من هو للمعوان معوان
للناصر ادخرت هذه الفتوح وما سمت لها همم الأملاك مذ كانوا
حباه ذو العرش بالنصر العزيز فقال الناس داود هذا أم سليمان
فى نصف شهر غد للشرك مضطلماً فطهرت منه أقطار وبلدان

فأيـن مسلمـة عنهـا وإخوتـه بل أين والدهم بل أين مروان
وعد عما سواه فالفرنجة لـم يدهم من ملوك الأرض إنسان
لو أن ذا الفتح فى عصر النبى لقد تنـزلت فيـه آيـات وقـرآن
ياقبح أوجه عباد الصليب وقد غـدا يبرقعهـا شؤم وخـذلان
خزنت عند إله العرش سائر ما ملكتـه وملـوك الأرض خـزان
فالله يقيك لـلإسلام تحـرسه من أن يضام ويلقى وهو حيران
وهذه سنة أكرم بهـا سنـة فالكفر فى بينة والنصر يقظان
ياجامعاً كلمة الإيمان قامع من معبوده دون رب العرش صلبان
إذا طوى الله ديوان العباد فما يطوى لأجر صلاح الدين ديوان



(إظهار محراب المسجد الأقصى والصخرة المقدسة ومحراب داود)

لما دخل السلطان صلاح الدين بيت المقدس فى يوم الجمعة ٢٧ رجب سنة ٥٨٣ كما تقدم ، لم يتمكن من إقامة صلاة الجمعة في هذا اليوم لأن الصليبيين كانوا قد بنوا على محراب المسجد الأقصى مخزناً للغلال ، وبنت جمعية الهيكليين غربيه داراً كبيرة لسكانها وعملوا فيها مايحتاجون إليه من مراحيض وغيره . فأمر السلطان بإزالة جميع ماأحدثوه من المبانى ، وكان على رأس قبة الصخرة المقدسة صليب كبير مذهب فتسلق جماعة من المسلمين إلى أعلى القبة وأنزلوه ، فهتف المسلمون بالتكبير والتهليل ، وأما الصليبيون فصاحوا تفجعا وتوجعا فسمع الناس صيحة كادت أن تميد بهم لعظمتها وشدتها ، وكان الصليبيون قد بنوا عليها بناية وذلك أن البطاركة والقساوسة كانوا يقطعون منها مايبيعونه لملوك أوروبا بالزائرين تبركا بها ، وكانوا يشترونه بوزنه ذهبا ، وكان أحدهم إذا رجع إلى بلاده باليسير منه بنى له كنيسة وجعله فى مذبحها .



(صورة الكنيسة التى بنيت على الصخرة المقدسة)

فشفق عليها أحد ملوكها وبنى عليها لعدم مسها ، فأمر السلطان بإزالة ماعليها من المبانى أيضاً ، وأمر بتطهير ذلك جميعه وكان السلطان يكنس بيده وبعد الفراغ من كنس الصخرة والمسجد الأقصى ، أمر بغسلها بالماء مراراً ،

ثم غسلها بنفسه بماء الورد وأمر بإطلاق البخور عليها ثم فرش المسجد ومحل الصخرة بالبسط الفاخرة ، وأمر بإعمال منبر من خشب لتأدية صلاة الجمعة القابلة ريثما يصل المنبر الذى كان قد أمر بصنعه الملك العادل محمود نور الدين أتابك لوضعه بالقدس ، لأنه كان عازماً على فتحه ومات ولم يتم ماعزم عليه فأمر بوضعه فى حلب . وأما محراب داود عليه السلام فإنه كان خارج المسجد الأقصى فى حصن منيع عند باب المدينة وموضع عال رفيع ، وهو الحصن الذى يقيم به الوالى ، فرتب السلطان له إماماً ومؤذنين وقواماً وهو مثابة الصالحين ومزار الغادين والرائحين ، فأحياه وجدده وأمر بعمارة جميع المساجد وفى يوم الجمعة التالى الموافق ٤ شعبان عزموا على إقامة صلاة الجمعة ، فاستعدت العلماء والخطباء وكل منهم يطلب أن يكون هو الخطيب ليحصل له الشرف العظيم ، ولما قربت الصلاة أمر السلطان القاضى محيى الدين أبى المعالى محمد بن زكى الدين على القرشى بأن يخطب ويصلى بالمسلمين ، وخلع عليه خلعة سوداء من تشريفات الخلافة فصعد المنبر وتلا الخطبة الآتية :

(أول خطبة بالمسجد الأقصى بعد فتحه)

— افتتح الخطبة بآيات الحمد الواردة بالقرآن الشريف بعد البسملة ثم قال : الحمد لله معز الإسلام بنصره . ومذل الشرك بقهره . ومصرف الأمور بأمره ومديم النعم بشكره . ومستدرج الكافرين بمكره . الذى قدر الأيام دولا بعدله . وجعل العاقبة للمتقين بفضله . وأفاء على عباده من ظله . وأظهر دينه على الدين كله . القاهر فوق عباده فلا يمانع . والظاهر على خليقته فلا ينازع . والآمر بما يشاء فلا يراجع . والحاكم بما يريد فلا يدافع . أحمده على إظفاره وإظهاره . وإعزازه لأوليائه ونصره لأنصاره . وتطهير بيته المقدس من أدناس الشرك وأوضاره . حمد من استشعر الحمد باطن سره وظاهر جهاره . وأشهد أن لاإله إلا الله وحده لاشريك له الأحد الصمد . الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد . شهادة من طهر بالتوحيد قلبه . وأرضى به ربه وأشهد أن محمداً ﷺ عبده ورسوله . رافع الشك . وداحض الشرك وراحض الإفك . الذى أسرى به من المسجد الحرام إلى هذا المسجد الأقصى وعرج به منه إلى السموات العلى . إلى سدرة المنتهى . عندها جنة المأوى . إذيغشى السدرة

مايغشى . مازاغ البصر وماطغى . ﷺ وعلى خليقته أبى بكر الصديق السابق إلى الإيمان . وعلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب أول من رفع عن هذا البيت شعار الصلبان . وعلى أمير المؤمنين عثمان ذى النورين جامع القرآن . وعلى أمير المؤمنين على بن أبى طالب مزلزل الشرك ومكسر الأوثان ، وعلى آله وأصحابه والتابعين لهم بإحسان . أيها الناس أبشروا برضوان الله الذى هو الغاية القصوى . والدرجة العليا . لما يسره الله على أيديكم من استرداد هذه الضالة . من الأمة الضالة . وردها إلى مقرها من الإسلام . بعد ابتذالها فى أيدى المشركين قريباً من مائة عام . وتطهير هذا البيت الذى أذن الله أن يرفع وأن يذكر فيها اسمه . وإماطة الشرك عن طرقه . بعد أن امتد عليه رواقه . واستعمر فيه رسمه . ورفع قواعده بالتوحيد . فإنه بنى عليه وبالتقوى فإنه أسس على التقوى ، من خلفه ومن بين يديه . فهو موطن أبيكم إبراهيم ومعراج نبيكم محمد عليه السلام . وقبلتكم التى كنتم تصلون إليها فى ابتداء الإسلام . وهو مقر الأنبياء ، ومقصد الأولياء . ومقر الرسل ومهبط الوحى ، ومنزل تنزيل الأمر والنهى . وهو فى أرض المحشر . وصعيد المنتسر . وهو فى الأرض المقدسة التى ذكرها الله فى كتابه المبين . وهو المسجد الذى صلى فيه رسول الله ﷺ بالملائكة المقربين . وهو البلد الذى بعث الله إليه عبده ورسوله . وكلمته التى ألقاها إلى مريم . وروحه عيسى الذى شرفه الله برسالته وكرمه بنبوته . ولم يزحزحه عن رتبة عبوديته . فقال تعالى . لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله . وقال : لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح بن مريم . وهو أول القبلتين . وثانى المسجدين . وثالث الحرمين . لاتشد الرحال بعد المسجدين إلا إليه . ولاتعقد الخناصر بعد الموطنين إلا عليه . ولولا أنكم ممن اختاره الله من عباده واصطفاه من سكان بلاده لما خصكم بهذه الفضيلة التى لايجاريكم فيها مجار . ولايباريكم فى شرفها مبار . فطوبى لكم من جيش ظهرت على أيديكم المعجزات النبوية . والوقعات البدرية . والعزمات الصديقية . والفتوح العمرية . والجيوش العثمانية . والفتكات العلوية . جددتم للإسلام أيام القادسية . والوقعات اليرموكية . والمنازلات الخيبرية ، والهجمات الخالدية . فجازاكم الله عن نبيه محمد ﷺ أفضل الجزاء وشكر لكم مابذلتموه من مهجكم فى مقارعة الأعداء . وتقبل منكم ماتقربتم به إليه من مهراق الدماء .

وأثابكم الجنة فهى دار السعداء . فقدروا رحمكم الله هذه النعمة حق قدرها . وقوموا لله تعالى بواجب شكرها . فله النعمة عليكم بتخصيصكم بهذه النعمة . وترشيحكم لهذه الخدمة . فهذا هو الفتح الذى فتحت له أبواب السماء . وتبلجت بأنواره وجوه الظلماء . وابتهج به الملائكة المقربون وقربه عينا الأنبياء المرسلون . فماذا عليكم من النعمة بأن جعلكم الجيش الذى يفتح علبه البيت المقدس فى آخر الزمان . والجند الذى تقوم بسيوفهم بعد فترة من النبوة أعلام الإيمان . فيوشك أن تكون التهانى به بين أهل الخضراء أكثر من التهانى به بين أهل الغبراء . أليس هو البيت الذى ذكره الله فى كتابه . ونص عليه فى خطابه ؟ فقال تعالى سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله الآية ، أليس هو البيت الذى عظمته الملوك . وأثنت عليه الرسل . وتليت فيه الكتب الأربعة المنزلة من إلهكم عز وجل ؟ أليس هو البيت الذى أمسك الله عز وجل الشمس على يوشع لأجله أن تغرب . وباعد بين خطواتها ليتيسر فتحه ويقرب ؟ أليس هو البيت الذى أمر الله موسى أن يأمر قومه باستنقاذه فلم يجبه إلا رجلان . وغضب عليهم لأجله فألقاهم فى التيه عقوبة للعصيان . فاحمدوا الله الذى أمضى عزائمكم لما قعد عنه بنو إسرائيل . وقد فضلهم على العالمين ووفقكم لما خذل فيه من كان قبلكم من الأمم الماضين وجمع لأجله كلمتكم وكانت شتى . وأغناكم بما أمضته كان وقد عن سوف وحتى . فليهنئكم إن الله قد ذكركم به فيمن عنده . وجعلكم بعد أن كنتم جنوداً لأهوائكم جنده . وشكركم الملائكة المنزلون . على ماأهديتم إلى هذا البيت من طيب التوحيد . ونشر التقديس والتحميد . وماأمطتم عن طرقهم فيه من أذى الشرك والتثليث . والاعتقاد الفاجر الخبيث . فالآن يستغفر لكم أملاك السموات . وتصلى عليكم الصلوات المباركات . فاحفظوا رحمكم الله هذه الموهبة فيكم . واحرسوا هذه النعمة عندكم بتقوى الله التى من تمسك بها سلم . ومن اعتصم بعروتها نجا وعصم . واحذروا من اتباع الهوى . وموافقة الردى . ورجوع القهقرى . والنكول عن العداء وخذوا فى انتهاز الفرصة وإزالة مابقى من الغصة . وجاهدوا فى الله حق جهاده . وبيعوا عباد الله أنفسكم فى رضائه إذ جعلكم من خير عباده . وإياكم أن يستذلكم الشيطان . وأن يتداخلكم الطغيان . فيخيل لكم أن هذا النصر بسيوفكم الحداد . وبخيولكم

الجياد . وبجلادكم فى مواطن الجلاد . لا والله ماالنصر إلا من عند الله إن الله عزيز حكيم . واحذروا عباد الله بعد أن شرفكم بهذا الفتح الجليل . والمنح الجزيل . وخصكم بهذا الفتح المبين . وأعلق أيديكم بحبله المتين . أن تقترفوا كبيراً من مناهيه . وأن تأتوا عظيما من معاصيه . فتكونوا كالتى نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثا . والذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوبن . والجهاد الجهاد فهو من أفضل عباداتكم . وأشرف عاداتكم . انصروا الله ينصركم ، اذكروا أيام الله يذكركم . اشكروا الله يزدكم ويشكركم . جدوا فى حسم الداء . وقطع شأفة الأعداء . وتطهير بقية الأرض التى أغضبت الله ورسوله . واقطعوا فروع الكفر واجتثوا أصوله . فقد نادت الأيام بالثارات الإسلامية . والملة المحمدية الله أكبر فتح الله ونصر . غلب الله وقهر . أذله الله من كفر . واعلموا رحمكم الله أن هذه فرصة فانتهزوها . وفريسة فناجزوها . ومهمة فاخرجوا لها هممكم وأبرزوها . وسيروا إليها عزماتكم وجهزوها . فالأمور بأواخرها . والمكاسب بذخائرها . فقد أظفركم الله بهذا العدو المخذول . وهم مثلكم أو يزيدون . فكيف وقد أضحى فى قبالة الواحد منهم منكم عشرون . وقد قال الله تعالى . إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين . أعاننا الله وإياكم على اتباع أوامره . والازدجار بزواجره . وأيدنا معشر المسلمين بنصر من عنده . إن ينصركم الله فلا غالب لكم وإن يخذلكم فمن ذا الذى ينصركم من بعده .

وتمام الخطبة الثانية قريب مما جرت به العادة وقال بعد الدعاء للخليفة : اللهم وأدم سلطاننا . عبدك الخاضع لهيبتك . الشاكر لنعمتك . المعترف بموهبتك سيفك القاطع . وشهابك اللامع . والمحامى عن دينك المدافع . والذاب عن حرمك المانع . السيد الأجل الملك الناصر . جامع كلمة الإيمان . وقامع عبدة الصلبان . صلاح الدنيا والدين . سلطان الإسلام والمسلمين . مطهر البيت المقدس . أبا المظفر يوسف بن أيوب . محيى دولة أمير المؤمنين . اللهم ، عم بدولته البسيطة واجعل ملائكتك براياته محيطة . وأحسن عن الدين الحنيف جزاءه . واشكر عن الملة المحمدية عزمه ومضاءه اللهم ابق للإسلام مهجته . ووق للإيمأن حوزته . وانشر فى المغارب والمشارق دعوته اللهم

فكما فتحت على يديه البيت المقدس بعد أن ظنت الظنون . وابتلى المؤمنون . فافتح على يده أدانى الأرض وأقاصيها وملكه صياصى الكفر ونواصيها . فلا تلقاه منهم كتيبة إلا مزقها . ولاجماعة إلا فرقها . ولاطائفة بعد طائفة إلا ألحقها بمن سبقها . اللهم اشكر عن محمد ﷺ سعيه . وأنفذ فى المشارق والمغارب أمره ونهيه . اللهم وأصلح به أوساط البلاد وأطرافها وأرجاء الممالك وأكنافها . اللهم زلل به معاطس الكفار ، وأرغم به أنوف الفجار . وانشر ذوائب ملكه على الأمصار . وأثب سرايا جنوده فى سبل الأقطار . اللهم ثبت الملك فيه وفى عقبه إلى يوم الدين . واحفظه فى بنيه وبنى أيوب الملوك الميامين . واشدد عضده ببقائهم . واقض بإعزاز أوليائه وأوليائهم . اللهم كما أجريت على يده فى الإسلام ، هذه الحسنة التى تبقى على الأيام . وتتخلد على مر الشهور والأعوام . فارزقه الملك الأبدى الذى لاينفذ فى دار المتقين . وأجب دعاءه فى قوله رب أوزعنى أن أشكر نعمتك التى أنعمت على وعلى والدى وأن أعمل صالحاً ترضاه وأدخلنى برحمتك فى عبادك الصالحين . ولما فرغ صلاح الدين من صلاة الجمعة تقدم بعمارة المسجد الأقصى واستنفاذ الوسع فى تحسينه وترصيفه وتدقيق نقوشه ، فأحضروا من الرخام الذى لايوجد ومن النص المذهب القسطنطينى وغير ذلك مما يحتاجون إليه وقد ادخر على طول السنين .



(حصار مدينة صور وفتح هونين)

لما فتح السلطان صلاح الدين القدس ، أقام بظاهره إلى الخامس والعشرين من شعبان ، يرتب أمور البلد وأحواله ، وجعل دار الاسبتارية (جمعية القديس مارى يوحنا المعمدان) مدرسة للشافعية وهى حسنة جداً ، ثم سار إلى مدينة صور وكان قد اجتمع بها من الصليبيين عالم كثير ، لأن الصليبيين أهل عسقلان والقدس وغيرهم لما سلموا بلادهم وأخذوا الأمان صاروا إلى صور وكان قد جاءها كونرادين المركيز منتفرات بسفنه وتسميه العرب المركيس ، فأقام حاكما بها وحصنها. كل التحصين ووصل صلاح الدين إلى عكا وأقام بها أياماً ، ثم سار إلى أن وصل إلى صور تاسع رمضان ، فنزل على نهرب قرب البلد حتى اجتمع العسكر الإسلامى ، فلما علم كونراد بقدوم صلاح الدين إلى بلده أخذ يجدد التحصين ويعمق الخنادق ومدينة صور واقعة على رأس ممتد فى البحر ، فكانت محاطة بالمياه من ثلاث جهات ، ومتصلة بالبر من جهة واحدة ، ثم سار صلاح الدين فى الثانى والعشرين منه إلى تل يقارب سور البلد وقسم القتال على عساكره ، وجعل لكل أمير من أمرائه وقتاً يحارب فيه بعسكره ، لكى تكون الحرب متصلة دواماً على أهل البلد . وكان موضع القتال قريباً ويكفيه جماعة للمحاربة فقط ، فزحفت العساكر الإسلامية بالمنجنيقات والدبابات ، وكان أهل صلاح الدين متولين الحرب مثل ولده الأفضل وولده الظاهر غازى وأخيه العادل بن أيوب وابن أخيه تقى الدين ، وكانت للصليبيين شوان يحاربون بها كى يمنعوا العساكر الإسلامية من محاربة البلد ، فأرسل صلاح الدين يطلب الشوانى التى بعكا فأرسلت إليه وعددها عشر برجالها ، فلما وصلت منعت شوانى العدو من مقاتلة المسلمين فتمكن حينئذ المسلمون من الدنو من البلد ومن قتاله فقاتلوه براً وبحراً وضايقوه حتى كادوا يظفرون ، فجاءت الأقدار بما لم يكن فى الحساب ، وذلك أن عبد السلام المغربى مقدم شوانى المسلمين الموصوف بالحذق فى صناعته وشجاعته وقف على باب المينا فى ليلة ليمنع خروج شوانى العدو فباتوا ليلتهم يحرسون فلما كان وقت السحر أمنوا فناموا فما شعروا إلا بشوانى الصليبيين قد نازلتهم وضايقتهم فأوقعت بهم فقتل الصليبيون من أرادوا قتله وأخذوا خمس شوان من المسلمين بما فيها

وأدخلوها ميناء صور ، والمسلمون فى البر ينظرون إليها ورمى جماعة من المسلمين أنفسهم من الشوانى فى البحر فمنهم من سبح فنجا ومنهم من غرق وأسر المقدم عبد السلام ومتوليه بدران الفارسى ، وأمر السلطان بمسير الشوانى الباقية إلى بيروت لعدم انتفاعه بها لقلتها فخرجت شوانى الصليبيين وراءها فنجا منه شينى رئيس جبيل والباقون نظروا شدة طلب العدو لهم ، فألقوا أنفسهم فى الماء وخرجوا إلى البر على وجوههم ، وبعد هذا طمع الصليبيون فخرجوا عصر أحد الأيام للقتال فانتقاهم المسلمون فكانت الدائرة على الصليبيين وأسر أحد مقدميهم وظن أنه كونراد فعلمه السلطان إلى ولده الظاهر ليحفظه فضرب عنقه وكان الليل قد دخل فلما أصبحوا تبين لهم أن كونراد لايزال حياً ثم طال الحصار حتى ضجر كثير من أمراء المسلمين لأنهم رأوا مالم يألفوه من تعسر الفتح عليهم ، فأشاروا على السلطان بالرحيل لئلا تفنى الرجال وكان البرد قد اشتد عليهم وكان رأى السلطان وبعض الأمراء كالفقيه عيسى وحسام الدين طمان وعز الدين جرديك النورى الثابت الجنان إلى الفتح لئلا يضيع ماتقدم من الأعمال ، وإنفاق الأموال ، وقال السلطان قد هدمنا السور وقاربنا الأمور فاصبروا واتفلحوا وصابروا فتتحوا ولاتعجلوا ، فأظهروا الموافقة وفى أنفسهم مافيها فلم يصدقوا القتال وتعللوا بأن الرجال جرحى والعلف قد قل فلم يسع السلطان بعد ذلك إلا الرحيل ، فأمر بنقل الأثقال فحمل بعضها إلى صيدا وبيروت وأحرق الباقى لئلا يناله العدو وفى أثناء حصار السلطان لصور جاءه الخبر بأن الصليبيين المقيمين فى هونين قد طلبوا الأمان ، فأنفذ الأمير بدر الدين دلدرم ففتحها وأخرج الصليبيين منها وكان السلطان قبل ذلك قد وكل عليها بعض العسكر لمحاصرتها ورحل السلطان عن مدينة صور فى آخر شوال ، وسار تقى الدين إلى دمشق عن طريق هونين واستصحب معه عساكر الشرق وديار بكر والموصل والجزيرة وسنجار وماردين ، ورحل السلطان إلى عكا من طريق النافورة وهى طريق ضيقة مطلة على البحر ، بها يضرب المثل لايعبر بها إلا جمل جمل فعبرت بها الأثقال والأحمال فى أسبوع وكان قد عين يوم رحيله أمراء يقيمون على صور إلى أن تعبر الأثقال ، وخيم السلطان عند التل وسار العادل إلى مصر والظاهر إلى حلب وفى مدة رحيل السلطان توفى الأمير سيف الدين محمود أخو عز الدين جاولى ، وسبب ذلك أنه كان باقياً من أعمال

الصليبيين حصنان بدون فتح وهما حصن صفد وفيه الداوية (الهيكليين) وحصن كوكب وفيه الاسبتارية (جمعية مارى يوحنا المعمدان) واحتاج السلطان فى فتحهما إلى المطاولة فوكل بحصن صفد جماعة يعرفون بالناصرية ومقدمهم مسعود الصلتى ، ووكل بكوكب هذا الأمير سيف الدين ، فأقام فى حصن عقر بلا ، وهو قريب من حصن كوكب ومنع عن المقيمين فيه المطعم والمشرب ، وضيق عليهم المذهب إلى أن دخل الشتاء فاختلت الحراسة فلما كانت ليلة آخر شوال وكانت ليلة باردة حرس أصحاب سيف الدين حتى ضجروا فغلبهم النعاس فما استيقظوا إلا وإفرنج كوكب عليهم باركة فدافعوا عن أنفسهم حتى استشهدوا وأخذ الصليبيون غنيمة المسلمين ودخلوا بها كوكب .

(فى التحريض على طلب الحروب الصليبية الثالثة)

بينما كان البابا أوربانوس الثالث موجوداً فى مدينة البندقية مشدداً فى تحريض أهل البندقية على سرعة تجهيز عمارة مراكب المشيخة ، وإرسالها إلى فلسطين إسعافاً لإخوانهم الصليبيين ، بلغه خبر سقوط مدينة أورشليم (القدس) فى أيدى صلاح الدين سلطان المسلمين ، فسقط طريح الفراش مريضاً ، ولما اشتد مرضه انتقل إلى مدينة فرارا فمات هناك ، ثم تعين بعده البابا غرغوريوس الثامن وبعد تعيينه حضر بين يديه غويليم الصورى رئيس أساقفة صور وترامى على قدميه ، وطلب منه المساعدة التامة فى تسيير حملة صليبية لاسترداد القبر المقدس من أيدى المسلمين ، فأصدر البابا منشوراً عاماً لسكان أوروبا ، أوضح لهم فيه عظم ماألم بالصليبيين إخوانهم وخصوصاً امتلاك المسلمين مدينة القبر المقدس ، وقد جاء فى هذا المنشور مايأتى (إنه لقد جاء الزمان الذى فيه يصير الامتحان والحين الذى فيه نستخدم خزائن الأرض وكنوزها لأجل اكتساب البلاد جديداً التى مات فيها يسوع المسيح لكى يكتسب لنا بموته خزائن السماء وكنوزها ، والأوان الذى فيه تباح الخيرات الزائلة لأجل امتلاك الخيرات الدائمة) ثم أنه اختتم منشوره المذكور بقوله (غير أنكم لاتسيرون إلى هذه الحروب الصليبية بأثواب فاخرة وملابس ثمينة ، آخذين صحبتكم الطيور والبواشق والكلاب للصيد ، بل تجنبوا كل مايشير إلى السعة ولايفيد سوى

البذخ ، والمجد الباطل ، واحتشموا فى محاميلكم أولى من اهتمامكم بما يرجع إلى الفخفخة والصلف ، ثم أظهروا بأعمالكم حقائق روح التوبة والخشوع) وبعد تحرير هذا المنشور ، لم يتمكن البابا من إعمال الوسائط اللازمة لإرسال حملة صليبية ثالثة ، لأنه اعتراه مرض فى مدينة (ينزا) ومات . وتعين بعده البابا إكليمنضوس الثالث الذى بعد تعينه أناب عنه فى التحريض على ذلك رئيس أساقفة صور المذكور ، وفوض إليه الإنذار بهذه الحرب المقدسة وبعد ذلك أخذ الأسقف غويليوم الصورى المذكور ، يخطب فى أهالى إيطاليا ويحرضهم على التجهيز لاسترداد القبر المقدس ثم أسرع إلى بلاد فرنسا منهضاً غيرتهم الشهيرة .

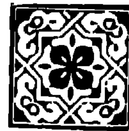
(صلح فرنسا وإنكلترا وتحريضهم على الحروب الصليبية)

بينما كان الملك فليب أوغسطوس ملك فرنسا ، يحارب الملك هنر يكوس الثانى ملك إنكلترا لأجل تملك بلد فاكسين ، حضر غويليوم الصورى لتحريضهم على الحروب الصليبية فوجدهم على هذه الحالة ، فسعى بينهما فى الصلح حتى أنه كلفهما بإصدار أمر بعقد جمعية عمومية من الجيشين فى فرنسا للمفاوضة فى الحروب المقدسة ، وبعد انعقاد تلك الجمعية التى حضرها ضباط الجيشين ، قوبل غيليوم باحتفال دينى عظيم ، ثم أخذ يشرح لهم حوادث حروب المسلمين وكيفية استيلائهم على القدس ، وأن هذه المدينة صارت الآن مسكونة بشعب بربرى وأنها تدفع الخراج والجزية تحت رق العبودية ، وأن سكانها المسيحيين والصليبيين مساقون كالغنم إلى بلاد الإسلام ، يباعون فى الأسواق كالعبيد ، ثم قال مايأتى : إن إمارات المشرق المسيحية بقيت صامدة على ثلاث مدن فقط وهى إنطاكية ، وطرابلس ، وصور ، لاغير . ونحن قد شاهدنا بأعيننا ماكان قد قام به أشعيا النبى بقوله ، إن الرب قد مد يده وضرباته بالقروح من حد نهر الفرات إلى حدنيل مصر ، لأن سكان أربعين مدينة قد طردوا من مساكنهم وفقدوا خيراتهم وموجوداتهم المختطفة منهم ، وساروا تائهين مع عيالهم بالشقاء والعنك فيما بين شعوب آسيا خالين من أن يجدوا لهم حجراً يسندون إليه رءوسهم. ثم تلا عليهم منشور البابا فجذب قلوب سامعيه إلى الغيرة والحرارة . كما أن فليب أوغسطوس ملك فرنسا ، وهنريكوس

الثانى ملك إنكلترا تعانقا وتقدما قبل الجمع واستلما صليب الحرب المقدسة ، ثم تبعهم ريكارددوك دى غونيانا ابن السلطان أزيكوس ، ثم فيلبس كونت دى فلاندرا ، وهو كوز دوك دى برغونيا ، وهنريكوس كونت دى شامبانيا ، وتيبوت كونت دى بلواز ، ومثلهم أمراء سواسون ، ونافار ، وباروفاندوم . وأقسم الأخوان يوسالين ومتى دى هورانسى على تخليص أورشليم (القدس) من أيدى المسلمين ، ثم هتف أعضاء هذه الجمعية صارخين ، هلموا نحو الصليب . فلنذهبن وراء الصليب . وشرعوا جميعاً فى التجهيزات للمسير للحروب الصليبية .

(ضريبة العشور للحروب الصليبية الثالثة)

لما شرع كل من ملك فرنسا وملك إنكلترا فى إعداد معدات السفر للحروب الصليبية ، وجدوا أن ذلك لايحتاج لأموال عظيمة ، فعقدوا مجلس شوراهم الذى قرر باتحاد آراء الملكين والأمراء والأشراف ، بأن كل من لم يرغب فى السفر للحروب الصليبية ، أو تعذر عليه السفر ، يدفع عشر مداخيله مع عشر ثمن موجوداته المنتقلة (لا الثابتة) وقد سموها (ضريبة العشور الصلاحية) رمزا إلى انتصار السلطان صلاح الدين عليهم ، وحرم رؤساء الكنائس كل من يتأخر عن دفع هذه الضريبة ، وعينوا لجمعها أناساً اقتضوها بصرامة كلية غير أن الأموال المجموعة من ضريبة العشور الصلاحية لم تكن كافية لهذه الاستعدادت ولذلك أكره ملك فرنسا اليهود على أن يدفعوا إلى الخزينة مبلغ خمسة آلاف وزنه فضة (كل وزنة تساوى مائة درهم) .



(موت ملك الإنكليز وتولية ولده ريكاردوس وذبح اليهود)

فى أثناء تلك الاستعدادات مات الملك هنريكوس الثانى ملك إنكلترا ثم حضر ابنه ريكاردوس إلى بلاد الإنكليز لاستلام زمام الملك ، وأخذ يشتغل فى اكتساب الفخر باسترجاع القدس .



(صورة ريكاردوس ملك الانكليز)

ولذلك ترى أن أول أمر سعى إليه عند استلامه مقاليد الأحكام ، إنما هو جمع النقود استعداداً للحملة الصليبية ، فبذل فى سبيل ذلك كل تليد وطارف ، واستخدم كل وسيلة ممكنة حتى أنه باع طاعة الأسكوتلانديين الذين أخضعهم أبوه بمبلغ عشرة آلاف ميرك (الميرك نقود أسكوتلاندية قديمة يساوى الواحد منها ثلاثة ريالات مصرية تقريباً) ثم طلب الأموال من أغنياء البلاد وصيارفها ، وأكثرهم من اليهود ، وحدث أن اليهود سيقوا من فرنسا بعصا الاضطهاد

فالتجئوا إلى إنكلترا . وكان وصولهم إليها يوم تنصيب ريكاردوس ، فثارت عليهم رعاع الناس بدعوى أن الملك أمر بذبحهم ، فدارت عليهم رحى الموت حتى جرت دماؤهم فى الأسواق والتجأ منهم نحو خمسمائة إلى قلعة بورك بنسائهم وأولادهم ، فضيق عليهم أهل المدينة فالتمسوا أن يقبلوا منها الفدية فما أرادوا ، فاشتد غيظ اليهود وقنطوا من الحياة ، فأحرقوا كل ماكان لديهم من الأموال والمتاع والحلى ، وفضلوا أن يقتل بعضهم بعضاً من أن يقتلهم عدوهم ، فقتلوا أولادهم بأيديهم ثم أخذوا يقتل أحدهم الآخر . وبقيت منهم بقية استقتلوا وفتحوا أبواب القلعة ، فدخل إليهم بعض الرعاع الثائرين وقتلوهم ، وحصل مثل ذلك أيضاً فى نوريش وستامفورد وليكولن وغيرها ، وكل ذلك حصل بغير إرادة الملك فعاقب المعتدين عقاباً طفيفاً وأمن من بقى من اليهود وجعلهم تحت حمايته ، فلما اهتم بإعداد الحملة الصليبية طلب مساعدتهم فأمدوه بالمال .

(التحريض على الحروب الصليبية ببلاد النمسا)

بعد ماعزم كل من ملك فرنسا وملك إنكلترا على السفر إلى بلاد فلسطين سافر غويليوم الصورى المفوض بإنذار الحروب الصليبية من قبل البابا إلى بلاد النمسا ، وقابل ملكها فريد ريكوس الأول الملقب باللحية الحمراء ، وكان بينه وبين كرسى البابا بعض ضغائن فأزالها ، ثم طلب منه المساعدة فى تخليص بيت المقدس من يد المسلمين ، فأمر فى الحال بعقد جمعية فى مايانص ، وفى هذه الجمعية لبس الأثواب المكرسة المختصة بالحروب الصليبية ، ثم اقتدى به أعظم أمراء مملكته ، وكذلك جميع كنائس ألمانيا أثرت فيها خطب غويليوم الصورى ، فاستعدوا للسفر برئاسة ملكهم المذكور . وبما أن الملك فريد ريكوس كان عرف بلاد فلسطين فى الحروب الصليبية الثانية ، إذ كان مع عمه الملك كونراد الذى رجع بخفى حنين وعرف مايلزمه من الجيش ومايحصل له من المشقة والتعب ، خاف من نيات أفراد العساكر الصليبية فى أثناء مسيرهم ، فلذلك قرر بأنه لايقبل تحت علمه الصليبى أحداً من الراغبين فى السفر إلا إذا كان معه على الأقل ثلاث وزنات فضة ، وذلك بعد انعقاد جمعية فى مدينة نورا مبارك ، فلذلك امتنع عن السفر الأشقياء الذين كانوا يفرحون بسفرهم للنهب فى الطريق وعزم على أن يكون مسيره براً .

(فى اتحاد فرنسا وانكلترا للمسير إلى سوريا)

اجتمع الملكان فليبس وريكاردوس بمدينة نورمنديا ، واتفقا على تهذيب العساكر وإبعاد كل الرذائل عنها ، فأصدرا أمراً بمنع النساء من السفر صحبة العساكر ، لأن وجودهن فى وسط العسكر فى الدفعتين السابقتين ، أخل انتظام العساكر وأمر أيضاً بعدم لعب القمار ، وجمعا عساكرهما تحت علم الصليب فى مدينةلا فاسلاى ، حيث كان القديس برنردوس (الذى كان محرضاً على الحروب الصليبية الثانية) وجددا تحالفهما على يديه وتواعدا على المسير إلى سوريا ، وأن يسافر ريكاردوس إلى مرسيليا ثم ينزل فى المراكب ، وأن فليبس يسافر إلى جنوى ثم يتقابلان معاً يمينا ميسنا بجزيرة سيسيليا .

(حصر حصن كوكب وفتح بعض البلاد)

فى أوائل محرم سنة ٥٨٤ ، سار السلطان من عكا بمن بقى معه من العساكر إلى قلعة كوكب ، فحصرها ونازلها ظاناً أن تملكها سهل ، فلما رآها عالية منيعة والوصول إليها متعذر ، وجنوده مشتغلة بها وبصفد والكرك ، رحل عنها وكانت البلاد الساحلية من عكا فما وراءها جنوباً جميعها قد أصبحت ملكه ، فلم ير أن يظل فى وسط بلاده مايشغل قلبه ويحتاج إلى حفظه ، وخوفا من أن ينال الرعايا والمجتازين منهم الضرر العظيم ، فلهذا أقام على كوكب بعد رحيله قايماز النجمى ليديم حصارها ، ثم أتاه بعض رسل ملوك المسلمين يهنئونه بالفتح ، وسار إلى دمشق وكتب إلى جميع عماله بالبلاد وجميع أمراء الإسلام بخروج العساكر لمحاربة الصليبيين ، ثم رحل عن دمشق فى منتصف ربيع الأول فنزل على بحيرة قدس غربى حمص ، فجاءته العساكر فسار حتى نزل على حصن الأكراد من الجانب الشرقى فأقام يومين وسار جريدة وترك العسكر فى محله تحت الحصن ودخل بلاد الصليبيين ، فأغار على صافينا والعريمة ويحمور وغيرها من البلاد ، ووصل إلى قرب طرابلس وأبصر البلاد ، وعرف من أين تأتيها ومن أين يسلك منها ثم عاد إلى معسكره سالماً ، وقد غنم العسكر كثيراً من الدواب على اختلاف أنواعها . وفى أثناء وجود السلطان تحت حصن الأكراد ، أتاه قاضى جبلة وهو منصور بن إيبل ليستدعيه إليه ليسلمها له ، وكان هذا القاضى عند بوهيموند صاحب انطاكيه وجبلة مسموع الكلمة له الحرمة

الوافرة والمنزلة العالية ، وهو يحكم على جميع المسلمين ، بجبلة ونواحيها ، فحملته الغيرة للدين على قصد السلطان وتكفل له بفتح جبلة واللاذقية والبلاد الشمالية ، فسار صلاح الدين معه فى الرابع من جمادى الأولى فنزل بانطرطوس فى سادسه ، فرأى الصليبيين قد أخلوا المدينة واحتموا فى برجين حصينين ، فخرب المسلمون دورهم ومساكنهم وسور البلد ، ونهبوا ماوجدوه من ذخائرهم . وكان الداوية (جمعية الهيكليين) بأحد البرجين فحصرهما صلاح الدين ، فنزل من بالبرج الثانى وطلبوا الأمان فأمنهم وسلموه ، وخرب البرج وألقى حجارته فى البحر .

(فتح جبلة واللاذقية وغيرهما وخبر أسطول صقلية)

ثم رحل السلطان من أنطرطوس فى الرابع عشر من جمادى الأولى سنة ٥٨٤ ، ونزل على مرقيه وقد أخلاها سكانها فخيم فيها السلطان ، وكانت الطريق إلى جبلة ضيقة المسالك وهناك لجمعية الاسبتاريه (ضياف الغرباء) حصن اسمه المرقب ولا طريق إلا تحت تله ، ومما اتفق أن صاحب جزيرة صقلية أرسل أسطولا لايحتوى على ستين قطعة من الشوانى ، كل واحدة منها مثل قلعة ولما وصل الأسطول إلى ساحل فلسطين أمام طرابلس ، سمع بمسير السلطان فجاء ووقف فى البحر تحت المرقب ليمنعوا من يجتاز بالسهام ، فلما رأى السلطان ذلك أمر بالطارقيات والجفنيات ، فصفت على الطريق مما يلى البحر من أول المضيق إلى آخره وجعل وراءها الرماة ، فمنعوا الصليبيين من الدنو إليهم ، فاجتاز المسلمون عن آخرهم حتى عبروا المضيق ووصلوا إلى جبلة فى اليوم الثامن عشر من ذاك الشهر وتسلمها السلطان وقت وصوله ، وكان قاضيها قد سبق إليها ودخل ، فلما وصل السلطان رفع أعلامه على سورها .

وتحصن الصليبيون الذين كانوا بها بالقلعة فما زال قاضى جبلة يخوفهم ويرغبهم حتى استنزلهم بشرط الأمان ، وأن يأخذ رهائن منهم عنده إلى أن يطلق الصليبيون رهائن المسلمين الذين بأنطاكية ، وكان قد أخذهم بوهيموند من القاضى . ثم جاء مقدمو الجبل مطيعين ، وكان فى الجبل على طريق حماة حصن يعرف بيكسرائيل ، وكان استعادة الجبليون من الصليبيين منذ سنين فتسلمه السلطان أيضاً منهم ، ثم سلم جبلة إلى سابق الدين عثمان صاحب شيزر

وبجل قاضى جبلة وحكمه فى ولاية حكمه وقضائه ، ثم سار إلى اللاذقية فوصل فى الرابع والعشرين منه فترك الصليبيون المدينة لعجزهم عن حفظها ، وصعدوا إلى حصنين لها على الجبل فامتنعوا بهما ، فدخل المسلمون المدينة وحصروا القلعتين وزحفوا عليهما ونقبوا الأسوار ستين ذراعاً وأشعلوا فيها النار وعظم القتال واشتد الأمر عند الوصول إلى السور ، فلما أيقن الصليبيون بالعطب دخل إليهم قاضى جبلة فخوفهم من المسلمين فطلبوا الأمان ، فأمنهم السلطان ورفعت الأعلام الإسلامية على الحصنين وكان ذلك فى اليوم الثالث من النزول عليهما .

وكانت عمارة اللاذقية من أحسن الأبنية وأكثرها زخرفة مملوءه بالرخام على اختلاف أنواعه ، ووصل أسطول صقلية بإزاء ميناء اللاذقية ، فلما سلمها الصليبيون إلى السلطان عزم من بالأسطول على أسر كل من يخرج منها غيظاً وحنقاً لأنهم سلموها سريعاً ، فلما سمع بذلك أهل اللاذقية أقاموا بها ودفعوا الجزية ، ثم طلب مقدم الأسطول مقابلة السلطان والأمان له فأمنه ، وحضر بين يديه وقال مامعناه (إنك سلطان رحيم كريم وقد فعلت بالصليبيين مافعلت فذلوا فاتركهم يكونون مماليكك وجندك تفتح بهم البلاد والممالك وترد عليهم بلادهم ، وإلا جاءك من البحر مالا طاقة لك به فيعظم عليك الأمر ويشتد الحال) فأجابه صلاح الدين بنحو كلامه من إظهار القوة والاستعانة بكل مايجىء من البحر ، وأنهم إن خرجوا أذاقهم ماأذاق أصحابهم من القتل والأسر ، فانقلب على وجهه ورجع إلى أصحابه .

(فتح حصن صهيون وغيره من الحصون)

ثم رحل السلطان عن اللاذقية فى يوم الأحد ٢٧ جمادى الأولى سنة ٥٨٤ طالباً صهيون فنزل عليها يوم الثلاثاء التاسع والعشرين منه ، فاستدار العسكر بها من جميع نواحيها صباح الأربعاء ، ونصب عليها ستة منجنيقات وهى قلعة حصينة منيعة فى طرف جبل خنادقها أودية هائلة واسعة عميقة ، وليس لها خندق محفور إلا من جانب واحد وهو نقر فى حجر ولها ثلاثة أسوار . سوران دون ربضها وسور دون االقلعة وسور القلعة ، وكان على قلعتها علم طويل منصوب ، فلما أقبلت العساكر الإسلامية وقع فاستبشرت بالنصر ، واشتد القتال عليها من سائر الجوانب ، فضربها منجانيق الملك الظاهر ولد السلطان وكان نصبه أمام جهة قريبة من السور وكان الحجر صائباً فلم يزل يضربها حتى هدم من السور

قطعة عظيمة ، ولما كان يوم الجمعة ثاني جمادى الآخرة ، وعزم السلطان على الزحف ، وركب وتقدم وتواترت المنجنيقات بالضرب ، وارتفعت الأصوات وماكان إلا ساعة حتى رقى المسلمون على أسوار الربض واشتد الزحف وعظم الأمر ، وهجم المسلمون الربض وانضم من كان فى الربض إلى القلعة بما أمكنهم أن يحملوه من أموالهم ، ونهب المسلمون باقى الأموال واستدارت العساكر حول أسوار القلعة ، ولما رأى الصليبيون الهلاك استغاثوا بطلب الأمان فأمنهم السلطان على أن يسلموا بأنفسهم وأموالهم ، ويأخذ عن الرجل منهم عشرة دنانير وعن المرأة خمسة وعن الصغير دينارين ، فسلمت القلعة وأقام السلطان حتى تسلم عدة قلاع كالعيد وبلاطنس وقلعة الجماهريين وغيرها .

(فتح بكاس والشغر والسرمانية وبرزية)

ثم رحل السلطان حتى أتى بكاس وهى قلعة حصينة على جانب العاصى ولها نهر يخرج من تحتها ، وكان النزول على ذلك الشاطىء يوم الثلاثاء سادس جمادى الآخرة سنة ٥٨٤ ، فصعد السلطان بجريدة إلى القلعة وهى جبل مطل على العاصى ، فأحدق بها من كل جانب وقاتلها قتالا شديداً بالمنجنيقات والزحف المضايق إلى يوم الجمعة تاسع شهره ففتحها عنوة ، وأسر من فيها بعد قتل من قتل منهم وغنم جميع ماكان فيها وكان لها قليعة (تصغير قلعة) تسمى الشغر قريبة منها يعبر منها إليها بجسر وهى فى غاية المنعة ليس إليها طريق ، فسلطت عليها المنجنيقات من سائر الجوانب ورأوا أنهم لاناصر لهم ، فطلبوا الأمان وذلك فى يوم الثلاثاء ثالث عشرة وسألوه أن يؤخروا ثلاثة أيام لاستئذان أنطاكية لأنها تابعة لها ، فأذن فى ذلك وكان تمام فتحها وصعود العلم السلطانى على قلعتها يوم الجمعة سادس عشرة ، ثم عاد السلطان إلى عسكره وسير ولده الظاهر إلى قلعة تسمى سرمانية يوم السبت سابع عشرة ، فقاتلها قتالا شديداً وضايقها مضايقة عظيمة وتسلمها أيضاً يوم الجمعة الثالث والعشرين منه . ومن غريب الاتفاق أن فتوحات الساحل من جبلة إلى سرمانية فى أيام الجمع المتوالية وهذا من نوادر الفتوح التى لم يتفق مثلها . ثم سار السلطان بجريدة إلى قلعة برزية وهى قلعة حصينة فى غاية القوة والمنعة على سن جبل شاهق تحيط بها أودية من سائر جوانبها ، فحاصرها وفى صباح الأحد الخامس

والعشرين منه ، ركب عليها المنجنيقات وآلات الحصار من سائر نواحيها وشدد القتال وضرب أسوارها بالمنجنيقات المتواترة ليلا ونهاراً وظل يقاتلها حتى يوم الثلاثاء السابع والعشرين منه ، فقسم العسكر ثلاثة أقسام كل قسم يقاتل شطراً من النهار ، ثم يستريح ويتسلم القتال الشطر الآخر حتى لايفتر القتال ساعة واحدة ، وكان صاحب النوبة الأولى عماد الدين صاحب سنجار فقاتلها قتالا شديداً حتى استوفى نوبته ، وتسلم النوبة الثانية السلطان بنفسه ، فلما ركب وسار عدة خطوات صاح فى الناس فحملوا حملة الرجل الواحد وصاحوا صيحة الرجل الواحد وقصدوا السور من كل جانب فلم يكن إلا بضع ساعة حتى رقى الناس على الأسوار ، وهجموا على القلعة فأخذوها عنوة ، وطلب من فيها الأمان وقد ملئت الأيدى منهم فلم يك ينفعهم أمانهم ، ونهب جميع ماكان فيها وأسر جميع من كان بها ، وكان قد أوى إليها خلق عظيم وهذه القلعة من قلاعهم المشهورة ، ويوم أخذها كان يوماً عظيماً ثم عاد الناس إلى خيامهم غانمين ، وعاد السلطان إلى معسكره وأحضر بين يديه صاحب القلعة وكان رجلاً كبيراً منهم فكان هو ومن أخذ من أهله سبعة عشر نفساً فمن عليهم السلطان ورق لهم ، وأنفذهم إلى صاحب أنطاكية استمالة له لأنهم كانوا من ذوى قرباه ، وكانت هذه القلعة مقابلة لحصن أفاميا وتناصفها فى أعمالها وبينهما بحيرة تجمتع من ماء العاصى ، وقد مدحه الشهاب فتيان الشاغورى بقصيدة منها :

لما ملكت حصون أنطاكيـــة ... يئس الصليب وحزبه من مظهر
أرديت كـل مثـلث متكبـــر ... بموحــد متـــواضع ومكبـــر
برزت إلى برزية عزمتك التى ... مدت يداً عن مطلب لم يقصر
فتناولتـه بيدهـا مـن بــازخ ... فى الأفق ذى مثل يروع مسير
فانهض لصور فهى أحسن صورة ... فى هيكل الدنيا بدت لمصور
ماسور صور عاصم منه وهل ... سور المعاصم عاصم لـمسور

(فتح حصن دربساك وحصن بغراس)

ثم سار السلطان حتى أتى جسر الحديد وأقام عليه أياماً ، ومنه سار حتى نزل على دربساك يوم الجمعة ثامن رجب سنة ٥٨٤ ، وهى قلعة منيعة قريبة من أنطاكية ، فنزل عليها وقاتلها قتالا شديداً بالمنجنيقات وضايقها مضايقة

عظيمة ، وأخذ النقب تحت برج منها وتمكن النقب منه حتى وقع وحموه بالرجال والمقاتلة ، ووقفت فى الثغرة رجال يحمونها عمن يصعد فيها وكان كلما قتل منهم رجل قام غيره مكانه وهم قيام عوض الجدار واشتد الأمر حتى طلبوا الأمان واشترطوا مراجعة أنطاكية ، وكانت القاعدة أن ينزلوا بأنفسهم وثياب أبدانهم لاغير ، ورقى عليها العلم الإسلامى فى يوم الجمعة ثانى عشر رجب ، وتسلمها بما فيها ، وسار السلطان إلى قلعة بغراس وهى قلعة منيعة أقرب إلى أنطاكية من دربساك وكانت كثيرة العدة والرجال ، فنزل العسكر فى مرج لها وأحدق العسكر بها وأقام يزك لحفظها من ناحية أنطاكية خوفا من هجوم أهل أنطاكية بضرب على بابها بحيث لايمكن أحد الخروج منها ، ولم يزل يقاتل بغراس مقاتلة شديدة حتى طلبوا الأمان على استئذان أنطاكية ، ورقى العلم السلطانى عليها فى ثانى شعبان ، وتسلمها بما فيها من الأموال والذخائر والغلال ، وسلمها السلطان مع دربساك إلى علم الدين صاحب عزاز . وفتح السلطان أبراج ومغارات وشقفان كثيرة حتى خلص ذلك الإقليم .

(الهدنة ورجوع السلطان عن أنطاكية وفتح الكرك وصفد وكوكب)

لما فتح السلطان بغراس عزم على التوجه إلى أنطاكية وحصرها فخاف بوهيموند صاحبها ، فأرسل يطلب الهدنة على أن يطلق كل أسير عنده من المسلمين بعد أن استشار الأمر فأشار أكثرهم فى ذلك ليرتاح الناس ويجمعوا مايحتاجون إليه ، أما السلطان فإنه أجابه وجعلت مدة الهدنة ثمانية أشهر ، ثم أرسل رسوله إلى بوهيموند ليستلم منه الأسرى وذلك فى ثانى شعبان سنة ٥٨٤ ، وعاد إلى حلب فى ثالثه ، ومنها سار إلى دمشق وفرق العساكر الشرقية كعماد الدين زنكى بن مودود صاحب سنجار ، وعسكر الموصل ، ولما هل رمضان أشير عليه بالاستراحة فى شهر الصوم ، فقال إن العمر قصير والأجل غير مأمون وقد بقى بيد الصليبيين حصن كوكب وصفد والكرك وغيرها ، ولابد من أخذها فإنها فى وسط بلاد الإسلام ولايؤمن شر أهلها ، وإن أغفلناهم ندمنا ، وكان السلطان قد جعل على الكرك من يحصره فلازموا حصاره مدة طويلة حتى فنيت أزواد أهله وذخائرهم وأكلوا دوابهم ، فراسلوا الملك العادل أخا

صلاح الدين ونائبه على هذه البلاد يبذلون تسليم القلعة إليه ويطلبون الأمان ، فأجابهم إلى ذلك وأرسل إلى مقدم العسكر المحاصرين بذلك ، فتسلم القلعة منهم وأمنهم ، وتسلم أيضاً مايقاربه من الحصون كالشوبك وهرمز والوعيرة والسلع ، وارتاح المسلمون من تلك النواحى . ثم سار السلطان فى منتصف شهر رمضان إلى قلعة صفد فحصرها وقاتلها ونصب عليها المنجنيقات وأدام الرمى ليلا ونهاراً بالحجارة والسهام وكان أهلها قد قاربت ذخائرهم وأزوادهم النفاد فى المدة التى كانوا فيها محصورين ، فخافوا من بطشه ، فأرسلوا إليه يطلبون الأمان فأمنهم ، وتسلمها منهم فخرجوا منها وساروا إلى مدينة صور .
ولما كان السلطان محاصراً صفد اجتمع من فى مدينة صور وقالوا إن فتح المسلمون قلعة صفد لم تبق كوكب وحينئذ ينقطع طمعنا من هذه البلاد ، واتفق رأيهم على إرسال نجدة إليها سراً من رجال وسلاح وغير ذلك ، فأرسلوا مائتى رجل من شجعانهم فساروا الليل مستخفين ، وأقاموا النهار مكمنين ، واتفق أن رجلا من المسلمين المحاصرين كوكب خرج للاصطياد فلقى رجلا من تلك النجدة فاستغرب وجوده بتلك الأرض فضربه ليعلمه بحاله وسبب قدومه إلى هناك ، فأقر ودله على أصحابه ، فعاد الجندى المسلم إلى قايماز النجمى وهو مقدم العسكر ، فأعلمه الخبر والإفرنجى معه فركب فى طائفة من رجاله إلى الموضع الذى اختفى الصليبيون فكبسهم ، فأخذهم على غرة وتبعهم فى الشعاب والكهوف ، فلم يفلت منهم أحد وكان معهم مقدمان من الاسبتارية (جمعية ضياف الغرباء) فحملوا إلى السلطان وهو على صفد ولما أحضر المقدمين أحضرهما ليقتلهما وكانت عادته قتل الداوية (جمعية الهيكليين) والاسبتارية لشدة عداوتهم للمسلمين وشجاعتهم قال له أحدهما : لاأظن أن ينالنا سوء ، وقد نظرنا إلى طلعتك المباركة ووجهك الصبيح ، وكان السلطان كثير العفو والاستعطاف يقبل الاعتذار فيعفوا ويصفح ، فلما سمع كلامهما لم يقتلهما وأمر بسجنهما . ثم سار إلى قلعة كوكب ونازلها وحاصرها وأرسل إلى من بها يعلمهم بأنهم إذا سلموا آمنهم واذا امتنعوا يقتلهم وينهبهم ، فلم يصغوا إليه وأصروا على الامتناع فجد فى قتالهم ونصب عليهم المنجنيقات وتابع رشقهم بالأحجار وزحف مرة بعد مرة ، وكانت الأمطار كثيرة لاتنقطع ليلا ولا نهاراً فلم يتمكن المسلمون من القتال كما يريدون وطال مقامه إلى أن زحف

إليها دفعات فى يوم واحد ، فوصلوا إلى باشورة القلعة ومعهم النقابون والرماة يحمونهم بالنشاب عن قوس اليد فلم يقدر أحد منهم أن يخرج رأسه من أعلى السور ، فنقبوا الباشورة فسقطت ، وتقدموا إلى السور الأعلى ، فلما رأى الصليبيون ذلك أذعنوا بالتسليم وطلبوا الأمان فأمنهم ، وتسلم الحصن منهم فى منتصف القعدة ، وسيرهم إلى صور فوصلوا إليها واجتمعوا بها . وكانت صور قد امتلأت بالصليبيين وأبطالهم لأن أهل جميع البلاد التى فتحت ساروا إليها ، وأرسلوا إلى أوروبا يطلبون النجدة كما تقدم فلذلك تكدر السلطان صلاح الدين لتركه صور وعدم استيلائه عليها قبل فتح القدس ، وعض بنانه ندماً وأسفاً . وسار إلى القدس وعيد فيها عيد الأضحى ومنها إلى عكا فأقام بها إلى آخر السنة .

(فى بناء استحكامات عكا وحصار شقيف أرتون)

قلنا إن السلطان أقام بعكا فى آخر سنة ٥٨٤ ، فأمر بإحضار بهاء الدين قراقوش من مصر ومعه المهندسون وطائفة البنائين ومايلزمهم لعمارة سور عكا واستحكاماتها ، فوصلوا فى شهر محرم سنة ٥٨٥ والسلطان مقيم بها ، فأقام بهاء الدين قراقوش والياً عليها ، وأمر ببناء السور أمتن بناء ، وترك معه حسام الدين بشارة ، وسار إلى دمشق فوصلها فى مستهل شهر صفر وأقام بها ، وجاءه من بغداد رسول الخليفة فأمر بالخطبة لولى العهد عدة الدين أبى الفضل نصر محمد بن الإمام الناصر ، فخطب له بذلك فى يوم الجمعة ١٣ صفر ، ثم عاد الرسول ومعه رسول من السلطان بهدايا عظيمة وأسرى من الصليبيين والصليب الذى كان على قبة االصخرة (وقيل صليب الصلبوت الذى أخذ فى واقعة حطين) وتاج ملك القدس . وفى يوم الجمعة الثالث من ربيع الأول ، خرج السلطان من دمشق ، فسار حتى نزل فى مرج فلوس ، ونزل فى صباح يوم السبت رابع شهره فى مرج برغوث ، فأقام به والعساكر تتابع إلى الحادى عشر ورحل إلى بانياس ومنها إلى مرج عيون ، فخيم به وهو قريب من شقيف أرتون ، فكان يركب كل يوم يشارفه ويعود والعساكر تجتمع وتطلبه من كل صوب ، فخاف صاحب الحصن من كثرة العساكر ، وعلم أن لاقدرة له عليها ، فرأى بأن الصلح مع السلطان هو أسلم طريق إلى سلامته فنزل بنفسه إلى باب خيمة السلطان ، وطلب الإذن فى الدخول فأذن له فدخل فاحترمه السلطان وأكرمه ،

وكان يعرف العربية وعنده اطلاع على شيء من التواريخ والأحاديث ، وكان عنده مسلم يقرأ له ويفهمه وأكل مع السلطان الطعام ثم خلا به وذكر أنه تحت طاعته وأن يسلم إليه الحصن من غير تعب ، وطلب أن يعطى موضعا لسكنه في دمشق لأنه لايقدر بعد ذلك على مشاكنة الإفرنج وأقطاعا بدمشق تقوم به وبأهله ، وأن يفتح له مدة ثلاثة شهور ليظل فى حصنه ويتمكن من تخليص أهله وجماعته من صور ، ويأخذ غلة هذه السنة ، فأجيب إلى ذلك كله وأقام يتردد إلى خدمة السلطان فى كل وقت ويناظر المسلمين فى صحة دينه ويناظرونه فى بطلانه ، وكان حسن المحاورة متأدباً فى حديثه ، ثم ظهر أن جميع ذلك مخادعة منه لطول الوقت وظهر على ذلك دلائل كثيرة فى تحصيل الميرة وإتقان الأبواب ، فرأى السلطان أن يصعد إلى سطح الجبل ليقرب من المكان ويمنع كل نجدة وميرة تأتيه ، وأظهر أن ذلك فراراً من وخم المرج فنزل صاحبه وسأل أن يمهل تمام سنة فماطله السلطان وقال نفكر فى ذلك ونأخذ رأى الجماعة ثم وكل به من حيث لايشعر ، فانكشفت سريرته الغادرة فقبض عليه السلطان وطلب تسليم الحصن ، فقال أنا أنفذ إلى نوابى فى التسليم وكان قد أوصاهم بما يفعلونه فقالوا لانسلم ويبقى عندكم مكانه فقيدوه وحملوه إلى قلعة بانياس ثم أحضره السلطان في سادس رجب وهدده وتوعده فلم يفد فأمر بسجنه فى دمشق وعين بعض الأمراء لحصار الحصن صيفاً وشتاء .

(مناوشات بين الصليبيين وعساكر المسلمين)

فلما امتلأت مدينة صور بالصليبيين الذين أتوها من جميع البلاد التى فتحها المسلمون ، ولما وجدوا كثرتهم ، اتفقوا جميعاً على مهاجمة المسلمين ، فخرجوا وعسكروا على باب صور ، وبينما كان السلطان فى مرج عيون محاصراً شقيف ارتون يوم الاثنين سابع عشر جمادى الأولى سنة ٥٨٥ ، بلغه من اليزك أن الصليبيين قد قطعوا الجسر الفاصل بين أرض صور وأرض صيدا ، وهى الأرض التى عليها السلطان فركب نحو اليزك ، وكان جماعة من الصليبيين قد عبروا الجسر ، فنهض إليهم يزك الإسلام وكانوا فى عدة وقوة فقاتلوهم وقتلوا منهم خلقاً كثيراً ، جرحوا أضعاف ماقتلوا ، ورموا فى النهر جماعة فغرقوا ، ولم يقتل من المسلمين إلا مملوك للسلطان يعرف بأبيك الأخرش ،

وكان شجاعا باسلا مجرباً للحرب ممارساً له ، جمح به فرسه ، فلجأ إلى صخرة فقاتل بالنشاب حتى فنى نشابه ثم بالسيف حتى قتل جماعة ثم تكاثروا عليه فقتلوه ، وفي يوم الأربعاء تاسع عشر من ذاك الشهر ، ركب السلطان كي يشرف على القوم على عادته ، فتبع العسكر خلق عظيم من الرجالة والغزاة والسوقة ، فأمرهم بالرجوع فلم يفعلوا ، وخاف عليه لأن المكان حرج وليس للراجل فيه ملجأ ، ثم اندفع الرجالة على الجسر وناوشوا العدو القتال وعبر منهم جماعة إليهم ، وجرى بينهم قتال شديد واجتمع عليهم من الصليبيين خلق عظيم ، لأنهم علموا أن ليس وراءهم كمين ، فحملوا عليهم حملة واحدة على غرة من السلطان لأنه كان بعيداً عنهم ، ولم يكن معه عسكر لأنه لم يخرج للقتال ، وإنما ركب مستشرفاً عليهم على عادته ، ولما بانت له الواقعة وظهر له غبارها بعث إليهم من كان معه ليردوهم فوجدوا الأمر قد فرط والصليبيون قد تكاثروا حتى خافت منهم السرية التى بعثها السلطان ، وظفر الصليبيون بالرجالة ظفراً عظيماً ، وأسروا جماعة وعد من قتل من الرجالة فكان ١٨٠ فى ذلك اليوم وقتل من الصليبيين عدد عظيم وغرق أيضاً منهم كثيرون ، وكانت هذه الواقعة لم يتفق للصليبيين مثلها ، ولما رأى السلطان ماحل بالمسلمين فى هذه الواقعة النادرة جمع أصحابه وشاورهم وقرر معهم أن يهجم على الصليبيين ويعبر الجسر ويقاتلهم ويستأصل شأفتهم ، وكانوا قد رحلوا عن صور ، ونزلوا قريباً من الجسر ، وبين الجسر وصور فرسخ وزيادة ، فلما صمم على ذلك ، رحل الصليبيون عائدين إلى صور . ملتجئين إلى سورها ، فرأى أن يسير إلى عكا ليلاحظ مابنى من سورها ويحث على الباقى ، فسار على تبنين ولم يرجع على مرج عيون ، فمضى إلى عكا ورتب أحوالها وعاد إلى العسكر بمرج عيون منتظراً مهلة صاحب الثقيف ، ولما كان يوم السبت سادس جمادى الأخرى ، بلغه أن جماعة من رجالة العدو يخرجون إلى جبل تبنين فيحتطبون ووراءهم من الفرسان من يحفظهم ، فأرسل إلى عسكر تبنين أن يخرج منهم نفر يسير إلى أولئك المحتطبين ، فإذا تبعتهم خيل العدو ينهزمون إلى جهة عينها لهم ، وأن يكون ذلك فى صبيحة يوم الاثنين ٨ منه ، وأرسل إلى عسكر عكا أن يسير حتى يكون وراء عسكر الصليبيين حتى إذا تحركوا فى نصرة أصحابهم قصدوا خيمهم ، وركب هو وعسكره إلى الجهة التى عينها لهزيمة عسكر تبنين

ورتب عسكره ثمانية أطلاب ، واستخرج من كل طلب عشرين فارساً ، وأمرهم أن يتراءوا للعدو حتى يخرج إليهم ويناوشهم فيهربون من وجهه حتى يصلوا إلى الكمين ففعلوا ، وخرج إليهم من الصليبيين معظم عسكرهم وجرى بينهم وبين هذه السرية اليسيرة قتال شديد والتزمت السرية القتال وأنفت من الانهزام وحملتها الحمية على مخالفة السلطان ، واتصل الخبر بالسلطان فى أواخر الأمر وقد هجم الليل فبعث بعوثا كثيرة فعاد الصليبيون ناكصين على أعقابهم . ومن نوادر هذه الواقعة أن مملوكا للسلطان اسمه أيبك الساقى وقع عن فرسه فجلس على صخرة وأخذ قوسه بيده وحمى نفسه ، وجعلوا يرمونه بسهام الزنبورك وهو يرميهم ، فجرح منهم عدة وجرحوه جراحات كثيرة فسقط فأتوه وهو على آخر رمق فظنوه ميتاً فتركوه وانصرفوا عنه ، ثم إن المسلمين جاءوا فى صباح يوم الثلاثاء ٩ منه إلى موضعهم ، فرأوا القتلى ورأوا المملوك حياً فحملوه فى كساء وهى لايعى شيئاً فيئسوا من حياته فعرضوا عليه الشهادة وتركوه وعادوا إليه فرأوه قد قويت نفسه فأقبلوا عليه بمشروب فعوفى وكان بعد ذلك لايحضر موقعة إلا كان له فيها أثر عظيم ، ثم عاد السلطان إلى مخيمه فى يوم الأربعاء ١٠ منه .

(محاصرة الصليبيين عكا ومحاربتهم ومصارعة الصبيان)

لما كان السلطان على حصن الشقيف ، بلغه أن الصليبيين خرجوا بجمعهم من مدينة صور ، وساروا قاصدين عكا بقيادة ملكهم غوى الذى كان أسيراً وأطلق سراحه السلطان فلم ير المسارعة بالمسير إلى عكا خوفا من أن يكون قصدهم ترحيله عن الشقيف فأقام مستكشفاً للحال إلى يوم الأحد ثانى عشر رجب سنة ٥٨٥ فوصل رسول يقول إن الصليبيين رحلوا ونزلوا عين بصه ووصل أوائلهم إلى الزيب فعظم عنده ذلك وكتب إلى سائر أرباب الأطراف بالمسير إليه وسار السلطان بالثقل (عموم الجيش) ليلا وأصبح يوم الاثنين ١٣ منه سائراً إلى عكا على طريق طبرية إذ لم تكن طريق أخرى تسع العسكر وسير جماعة على طريق تبنين يستشرفون العدو ويواصلونه بأخباره وظل مواصلا الزحف حتى أتى الجولة فى منتصف النهار فنزل فيها ساعة ثم رحل وصار طول الليل حتى أتى موضعا يقال له المنية صباح الثلاثاء وفيه بلغه خبر نزول الصليبيين على عكا

فأرسل صاحب الشقيف إلى دمشق ليسجن فيها وسار السلطان بجرّيدة من المنية حتى تقابل ببقية العسكر الذى كان قد أرسله بطريق تبنين بمرج صفورية الذى واعدهم إليه وأمر الثقل أن يلحقه إلى مرج صفورية ولم يزل سائرا حتى شارف العدو من الخروبة وبعث بعض العسكر فدخل عكا على غرة من العدو تقوية لمن فيها ولم يزل يبعث إليها بعثاً بعد بعث حتى اجتمع فيها خلق كثير وسار من الخروبة إلى تل كيسان في أوائل مرج عكا فنزل عليه وأمر الناس أن ينزلوا على التعبية فكان في آخر الميسرة على طرف النهر الحلو وآخر الميمنة بالقرب من تل العياضية واختلط العسكر الإسلامى بالعدو وأخذوا عليهم الطرق من سائر الجوانب وتلاحقت العساكر الإسلامية واجتمعت ورتب اليزك الدائم وحصر العدو في خيامه بحيث لا يخرج منها أحد إلا يجرح أو يقتل وكان عسكر الصليبيين على شطر من عكا وخيمة ملكهم على تل المصلبين قريباً من باب البلد وعدد فرسانهم ألفان وعدد راجلهم ثلاثون ألفاً وكان المدد يأتيهم من البحر خصوصاً ممن أتاهم من طائفتى الفريزيين والدانيين وعددهم اثنا عشر ألف أتاهم من الإنكليز والفلامنديين وكان مقدمهم رئيس أساقفة كأنطون بازى ويعقوب دى أفسناس الفلامندى وجرى بينهم وبين اليزك مقاتلات عظيمة ومتواترة والمسلمون يتهافتون على قتالهم والسلطان يمنعهم من ذلك إلى وقته ثم وصل تقى الدين من حماه ومظفر الدين بن زين الدين واستفحل أمر الصليبيين فاستداروا بالبلد فى آخر شهر رجب ومنعوا الناس من الدخول والخروج إليها فعظم على السلطان ذلك وضاق صدره وثارت همته العالية فى فتح الطريق إلى عكا لتستمر وصول الميرة والنجدة إليها فباكرهم في أول شعبان وضايقهم مضايقة شديدة فكانت الحملة بعد صلاة الجمعة وانتشر عسكر الصليبيين إلى أن ملكوا التلول وكانت ميسرة عسكرهم إلى البحر الحلو ممتدة إلى البحر المالح وميمنتهم قبالة القامة الوسطى التي لعكا واتصلت الحرب إلى أن حال بين الفئتين هجوم الليل وبات الناس على حالهم من الجانبين شاكين السلاح تحرس كل طائفة نفسها من الأخرى وأصبحوا يوم السبت ثانى شعبان على القتال وأنفذ السلطان طائفة من شجعان المسلمين إلى البحر من شمالى عكا ولم يكن هناك للصليبيين خيم لكن عسكره كان قد امتد جريدة شمالى عكا إلى البحر فحمل شجعان المسلمين على عسكر الصليبيين الواقف شمالى عكا

فانكسروا كسرة عظيمة وقتلوا منهم جمعاً كبيراً والتفت السالمون منهم إلى خيامهم وهجم المسلمون خلفهم إلى أوائل خيامهم ووقف اليزك الإسلامي مانعاً من أن يخرج من عسكرهم خارج أو يدخل إليه داخل وانفتح الطريق إلى عكا من باب القلعة المسماة بقلعة الملك إلى باب قراقوش الذي جدده وصار الطريق آمناً واليزك بين الطريق وبين العدو ودخل السلطان في ذلك اليوم عكا ورقي على السور ونظر إلى عسكر الصليبيين . وتراجع الناس عن القتال بعد صلاة الظهر لسقيا الدواب والاستراحة ولم يعودوا إلى القتال وفي صباح الأحد ثالثة رأى بعض الأمراء تأخير القتال إلى أن يدخل الجيش الراجل كله إلى عكا ويخرجوا مع العسكر المقيم بها من أبواب البلد على العدو ومن ورائه وتركب العساكر من خارج من سائر النواحي ويحملون حملة الرجل الواحد ، وكان السلطان يعاين هذه الأمور كلها بنفسه ، ويلاحظها بذاته ، لايتخلف عن مقام من هذه المقامات ، وهو من شدة حرصه ووفر همته كالوالدة الثكلى . وقال أحد أطبائه إنه بقى من يوم الجمعة إلى يوم الأحد لم يتناول من الغذاء إلا شيئاً يسيراً لفرط اهتمامه ، وفعلوا ماكانوا قد عزموا عليه واشتدت منعة العدو وحمى نفسه في خيامه ، ولم تزل سوق الحرب قائمة تباع فيها النفوس وتمطر سماء حربها الرؤوس من كل رئيس ومرؤوس حتى كان يوم الجمعة ثامنة . فعزم الصليبيون على الخروج بجموعهم ، فخرج راجلهم وفارسهم ، وامتدوا على التلول ، وساروا الهوينا غير مفرطين في نفوسهم ولاخارجين من راجلهم والرجالة حولهم كالسور المبنى يتلو بعضهم بعضا حتى قاربوا خيام اليزك ، فصاح السلطان بالعساكر الإسلامية فركبوا بأجمعهم وحملوا حملة الرجل الواحد ، فعاد الصليبيون ناكصين على عقبهم والسيف يعمل فيهم ، فالسالم منهم جريح والعاطب طريح يشتدون هزيمة فيعثر جريحهم بقتيلهم حتى لحق خيامهم من سلم منهم ، وكفوا عن القتال أياماً ، وكان قصاراهم أن يحفظوا نفوسهم . واستمر فتح طريق عكا والمسلمون يترددون إليها . ثم رأى السلطات توسيع الدائرة عليهم لعلهم يخرجون إلى مصارعهم ، فنقل الثقل إلى تل العياضية ، وهو تل قبالة تل المصلبين مشرف على عكا وخيام العدو . ثم بلغ السلطان أن جماعة من الصليبيين تخرج للاحتشاش من طرف النهر مما ينبت عليه ، فأمر السلطان بأن يكمن لهم جماعة من العرب وقصد العرب لخفتهم على

خيلهم فهجموا عليهم وقتلوا منهم خلقاً عظيما وأسروا جماعة وأحضروا الرؤوس بين يديه ، وذلك يوم السبت تاسع عشرة وفى مساء ذلك اليوم كانت حرب شديدة بين أهل البلد والصليبيين قتل فيه جمع عظيم من الطائفتين ، وطال الأمر بين الفئتين ولايخلو يوم عن قتال وأنس البعض بالبعض حتى أن الطائفتين كانتا تتحدثان معاً ويتركان القتال ، ثم يرجعون إلى القتال بعد ساعة ، وسئموا يوماً ، فقالوا إلى كم يتقاتل الكبار وليس للصغار حظ تريدان يصطرع صبيان ، صبى منا وصبى منكم ، فأخرج صبيان من البلد إلى صبيين من الإفرنج فوثب أحد الصبيين المسلمين على أحد الصبيين الإفرنج فاحتضنه وضرب به الأرض وأخذه أسيراً ، فاشتراه منه بعض الصليبيين بدينارين ، وقالوا هو أسيرك حقاً فأخذ الدينارين وأطلقه .

(ورود المدد للصليبيين وواقعة عكا الكبرى)

ومازالت الأمداد تتوالى على الصليبيين من البحر مع المراكب من بلاد البندقية وبيزا وجنوى ، وكذلك عدد وافر من العساكر الفرنساوية الإيطالية والنمساوية والإنكليزية ، واتحدوا مع الصليبيين الآخرين ، وكان يوجد بين الصليبيين الجدد ، أساقفه ورؤساء كنائسيون وأمراء ودوكات مثل كونت دى فرارا وانسلموس أمير المونت راله ، وقيس كونت دى شاطالا روتل وحاكم برغاس مع رئيس أساقفة بيزا وأرملة ملك الدانيمرك وصحبتها ٤٠٠ عسكرى . وغوى دى دامبيرا وأسقف نيرونا وصلا مع بعض عساكر رومانية ، وجمعوا جميع جنودهم وأعلامهم الى جنود الصليبيين الذين كانوا برئاسة غوى (الذى كان أسيراً) يحاصرون عكا حتى أصبح جيش الصليبيين نيفاً ومائة ألف مقاتل ، ثم قر رأيهم على مقاتلة المسلمين قتالا شديداً ، فرتبوا صفوفهم كما يأتى فالملك غوى تقدم على العساكر الفرنساوية على خيالة الاسبتارية (جمعية ضياف الغرباء) وأمامه أربعة فرسان حاملون بشائر الإنجيل المقدس والشاب كونراد صاحب صور ترأس جنود البندقية ولومبارديا وأهل صور ، ولاندغرافا دى طورينجا ترأس العساكر النمساوية والبيزاوية والإنكليزية فى وسط الحرب . والدوك دى غوالدار قاد عساكره وفرسان الداوية (جمعية الهيكليين) ، وأقاموا الحفر منهم ورؤساء كنائس رافينا ، وبيزا ، وبيزانصون ، وكانطورباری ،

وبوفيس ، وغاميراى ، وغيرهم تسلحوا بالخوذ والزرديات . وفى يوم الأربعاء الحادى والعشرين من شهر شعبان سنة ٥٨٥ تحرك الصليبيون ، فأمر السلطان صلاح الدين أن ينادى فى الناس : ياللإسلام ، فركبوا وكان السلطان قد أنزل الجند فى الخيم ميمنة وميسرة وقلباً على تعبئة الحرب حتى إذا وقعت صيحة لايحتاجون إلى ترتيب جديد . وكان هو فى القلب ، وفى ميمنة القلب ولده الأفضل ثم ولده الظافر ثم عسكر الموصل ، يتقدمهم ظهر الدين بن البكنكرى ، ثم عسكر ديار بكر وعليه قطب الدين صاحب الحصن ، ثم حسام الدين عمر بن لاجين صاحب نابلس ، ثم قايماز النجمى ، وجموع عظيمة تتصل بطرف الميمنة ويليها الملك المظفر تقى الدين بجحفله وعسكره وهو مطل على البحر ، وأما أوائل الميسرة فكان مما يلى القلب سيف الدين على بن أحمد المشطوب من كبار ملوك الأكراد ، والأمير مجلى ، وجماعة المهرانية ، والهكاربة ، ومجاهد الدين برتقش مقدم عسكر سنجار ، وجماعة من المماليك ، ثم مظفر الدين بن زين الدين وعسكره ، وأواخر الميسرة كبار المماليك الأسدية كسيف الدين يازكوج ورسلان بغا ، وجماعة الأسدية الذين يضرب بهم المثل ، وكان فى مقدمة القلب الفقيه عيسى ، والسلطان يطوف على الأطلاب بنفسه يحثهم على القتال ، ويدعوهم إلى النزال ، ولم يزل القوم يتقدمون ، والمسلمون يقدمون حتى علا النهار ، ومضى منه أربع ساعات ، وعند ذلك تحركت ميسرة العدو على ميمنة المسلمين ، وأخرج لهم تقى الدين الجاليش ، وجرى قلبات كثيرة ، وتكاثروا على تقى الدين . وكان فى طرف الميمنة على البحر ، فتراجع عنهم شيئاً إطماعاً لهم لعلهم ينفصلون عن أصحابهم ، فينال منهم غرضه ، فلما رآه السلطان قد تأخر ، ظن به ضعفاً فأمده بأطلاب من القلب حتى قوى جانبه ، وتراجعت ميسرة العدو ، واجتمعت على تل مشرف على البحر . ولما رأى الذين فى قلب معسكر الصليبيين ضعف من فى قلب المسلمين ، ومن خرج منه من الأطلاب ، داخلهم الطمع ، وتحركوا نحو ميمنة القلب ، وحملوا حملة الرجل الواحد راجلهم وفارسهم على عسكر ديار بكر ، فانكسروا كسرة عظيمة . وسرى الأمر حتى انكسر معظم الميمنة ، واتبع العدو المنهزمين إلى العياضية ، لأنهم استداروا حول التل ، وصعدت طائفة من الصليبيين إلى خيم السلطان ، فقتلوا طشت دارا ، وإسماعيل المكبس ، وابن رواحة ، وأما الميسرة

فإنها ثبتت ، وأما السلطان فإنه أخذ يطوف على الأطلاب ينهضهم ، ويوعدهم ، ويحثهم على الجهاد ، وينادى فيهم « ياللإسلام » . ولم يبق غير خمسة رجال معه ، وهو يطوف ويتخرق الصفوف ، وآوى إلى تحت التل الذى كانت عليه الخيام . أما المنهز مون من العسكر فبلغت هزيمتهم إلى الأقحوانة وراء جسر طبرية ، وألحقهم الصليبيون إلى العياضية فقط ، حتى إذا مارأوهم قد صعدوا الجبل ، رجعوا عنهم إلى عسكرهم ، فلقيهم جماعة من الغلمان والخر بندية والساسة ، فقتلوا منهم جماعة ، ثم جاءوا على رأس السوق ، فقتلوا جماعة ، وقتل منهم جماعة ، وأما الذين صعدوا الخيم ، فلم يقتلوا غير الثلاثة المذكورين ، ثم رأوا ميسرة الإسلام ثابتة ، فعلموا أن الكسرة لم تتم ، فعادوا منحدرين من التل يطلبون عسكرهم ، والسلطان واقف تحت التل يجمع الناس ، ليعودوا إلى الحملة على العدو ، فلما رأى الصليبيين نازلين على التل ، أراد رجاله لقاءهم ، فأمرهم بالصبر إلى أن ولوا ظهورهم ، وأسرعوا يطلبون أصحابهم ، فصاح فى الناس ، فحملوا عليهم ، وقتلوا منهم جماعة ، واشتد الطمع فيهم ، وتكاثر الناس وراءهم ، حتى لحقوا أصحابهم ، والطرد وراءهم ، فلما رأوا الصليبيين منهزمين ، والمسلمون خلفهم فى عدد كثير ، ظنوا أن من حمل منهم قد قتل ، وأنه إنما نجا منهم هذا النفر فقط ، وأن الهزيمة قد عادت عليهم ، فاشتدوا فى الهرب والهزيمة ، وتحركت الميسرة عليهم . وعاد الملك المظفر بجمعه من الميمنة ، وتحايا الرجال ، وتداعت وتراجعت الناس من كل جانب ، وظل المسلمون ينقلون ويضربون إلى أن وصل المنهزمون إلى معسكرهم ، فهجم المسلمون عليهم فى الخيام ، فخرج منهم أطلاب – كانوا عدوها – خشية من هذا الأمر – مستريحة ، فردوا المسلمين ، وكان التعب قد أخذهم ، والعرق قد ألجمهم ، فتراجعوا عنهم بعد صلاة العصر ، يخوضون فى القتلى ودمائهم فرحين مسرورين ، وعاد السلطان وجلس ، وحصروا من قتل منهم من الغلمان والمجهولين ١٥٠ نفراً ، ومن المعروفين استشهد : ظهر الدين أخو الفقيه عيسى ، والأمير مجلى بن مروان ، والحاجب خليل الهكارى . ومن قتل من الصليبيين بلغ سبعة آلاف ، وقيل أقل . فى أثناء هزيمة المسلمين ، رأت الغلمان خلو الخيام من معارض . لأن العسكر انقسم قسمين : منهزم ومقاتل ، ولم يبق فى الخيم أحد ، فظنوا أن الكسرة تتم على المسلمين ، وأن العدو

سينهب جميع مافى الخيم ، فأسرعوا هم فى نهب جميع مافيها ، فلما عاد السلطان إلى الخيم ، ورأى ماحصل . سارع فى إرسال الكتب والرسل برد المنهزمين ، وتتبع من شذ من العسكر ، فردهم وأخبرهم بانتصار المسلمين ، وأمر السلطان بجمع الأقمشة من أكف الغلمان ، فجمعوا ذلك حتى المخالى أمامه ، فأمر بأن كل من يعرف له شيئاً ، وحلف عليه يسلم له ، أما الصليبيون فإنهم عادوا إلى خيمهم وقد قتلت شجعانهم ، وقتل مقدموهم . وأمر السلطان بإخراج عربيات من عكا ، ليحملوا القتلى ، ويرموهم فى النهر ، ثم جمع رؤساء جيوشه ، واستشارهم فيما يفعل ، وهل يناجز العدو أم لا ؟ فقالوا جميعاً : الأوفق أن ننتظر قدوم الملك العادل نشركه فى الرأى . فوافقهم على ذلك . وأشير على السلطان بالانتقال إلى الخروبة ، فسار إليها رابع رمضان ، وأمر بإغلاق أبواب عكا ، فوجد الصليبيون بذلك فرجالهم ، وشرعوا فى حفر خندق على معسكرهم حوالى عكا من البحر إلى البحر ، وأخرجوا ماكان فى مراكبهم من آلات الحفر ، وعملوا حولهم سوراً من تراب حفر الخندق ، فكان معسكرهم كأنه بلد ، ورتبوا على سورهم رجالا لحفظه . وكان الذى أوجب رحيل السلطان من هذا الموضع : هو فساد الهواء بدم المقتولين ، ونتانة الرائحة .

(وصول العساكر المصرية والأسطول المصرى وهجوم الصليبيين على اليزك)

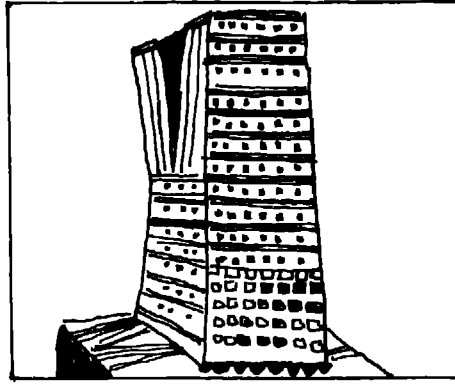
فى منتصف شهر شوال سنة ٥٨٥ ، وصلت العساكر المصرية ومقدمها الملك العادل سيف الدين أبو بكر بن أيوب ، فلما وصل قويت النفوس به وبمن معه ، واشتدت ظهورهم ، وأحضر معه من آلات الحصار ومن الدرق والضارقيات والنشاب والأقواس شيئاً كثيراً . وفى منتصف شهر القعدة وصل الأسطول المصرى بقيادة حسام الدين لؤلؤ فجأة على مراكب الصليبيين ، فبغتها وسحقها وبددها ، وظفر ببطستين كبيرتين بما فيهما من أموالهم ورجالهم وغلالهم ، وكان عدد مراكب الأسطول خمسين مركباً ، فيها زهاء عشرة آلاف مقاتل . وأرسل السلطان إلى عكا فى المراكب جماعة من الأمراء بأجنادهم وأزوادهم ، فاستظهر بهم من البلد وبالأسطول ، وحمدوا الله ، وأخذت

العساكر الإسلامية تخرج إلى العدو ليلا ، وتذيقه مرارة القتل والأسر والسرقة ، وكانوا يختفون بالحشيش فى أجراف الأنهار ، ليفتكوا بمن يرد الماء . وقد أرسل صاحب الموصل إلى السلطان من أحمال النفط الأبيض شيئاً كثيراً – مع عزة وجودة – ومن التروس والرماح من كل جنس أحكمه وأجوده . وأقام السلطان بموضعه بالخروبة مدة الشتاء ، وكان يزكه وطلائعه لاتنقطع عن الصليبيين ، فلما هل شهر صفر سنة ٥٨٦ سمع الصليبيون بأن صلاح الدين قد سار للصيد ، ورأوا العسكر الذين فى اليزك قليلا ، وأن الأوحال التى فى مرج عكا كثيرة . تمنع من سلوك من يريد أن ينجد اليزك ، فاغتنموا الفرصة ، وخرجوا من خندقهم على اليزك وقت العصر ، فقاتلهم المسلمون ، وحموا أنفسهم بالنشاب حتى فنى نشابهم ، فحملوا عليهم حينئذ حملة رجل واحد ، فاشتد القتال ، وعظم الأمر ، وعلم المسلمون أنه لاينجيهم إلا الصبر ، وصدق القتال ، فقاتلوا قتال مستقل إلى أن جاء الليل ، وقتل من الفريقين جمع كثير ، وعاد الصليبيون إلى خنادقهم . ولما عاد السلطان إلى المعسكر بلغه الخبر ، فندب الناس إلى نصرة إخوانهم ، فأتاه الخبر أن الصليبيين قد وصلوا مأمنهم .



(إحراق أبراج الصليبيين وواقعة الأسطول)

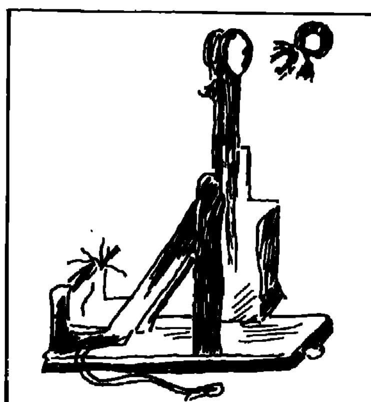
كان الصليبيون مدة مقامهم على عكا قد عملوا ثلاثة ابراج من الخشب عالية جداً ، طول كل برج منها ستون ذراعا ، وعملوا كل برج منها خمس طبقات ، وكل طبقة مملوءة بالمقاتلة ، وغشوها بالجلود المدهونة بالخل ، وعالجوها بما يمنع النار من إحراقها ، وأصلحوا الطرق لها ، وعملوها بعجل . لأجل جرها وتسييرها إلى حيث شاءوا .



(صورة برج حصار ذو طبقات)

وشرعوا فى طم خندقها وزحفوا بها فى ٢٠ ربيع أول سنة ٥٨٦ فأشرفت على السور . وقاتل من بها من عليه ، وانكشف من بالبلد ، وأشرفت البلد على الهلاك ، وكان السلطان لما وجد البلد محصورة ، رغب بعض الناس فى السباحة ، ودخول الميناء، فكانوا واسطة فى المفاوضة بينه وبين البلد ، فأرسل أهلها أحد العوامين إلى السلطان ، وأخبروه بتلك الأبراج وبضررها وأنها إذا استمرت أخذ العدو البلد عنوة ، فركب مسرعاً بعسكره ، وتقدم إلى الصليبيين ، وقاتلهم من جميع جهاتهم قتالا عظيما دائماً يشغلهم عن أهل البلد ، فافترق الصليبيون فرقتين : فرقة تقاتل السلطان ، وفرقة تقاتل أهل عكا . ولكن خف الأمر عنهم ، ودام القتال ثمانية أيام متتابعة : آخرها ٢٨ منه ، وسئم الفريقان القتال ، وملوا منه لملازمته ليلا ونهاراً . والمسلمون تيقنوا من استيلاء العدو على البلد ، لما رأوا من عجز من فيه عن دفع الأبراج ، لأنهم لم يتركوا حيلة

إلا عملوها ، ولم يفدهم ذلك شيئاً . وتابعوا رمى النفط الطيار عليها ، فلم يؤثر فيها . فمن ألطاف الله بهم أن شخصاً من أهل دمشق اسمه على بن شيخ النحاسين كان فى عكا وهو مولع بجمع آلات النفاطين وإيجاد عقاقير تقوى عمل النار . فلما رأى تلك الأبراج ، ومافعلته بأهل المدينة . شرع فى عمل مايعرفه من تلك الأدوية المقوية للنار ، ولما فرغ منها حضر إلى الأمير بهاء الدين قراقوش حاكم البلد ، وقال له : أن يأمر المنجنيقى أن يرمى بالمنجانيق المحاذى لأحد هذه الأبراج ماأعطيه لكى يحرقه ، وكان عند قراقوش من الغيظ والخوف على البلد ، ومن فيه مايكاد يقتله ، فازداد غيظاً بقوله ، وقال له : قد بالغ أهل هذه الصناعة فى الرمى بالنفط فلم يفلحوا ، فقال له من حضر : لعل الله جعل الفرج على يد هذا ، ولايضرنا إذا وافقناه على كلامه ، فأجابه إلى ذلك .



(صورة آلة لرمى قارورة النفط)

وأمر المنجنيقى بامتثال أمره ، فرمى عدة قدور خالية من النفط ، والصليبيون إذا رأوا القدور لاتحرق شيئاً يفرحون . ويرقصون ، ويلعبون على سطح البرج — حتى علم أن الذى ألقاه قد تمكن من البرج ، ألقى قدرة مملوءة وجعل فيها النار ، فاشتعل البرج ، ورمى ثانية وثالثة ، فاضطرمت النيران فى نواحى البرج فاحترق بما فيه من السلاح والزرديات ، وكان شيئاً كثيراً . وكان الصليبيون قد استهانوا أمر القدور الأولى ، لأنها لم تفعل شيئاً ، فاطمأنوا ، وتركوا السعى

في الخلاص . ولما احترق البرج الأول انتقل إلى البرج الثاني وقد هرب من فيه خوفاً فأحرقه . وكذلك الثالث ، وكان ذلك يوما مشهوداً . ولم ير الناس مثله ، والمسلمون ينظرون فرحين ، وقد أبرقت وجوههم بعد الكآبة فرحاً بالنصر ، وخلاصهم من القتل . وحمل ذلك الرجل إلى صلاح الدين ، فبذل له الأموال الجزيلة ، والأقطاع الكثيرة ، فلم يقبل منه شيئاً ، وقال : أنا عملت ذلك لوجه الله تعالى ، ولاأريد الجزاء إلا منه . وأرسل السلطان بطلب العساكر الشرقية ، فأول من أتاه : عماد الدين زنكى ، وهو صاحب سنجار وديار الجزيرة ثم أتاه علاء الدين بن عز الدين مسعود، سيره أبوه مقدما على عسكره وهو صاحب الموصل ، ثم وصل زين الدين يوسف صاحب أربل ، وكان كل منهم إذا وصل يتقدم إلى الصليبيين ، ويقاتلهم ، ثم ينضم الى الآخرين . ووصل الأسطول من مصر ، فلما سمع الصليبيون بقربه جهزوا أسطولا ليلقاه فى طريقه ، ويقاتله . فركب صلاح الدين فى العساكر جميعها ، وقاتلهم من كل جهة ، ليشتغلوا بقتاله عن قتال الأسطول ، فيتمكن من دخول عكا ، فلم يشتغلوا وخرج أسطولهم ، وكانت الناس خرجت على جانب البحر تقوية للأسطول ، وإيناساً له ولرجاله ، والتقى الأسطولان فى البحر ، والعسكران فى البر ، واضطرمت نار الحرب ، واستعرت وباع كل فريق روحه وجرى قتال شديد أقشع عن نصرة الأسطول المصرى بعد أخذ مركب منه ، وقتل من بأسطول الصليبيين ، ونهب مافيه ، وأخذ منه مركباً أيضاً . ودخل الأسطول المصرى المنصور إلى عكا ، وكان قد صحبته مراكب من الساحل ، فيها مير وذخائر ، وطابت قلوب أهل البلد بذلك ، وانشرحت صدورهم ، واتصل القتال بين العسكرين خارج البلد ، إلى أن فصل بينهما الليل ، وعاد كل فريق إلى خيمه ، وقتل من الصليبيين فى هذا اليوم كثيرون ، لأن أهل البلد اشتدوا فى قتالهم . والأسطول وعساكر السلطان ، فكان قتال الصليبيين فى ثلاثة مواضع .

(الحروب الصليبية الثالثة)

سفر ملك النمسا وألمانيا إلى فلسطين وماجرى له ووفاته

ثم أقام الملك فريدريكوس عوضاً فى تدبير المملكة مدة غيابه عنها : ولده هنريكوس ، وسافر من راتيسبونا بعسكره مجتازاً بلاد هونكريا ثم بلغاريا ، حيث

لاقت العساكر النمساوية موانع وإهانات كثيرة من سكانها فكان كل من كان يقع فى أيديهم يعذبونه ويربطونه من رجله فى الشجر منكساً . وكان جالساً على تخت القسطنطينية الملك إسحق ، فلما بلغه قدوم العساكر النمساوية ، أرسل إلى السلطان صلاح الدين يخبره بذلك ، ووعده بمنعهم من العبور ، وأمر عساكره بمحاربة النمساويين ، فلما وصل الملك فريدريكوس إلى المدينة فيلبوبولى تحقق أن وفده الذى أرسله إلى ملك الروم مسجون بالقسطنطينية ، وكان يظن ملك الروم صديقاً له ، فوجده عدواً ، فغضب ، وأخذ يحارب جميع المدن التى يجتازها حتى أنه امتلك المدن الآتية : إدريانوبولى ، ديديموتيك ، سيليفريا ، غالبيولى : وسائر السهول الواقعة على شاطىء بوربونديا الأيمن ، مع هاليسبونت ، وكادت تقع مدينة القسطنطينية فى يده . وكانت العساكر المقبلة من بلاد البندقية ومن إنكونا ومن جنوى بمراكبهم قد علمت بما جرى للعساكر الصليبية النمساوية ، فعزموا على ضرب مدينة القسطنطينية من البحر . فحينئذ خاف الملك إسحاق (ملك الروم) من هذه الجيوش ، فأطلق سراح وفد ملك النمسا ، وقدم الذخائر للصليبيين ، وهيأ لهم ١٥٠٠ مركب ، و ٢٦ غلياطه لأجل نزول العساكر النمساوية فيها ، ونقلهم إلى موانى آسيا . ولما نزلوا بأراضى آسيا الصغرى مارين بمملكة قليج أرسلان بن مسعود ابن قليج أرسلان ، ثاربهم التركمان ، وظلوا يترصدونهم ، ويقتلون من انفرد منهم ، وكان الزمن شتاء ، وقد أهلكهم البرد . فلما قربوا من مدينة قونية ، خرج إليهم الملك قطب الدين ملك شاه ابن قليج ارسلان ، وحاربهم ، فلم يقدر عليهم ، فعاد إلى قونية ، وسار الصليبيون وراءه ، ولكنهم ضلوا الطريق ، وساروا فى أرض لاماء فيها ، حتى هلكوا من العطش ومن الجوع ، وكانوا يترامون فى الطرق ، ويستخرجون دم الخيل ، ويمتصونه إلى أن وصلوا إلى مدينة قونية ، فأرسلوا إلى قليج أرسلان هدايا عظيمة ، وقالوا له : « ماقصدنا بلادك ، ولاأردناها ، وإنما نحن نقصد البيت المقدس » . وطلبوا منه أن يأذن لرعيته فى إخراج مايحتاجون إليه من قوت وغيره ، فأذن فى ذلك ، فأتاهم مايريدون ، فشبعوا ، وتزودوا (وقال المؤرخون النمساويون : إن الملك فريدريكوس لما وصل إلى مدينة قونية حار بها حتى امتلكها) وساروا إلى بلاد الأرمن ، فنالهم تعب زائد ، ومشقة عظيمة ، وفى ذات ليلة حصلت زلزلة عظيمة وشعروا بقعقعة الأسلحة

وصهيل الخيل كأن جيوشاً قد فاجأتهم فتقطعت قلوبهم خوفاً ولكنهم لم يروا أحداً فكانوا يتساءلون عن سبب ذلك فقالت رؤساؤهم إن في ذلك رمزاً عن قرب حصول حادث مهول يقعون فيه (وهذا ما ذكره مؤرخوهم أيضاً) ثم وصلوا إلى بلاد الأرمن وصاحبها لافون بن اصطفان فأرسل إليهم وفداً لمقابلتهم وقدموا لهم جميع ما يحتاجون إليه من ذخائر وزاد وغيره من العلف وقدموا لهم الطاعة ثم سار الصليبيون قاصدين أنطاكية فحصل لهم من التعب ما لا يوصف ثم ساروا وكان في طريقهم نهر فنزلوا عنده ونزل الملك فريدريكوس في النهر ليغتسل فغرق في مكان لا يبلغ الماء فيه وسط الرجل فاعترته قشعريرة شديدة وطلب الإغاثة فأخرجوه ميتاً وحزنوا عليه حزناً شديداً وكان معه ولده فأقاموه ملكا مكانه ولكن الخلاف وقع بينهم فأحب بعضهم العود إلى بلاده وبعضهم مال إلى تمليك أخيه فعادوا وسار ولده فيمن رضى به ملكا قاصداً انطاكية فوصلوها وقد تفشى بينهم الوباء فأهلكهم وبددهم فحسن لهم صاحبها المسير لمشاركة الصليبيين فى حصار عكا فساروا على جبلة واللاذقية وغيرها من البلاد التى ملكها المسلمون وخرج أهل حلب إليهم وأخذوا منهم خلقاً كثيراً ومات أكثر من أخذ فبلغوا طرابلس وأقاموا بها أياما فكثر فيهم الموت فلم يبق منهم إلا ألف رجل وعلى قول مؤرخيهم خمسة آلاف نسمة (فانظر إلى لطف الله كيف خرجت هذه الحملة الصليبية من بلادها نحو ٢٠٠ ألف مقاتل وقيل أكثر وكيف بقي منهم ألف فارس) ثم وصلوا إلى عسكر الصليبيين حول عكا فوجدوهم في خلاف وكان الملك قليج أرسلان يكاتب السلطان بأخبارهم ويعده أنه يمنعهم من العبور في بلاده فلما عبروها أرسل يعتذر بالعجز عنه لأن أولاده حكموا عليه وحجروا عليه وتفرقوا عنه وخرجوا عن طاعته فلما ورد الخبر إلى السلطان بعبور الملك فريدريكوس استشار أمراءه فأشار كثير منهم بالمسير إلى طريقهم ومحاربتهم قبل وصولهم إلى عكا فقال السلطان : « بل نقيم إلى أن يقربوا منا ، وحينئذ نفعل ذلك ، لئلا يستسلم من بعكا من عساكرنا » . ولكنه سير من عنده من العساكر : عسكر حلب وجبلة واللاذقية وشيزر ، وغير ذلك ، ليكونوا فى أطراف البلاد يحفظونها من العدو ، فكفى الله المسلمين القتال .

(الواقعة العادلية على عكا بين الصليبيين والمسلمين)

لما أرسل السلطان العساكر الإسلامية إلى بلادها خوفاً من ملك النمسا ، وعلم الصليبيون أن العساكر قد تفرقت فى أطراف البلاد ، وأن الميمنة قد خفت ؛ لأن معظم من سار كان منها ، أجمعوا رأيهم ، واتفقت كلمتهم على أنهم يخرجون بغتة ، ويهجمون على طرف الميمنة فجأة ، فخرجوا واستخفوا طرف الميمنة وفيها مخيم الملك العادل . فلما بصر الناس بهم ، صاح صائحهم ، وخرجوا من خيامهم كالأسود من آجامها ، وركب السلطان ، وصاح منادياً : « ياللإسلام » وكان هو أول راكب ، وهو كالفاقدة لولدها الثاكلة لوحيدها ، ثم ضرب الصنوج ، فأجابته صنوج الأمراء من أماكنها . وركب الناس ، وسارع الصليبيون فى قصد الميمنة . حتى وصلوا إلى مخيم الملك العادل قبل أن تركب جميع العساكر ، ودخلوا فى وجاقه ، وامتدت أيديهم فى السوق وأطراف الخيم بالنهب والغارة . وركب العادل ، واستركب من يليه من الميمنة كالطواشى قايماز النجمى وعز الدين جرديك النورى ، ووقف وقوف مخادع حتى يوغل بهم طمعهم فى المخيم ، ويشتغلوا بالنهب ، وكان كما ظن . ولما علم باشتغالهم بالنهب . صاح بالناس ، وحمل بنفسه يتقدمه ولده الكبير شمس الدين مودود وحمل بحملته من كان يليه من الميمنة ، واتصل الأمر بجميع الميمنة حتى وصل الصائح إلى عسكر الموصل ، وهجموا على العدو هجمة الأسود على فرائسها ، وأوقعوا فيهم القتل ، فعاد الصليبيون، هاربين إلى خيامهم ، وعلى أعقابهم ناكصين ، والسيف يعمل فيهم ، وصاح صائح السلطان فى الناس : « ياأبطال الموحدين : هذا عدوكم قد أمكنكم الله منه ، وقد داخله الطمع حتى غشى خيامكم بنفسه » . فبادر إلى إجابة دعوته أهل حلقته وخاصته ، ثم عسكر الموصل يتقدمهم علاء الدين ولد عز الدين ، ثم عسكر مصر يتقدمهم سنقر الحلبى ، وتتابعت العساكر ، وتحاربت الأبطال ، وقامت سوق الحرب ، فلم يكن إلا ساعة حتى ترامى الصليبيون صرعى كأنهم أعجاز خاوية ، وغطت قتلاهم الأرض من خيم الملك العادل إلى خيامهم ، فكان أولهم بالخيام الإسلامية وآخرهم بخيام العدو صرعى على التلول والوهاد ، وكان مابين العسكرين مايزيد عن فرسخ مفروش بأشلائهم ، ولم ينج من القوم

إلا النادر ، وأسر نفر يسير ، لأن السلطان أمر بأن لايبقوا على أحد . وكان هذا جميعه فى الميمنة وبعض القلب ، أما الميسرة فما اتصل الصائح بهم إلا وقد نجز الأمر ، وقضى القضاء على العدو لبعد المسافتين ، وكانت هذه الواقعة مابين الظهر والعصر . ثم أمر السلطان العساكر الإسلامية بالرجوع ، وكانت النصرة فى هذا اليوم عظيمة جداً للمسلمين ، ولم يقتل منهم إلا عشرة أنفس ، ومن الصليبيين ثمانية آلاف ، وقال مؤرخهم بأن عسكر الصليبيين لما رأى عساكر السلطان قد سافرت ، طمع فى الباقى ، وطلب من رؤسائهم حربا عمومية ضد المسلمين ، فمنعوهم ، فلم يمتنعوا ، وخرجوا بدون إرادة رؤسائهم ، ويعترفون بالواقعة كما تقدم ، ويقولون : « هذا جزاء مخالفتهم لأوامر الرؤساء » ؛ وكان المسلمون الذين بالبلد ينظرون إلى هذه الواقعة من أعلى السور ، ولما علموا بكسرة الصليبيين خرجوا من البلد ، وأوقعوا فى عسكر الصليبيين قتلاً ونهباً حتى أنهم أخذوا القدور وفيها الطعام ، وكثيراً من الأقمشة .

(حصار عكا من البحر ودخول الزاد إليها قهراً)

لما رأى الصليبيون اتصال المدد من البحر إلى عكا عزموا على محاصرة الميناء من البحر لمنع دخول مراكب المسلمين إليها ، وكان ورد للصليبيين مدد من البحر من فرنساويين وإنكليز وإيطاليين تحت رياسة قائدهم هنريكوس كونت دى شمبانيا ، ومعهم من آلات الحرب والحصار شىء كثير . وكان السلطان قد أمر بشحن بطسة كبيرة بالغلال والبصل والجبن والغنم وغير ذلك من الميرة من ميناء بيروت ؛ لأن أهل البلد قد اشتدت حاجتهم إلى الطعام والميرة ، فركب فى تلك البطسة جماعة من المسلمين ، وتزيوا بزى الإفرنج حتى حلقوا لحاهم ، ووضعوا الخنازير على سطح البطسة لتظهر من بعد ، وعلقوا الصلبان ، وجاءوا قاصدين البلد من البعد حتى خالطوا مراكب العدو ، فخرجوا إليهم ، واعترضوهم فى الحراقات والشوانى ، وقالوا لهم : « نراكم قاصدين البلد واعتقدوا أنهم منهم ، فقالوا : « أولم تكونوا أخذتم البلد ؟ » فقالوا : نأخذ البلد بعد ، « فقالوا » نحن نرد القلوع إلى العسكر ، ولكن وراءنا بطسة أخرى فى هوائها ، فأنذروهم حتى لايدخلوا البلد . وكان وراءهم بطسة أفرنجية قد اتفقت معهم فى البحر قاصدين العسكر ، فنظروا ، فرأوها ، فقصدوها لينذروها ،

فاشتدت البطسة الإسلامية فى السير ، واستقام لها الريح حتى دخلت ميناالبلد ، وسلمت . ولله الحمد – وكان ذلك فى أواخر شهر رجب سنة ٥٨٦ . ثم أرسل بهاء الدين قراقوش والى البلد . والحاجب حسام الدين لؤلؤ مقدم الأسطول إلى السلطان فى أول شعبان . يذكران له أنه لم يبق بالبلد ميرة إلا قدر يكفى البلد إلى ليلة النصف من شعبان لاغير . فأسرها يوسف فى نفسه ، ولم يبدها لأحد : لامن خاصته ، ولامن الجيش ، خشية الشيوع والبلوغ إلى العدو فتضعف به قلوب المسلمين . وكان قد كتب السلطان إلى مصر بتجهيز ثلاث بطس مشحونة بالأقوات والإدام والمير وجميع مايحتاج إليه فى الحصار ، بحيث يكفيهم ذلك طول الشتاء ، فأقلعت البطس الثلاث من الديار المصرية ، ولججت فى البحر تتوخى النوتية بها الريح التى تحملها إلى عكا ، فطابت لهم الريح حتى وصلوا إليها ليلة النصف من شعبان ، وقد فنيت الأزواد ، ولم يبق عندهم مايطعمون الناس فى ذلك اليوم ، وخرج أسطول العدو يقاتل البطس ، والعساكر الإسلامية تشاهد ذلك من الساحل والناس فى تهليل وتكبير ، وقد كشف المسلمون رؤوسهم يبتهلون إلى الله تعالى فى القضاء بسلامتها إلى البلد والسلطان على الساحل كالوالدة الثكلى ، يشاهد القتال ويدعو ربه بنصره ، وقد علم من شدة القوم مالم يعلمه غيره ، وفى قلبه مافى قلبه ، والله يثبته . ولم يزل القتال حول البطس من كل جانب والله يدفع عنها والريح يشتد والأصوات قد ارتفعت من الطائفتين ، والدعاء يخرق الحجب حتى وصلت بحمد الله سالمة إلى مينا البلد ، وتلقاها أهل عكا تلقى الأمطار عند جدب . وكان دخولها وقت العصر رابع عشر شعبان .

(إحراق منجنيقات الصليبيين ومراكبهم وأداء الأمانة بعد الموت)

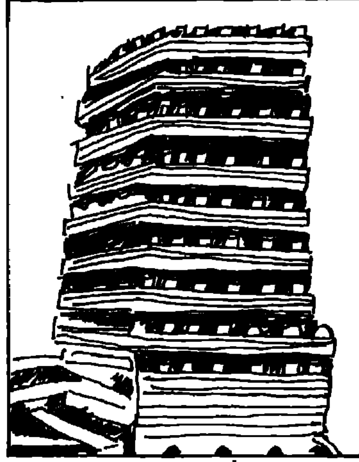
ونصب الصليبيون على البلد منجنيقات هائلة محكمة على السور ، وتواترت حجارتها حتى أثرت فيه أثراً بيناً ، وخيف من غائلته ، فأخذ سهمان من الجرح العظيم ، وأحرق لصلاهما حتى أمسيا كالشعلة من النار ، ثم رميا فى المنجنيق الواحد فعلقا فيه ، واجتهد الصليبيون فى إطفاء النار فلم يقدروا ، وهبت ريح شديدة فاشتعل اشتعالا عظيما ، واتصل اللهيب بالآخر ، فأحرقه واشتدت

نارهما ، بحيث لم يقدر أحد أن يقرب من مكانهما ليحتال فى إطفائهما ، وكان فى أثناء ذلك يرسل السلطان الكتب والمال المخصوص ، بنفقات العساكر التى داخل البلد بواسطة أناس عوامين . ومن غريب ماحصل ، أن عواماً من هؤلاء العوامين ، اسمه عيسى مسلماً ، أخذ كتاباً من السلطان وشد على وسطه ثلاثة أكياس داخلها ألف دينار ، وعام فى البحر كعادته (لأنه كان يغطس بذلك من وراء مراكب العدو ويخرج فى المينا من البحر) فأتاه القضاء المحتوم ، وكان كلما يصل إلى البلد ، يرسلون طائراً إلى السلطان فيعلم بوصوله ، فلما انتظر السلطان الطائر على هذه الرسالة ، فأبطأ الطائر ، فاستشعر السلطان بهلاك عيسى العوام ، فلما كان بعد أيامٍ ، بينما الناس على شط البحر فى البلد ، وإذا البحر قد قذف إليهم ميتاك غريقاً فتفقدوه ، فوجدوه عيسى العوام ووجدوا على وسطه الذهب ومشمع الكتب ، وكان الذهب نفقة المجاهدين ، فما رؤى من لم يمكنه أن يؤدى الأمانة فى حال حياته ، فأداها بعد وفاته ، إلا هذا الرجل الذى برأه الله مما قالوه فيه . وكان يوجد برج اسمه برج الذبان فى وسط البحر ، مبنى على الصخر على باب ميناء عكا ، يحرس المينا وكان متى عبره المركب أمن من غائلة العدو ، فأراد الصليبيون أخذه لتبقى المينا بحكمهم ويمنعوا دخول شىء من البطس إلى البلد ، فتنقطع الميرة عنها ، فاجتهد ليوبولددوك دى أوطريش وعساكره وعساكر البيزاويه ، فجعلوا على صوارى بطسة كبيرة برجا وملئوه حطباً ونفطاً لأجل أن يسيروا ، فإذا قاربت البرج ولاصقته ، أحرقوا البرج الذى على الصوارى ولصقوه ببرج الذبان ، ليلقوه على سطحه فيحرقوه من الأعلى ويقتلوا من فيه من المقاتلة ويأخذوه ، وعبوا بطسة أخرى بالحطب والوقود ، على أنهم يدفعونها إلى أن تدخل بين بطس المسلمين ، ثم يلهبونها فتحرق البطس الإسلامية ويهلك من فيها ، وجعلوا فى بطسة ثالثة مقاتلة تحت قبو عملوه فيها ، بحيث لايصل إليه نشاب ولاشىء من آلات السلاح ، حتى إذا أحرقوا ماأرادوا إحراقه ، دخلوا تحت القبو فأمنوا ثم أحرقوا ماأرادوا ، وقربوا البطسة من البرج المذكور ، وكان طمعهم شديداً لأن الهواء كان مساعداً لهم ، فأوقدوا النار وأشعلوا فيها النفط ، فانعكس الهواء عليهم ، واشتعلت البطسة التى كان فيها البرج الخشبى بأسرها ، واجتهدوا فى إطفائها فما قدروا وهلك من كان بها من المقاتلة ، ولم يصب البرج بضرر

(برج الذبان) ثم احترقت البطسة التى كانت معدة لإحراق مراكب المسلمين ، فوثب المسلمون عليها فأخذوها . وأما البطسة التى كان فيها القبو فإنهم انزعجوا وخافوا وهموا بالرجوع فاختلفوا واضطربوا اضطراباً عظيما ، فانقلبت وهلك جميع من بها لأنهم كانوا فى قبو لم يستطيعوا الخروج منها فكان ذلك من أعظم آيات الله وقد رد الله كيدهم فى نحرهم .

(واقعات الدبابات والخندق والكمين)

أنشأ الصليبيون دبابات من حديد تشبه البرج على عجل تتحرك بها ، وفيه المقاتلة ، ولها رأس عظيم برقبة شديدة من حديد ، وهى تسمى كبشاً ينطح بها السور بشدة وعنف فتهدمه بتكرار النطح . آلة أخرى وهى قبو وفيها رجال أيضاً ولها رأس محدد كرأس المحراث ويسمى سفود ، فرأس الكبش مدور يهدم بثقله والسفود يثقب بحدته .



(صورة الدبابات لنقب الأسوار)

وفى ثالث رمضان سنة ٥٨٦ ، زحف الصليبيون على البلد فى خلق لايحصى بدباباتهم ، فأمهلهم أهل البلد حتى نشبت مخالب أطماعهم فيه ، وسحبوا آلاتهم المذكورة حتى كادوا يلصقونها بالسور وتحصن منهم فى الخندق جماعة عظيمة ، فأطلق المسلمون عليهم الجروخ والمجانيق والسهام والنيران ،

وصاحوا صيحة الرجل الواحد ، وفتحوا الأبواب وهجموا على العدو من كل جانب ، وكبسوهم فى الخنادق ، فهربوا وأعمل السيف فى من بقى فى الخندق منهم ، ثم هجموا على دباباتهم فألقوا فيها النار والنفط ، وتمكنوا من إحراقها لهرب المقاتلة ، فكان لهيب شديد وارتفعت الأصوات بالتكبير والتهليل ، وسرت النار بالدبابات من واحدة إلى أخرى فاحترقت كلها ، وعلق المسلمون فى الكبوش الكلاليب الحديد ، فجروها وهى مشتعلة ، حتى أخذوها وأدخلوها فى البلد ، وكانت منشأة من آلات هائلة عظيمة ، فألقى عليها الماء حتى برد حديدها بعد أيام ، فكانت زنته مائة قنطار . وفى يوم الاثنين حادى عشر شوال ، أقام من الصليبيين على البلد الملك فريدريكوس الصغير ملك النمسا بفرقة عظيمة لمحاصرته ، وخرج باقى معسكرهم ومعه ميرة أربعة أيام للجيش والخيل ، وكان يزك السلطان مخيما على تل العياضية ، فلما رأى السلطان ذلك نقل أثقال المسلمين إلى ميمون ، وهى على ثلاثة فراسخ من عكا ، وكان قد عاد إليه من سافر من عساكره بعد وفاة ملك النمسا ، فلقى الصليبيين بجيش عرمرم تام التعبئة ، وولى أولاده الأفضل على ، والظاهرغازى ، والظافر القلب ، وأخاه العادل أبابكر الميمنة المؤلفة من عساكر مصر ومن انضم إليها ، وكان فى الميسرة عماد الدين صاحب سنجار ، وتقى الدين صاحب حماة ومعز الدين سنجر شاه صاحب جزيرة ابن عمر مع جماعة من أمرائه ، واتفق أن السلطان أخذه مغص كان يعتاده ، فنصب له خيمة صغيرة على تل مشرف على العسكر ، ونزل فيها ينظر إليهم – فسار الصليبيون شرقى نهر هناك حتى وصلوا إلى رأس النهر ، فرأوا عساكر المسلمين وكثرتها فارتاعوا ، ولقبهم الجاليشية ، وأمطروهم من السهام ماكاد يستر الشمس ، فتحولوا إلى غربى النهر وثبت الجاليشية على قتالهم حتى تجمعوا ، ولزم بعضهم بعضاً ، وكان مقصد الجاليشية أن يحمل الصليبيون عليهم ، فيلقاهم المسلمون ويلتحم القتال فيكون الفصل ويستريح الناس . ولكن الصليبيين ندموا على مفارقة خنادقهم فلزموا مكانهم وباتوا ليلهم ، فلما كان الغد عادوا نحو عكا ليعتصموا بخندقهم ، والجاليشية فى أكتافهم ، يقاتلونهم تارة بالسيوف ، وتارة بالرماح ، وتارة بالسهام ، وكلما قتل منهم قتيل أخذوه معهم لئلا يعلم المسلمون ماأصابهم ، ولولا ذلك الألم الذى حدث للسلطان لكانت هذه الواقعة هى الفصل (وإنما

لله أمر هو بالغه) . فلما بلغوا خنادقهم واستكنوا بها لايخرجون ، عاد المسلمون إلى خيامهم وقد قتلوا من الصليبيين خلقاً كثيراً . وفى الثالث والعشرين منه كمن جماعة من المسلمين وتحرش بالعدو جماعة أخرى فخرج إليهم بعض عسكر الصليبيين فقاتلوهم يسيراً وطاردوهم متقهقرين ، فتبعهم الصليبيون حتى جازوا الكمين فخرج عليهم من فيه ، فمزقوهم ولم يفلت من سيوفهم أحد .

(فى دخول البدل العسكرى عكا)

لما حل فصل الشتاء وعصفت الرياح ، خاف الصليبيون على مراكبهم التى يحاصرون بها عكا لأنها لم تتمكن من المينا ، ولاأمكنها رد المسلمين عن دخول البلد ، فسيروها إلى بلادهم صور وغيرها ، فانفتح طريق عكا فى البحر ، وأرسل أهلها إلى السلطان يشكون الضجر والملل والسآمة ، وكان بها الأمير حسام الدين أبو الهيجاء السمين مقدماً على جندها ، فأمر السلطان بإقامة البدل وإنفاذه إلى البلد وإخراج من فيها ، وأمر أخاه الملك العادل بمباشرة ذلك ، فانتقل إلى جانب البحر ، ونزل تحت جبل حيفا ، وجمع المراكب والشوانى ، فكان يرسل عليها إلى عكا كل جماعة تقدم عليه من العساكر ، فيحتل البلد ويخرج جماعة . فدخل إليها عشرون أميراً وكان بها ستون فكان الذين دخلوا أقل من الذين خرجوا ، وأهمل نواب السلطان تجنيد الرجال وإنفاذهم ، وكان على خزانة ماله قوم من النصارى ، فكانوا إذا جاءهم جماعة قد تجندوا تفننوا عليهم بأنواع شتى ، تارة بإقامة معرفة وتارة بغير ذلك ، فتفرق بهذا السبب خلق كثير ، وزاد الأمر خطورة ، توانى صرح الدين نفسه لوثوقه بنوابه ، وإهمال النواب فانتهى الشتاء والأمر كذلك ، وكان من جملة الأمراء الذين دخلوا عكا ، سيف الدين على بن أحمد المشطوب ، وعز الدين أرسل مقدم الأسديه بعد جاولى ، وذلك فى غرة سنة ٥٨٧ . وكان قد أشار بعض الأمراء على السلطان بأن يرسل إلى من بعكا ، النفقات الواسعة والذخائر والأقوات الكثيرة ، ويأمرهم بالمقام لأنهم قد جربوا أو تدربوا ، واطمأنت نفوسهم على ماهم فيه ، فلم يفعل السلطان ذلك خوفاً من أن ضجرهم ومللهم يحملهم على الفشل .

(سفر العساكر الصليبية الثالثة فى البحر وماجرى لملك الإنكليز بسيسليا وقبرص وزواجه)

بعد أن تعاهد ملك فرنسا فيلبس أوغسطوس ، وملك الإنكليز ريكاردوس الملقب بقلب الأسد ، على المقابلة فى مدينة ميسينا بجزيرة سيسليا (صقلية) لنصرة الصليبيين بأراضى فلسطين ، سار ملك فرنسا عن طريق جنوى ، وسار ملك الإنجليز إلى مرسيليا وانتظر أسطوله ، فلم يحضر حتى مل الانتظار ، فركب سفناً صغيرة وقصد ميسينا ، وأوعز إلى جنده أن يركبوا الأسطول حين وصوله ويلحقوا به . وأخيراً التقى الجيشان فى ميسينا على حدود سيسليا مما يلى إيطاليا ، وكان لريكاردوس أخت اسمها جوانا تزوجت بوليم ملك سيسليا فمات فى شرخ شبابه ، واختلس الملك من أرملته أميرا اسمه تنكريد واستولى على أموال زوجها ، فعلم بذلك ريكاردوس فى أثناء إقامته بميسينا فعزم على محاربة أهل سيسليا ورفع علمه على أسوار ميسينا .

ولما رأى ذلك الملك فيلبس ملك فرنسا اغتاظ منه ، فأمر عساكره بإنزال العلم الإنجليزى من على السور ، فعزم ريكاردوس على محاربة فيلبس ، ولكن ملك فرنسا لكونه أكبر سنا من ملك الإنجليز ، لم يرغب فى هذه الحرب وإعمال السلاح المعد لمحاربة المسلمين ضد الصليبيين ، فركب مراكبه وسار قاصداً فلسطين . وأما ملك الإنكليز فإنه تهدد تنكريد ملك سيسليا ، فأرضاه بمال مقداره عشرون ألف أوقية من الذهب . وكان ريكاردوس قد خطب برنجاريادى نافار ، ولم يتأت له الاقتران بها فى انكلترا خوفاً من التأخر عن الجهاد ، فأشار بحملها إليه فى صقلية ، فجاءت بها والدته ، ووقت السفر قددنا ، فأجل الزفاف إلى وقت آخر وعهد بخطيبته إلى أخته جوانا أرملة وليم ملك صقلية المتقدم ذكرها . وركب أسطوله وهما معه وسار قاصداً المشرق ، فهبت عليهم أنواء شديدة قذفت بمراكبهم إلى سواحل كريد فافتقد ريكاردوس الأسطول ، فعلم أن ثلاثا من سفنه قد ضاعت وفيها خطيبته وحاشيتها فأنفذ من يبحث عن السفن فأنبئوه أن اثنتين منها جنحتا عند سواحل قبرص وأن ملكها إسحق قتل النوتية وحجر على النساء فى ليموسنا ، وطلب من ريكاردوس أن يقدم إليه ليعقد مؤتمراً فغضب ريكاردوس لذلك غضباً شديدا وسبه بالإنجليزية

ويقال إنها المرة الوحيدة التى تكلم بها ريكاردوس بالإنجليزية لأنهم كانوا يستعملون اللغة الفرنساوية القديمة (النورماندية) إذ ذاك ، وأسرع ريكاردوس إلى قبرص وخرج إلى البر بعساكره وقبض على ملكها وأوثقه بسلاسل من فضة ، واغتنم وجوده هناك فرصة للاقتران بخطيبته برنجاريا فزفت إليه ، وكان ريكاردوس قد ألف أثناء إقامته فى صقلية جمعية من الفرسان سماها (جمعية البر الأزرق) لأن أعضاءها كانوا يلبسون فى أفخاذهم اليسرى سيوراً من جلد أزرق ، وقد تعاهدوا على فتح عكا ، فسار ريكاردوس بجيشه قاصداً تلك المدينة .

(وصول الصليبيين إلى عكا ومحاصرتهم لها وقتل بعض أمرائهم)



(صورة فيلبس أوغسطوس ملك فرنسا)

وصل الملك فيلبس ملك فرنسا إلى عكا فى ثانى عشر ربيع الأول سنة ٥٨٧ ، ففرح به الصليبيون وجعلوه رئيساً عليهم ، وكتب السلطان صلاح الدين إلى عز الدين سامة متولى بيروت ، بمحاربة من يمر به من الصليبيين ، وكان

فى أثناء إقامة الملك ريكاردوس ملك الإنجليز بجزيرة قبرص ، قد سافرت بعض مراكبه قاصدة عكا فخرج عليها عز الدين واستولى على خمسة مراكب مملوءة رجالا ونساء وأموالا وخيلا ، وتقدم الصليبيون إلى عكا فنصبوا عليها المنجنيقات ، وذلك فى رابع جمادى الأولى ، وأرسل أهل عكا إلى السلطان بالاستنفار العظيم والتماس أن يشغل العدو عنهم ، فركب السلطان بعسكره وكان هذا دأبه معهم كلما ضيقوا على البلد ، فإذا زحف إليهم رجعوا عن الحصر وإذا رجع عنهم عاودوه وكانت العلامة بين السلطان وأهل البلد ، أنه متى زحف العدو عليهم دقوا صنوجهم فتدق صنوج السلطان إجابة لهم ، وكان السلطان مخيماً على شفرعم واستبعد منزلته فتحول إلى تل العياضية تاسع جمادى الأولى . ثم وصل الملك ريكاردوس فى ثالث عشرة ، وكان السلطان لما علم بقرب وصوله ، قد أمر بتجهيز بطسة كبيرة مملوءة بالرجال والعدد والأقوات ، فتجهزت وسارت من بيروت وفيها سبعمائة مقاتل ، فلقيها ريكاردوس فقاتلها وصبر من فيها على القتال احتاطت بها مراكب الإنجليز من كل جانب ، ولما يئس من بها من الخلاص ، نزل المقدم إلى أسفلها وهو يعقوب الحلبى مقدم الجندارية فخرقها خرقاً واسعاً لئلا يظفر بها العدو بمن فيها ومامعهم من الذخائر فغرق جميع مافيها ، ولما وصل ريكاردوس إلى عكا كما تقدم فرح به الصليبيون وقويت شوكتهم وبالغوا فى محاصرة البلد وقتال أهلها ليلا ونهاراً وأسرعوا إلى طمى الخندق ، وكانوا يرمون فيه جثث الأموات ، وصنعوا دبابة عظيمة ذات أربع طبقات : الأولى من خشب ، والثانية من رصاص ، والثالثة من الحديد ، والرابعة من النحاس ، وكانت تعلو على سور البلد ويركب فيها المقاتلة فخاف منها أهل البلد وقربها أصحابها من السور ، فواصل المسلمون رشقها بالنِّفْط ليلا ونهاراً إلى أن احترقت ، وزادت شكوى أهل البلد لاستفحال أمر العدو ومواصلة قتالهم ليلا ونهاراً من حين قدوم ريكاردوس ، ثم ناب كلا من ريكاردوس ، وفيلبس مرض شديد ، فأرسل ريكاردوس إلى السلطان صلاح الدين يطلب دجاجاً وطيراً وأرسل ثانية يطلب فاكهة وثلجاً ، فأرسل إليه كل ماطلب والقتال مستمر من الصليبيين وأهل البلد حتى ضعفت الحامية وبقى أكثر المسلمين بدون نوم عدة أيام لا ليلا ولانهاراً .

وفى سابع جمادى الآخرة ركب السلطان بالعسكر الإسلامى وزحف على

خنادق القوم حتى دخل فيها العسكر ، وجرى قتال عظيم وهو كالوالدة الثكلى ، يحرك فرسه من طلب إلى طلب ، ويحث الناس على الجهاد وينادى بنفسه ياللإسلام وعيناه قد غرقتا بالدمع ، وكلما نظر إلى عكا وما حل بها من البلاء ومايجرى على من بها من المصاب العظيم ، اشتد فى الزحف والحث على القتال ، ولم يأكل فى ذلك اليوم طعاما . ولما هجم الليل عاد إلى الخيم وقد أخذ منه التعب والكآبة والحزن ، ثم ركب سحرا وأصبحوا على ماأمسوا عليه ، وفى ذلك اليوم وصلت مطالعة من البلد ويقولون فيها إناقد بلغ بنا العجز إلى غاية مابعدها إلا التسليم ، ونحن فى الغدإن لم تعملوا معنا شيئاً نطلب الأمان ونسلم ، ونشترى مجرد رقابنا وكان هذا أعظم خبر ورد على المسلمين ، فرأى السلطان مهاجمة العدو فلم يساعده العسكر لأن رجال الصليبيين وقفوا كالسور المحكم البناء بالسلاح والزنبورك والنشاب من وراء أسوارهم ، وهجم عليهم بعض العسكر من أطرافهم فثبوا وذبوا غاية الذب . ثم إن الصليبيين بعدما أعيتهم الحيلة فى الاستيلاء على البلد ، وأنهم كلما عملوا أبراجاً أودبابات أو كبوشاً أو غيرها يحرقها المسلمون ، فعمدوا إلى إقامة سور من تراب يستترون وراءه للمحاربة كى لايصيبهم نشاب ولاسهام من المسلمين بأعلى سور البلد ، ثم أخذوا يمدونه شيئاً فشيئاً إلى أن صار قريباً من سور البلد ، فاحتار المسلمون لأن العدو قرب منهم وليس فى وسعهم إيصال أى أذى إليه لأن السور التراب لاتؤثر فيه النار ولا السهام . ولم تزل الحرب قائمة حتى ضعفت نفوس أهل البلد وتمكن العدو من الخنادق فملأها ونقبوا سور البلد وحشوه وأحرقوه ، فوقعت بدنة من الباشورة ودخل بعض الصليبيين منها فاجتمعت أهل البلد على هذا الثقب وقتلوا مايزيد عن المائة وخمسين نفساً ، وكان من ضمنهم كل من روطروا . وتيبود دى شامبانيا . والكونت دى بلوازو استفانوس دى صانسارا . وغوى دى شاتيليون . وجفروا دى أومالا . وفيس كونت دى شاتا لارولت . وفلورانت دى انجارس . وراول دى كوزى . ثم إن بعض الصليبيين أراد الصعود على سور البلد ، وكان فى مقدمتهم الباريك كلامان ، فنصب سلماً وصعد عليها إلى أن بلغ السور وتبعه بعض رجاله ونصبوا السلالم فتكردست بهم ووقعوا جميعاً ، ولم ينالوا مرادهم ، وأما الباريك فإن المسلمين تكاثروا عليه وقتلوه .

(طلب الصلح ودخول الصليبيين عكا)

تابع السلطان صلاح الدين زحفه وهجماته على معسكر الصليبيين لكى يشغلهم عن محاربة أهل البلد ولكنهم لم ينفكوا عن قتالهم ومضايقتهم ، فأمر قايماز النجمى بأن يزحف هو وأصحابه إلى أسوار العدو ، وترجل جماعة من أمراء الأكراد كالجناح وأصحابه وهو أخو المشطوب وزحفوا حتى بلغوا أسوار العدو ونصب قايماز علمه بنفسه على سورهم ، وقاتل عن العلم ووصل عز الدين جرديك النورى وسوق الزحف قائمة فترجل هو وجماعته وقاتل قتالا شديداً ، وبات العسكر تلك الليلة على الخيل تحت الحديد منتظراً نجاح الأمل ، ولما علم السلطان بأن عكا قد وهنت ، أرسل إلى جماعة من فيها سراً ، وقال لهم خذوا من العدو حذراً واتفقوا واخرجوا ليلا من البلد يداً واحدة ، وسيروا إلى جانب البحر وصادموا العدو بالقهرواتركوا البلد بما فيه ، فشرعوا فى ذلك واشتغل كل منهم باستصحاب ما يملكه ، ولم يعلم أن التهاءه به يهلكه فماتمكنوا من المراد حتى أسفر الصباح ولم يصح كذلك فى الليلة الثانية لوصول الخبر إلى الصليبيين ، فحرسوا الجوانب والأبواب . ثم إن الأمير سيف الدين على بن أحمد الهكارى المعروف بالمشطوب وكان هو مقدم العسكر فى البلد ، خرج إلى ملك فرنسا فيلبس أو غسطوس وقال له : إنا قد أخذنا منكم بلاداً كثيرة وكنا نهدم البلد وندخله ومع هذا إذا سألونا الأمان أعطيناهم وحملناهم إلى مأمنهم وأكرمناهم . ونحن نسلم البلد وتعطينا الأمان على أنفسنا وبعد مداولة ملك فرنسا مع ديوان المشورة العسكرى قال إنه لايعطى الأمان للمسلمين إلا بعد أن يرجعوا مدينة القدس وجميع البلاد التى استولوا عليها بعد حرب طبرية (سواحل سوريا) (فانظر فرق المعاملة بين المسلمين فى استيلائهم على المدن من الصليبيين وكيف كانوا يعطونهم الأمان ويوصلونهم إلى الجهات التى يريدونها ، ومعاملة هؤلاء الصليبيين لعساكر عكا المسلمين وعدم إعطائهم الأمان) فأغلظ المشطوب له القول وانصرف عنه . ولما دخل البلد بهذا الخبر خاف جماعة من الأمراء ، فأخذوا لهم بركوسا وهو مركب صغير وركبوا فيه ليلا خارجين إلى العسكر الإسلامى ، منهم عز الدين أرسل ، وحسام الدين تمرتاش بن الجاولى ، وسنقر الوشاتى وهو من الأسدية الأكابر ، ثم إن سيف

الدين المشطوب اتفق مع الصليبيين على تسليم البلد بجميع مافيه من الآلات والعدد والمراكب ، ومائتى ألف دينار ، وألف وخمسمائة أسير مجاهيل ، ومائة أسير معينين من جانبهم يختارونهم ، وصليب الصلبوت ، على أنهم يخرجون بأنفسهم سالمين ومامعهم من الأموال والأقمشة المختصة بهم وذراريهم ونسائهم ، وضمنوا لكونراد صاحب صور عشرة آلاف دينار ، لأنه كان واسطة الصلح ولأصحابه أربعة آلاف ، ولما وقف السلطان على ذلك أنكره وأعظمه ، وعزم على أن يكتب إليهم بإنكار ذلك ، وجمع أمراءه وأصحاب مشورته ، فما أحس المسلمون إلا وقد ارتفعت أعلام الصليبيين على أسوار البلد ، وذلك ظهيرة يوم الجمعة ١٧ جمادى الآخرة سنة ٥٨٧ . وهكذا دخلوا البلد صلحاً بعد حصار سنتين وسفك دماء كثيرة وموت نيف ومائة ألف مقاتل كما قال مؤرخوهم ونصه (بعد ماينيف عن مدة سنتين من حصار هذه المدينة بأتعاب وشدائد وأعمال كلية وحروب شديدة دخلها المسيحيون آمنين فى اليوم الثالث عشر من شهر حزيران سنة ١١٩١ ، ونشروا بيارق الصليب فوق أسوارها . فهذه كانت نهاية حصار عكا الذائع الصيت الذى فيه سفكت دماء عظيمة المقدار ، والصليبيون ندبوا فيه فقدان عدد وافر من كل ذى رتبة من الشجعان ضمن نحو مائة معركة حربية خصوصية ، وتسع حروب عمومية عظيمة ، حدثت أمام أسوار هذه المدينة بعساكر كانت أجواقها تحصر وتبتدى بالحرب بعد أن تكون العساكر التى قبلها قد تلاشت إما تماماً أوفى أكثر أجزائها بعد أن تصل المراكب العديدة التى كانت تتوارد من جميع بلاد المغرب ، حاملة طغمات من المقاتلين الذين كانوا يتقاطرون مندكين نزولا حول تل طورمان ، وفوق أرمال بيولوس . وبالإجمال إنه فى مدة هذا الحصار قد حصدت سيوف الإسلام وأنواع الأمراض الرديئة من الصليبيين نحو مائة ألف مقاتل) وكان لما اتفق المشطوب مع الصليبيين على الصلح حدد لتحصيل المال والأسرى مدة شهرين ، فلما حلفوا له على ذلك سلم البلد إليهم ودخلوا سلماً فلما ملكوه غدروا واحتاطوا على من فيه من المسلمين وعلى أموالهم وحبسوهم وأظهروا أنهم يفعلون ذلك ليصل إليهم ما بذل لهم ، وراسلوا السلطان فى إرسال المال والأسرى والصليب حتى يطلقوا من عندهم فشرع فى جمع المال فلما اجتمع عنده من المال مائة ألف دينار جمع الأمراء واستشارهم ، فأشاروا بأن لايرسل

شيئاً حتى يجددوا الحلف بإطلاق أصحابه وأن يضمن رجال جمعية الداوية (الهيكليين) ذلك لأنهم أهل دين يرون الوفاء ، فراسلهم صلاح الدين فى ذلك فقال الداوية لاتحلف ولانضمن لأننا نخاف غدر من عندنا ثم قال ملوك الصليبيين إذا سلمتهم إلينا المال والأسرى والصليب فلنا الخيار فيمن عندنا ، فحينئذ علم صلاح الدين عزمهم على الغدر ، فلم يرسل إليهم شيئاً وأعادالرسالة إليهم ، وقال نحن نسلم إليكم هذا المال والأسرى والصليب ونعطيكم رهناً على الباقى ، وتطلقون أصحابنا وتضمن الداوية الرهن ويحلفون على الوفاء ، فقالوا لانحلف ولانفعل شيئاً من ذلك بل تسلمون المال الذى تحصل والأسرى والصليب وتقنعون بأماننا حتى نسلم إليكم أصحابكم ، فأبى السلطان ذلك لعلمه أنهم إذا تسلموا المال والصليب والأسرى بدون رهن لايؤمن غدرهم فلما رأوه قد امتنع من ذلك أخرجوا خيامهم إلى ظاهر خنادقهم بجميع عساكرهم ، وركبوا فى وقت العصر فى اليوم السابع والعشرين من رجب ، وساروا حتى أتوا الآبار تحت تل العياضية ، ثم أحضروا من الأسرى المسلمين نحو الثلاثة آلاف وأوقفوهم وحملوا عليهم حملة الرجل الواحد فقاتلوهم صبراً طعناً وضرباً بالسيف (وهى نقطة سوداء فى تاريخ ريكاردوس) . واليزك الإسلامى يشاهد الصليبيين ولايعلم ماذا يصنع لبعده عنهم ، وكان اليزك قد أنفذ للسلطان وأعلمه بركوب القوم ووقوفهم فأنفذ إلى اليزك من قواه ، وبعد أن فرغ الصليبيون من قتل الأسرى حمل المسلمون عليهم وجرت بينهم حرب عظيمة قتل فيها وجرح من الجانبين خلق كثير ، ودام القتال إلى أن فصل الليل بين الطائفتين وأصبح المسلمون يكشفون الحال فوجدوا المسلمين الشهداء فى مصارعهم فتولاهم حزن شديد . أما الصليبيون فإنهم لم يبقوا من الأسرى إلا المقدمين والأقوياء للعمل ، فتصرف السلطان فى المال المجموع وأرسل أسارى الصليبيين وصليب الصلبوت إلى دمشق .

(رمى علم النمسا فى الخندق وسفر ملك فرنسا إلى بلاده)

لما دخل الملك فيلبس ملك فرنسا وريكاردوس ملك الإنكليز مدينة عكا كما تقدم ، اقتسما بينهما خزائن وذخائر الحرب وكل ماكان فيها ، وكان الملك فيلبس قد استعمل الرفق واللين فى عسكره بخلاف ريكاردوس المتصف

دائماً بالحنق وحدة الطبع والشراسة ضد عساكرنا الصليبيين أنفسهم ، ومن ذلك انه عندما دخلوا المدينة ، ورفعوا أعلامهم على أسوارها رفع ليوبولدوس دوك دى أو طريش (ملك النمسا) علمه على أحد أبراج المدينة فغضب ريكاردوس من ذلك ، وأمر بنزع علم النمسا ورميه فى الخندق .



ليوبولد دى ادطريش

فلما فعل ذلك تألم ليوبولدوس باطناً ، ولم يظهر غيظه من هذه الإهانة وكتمها فى قلبه ، وحرم على عساكره الانتقام عن هذه الإهانة قائلا لهم سوف أنتقم بنفسى من عدوى عند وجود الفرصة ، ثم إن كونراد صاحب صور لما وجد شدة معاملة ريكاردوس انسحب بعساكره من عكا راجعاً إلى صور .

ولهذا السبب أيضاً ، عزم الملك فيلبس أو غسطوس ملك فرنسا على العود إلى بلاده وخصوصاً لما اعتراه مرض ضيق الصدر ، ولم يعد يحتمل كبر ملك الإنكليز ، ولعلمه بأنه لايمكنه الإقامة مع ريكاردوس بالمسالمة . ففرح بذلك ريكاردوس لابتعاد ملك مثل هذا عنه لكونه كان يشاركه فى الانتصار والكسب ثم التمس من الملك فيلبس القسم بأنه فى رجوعه إلى مملكته لايمارس شيئاً ضد بلاد الإنكليز ولايتعرض لها مدة غياب ريكاردوس عنها فحلف له على

ذلك ثم سافر من عكا بحرا إلى مدينة صور وترك من جيشه الفرنساوى عشرة آلاف محارب تحت رياسة لدوك دى برغونيا ثم سافر من صور قاصداً بلاده وقال مؤرخوهم (سافر الملك فيلبس بعد أن أهداه السلطان صلاح الدين هدايا عظيمة لأنه كان رأى فيه صفات جليلة بعكس غيره من الصليبيين وأنه هو أعظم ملوك أوروبا ووصل إلى مدينة رومية وزار قبور الشهداء وقابله أهلها باحتفالات عظيمة ثم سار منها إلى مملكته فدخل مدينة باريس باحتفال عظيم) .

سفر ريكاردوس من عكا
وواقعة أرسوف وتخريب عسقلان

بعد سفر الملك فيلبس من عكا إلى بلاده صار الرئيس على جميع الصليبيين الملك ريكاردوس فبعد تريبه عكا جعلها مستقراك لزوجته برنجاريا وقد أخذه طمع فتح البلاد فجمع من العساكر الصليبية مائة ألف ورفع علمه على سارية مقامة على أربعة دواليب تجر بعجل فى وسط جيشه ونوى الاستيلاء على ... عسقلان ويافا وقيسارية وكان ذلك فى أول شعبان سنة ٥٨٧ وسار نحو حيفا على شاطىء البحر لايبتعد عنه فلما سمع السلطان برحيلهم نادى فى معسكره بالرحيل فساروا وكان على اليزك الملك الأفضل نجل السلطان ومعه سيف الدين أيازكوش معز الدين جرديك فضايقوا الصليبيين فى مسيرهم وأرسلوا عليهم من السهام ما كاد يحجب الشمس ووقعوا على ساقة الصليبيين فقتلوا منهم جماعة وأسروا جماعة فعاد ريكاردوس إلى الساقة فحماها وجمعهم وساروا حتى أتوا حيفا فنزلوا بها ونزل المسلمون بالقرب منهم وقدم السلطان ثقله إلى مجدل بابا ثم سار الصليبيون إلى قيسارية المسلمون يسايرونهم ويتخطفون منهم من قدروا عليه فيقتلونه لأن السلطان كان قد أقسم أنه لايظفر بأحد منهم إلا قتله أخذاً بثأر من قتلوه ممن كان فى عكا فلما قاربوا قيسارية لاصقهم المسلمون وقاتلوهم قتالاً شديدا ونزل الصليبيون بنهر القصب وبات المسلمون قريباً منهم وفى أثناء إقامتهم على نهر القصب خرج من الصليبيين جماعة مسترسلين وتقدموا على البركة فبصر بهم ابن المقدم فعبر إليهم من ورائهم هو ومن معه وهم لم يأخذوا من خلفهم الحذر ففاجأهم وفجعهم وفرغ من القتل والأسر فيهم قبل أن يدركهم المدد ثم نهض الصليبيون إليه وحملوا عليه وجرت وقعة شديدة انتهت بهزيمة الصليبيين وأحضر الأسارى لدى السلطان ثم رحل السلطان وعبر شعراء

أرسوف ونزل على قرية تعرف بدير الراهب وكان المسلمون قد سبقوهم إليها ولم يمكنهم مسايرتهم لضيق الطريق فلما وصل الصليبيون حمل المسلمون عليهم حملة منكرة ألحقوهم بالبحر فقتل منهم كثير والمسلمون يكبرون ويهللون ثم أن الصليبيين اجتمعوا وحملوا حملة واحدة وفى مقدمتهم ريكاردوس الشجاع وفرسان جمعية ضياف الغرباء (الإسبتارية) وكانت هذه المعركة عمومية وقد أظهر فيها ريكاردوس من البسالة والشجاعة العجيبة وقتل من أمراء الصليبيين يعقوب دى افسناس وفي حال وقوعه صرخ قائلا يا ريكاردوس انتقم من الأعداء عن موتي وولى المسلمون منهزمين لا يلوى أحد على أحد وكان كثير من السوقة قد ألفوا القيام وقت الحرب قريباً من المعركة فلما كان ذلك اليوم كانوا على حالهم فلما انهزم المسلمون عنهم قتل منهم كثير والتجأ المنهزمون إلى القلب الذى فيه السلطان صلاح الدين وكان بالقرب من المسلمين شعراء (غابة) كثيرة الشجر فدخلوها وظنها الصليبيون مكيدة فعادوا عنهم وزال عن المسلمين ما كانوا فيه من الضيق وقتل من المسلمين إياز الطويل مملوك السلطان صلاح الدين وهو من الموصوفين بالشجاعة والشهامة لم يكن فى زمانه مثله وقد اشتهرت شجاعته بين العسكريين بحيث انه إذا كان في موضع وعرفه الصليبيون خافوا منه وسبب قتله سقوط جواده ، فلما رأى السلطان ماحل بالمسلمين ، سار حتى أتى طلبه فوقف فيه ودق الصنوج فاجتمع فى الصلب خلق كثير ووقف الصليبيون قبالتهم على رؤوس التلول والروابى ، ثم رجعوا إلى منزلتهم لخوفهم من وجود كمين وتراجعت باقى العساكر المنهزمة والجرحى وصدم الملك الأفضل وانفتح دمل كان فى وجهه ، ثم سار ريكاردوس بمعسكر الصليبيين ، إلى يافا ولم يكن بها أحد من المسلمين فملكوها وأقاموا بها وأخذوا فى بناء الاستحكامات فيها . أما السلطان صلاح الدين فإنه رحل بأثقاله إلى مدينة الرملة تاسع عشر شعبان ، وهناك عقد مجلساً من أخيه الملك العادل وأمراء المسلمين واستشارهم ، فأشار علم الدين بن سلمان بن جندر بخرابها للعجز عن حفظها على مابها ، ووافقه الجماعة على ذلك ، قالوا إن الصليبيين قد تقووا بأخذ عكا وما فيها من الأسلحة ، فلم تسمح نفس السلطان بتخريبها وندب الناس إلى دخولها وحفظها فلم يجبه أحد ، وقالوا هذه يافا قد نزلوا بها وسكنوا فيها ، وهى مدينة بين

القدس وعسقلان متوسطة ، ولاسبيل إلى حفظ المدينتين ، فاعمد إلى أشرف الموضعين ، فحصنه وحكمه ، فتقر الرأى على إقامة العادل ومعه عشرة من الأمراء بقرب يافا حتى إذا تحرك العدو ، كانوا منه على علم . وسار السلطان حتى أتى عسقلان وضرب خيمته شماليها ، فبات هناك مهموماً بسبب خراب عسقلان وقال : والله لئن أفقد أولادى كلهم ، أحب إلى من أن أهدم منها حجرا واحداً ، ولكن إذا قضى الله بذلك لحفظه منفعة المسلمين فكيف أصنع ، فاستحضروا الوالى وأمره بذلك وقد اجتاز بالسوق والوطاق بنفسه يستنفر الناس للخراب وقسم السور على الناس ، وجعل لكل أمير وطائفة من العسكر بدنة معلومة وبرجا يخربونه . ودخل الناس البلد ووقع فيه الضجيج والبكاء وشملهم عليه حزن عظيم ، وكان هو بنفسه وولده الأفضل يحثانى الناس على الخراب خشية أن يسمع العدو فيحضر ولايمكنهم من خرابها وأباحهم الناس الذى كان ذخيرة فى البلد ، وأمر بحرق البلد فاحترقت ، والأخبار تتوارد من جانب الصليبيين بعمارة يافا وكان عرض سور عسقلان تسعة أذرع وفى بعض مواضعه عشرة ، وأحرق برج الاسبتارية وذلك لغاية آخر شعبان .

(فى وقوع ريكاردوس فى الأسر ونجاته وعرض زواج أخته جوانا بالملك العادل)

لما كان السلطان صلاح الدين مهتما بتخريب مدينة عسقلان ، وصله من عز الدين جرديك كتاب يذكر فيه أن الصليبيين قد تقسموا ، وصاروا يخرجون من يافا ويغيرون على البلاد القريبة منها ، ويطلب تحرك السلطان لعله يبلغ منهم غرضاً فى عزلتهم ، فعزم على الرحيل ، وفارق عسقلان فى يوم الثلاثاء ثانى رمضان سنة ٥٨٧ . ونزل بالرملة يوم الأربعاء ثالثه ، وأمر بتخريب حصنها وتخريب كنيسة اللد ، وركب جريدة إلى القدس فوصلهما يوم الخميس رابعه ، لأجل تقويته وخرج منه يوم الاثنين ثامنه ، وفى هذا اليوم خرج ريكاردوس وبعض خاصته للتنزه والصيد بين حقول صارون وجلس تحت شجرة هو ومن معه من الأمراء والعساكر ففاجأته العساكر الإسلامية فركب هو ومن معه خيولهم ولكن قد كانت أحاطتهم العساكر الإسلامية من كل ناحية فلم يقدروا على المدافعة عن أنفسهم ، فخاف ريكاردوس من سقوطه بيد المسلمين (فكان

المسلمون لايعلمون أنه الملك) فأراد أحد خاصته وهو وليم دى براترالاس المولود فى إقليم بروفاص بفرنسا أن يحمى ريكاردوس ، وكان وليم هذا لابساً ملابس أفخر من ملابس ريكاردوس ، فنادى المسلمين بالعربية قائلا (أواه ياشجعان احفظوا لى حياتى أنا هو الملك) فهجم عليه فرسان المسلمين وشدوا وثاقه وأخذوه أسيراً وبهذه الحيلة نجا ريكاردوس وهرب إلى يافا لأن المسلمين فرحوا بأسر وليم ظانين أنه الملك ولما علموا خطأهم ، أرسلوه إلى دمشق ليسجن بها . أما ريكاردوس فإنه أراد مكافأة هذا الأمين على أمانته ، فطلب من السلطان صلاح الدين إطلاقه وفداه بعشرة أمراء من المسلمين المأسورين عنده وتم ذلك فعلا وكان السلطان قد نزل على النطرون فى ثالث عشره وخيم بها فراسله ريكاردوس يطلب المهادنة .



جوانا أخت ريكاردوس وأرملة مليم ملك صقلية

وكانت الرسل تتردد إلى الملك العادل أبى بكر بن أيوب بأمر ريكاردوس وأعلموه بأن للملك أختاً اسمها جوانا كانت متزوجة بوليم ملك صقلية ، ومات ويرغب تزويجها للملك العادل بالشروط الآتية : أن يكون القدس وجميع بلاد الساحل التى بأيدى المسلمين للملك العادل ، وتكون عكا وما بيد الصليبيين من البلاد إلى جوانا لأخت ريكاردوس ، وأن فرسان جمعية الهيكليين (الداوية) وجمعية مارى يوحنا المعمدان (الإسبتارية) خاضعين لهذا الاتفاق ، وأن الملك

العادل يقطعهم البلاد والقرى دون الحصون ، فلما وجد ذلك الملك العادل صواباً ونافعاً لمصالح المسلمين ، عرضه على أخيه السلطان صلاح الدين ، فأجابه إلى ذلك ، فلما شاع الخبر فى معسكر الصليبيين ، اجتمع القسيسون والأساقفة والرهبان عند جوانا أخت ريكاردوس وانكروا عليها ذلك وخوفوها واتهموها فى دينها وقالوا هذه فضيحة فظيعة ونسبة شنيعة وتكونين عاصية للمسيح فرجعت عن قصدها .

(مراسلة ريكاردوس لصلاح الدين بالصلح وماجرى بعد ذلك وتعمير بيت المقدس)

وبعد ذلك أرسل ريكاردوس إلى السلطان صلاح الدين يقول له : إن المسلمين والصليبيين قد هلكوا ، وخربت البلاد ، وتلفت الأموال ، والأرواح ، وأن هذا كله بخصوص القدس والصليب والبلاد ، وحيث إن القدس متعبدنا فلا نتزل عنه ولو لم يبق منا واحد ، وأما البلاد فيعاد إلينا ماهو قاطع الأردن ، وأما الصليب فهو خشبة عندكم لاقيمة لها وهو عندنا عظيم الشأن ، فيمن به السلطان علينا ونستريح من هذا العناء الدائم . فأرسل له السلطان فى جوابه إن القدس لنا كما هو لكم ، وهو عندنا أعظم مما هو عندكم ، فإنه مسرى نبينا ومجتمع الملائكة فلا يتصور أن ننزل عنه ولانقدر على التلفظ بذلك بين المسلمين ، وأما البلاد فهى أيضاً لنا فى الأصل واستيلاؤكم كان طارئاً عليها لضعف من كان بها من المسلمين ذلك الوقت ، وأما الصليب (صليب الصلبوت) فإتلافه عندنا قربة عظيمة لايجوز أن نفرط فيه إلا لمصلحة راجعة إلى الإسلام . ثم تواتر الخبر أن الصليبيين عزموا على النهوض . فسار السلطان من مخيمه بالنطرون إلى الرملة سابع شوال سنة ٥٨٧ ، وحصلت واقعة فى ناحية يازور فى ثامنه ، وكان النصر فيها للمسلمين ، وفقد منهم ثلاثة ، وفى سادس عشرة ، وقعت واقعة أخرى عظيمة قتل فيها جماعة من الأمراء وأسر فارسان من الصليبيين معروفان بالبأس سوى غيرهما ، وقتل منهم زهاء ستين . وورد خبر بأن الأسطول المصرى استولى على مراكب الصليبيين وفيها مركب تعرف بالمسطح وفى ثامن عشرة ، اجتمع الملك العادل وريكاردوس على طعام ومحادثة وانفصلا على توادد ومطايبة وطلب منه الاجتماع بخدمة السلطان

صلاح الدين فامتنع السلطان ،وقال الملوك إذا اجتمعوا تقبح بينهم المخاصمة بعد ذلك وإذا انتظم أمر حسن الاجتماع وفى ثالث القعدة ، رحل الصليبيون إلى الرملة وأظهروا قصد القدس بتلك الرحلة ودامت الوقعات بين المسلمين وبينهم . وفى الثالث والعشرين من شهره ، رحل السلطان إلى القدس ينوى الإقامة وكان الشتاء قد حل والغيث قد اتصل ، فوصل القدس وقت العصر ، ونزل بدار الأقساء المجاورة لكنيسة القيامة ، وفى ثالث الحجة وصلت العساكرالمصرية بقيادة أبى الهيجاء السمين ومعها أموال ، وتحول الصليبيون إلى النطرون ، فقوى السلطان اليزك فوقعوا على سرية فغنموها وساقوا منها إلى القدس مايزيد عن خمسين أسيراً عدا من قتل منهم . وواقعهم سابق الدين عثمان صاحب شيزر يوم عيد الأضحى ، فنحر منهم وضحى واحتوى على عشرة من مقدميهم أسرا وقتلا ، وانهزم باقى الصليبيين فى الجبال وتركوا خيلهم فغنمها المسلمون ولم يزل المسلمون عليهم مستظهرين مدة مقامهم بالنطرون ، وأخذوا يقطعون الطريق على تجارهم ، حتى أنهم أخذوا قافلة ثقيلة بما فيها ، ولم يقدر الصليبيون على تخليصها فرحلوا عائدين إلى الرملة فى الثانى والعشرين من شهره وكان السلطان قد شرع فى تحصين القدس وعمارة أبراجه وأسواره ، وحفر خنادقه ، وأرسل إلى البلاد بجميع رجال هذه الأعمال ، ففى هذا اليوم وصل من الموصل خمسون رجلا لقطع الصخور من الخندق ، وأقبل الأمراء للعمل فيه وعمل فيه السلطان بنفسه بنقل الحجارة هو وأولاده وأمراؤه وأجناده ومعهم القضاة والعلماء ، وقد قال الرشيد بن النابلسى من قصيدة له عن قصد الصليبيين المقدس .

ويح الفرنجة بل ويل أمهم أوما ... فيهم لبيب على العلات يعتبر
فكم نثرتهم ضربا إذا انتظموا ... وكم نظمتهم طعناً إذ انتثروا
كم قد سقيتهم ذلا فلا عجب ... إن عر بدوا سفهاً فالقوم قد سكروا
إن بمموك فلا بدع لجهلهم ... تسعى إلى الأسد فى غاباتها الحمر
زاروا نموراً ولاتغنى وقاحتهم ... إذا أسودك فى أبطالهم زأروا
فحام على حوطة البيت المقدس لا ... خوف وحاشاك من خوف ولاضرر
هو الشريف وقد ناداك معتصما ... فما على مجده من بعدها حذر
وسوف تستغفر الأيام هفوتها ... وتحصد الفئة الأوغاد مابذروا

وقد قسم السلطان سور البلد على أولاده وأخيه وأجناده فشرعوا فى إنشاء سور جديد ، وكان يركب كل يوم وينقل الصخر على قربوس سرجه فيتبعه الأكابر والأمراء فى نقل الصخور واهتم السلطان بذلك اهتماماً زائداً .

(بناء الصليبيين مدينة عسقلان وماجرى فى أثناء ذلك وغضب بعضهم)

عقد الصليبيون مجلس شوراهم الملكى ، فقرر مسيرهم إلى عسقلان وتعمير أسوارها التى هدمها السلطان صلاح الدين ، وكان هذا على غير مرام العساكر الصليبيين ، فغضب دى برغونيا ، وخرج هو وعساكره الفرنساوية من تحت سنجق الصليب ، فأرسل إليه ريكاردوس وفداً لمصالحته وإرجاعه . وفى ثالث محرم سنة ٥٨٨ ، سار ريكاردوس بالمعسكر الصليبى إلى عسقلان فشرعوا فى بناء أسوارها ، وكان ريكاردوس يحثهم على ذلك ويطوف حولهم ثم إن بعض أمرائهم شكا من ذلك التعب وقالوا ماأتينا من بلادنا إلى آسيا لنبتنى المدن بل لتخليص القدس من أيدى المسلمين ، وكان الأمير ليوبولدوس دى أوطريش هو وجيشه النمساوى ممتنعاً عن الشغل وقال لريكاردوس إنى لست حداداً ولانجاراً ولا بناء ثم إنه سحب عسكره ، وخرج عن معسكر الصليبيين بغضب ، وكذلك بعض الأمراء قد أهملوا معسكر الصليبيين راجعين إلى ورائهم ، أما ريكاردوس فلم يهتم لهم وداوم فى بناء السور . وفى أثناء ذلك نظر ريكاردوس من بعد دخانا فقصده وكان ذلك جماعة من الأسدية وسيف الدين ياز كوج وعلم الدين قيصر ، وهم لايعلمون بما دهمهم ، فوصل إليهم ريكاردوس وقت المغرب فوقع عليهم وكانوا فريقين نازلين فى موضعين ، فلما وقع على أحدهما ركب الفريق الثانى ، وواقعه حتى ركب الفريق الأول فدافعوهم وواقعوهم وساقوا قدامهم أثقالهم وخلصوا ناجين ، وسلم المسلمون من أعدائهم ولم يفقد منهم إلا أربعة وكانت وقعة عظيمة دفع الله خطرها وهول ضررها . وفى حادى عشره كبس عز الدين جرديك تبنى على من نزل بها من الصليبيين ، فأوقع بهم البلاء وساق منهم اثنى عشر أسيراً ومتاعاً كثيراً وأغار أيضاً على ظاهر عسقلان فى ثانى صفر وجاء بثلاثين أسيراً ، وفى ليلة رابع عشر صفر كمنت سرية مقدمها فارس الدين ميمون القصرى عند تبنى إلى أن عبرت قوافل الفرنج فساقها بأحمالها وأثقالها ونسائها ورجالها .

(فى عزم ريكاردوس على السفر إلى بلاده وموت كونراد صاحب صور وغيره

اجتمعت العساكر الصليبية فى سهل عسقلان للاحتفال بعيد الفصح ، وإذا بوفد قد أقبل من بلاد الإنكليز قاصداً ملكهم ريكاردوس وأخبروه بأن أخاه يوحنا خرب المملكة واستولى عليها ، فلما سمع هذا الخبر جمع إليه رؤساء العساكر ، وأعلمهم بما جرى وأنه يرغب السفر إلى بلاده فتكدروا لذلك وشرعوا فى انتخاب رئيس عليهم بدلا منه يكون ذا كفاءة فانتخبوا الأمير كونراد صاحب مدينة صور ذاك الرجل المشهور بالمكر والدهاء وهو السبب فى تجريد هذه الحروب الصليبية الثالثة ، وكان كونراد هذا مقيما بمدينته فأرسلوا إليه وفداً يعلمونه بانتخابهم هذا ، ففرح بذلك أهل مدينة صور وعسكره وشرعوا فى الاحتفال بعيد له وكان ذلك فى ثالث عشر ربيع آخر سنة ٥٨٨ ، وكان رجلان من الإسماعيلية الحشاشين دخلا مدينة صور قبل ذلك بمدة وتنصرا وأظهرا الترهب والتعبد ولزما الكنيسة وشكرهما القسيسون والرهبان وأحبهما كونراد (وهو لايعلم بأنهما سيكونان قاتليه) ولم يكن يصبر عنهما ففى اليوم المذكور الذى هو أعظم الأيام يوم ورود الخبر بانتخابه رئيساً على جميع العساكر الصليبية وثب عليه الإسماعيليان وجرحاه جراحاً بليغة واختفى أحدهما بكنيسة ، فاتفق أن كونراد حمل إليها لتسد فيها جراحاته فوثب عليه الإسماعيلى ثانياً وأجهز عليه فقبضوا عليهما وسألوهما عن أسباب ذلك فقالوا إن الذى أغرانا هو ريكاردوس (ولكن مؤرخى الصليبيين قد برأوا ريكاردوس من ذلك وبعض مؤرخى العرب قال أن السلطان صلاح الدين أرسل إلى سنان رئيس الإسماعيلية يقول له أرسل من يقتل ريكاردوس أو كونراد ، ولما علم سنان بأن قتل ريكاردوس صعب أرسل هذين الرجلين إلى صور ، وجرى ماتقدم ، ثم بعد قتل كونراد المذكور تزوج أرملته هنرى دى شمبانيا وعمه ملك فرنسا فيلبس وخاله ملك الإنكليز ريكاردوس فأقيم ملكا على صور ثم أن خاله ريكاردوس لتصميمه على السفر تنازل له عن البلاد التى امتلكها فسار هنرى إلى عكا فقابلوا باحتفال لائق بملك لهم . وفى أثناء ذلك قدم من بلاد الإنكليز وفد آخر جدد قلق ريكاردوس وانزعاجه بما أخبروه عن بلبلة مملكته من أعمال أخيه يوحنا وبأن الملك فيلبس ملك فرنسا قد هدد إمارة نورماندية .

(فى تقرب الصليبيين إلى القدس ورجوعهم عنه بقرار مجلس مشورتهم ومافعله السلطان)

لما أتت الوفود من بلاد الإنكليز إلى ريكاردوس وعزم على السفر وولى ابن أخته على بلاد فلسطين أراد ان يظهر أثراً من شجاعته أمام الصليبيين لتكون تذكاراً له فجمع عسكره بجهة الرملة وفى تاسع جمادى الأولى سنة ٥٨٨ ، سار إلى قلعة الداروم ، فاستولى عليها وخربها ، وكان السلطان صلاح الدين لدخول فصل الشتاء ، قد أمر بإعادة العساكر إلى بلادها (وهو مقيم بالقدس الشريف) ليستريحوا ولم يبق إلا بعض العساكر المصرية معه ، فلما علم بذلك ريكاردوس ، فرح وظن أنها فرصة مناسبة له وأراد اغتنامها ، فسار بالعساكر الصليبية حتى بلغوا بيت نوبة وبينها وبين القدس عشرون ميلا ، وقد ألهبهم المسلمون بنهبهم وأضعفوهم بسلبهم يتسلطون عليهم من كل ناحية ويكمنون لهم تحت كل رابية ، وقد قويت قلوبهم بثبات السلطان بالقدس ، وفى آخر شهر وصل ريكاردوس إلى قلونية وهى على فرسخين من القدس ، فلما سمع السلطان صلاح الدين بقربهم فرق أبراج البلد على الأمراء ، واستعد للقتال فلما وصل الصليبيون إلى قلونية صب المسلمون عليهم البلاء ، وتابعوا إرسال السرايا فبلى الصليبيون بمالا قبل لهم به ، فأمر ريكاردوس بعقد مجلس مشورتهم مؤلفاً من أعضاء جمعية الهيكليين (الداوية) ومن خمسة أمراء فرنساويين ومن خمسة أمراء من أهل سوريا فدام انعقاد هذا المجلس جملة أيام ، وكان الأعضاء الفرنساويون قد طلبوا حصار القدس عاجلا ، لعلمهم بأن العساكر الإسلامية فى أجازتها ، وباقى الأعضاء قرروا بأن هذه الإشاعات غير حقيقية وأنها فقط حيلة وشراك وأنه لايجوز حصار هذه المدينة لأنها الآن فى غاية القوة خصوصاً لوجود السلطان بها ، وبعد مناقشات قرروا بأغلبية الآراء ، بعدم حصار هذه المدينة المقدسة والرجوع عنها والتوجه إلى الديار المصرية ومحاصرة مدينة القاهرة (فانظر قرار مجلس مشورة الصليبيين الثالثة وكيف أنها خرجت من بلادها بقصد تخليص القدس من المسلمين والآن قرروا بعدم حصاره ومحاصرة القاهرة كأن القاهرة هى بيت المقدس الذى فيه قبر المسيح على دعواهم ، مع أن هذا القرار جاء كما قال مؤرخهم مذهلا مبلبلا . وكان السلطان صلاح

الدين أحضر عنده جميع الأمراء وفى مقدمتهم الأمير أبى الهيجاء السمين والمشطوب والأسدية بأسرهم فقام خطب القاضى بن شداد خطيباً يحثهم على الجهاد ومما قاله ، إن النبى ﷺ لما اشتد به الأمر بايعه الصحابة على الموت فى لقاء العدو ، ونحن أولى من تأسى به والمصلحة الاجتماع عند الصخرة والتحالف على الموت فلعل ببركة هذه النية يندفع هذا العدو ، فاستحسن الجماعة ذلك ووافقوا عليه ، ثم شرع السلطان بعد أن سكت زماناً وهو يفتكر والناس سكوت كأن على رءوسهم الطير ، ثم قال الحمد لله والصلاة على رسول الله اعلموا أنكم جند الإسلام اليوم ومنعته ، وأنتم تعلمون أن دماء المسلمين وأموالهم وذراريهم معلقة فى ذممكم ، وأن هذا العدو ليس له من المسلمين من يلقاه إلا أنتم فإن لو يتم أعنتكم والعياذ بالله طوى البلاد كطى السجل للكتاب ، وكان ذلك فى ذمتكم فإنكم أنتم الذين تصديتم لهذا كله وأكلتم مال بيت مال المسلمين ، فالمسلمون فى سائر البلاد متعلقون بكم والسلام . فانتدب لجوابه سيف الدين المشطوب وقال : يامولانا نحن مماليكك وعبيدك وأنت الذى أنعمت علينا وكبرتنا وعظمتنا وأعطيتنا وأغنيتنا ، وليس لنا إلا رقابنا وهى بين يديك ، والله مايرجع أحد منا عن نصرتك إلى أن يموت وقال الجماعة مثل ماقال فانبسطت نفس السلطان وانصرف من بالمجلس ، ثم اجتمع جماعة المماليك عند أبى الهيجاء السمين وأنكروا موافقة الأمراء للسلطان على حصار القدس ، وقالوا إنهم يخافون أن يحصروا بالقدس ، ويجرى عليهم ماجرى على أهل عكا ، وحينئذ تؤخذ بلاد الإسلام ، وطلبوا أن يعمل مصاف فإما أن يكون النصر للمسلمين فيستولوا على باقى بلاد فلسطين ، وإما أن يكون النصر للصليبين فيأخذوا القدس . وإذا كان لابد من الحصار فيكون بعض أقارب السلطان معنا أو هو معنا ، لأن الأتراك لايدينون للأكراد ، والأكراد لايدينون للأتراك ، وكان ذلك فى يوم الخميس . وفى يوم الجمعة صلى السلطان صلاة الجمعة وصار يتضرع إلى الله سبحانه وتعالى وهو ساجد ، ودموعه تتقاطر على مصلاه ويطلب من الله النصر ويقول « اللهم انصر دينك ، واحم بيتك المقدس ، واحفظ عبادك المسلمين ، إنك سميع مجيب » وفى صباح يوم السبت وصل مكتوب من عز الدين جرديك فى اليزك يفيد بأن الصليبيين قد رجعوا جميعهم بعد قرار مجلس مشورتهم كما تقدم وكفى الله المؤمنين القتال .

وكان ريكاردوس قد استعمل جواسيس من أهل سوريا ليأتوه بأخبار المسلمين ، وكان قادماً بعض عسكر من مصر ومعهم قوافل للتجار ، فأقاموا بنابلس أياماً حتى اجتمعوا فأتى الجواسيس إلى ريكاردوس وأعلموه بذلك ، فأمر عسكره بالانحياز إلى سفح الجبل ، وركب فى ألف فارس وألف راجل ، فأتى تل الصافية فبات ، ثم سار حتى أتى موضعا يقال له الحمى . فأنفذ السلطان إلى هذا الركب يعلمه بنهوض الصليبيين نحوهم ، وأمرهم أن يبعدوا فى البرية ، فركب ريكاردوس بصفة بدوى (أعرابى) مع بعض جواسيسه ، وسار حتى أتى الركب وطاف حوله بالصفة المذكورة ، ورآهم ساكنين قد غشيهم النعاس ، فعاد واستركب عسكره وكانت الكبسة قريبة الصباح فبغت الناس ووقع عليهم بخيله ورجله وداهمهم ، وكان الشجاع منهم الذى يركب فرسه وينجو ، وانقسم الركب ثلاثة أقسام قسم قصد الكرك مع جماعة من العرب ، وقسم أوغلوا فى البرية مع جماعة من العرب أيضاً ، وقسم استولى العدو عليه فساقهم بجمالهم وأحمالهم وجميع مامعهم ، وكانت واقعة شنعاء لم يصب الإسلام بمثلها من مدة مديدة وتبدد الناس فى البرية وتركوا متاعهم وجمع ريكاردوس كثيرا من الخيل والبغال والأقمشة وغيره ، وسار بالجميع إلى معسكره فوصله فى السادس عشر من جمادى الآخرة وكان يوماً عظيماً عندهم .

(استيلاء السلطان على يافا ومحاربة ريكاردوس)

وبلغ السلطان فى العاشر من شهر رجب سنة ٥٨٨ ، بأن الصليبيين قد خرجوا من عكا قاصدين بيروت ، فبرز من القدس إلى منزلة يقال لها الجيب ، وجاء العادل من الشرق والظاهر من حلب ورحل السلطان من الجيب إلى بيت نوبة ، ثم رحل إلى الرملة فنزل بها على تلال بين الرملة واللدوركب جريدة حتى أتى يازورويبيت حن وأشرف على يافا ، ثم نزل عليها من الغد ، ورتب عسكره فجعل فى الميمنة ولده الظاهر ، وفى الميسرة أخاه العادل ، وركب عليها المنجنيقات وزحف عليها ، فأرسل من بها يطلبون الصلح ، فأجابهم على قاعدة القدس وقطيعته فرضوا بذلك ، وطلبوا الانتظار إلى يوم السبت التاسع عشر من رجب ، إما أن تجيئهم نجدة ، وإلا تكون القاعدة على ماستقر ، فأبى السلطان وأمر بالنقب فخشى وأحرق فوقع ، بعض السور فعلا الغبار مع

الدخان ، فأظلم الأفق وماتجاسر أحد علي الدخول خوفا من اقتحام النار ، فلما انكشف الغبار ، ظهر وقوف الصليبيين بأسلحتهم فى الموضع المهدوم ، وجد السلطان فى القتل ورمى المنجنيقات ، فأرسلوا يطلبون الصلح فقال لهم على قطيعة القدس ، فسألوا السلطان إبطال القتال إلى أن يأتى من داخل المدينة بقرار الصلح ، فقال السلطان ماأقدر على منع المسلمين من هذا الأمر . وقاتل المسلمون قتالا شديداً وأخذوا البلد عنوة ودخلوها ، ونهبوا من الأقمشة العظيمة والغلال شيئاً كثيراً وبقايا من منهوبات القافلة المصرية . وبعد دخول المسلمين استقرت القاعدة على ماقرره السلطان ، وكان قايماز النجمى فى طرف الغول لحمايته من عسكر الصليبيين الذى بعكا ، فوصل منه كتاب بأن ريكاردوس عدل عن قصد بيروت ، لما سمع بأخبار يافا ، وقد جمع عسكره فى المراكب وعزم على قصد يافا . فاشتد عزم السلطان على تتمة الأمر وتسلم القلعة لأنه لم يستول بعد عليها . فطلبوا منهم الخروج من القلعة حسب الاتفاق ، فخرج البعض والباقى رأى مراكب الصليبيين قادمة ، فعلموا بأنها نجدة لهم فشقوا عصا الطاعة ، فأبطأ ريكاردوس بنزوله إلى البر فخاف من بالقلعة وأرسلوا بطريركهم وغيره فى طلب الصلح كما كان ويعتذر عنهم ، وكان ريكاردوس لما وصل إلى مينا يافا وجدها مملوءة بعساكر الإسلام وكذلك المدينة مرفوعاً عليها أعلام المسلمين . فعلم بأن المسلمين قد استولوا عليها لامحالة ، فتأخر عن النزول إلى البر ، ثم بلغه أنه لم يزل البعض بالقلعة ، فنزل من المراكب هو وعسكره ، وحمل على المسلمين ، فلما رأى السلطان ذلك ، قبض على الرسل وأمر بتأخير الأثقال والأسواق إلى-يازور . فرحل العسكر وتخلف لهم ثقل عظيم مما كانوا نهبوه من يافا ، وأقام ريكاردوس فى موضع السلطان الذى كان فيه لمضايقة البلد وأمر ريكاردوس من فى القلعة أن يخرجوا إليه لتعظيم سواده ، وبلغ السلطان بأن ريكاردوس مخيم بظاهر يافا بألفى رجل من عسكره ، فأراد كبسه فسار بجريدة ولما تقدم بمن معه لمحاربتهم ، وصار يحث العساكر على الثبات قال له الجناح أحد الأمراء وهو أخو المشطوب ، قل لغلمانك الذين ضربوا الناس يوم فتح يافا ، وأخذوا منهم الغنيمة يحملون ، وكان أيضاً فى قلوب العساكر الإسلامية غيظ من حصول الصلح بعد دخول يافا ، لأن السلطان كان منعهم من أخذ الغنيمة ، فلما رأى السلطان ذلك أعرض عن القتال ، وسار إلى

يارور ، وحصلت مناوشات بين العساكر الإسلامية والصليبية ، أظهر فيها ريكاردوس من الشجاعة مالم يره أحد ، فإنه استل سيفه وقال لعن الله من لم يتبعنى وهجم على المسلمين هجمات شديدة بنفسه بدون مساعدة ، وحمل من طرف الميمنة إلى طرف الميسرة فلم يتعرض له أحد ، وصار فى وسط العساكر الإسلامية وقد ظنه عسكره أنه قتل أو أسر ثم وصل إليهم سالماً وقد مدحه مؤرخهم مدحا فائقاً ، حتى أنهم فضلوا شجاعته على شجاعة الإسكندر الكبير وعن أعمال يهوذا المكابى وورولاند وغيرهم .

(فى مرض ريكاردوس والهدنة بينه وبين السلطان)

فى أوائل شعبان سنة ٥٨٨ ، حصل لريكاردوس مرض ، فصار يرسل رسله إلى السلطان في طلب الفاكهة والثلج ، والسلطان يرسل له كل ما يشتهيه ، وأرسل إليه طبيباً يعالجه ، وقد أكثر ريكاردوس فى طلب الكمثرى والخوخ ، والسلطان يمده بذلك بقصد كشف الأخبار عن العدو بتواتر الرسل ، ثم جاء رسول من ريكاردوس مع الحاجب أبى بكر يشكر السلطان على إسعافه بالفاكهة والثلج ، وقال أبو بكر إن ريكاردوس انفرد به وقال له قل لأخى (يعنى الملك العادل) يتبصر كيف تتوصل إلى السلطان فى طلب الصلح ، وتستوهب لنا منه عسقلان ، وأسافر إلى بلادى ، ويبقى هو هنا بهذه الشرذمة ، ويأخذ البلاد منهم ، فليس غرضى إلا إقامة جاهى بين ملوك أوروبا ، وإن لم ينزل السلطان عن عسقلان فتأخذ لى منه عوضاً عن خسارتى على عمارة سورها . فأرسل السلطان إلى الملك العادل بأنه إذا تنازل ريكاردوس عن عسقلان ، فصالحه لأن العساكر قد ضجرت من ملازمة البيكار ، والنفقات قد نفذت ، ثم إن ريكاردوس تنازل عن عسقلان وعن العوض عنها واستوثق منه على ذلك ، فعقد السلطان ديوانه يوم السبت ثامن عشر شعبان لأجل تحرير شروط الصلح ، وتحديد البلاد التى تكون بيد الصليبيين ، فذكر يافا وأعمالها ، وأخرج منها الرملة واللد ومجدل بابا ، وذكر قيسارية وأعمالها ، وأرسوف وأعمالها ، وحيفا وأعمالها ، وعكا وأعمالها ، وأخرج منها الناصرة وصنورية وأثبت ذلك فى الورقة ، وقال للرسول هذه حدود البلاد التى تبقى فى أيديكم ، فإن صالحتم على ذلك فمبارك وقد أعطيتكم يدى ، فينفذ ملككم من يحلف فى بكرة غدو ،

وإلا نعلم أن هذه مماطلة ، وكان من القاعدة أن تكون عسقلان خراباً ، وأن يتفق المسلمون والصليبيون على خرابها ، واشترط دخول بلاد الإسماعيلية فى يد المسلمين ، وتكون أنطاكية وطرابلس فى الصلح وأن تكون الرملة واللد بينهما مناصفة ، وأن جميع المسيحيين يزورون القدس بالراحة بدون ممانعة . واستقرت القاعدة على أنهم يحلفون يوم الأربعاء الثانى والعشرين من شهره ، ورضى بذلك رجال الجمعيات الرهبانية (جمعية الهيكليين وجمعية القديس يوحنا المعمدان) وسائر أمراء الصليبيين ، فحلف هنرى دى شامبانيا ابن أخت ريكاردوس وهو المتولى على بلاد سوريا ، وجماعة من أمرائهم للسلطان على الصلح وأخذوا يده وحلف لهمالملك والأفضل والظاهر وغيرهم وجميع أصحاب البلاد المجاورة لبلادهم ، وعقدت الهدنة العامة فى البر والبحر والسهل والوعر لمدة ثلاث سنوات وثمانية أشهر ابتداؤهم الحادى والعشرين من شعبان الموافق أول سبتمبر .

(انتهاء الحروب الصليبية الثالثة)

بعد انتهاء شروط الصلح المذكورة بين السلطان صلاح الدين وريكاردوس ملك الإنكليز ورئيس العساكر الصليبية الثالثة ، أمر السلطان صلاح الدين ، أن ينادى فى الوطاقات والأسواق والمدن ، أن الصلح قد تم فمن شاء من المسلمين الدخول فى بلاد النصارى فليدخل ، ومن دخل من النصارى فى بلاد المسلمين فلا أحد يمنعه ، ثم أرسل مائة نقاب ومعهم أمير لأجل الاشتغال فى هدم سور عسقلان الذى بناه الصليبيون ، كما هو مذكور فى شروط الصلح ولخروج من بها من الصليبيين ، وقد أقام مع النقابين بعض الصليبيين لإتمام هدم السور ، وكان ذلك اليوم الذى تم فيه الصلح يوماً مشهوداً بين الطرفين ، ثم إن جميع العساكر الصليبية طلبوا زيارة القدس الشريف قبل سفرهم ، فسارت العساكر الفرنساوية بقيادة دوك دى بورغونيا ، وبعد الزيارة توفى القائد المذكور ، وسافرت العساكر إلى بلادها ، ثم تبعتهم العساكر النمساوية وغيرها لأجل الزيارة ، وكان السلطان صلاح الدين يرسل معهم الخفراء إلى أن يتموا زيارتهم ويعودوا ، ولما وجد ريكاردوس كثرة الزوار من الصليبيين ، أرسل إلى السلطان صلاح الدين لكى يمنع كل من أراد الزيارة مالم يكن معه تصريح من

ريكاردوس ، ولكن السلطان لما وجد الأمراء والقواد قدموا إليه بقصد الزيارة أبى ردهم بل شرع فى إكرام كل من يرد منهم وإمدادهم بالطعام ومباسطتهم ومحادثتهم ، وعرفهم أمر ملكهم وأنه لم يلتفت إليه ، وأرسل إلى ريكاردوس يعتذر له ويقول إن أقواماً وردوا علينا لأجل الزيارة فلا يمكننى أن استحل منهم ، وقد مدح السلطان مؤرخهم ثم أمر السلطان جميع العساكر الإسلامية بالانصراف إلى بلادها .

(سفر ريكاردوس ووقوعه فى الأسر ببلاد النمسا)

وفى ليلة الأربعاء التاسع والعشرين من شعبان سنة ٥٨٨ ، سافر ريكاردوس من عكا بعساكره فى المراكب قاصداً بلاده ، وعند وصوله إلى سواحل إيطاليا ، حصلت أنواء عظيمة ، فغرق بعض مراكبه ، وكسر الباقى ، ثم إن هذا الملك أبى أن يسافر إلى بلاده عن طريق البر مارا ببلاد فرنسا لكدرة من الملك فيلبس لهدده بلاده فى غيابه ولم يعلم ماقدر له ؛ وأراد السفر عن طريق بلاد النمسا ، فسار وحده متنكراً ، بصفة أحد زوار القدس ، والتزم أن يمر فى مقاطعة الدوك ليوبولدوس دى أوطريش ، وكان هذا الدوك قد تكدر من ريكاردوس ، حالما رفع علمه على أحد أبراج عكا ورماه ريكاردوس فى الخندق ، وكان أسرها فى نفسه . فى أثناء مسير ريكاردوس ببلاده وعلمه بذلك أرسل جنود يفتشون على ريكاردوس ويقبضون عليه حيثما وجدوه ، فلما عثروا به قبضوا عليه وأحضروه بين يدى الدوك المذكور المملوء عداوة وغيظا ، فأمر بسجنه فى حبس مظلم تحت الأرض (وهكذا تم لريكاردوس الشجاع الذى لم يقدر أحد أن يأسره فى الحرب فأسر فى السلم وحبس تحت الأرض فى حبس مظلم بعد عزه) وآقام محبوساً بدون أن يعلم أحد بقلعة تنبيروس ، وأما زوجته برنجاريا فكانت فى سفينة أخرى لم يتغلب النوء عليها فنزلت البرسالمة ، ووصلت رومية آمنة فسمعت بما أصاب سفينة زوجها ولكنها لم تتحقق ذلك ، حتى رأت منطقته الذهبية تباع فى السوق فلبثت تتوقع خبره .



(فى التفتيش على ريكاردوس ووجوده فى السجن ونقله إلى سجن آخر)

وبعد ذلك صار عظماء الإنكليز يرسلون إلى جميع ممالك أوروبا للبحث على ريكاردوس فما وجدوه ، وكان يوجد شخص اسمه بلونديل أحد خاصة ريكاردوس ، وكان يحبه ويرتاح إلى مجالسته ، وكان فى جملة أهل سفينته عند غرقها ونجا معه ، ثم انفصل عنه فى بعض المزدحمات ، ولم يعد يعرف مكانه حتى سمع بالقبض عليه وسجنه ، ولكنه لم يعرف اسم السجن ، فأخذ يفتش السجون متنكراً ، فلم يقف له على خبر فوصل يوماً إلى قلعة تنيروس وقد أعياه التعب (وهو بصفة شاعر بيده عود يضرب عليه ويغنى) واستولى عليه اليأس فأسند كتفه إلى سورها وغنى أبياتا كان نظمها هو وريكاردوس معاً ، فلم يكد يبدأ بها ، حتى سمع تكملتها من داخل القلعة ، فعلم أن ريكاردوس هناك ، فأسرع إلى والدته الملكة اليونورا وجميع أرباب الحكم فى بلاد الإنكليز ولما شاعت هذه القضية ، خاف ليوبولدوس دوك دى أوطريش من دوام حبس ريكاردوس ، فأسرع فى إرساله تحت الحفظ إلى الملك هنرى السادس ملك النمسا وكان هذا الملك أيضاً عنده عداوة لريكاردوس وحسده على شجاعته ، فكان يترقب الفرصة للانتقام منه ، فلما وصلت عساكر ليو بولدوس إليه ومعهم ريكاردوس أمر بقيده بسلاسل حديدية .

(محاكمة ريكاردوس ظلما وإطلاقه من الأسر)

لما وصل ريكاردوس إلى هنرى السادس وقيده بالسلاسل الحديدية أرسله إلى ديوان عظماء المملكة المنعقد وقتئذ فى مدينة فورمس ، فهناك قد صورت البغضاء والحسد لريكاردوس جملة تهم اختلقوها ، وطلبوا الجواب منه عنها ، ولكن هذا الشجاع الباسل صاحب القلب القوى لم تزعجه سطوتهم ولامدة سجنه ولاقيده بالسلاسل الحديدية ، فأجاب عن كل تهمة بما يفيد براءته ببراهين قوية دامغة ، فلما ظهرت براءته ، بكى أكثر رجال الديوان على ظلمه ، وخزج القضاة أيضاً بعد معرفتهم اختلاق هذه التهم . وأما الملك فلم يتنازل عن بغضه وحسده ، فأمر بسجنه دائماً . وأما عظماء الإنكليز فكانوا دائماً

مجتهدين فى خلاص ملكهم بأى طريقة لأنهم كانوا يحبونه حباً شديداً ، فتارة بالمخابرات مع الملك هنرى المذكور والتوسل إليه ، وتارة بتوسط الملوك والأمراء ، وقد ذهب تعبهم سدى حتى التزموا بتوسيط البابا لماله من الرئاسة الدينية ، فلم تنجح وساطته وأخيراً أنفذوا اثنين من رؤساء ديور جرمانيا ، ليفتداه من ملك النمسا بمائة وخمسين ألف مارك فضة ، وبما أن خزنة الإنكليز عجزت عن دفع هذا المبلغ . التزمت الملكة اليونورا والدة ريكاردوس بأن تكسر جميع الأوانى الذهبية والفضية التى فى قصرها المملوكى ، وأخذت أيضاً بعض أوانى مقدسة من الكنائس ، وضربت الجميع مسكوكات ، لأجل إتمام دفع المبلغ المذكور إلى هنرى ثم أطلق سراحه ، فسار إلى بلاده محفوفاً بالتجلة والإكرام . وفيما هو فى نور منديا جاءه أخوه جون نادماًوانحنىأمامه باكياً؛ مستغفراً فعفا عنه ولما وصل إنكلترا قوبل بالاحتفال اللائق .

(سفر السلطان إلى دمشق بعد الهدنة وعزمه على الحج)

بعد الهدنة سار السلطان إلى القدس ، وأمر بإحكام سوره وأنشأ به مدرسة ورباطاً ، وبمار ستاناً ، وغير ذلك من مصالح المسلمين ، ووقف عليها أوقافاً ، وصام رمضان بالقدس ، وعزم على الحج والإحرام منه وكتب إلى مصر واليمن بما عزم عليه . وأمر أن يحمل له فى المراكب كل مايحتاج إليه من الزاد والنفقات ، فأرسل القاضى الفاضل إلى السلطان بمنعه عن السفر ، وكذلك الأمراء قالوا له لايصح أن تسافر إلى الحج وتترك هذه البلاد على مابها من الشغب ، وهذه المعاقل التى فى الثغور ، فإن حفظها من أهم الأمور ، ولاتغتر بعقد الهدنة ، فإن القوم على ترقب ، ودأبهم الغدر ، ومازالوا به حتى عدل عن هذا العزم ، وأقام بالقدس إلى أن سافر ريكاردوس إلى بلاده فى أول شوال سنة ٥٨٨ ، فعند ذلك عزم السلطان على دخول الساحل جريدة لتفقد القلاع والحصون ، وأن يدخل دمشق ويقيم بها أياماً قلائل ، ويعود إلى القدس سائراً إلى الديار المصرية لتفقد أحوالها والنظر فى مصالحها ، وأقام على القدس عز الدين جرديك ، وسار منها فى يوم الخميس خامس شوال وجاوز ناحية البيره ونزل بظاهر نابلس ، وكان بها سيف الدين المشطوب ، وقد ظلم أهلها جملة مظالم ، فشكا أهلها إلى السلطان ، فأمر بإزالة مايشكون منه ثم سار إلى بيسان

وصعد إلى قلعتها المهجورة ونظر قللها العالية وقال الصواب بناء هذه وتخريب كوكب ، ثم سار منها إلى كوكب نزل بطبرية وهناك حضر بين يديه الأمير بهاء الدين قراقوش ، وكان قد أطلق من أسره بعكا فتلقاه السلطان بالسرور والفرح ، وسار فى خدمة السلطان إلى دمشق حتى أطلقوا باقى أصحابه المصريين ، فأخذهم وسار إلى مصر ، ثم سار السلطان إلى قلعة صفد ومنها إلى قلعة تبنين وجاز على هونين ، ثم سار إلى مرج عيون وجسر حامد إلى أن وصل بيروت ، فحضر البرلس بوهيموند صاحب أنطاكية بين يدى السلطان وخدمه فأكرمه السلطان وأنعم عليه وعلى رؤساء عسكره ، ثم سار السلطان إلى دمشق بعد الفراغ من تصفح أحوال القلاع الساحلية بأسرها والتقدم بسد خللها وإصلاح أجنادها وشحنها بالرجال ، فدخل دمشق بكرة يوم الأربعاء السادس والعشرين من شوال ، فخرج أهلها جميعاً صغيراً وكبيراً ، نساء ورجالا ، لملاقاته ، وعملوا له زينة عظيمة وأقام بها ومعه الأفضل والظاهر والظافر وأولاده الصغار .

(مرض السلطان صلاح الدين ووفاته)

كان السلطان يحب مدينة دمشق ، ويؤثر الإقامة فيها على سائر البلاد ، ولذلك أقام بها مدة فى رغد وسلام ، مع أن المنية على عجزها مهاجمة هذا الباسل فى ساحة الحرب ، لم تخف مهاجمته على فراشه وبين أولاده وأخواته ، ففى يوم الجمعة ١٥ صفر سنة ٥٨٩ ، ركب السلطان لملاقاة الحج فعاد إلى منزله كسلا ثم غشيته حمى صفراوية ثم أصبح فى اليوم التالى أكثر كسلا وضعفاً ، ومازال المرض يتزايد يوماً فيوماً إلى اليوم التاسع من مرضه حدثت به رعشة وامتنع من تناول المشروب ، واشتد الإرجاف فى البلد ، وغشى الناس من الكآبة مالا يمكن حكايته ، وكان القاضى ابن شداد والقاضى الفاضل يقيمان عنده إلى أن يمضى من الليل ثلثه ثم ينصرفان ، فكان الناس يترقبون خروجهما لكى يقرأوا أحواله من صفحات وجوههما ، وفى اليوم العاشر من مرضه حقن دفعتين فحصل له راحة وبعض الخفة ، وتناول شيئاً من ماء الشعير ، وفرح الناس فرحاً شديداً ، ثم زاد به المرض حتى صار لايقدر على التكلم . ولما رأى الملك الأفضل ماحل بوالده وتحقق اليأس منه ، شرع فى تحليف الناس ، فجلس

واستحضر القضاة ، وعمل له نسخة يمين مختصرة تضمن الحلف للسلطان مدة حياته وبعد وفاته للملك الأفضل واعتذر للناس بأن المرض قد اشتد ، وأنه يفعل هذا احتياطاً على جارى عادة الملوك ، فحلف جماعة من الأكابر ولم يحضر أحد من الأمراء المصريين . وفى الليلة الثانية عشرة من مرضه وهى ليلة الأربعاء ٢٧ صفر ، اشتد مرضه وضعفت قوته وبات بجانبه الشيخ أبو جعفر إمام الكلاسة يقرأ القرآن ويذكره بالله تعالى ، وكان ذهنه غائباً وذكر الشيخ أبو جعفر أنه لما انتهى إلى قوله تعالى : ﴿ **هو الله الذى لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة** ﴾ سمعه وهو يقول صحيح وهذه لفظة فى وقت الحاجة ولما بلغ إلى قوله تعالى : ﴿ **لا إله إلا هو عليه توكلت** ﴾ تبسم وتهلل وجهه وسلمت روحه إلى ربه بعد صلاة الصبح من يوم الأربعاء ٢٧ صفر . وكان يوم وفاته يوماً لم يصب الإسلام والمسلمون بمثله منذ فقد الخلفاء الراشدون رضى الله عنهم وغشى الملك والدنيا وحشة عظيمة ، وكان الناس يتمنون فداء من يعز عليهم بنفوسهم ، وكان سنه عند وفاته ٥٧ سنة ، ومدة حكمه ٢٦ سنة فى مصر وسوريا ، فحضر الجميع وشيعوا جنازته ودفنوه فى الدار التى كان متمرضاً فيها ، وكانت بينهم شقيقة الفقيد ست الشام ، وفرقت فى الناس الصدقات العظيمة من جيبها الخاص ، وقام بالعزاء ولده الأفضل . ويقول بعض المؤرخين إن السلطان صلاح الدين لم يترك فى خزينته الخصوصية ، إلا ديناراً واحداً و ٤٧ درهما من الفضة ولم يجدوا فى جميع صناديقه أثراً للذهب أو لغيره من الحجارة الكريمة ، وذلك مما يدل على فرط كرمه ؛ لأنه أصاب أموالا كثيرة جاد بها جميعها ؛ وكان حليما حسن الأخلاق متواضعاً صبوراً على مايكره ، كثير التغافل عن ذنوب أصحابه يسمع من أحدهم مايكره ، ويتغافل عنه ولايعلمه بذلك ، وقد رثاه العماد بقصيدة مائتان اثنان وثلاثون بيتاً منها :

شمل الهدى والملك عم شتاته　　والدهر ساءت وأقلعت حسناته
أين الذى مذ لم يزل مخشية　　مرجوة رهباته وهيباته
أين الذى كانت له طاعاتنا　　مبذولة ولربه طاعاته
بالله أين الناصر الملك الذى　　لله خالصة صفت نياته
أين الذى مازال سلطانا لنا　　برجى نداه وتتقى سطواته

أين الذى عنت الفرنج لبأسه ذلا ومنها أدركت ثاراته
أغلال أعناق العدا أسيافه أطواق أجياد الورى مناته
لم يجد تدبير الطبيب وكم وكم أجدت لطلب الدهر تدبيراته
من فى صدور الكفر صدر قناته حتى تواترت بالصياح قناته
فى نصرة الإسلام يسهر دائماً ليطول فى روض الجنان سباته
لاتحسبوه مات شخص واحد فممات كل العالمين مماته

(تقسم مملكة صلاح الدين على أولاده وماجرى فى أثناء الهدنة)

ترك صلاح الدين من الأولاد ١٧ ذكوراً ، وأنثى واحدة ، وهى مؤنسة خاتون ، تزوجت ابن عمها ناصر الدين محمد سيف الدين الذى لقب بعدئذ بالملك الكامل ، واقتسم كل من أولاده وإخوته وأولادهم مملكته فيما بينهم ، غير أن الحصص لم تكن متساوية ، فإن ثلاثة من أولاده أخذوا أكبرها ، واقتنع الباقون بمقاطعات صغيرة ، وتم كل ذلك بموافقة الأمراء . فتلقب أول أولاده المدعو نور الدين بالملك الأفضل ، وكان من نصيبه مملكة دمشق والشطوط البحرية وأورشليم (القدس) والبصرة وبانياس وسوريا الغربية . ولقب أبو الفتح الغازى بالملك الظاهر غياث الدين ، فأخذ حلب وجميع سوريا الشرقية ومن ضمنها حران وتل باشر وعيراز والمنبج – ولقب عماد الدين عثمان بالملك العزيز وتولى مصر بجميع أعمالها . ومن هؤلاء الأمراء الثلاثة تكونت ثلاث دول مختلفة هى الدول الأيوبية الحلبية ، والدمشقية ، والمصرية . أما من بقى من تلك العائلة ، فكانوا ولاة على بلاد أقطعهم إياها صلاح الدين قبل وفاته ، إلا أنهم كانوا تحت سلطة هؤلاء الثلاثة ، فسيف الدين أبو بكر بن أيوب وأخو صلاح الدين الملقب بالملك العادل ، كان حاكما فى الكرك والشوبك ، وناصر الدين محمد الملقب بالملك المنصور بن تقى الدين عمر بن شاهين شاه أحد أخوى صلاح الدين ، كان أميراً على حماة والسلامية ومارا . وبهرام شاه الملقب بالملك الأمجد حفيد شاهين شاه أيضاً كان ملقباً بملك الرحا ، وشمس الدولة طور الشاه بن أيوب الذى كان قد فتح اليمن بأمر أخيه سنة ٥٦٩ ، كان قد أقام فيها مملكة ، وكان أخوه توغتقن حاكما فيها تحت اسم الملك المعز . وفى سنة ٥٩٠ سار الملك العزيز صاحب مصر بعساكره وحاصر مدينة دمشق ، وكان بها الأفضل ، فأرسل إلى عمه الملك العادل يستنجده

فجاءه وجاءه أيضاً أخوه الملك الظاهر صاحب حلب وجميع الامراء الايوبية واجتمعوا بدمشق نعلم العزيز بانه لاقدرة له على أخذها فترددت الرسل بينهم على الصلح فاستقرت القاعدة على ان يكون البيت المقدس وما جاوره من أعمال فلسطين للعزيز وتبقى دمشق وطبرية وأعمالها للافضل ويعطى الافضل اخاه الملك الظاهر جبلة واللاذقية وان يكون للعادل بمصر اقطاعه الاول واتفقوا على ذلك وعاد العزيز الى مصر ورجع كل واحد منهم الى بلده وفى سنة ٥٩١ سافر إلى دمشق ثانياً بقصد محاصرتها واستيلائه عليها وكان ذلك باغراء بعض مماليك أبيه المعروفين بالصلاحية مثل فخر الدين جركس وسر اسنقر وغيرهم فسار الافضل من دمشق واستنجد بعمه الملك العادل وباخيه الملك الظاهر فسبقه الملك العادل ودخل دمشق لثقته به ثم ان بعض الامراء الاسدية الذين بقيادة العزيز راسلوا الافضل والعادل بطلب انحيازهم لهما فقبلاهم واتفقا بان الافضل والعادل يأخذان دمشق فعلم بذلك العزيز فخاف على مملكته فرجع الى القاهرة ليحفظها وسار كل من الافضل والعادل الى ان وصلا بلبيس فخاف العادل من الافضل انه اذا أخذ مصر لايعطيه دمشق فأرسل الى العزيز بارسال القاضى الفاضل ليتوسط فى الصلح فاستقر الامر بان يكون للافضل القدس وجميع البلاد بفلسطين وطبرية والاردن وجميع مابيده ويكون للعادل اقطاعه القديمة ويكون مقيما بمصر عند العزيز فتعاهدوا وعاد الافضل الى دمشق وبقى العادل بمصر مع العزيز .



﴿ استيلاء الملك العادل على دمشق ﴾

لما أقام العادل بمصر رأى أن حصته قليلة ومنصبه حقير بالنسبة لأولاد أخيه فتواطأ مع الملك العزيز على خلع الأفضل عن دمشق ، وتولية الملك العادل عليها ، فسارا معاً من مصر إلى دمشق وحضراها واستمالا أحد أمراء الأفضل واسمه العزيز بن أبي غالب الحمصى ، وكان الأفضل كثير الإحسان إليه والوثوق به ، فسلمه الباب الشرقي ليحفظه ، فوعد العزيز والعادل بفتحه لهم فى اليوم السابع والعشرين من رجب سنة (٥٩٢) ، فدخل منه الملك العادل وبعض رجاله ولما علم الأفضل أن عمه معه بدمشق أيقن أن البلد قد ملكت منه ، فخرج إلى أخيه العزيز وتحادثا ثم دخلا معاً واجتمعا بعمهما ، ثم استقل الملك العادل بدمشق ، وعاد العزيز إلى مصر وسار الأفضل إلى بغداد ملتجئاً إلى الخليفة الناصر لدين الله وكانا كلاهما شاعرين ماجدين . فكتب الأفضل إلى الإمام الناصر !

مولاى إن أبا بكر وصاحبه عثمان قد غصبا بالسيف حق علي
وهو الذى كان قد ولاه والده عليهما فاستقام الأمر حين ولى
فخالفاه وحلا عقد بيعته والأمر بينهما والنص فيه جلي

فأجابه الإمام الناصر بقوله :

وافي كتابك يا ابن يوسف معلناً بالود يخبر أن أصلك طاهر
غصبا علياً حقه إذ لم يكن بعدِ النبي له بيثرب ناصر
فابشر فإن غدا عليه حسابهم واصبر فناصرك الإمام الناصر

﴿ ابتداء الحروب الصليبية الرابعة ﴾
﴿ تحريض البابا وسفر العساكر الصليبية الرابعة ﴾

لما توفي السلطان صلاح الدين ، كان البابا على رومية سيليستينوس الثالث فرأى تقسيم مملكة صلاح الدين على أولاده وعائلته ، فاغتنم هذه الفرصة وأرسل منشوراً إلى ملوك أوروبا يقول لهم فيه : (بأن السلطان صلاح الدين قد توفي ومملكته تقسمت على أولاده وعائلته وكل منهم قد استقل بنفسه ، وأخذ يطلب منهم الاتحاد والخروج لتجريد حملة صليبية رابعة والاستيلاء على القدس قبر المخلص

لعدم وجود من يحميه من المسلمين ، ولما وصل هذا المنشور إلى الملوك لم يلتفتوا إليه لأن الملك ريكاردوس ملك الإنكليز بعد إطلاقه لم ير الاهتمام إلا بصالح مملكته والاستعداد لمحاربة ملك فرنسا ، وكذلك الملك فيلبس ملك فرنسا ، فإنه كان خائفاً على مملكته من ريكارودس ، فكان هذان الملكان واقفاً أحدهما للآخر بالمرصاد ، ولذلك لم يهتما بمنشور البابا . أما الملك هنريكوس السادس ملك النمسا فإنه كان قد حرمه البابا من يوم أسر ريكاردوس ، ولكن لما وجد البابا عدم التفات ملوك فرنسا وإنكلترا ، أرسل وفداً إلى ملك النمسا المذكور يطلب إليه الاستعداد للزحف إلى بلاد فلسطين ، وأخذ القدس من المسلمين ، مذكراً إياه بمسائل والده فريدريكوس الأول ، فقبل الملك هنريكوس تجهيز الحروب الصليبية الرابعة ، وفى جمعية عظماء المملكة ، المنعقدة فى مدينة (فورمس) أعلن بالحروب المذكورة وطلب من القواد والأمراء المساعدة ، فقبل ذلك عدد عظيم من النمساويين والألمانيين والجرمانيين ، وجميع البلاد الخاضعة لهذا الملك ، وكل منهم تسلّم صليباً ، واستعد للسفر إلى فلسطين ، ولما كان هنريكوس دأبه الطمع والجشع وحب المجد الباطل ، وكان طامعاً في الاستيلاء على جزيرة سيسيليا ، فرح بهذا الاستعداد لينال مرغوبه بهذه الوسيلة . ولما استعد كل الصليبيين للسفر ، انقسم جيشهم ثلاثة أقسام ، وسار كل قسم من طريق مخصوص : فالقسم الأول كان برئاسة الدوك دى ساكس والدوك دى براينت ، وسافر بحراً من بين البحر البلطيكى ، والقسم الثانى كان برئاسة الكونت دى لامبورك رئيس أساقفة مايانص ، فاجتاز نهر الطونه ، وسار نحو مدينة القسطينطينية ، والقسم الثالث كان برئاسة الملك هنريكوس ، فسافر إلى بلاد نابولى لكي يصلي الحرب التى كان عازماً عليه ضد جزيرة سيسيليا .

﴿ وصول الصليبيين إلي عكا واستيلاء المسلمين على يافا وأخذ الصليبيين بيروت ﴾

لما وصلت العساكر الصليبية الرابعة إلى عكا عزمت على محاربة المسلمين ، وكان هنريكوس كونت دى شمبانيا المتولى على بلاد الصليبيين بفلسطين ، قد عقد هدنة مع الملك العزيز صاحب مصر ، زاد فيها مدة الهدنة المعقودة بين صلاح الدين وريكاردوس، فأخذ يقنعهم بالقعود عن الحرب حتى انتهاء الهدنة ، فأبوا

ذلك . وخرجوا من عكا غاضبين يقصدون بلاد المسلمين ، فلما علم بذلك الملك العادل ، وكان بدمشق ، أرسل إلى الملك العزيز بمصر يطلب إرسال العساكر ، وأرسل كذلك يطلب العساكر من البلاد الشرقية ، فجاءه الأمراء ، واجتمعوا على عين جالوت في شهر رمضان سنة (٥٩٣) وبعض شوال ، ثم سار الملك العادل بجميع العساكر الإسلامية قاصداً يافا ، وحاصرها ، وشدد في قتالها فملكها ، وخرب البلد فاعتصم الصليبيون بقلعتها ، فحاصرها وضايقها وملكها عنوة وقهراً بالسيف ، وذبح منهم ما ينوف عن عشرين ألف حسب تقرير مؤرخيهم ، وكان هنريكوس كونت دى شمبانيا المذكور لم يزل بعكا ، وقد عزم على المسير بعساكر الصليبيين لأجل خلاص يافا ، فوقع من شباك بقصره فمات ، ثم بعد دفنه سار جميع الصليبيين لنجدة يافا ، فبلغهم خبر استيلاء المسلمين عليها ، فعزموا على المسير نحو بيروت ، والاستيلاء عليها ، ولما بلغ ذلك إلى الملك العادل ، أرسل إليها بعض العسكر ؛ لأجل هدمها وتخريبها فشرعوا فى هدم سور المدينة فى سابع ذى الحجة ، فمنعهم أسامة (والى المدينة) من ذلك ، وتكفل بحفظها ، وعاد عسكر المسلمين منها ، فالتقوا بالصليبيين بنواحي صيدا ، وجرى بينهم قتال شديد ، قتل فيه كثير من الفريقين ، وحجز بينهم الليل ، وسار الصليبيون فى (٩) منه ، فوصلوا بيروت ، فلما قاربوها هرب منها أسامة وجميع من معه من المسلمين ، فملكها الصليبيون صفواً عفواً بغير حرب ولا قتال ، فكانت غنيمة باردة ، وكان بها من أسرى الافرنج ما ينوف على تسعة آلاف ، فأطلقوهم ، فأرسل العادل إلى صيدا من خرب ما كان بقى منها ؛ لأن صلاح الدين كان قد خرب أكثرها ، ثم سافرت العساكر الإسلامية إلى صور ، فقطعوا أشجارها ، وخربوا مالها من قرى وأبراج ، فلما سمع الصليبيون بذلك . رحلوا من بيروت إلى صور ، وأقاموا بها ، ونزل المسلمون عند قلعة هونين ، وأذن العادل للعساكر الشرقية بالعود ظاناً منه أن الصليبيين يقيمون ببلادهم .

﴿ مسير القسم الثالث من الجيوش الصليبية الرابعة ﴾

سار الملك هنريكوس بالقسم الثالث من العساكر إلى أن وصل إلى جزيرة سيسيليا ، فحارب أهلها ، وانتصر عليها ، واستعمل في حروبه معها القساوة والعذابات البربرية حتي تتوج عليه سلطاناً . (وكان قد تزوج بقسطانسا ابنة

روجار صاحب الجزيرة ، وكانت قسطانسا تستحق التملك عليها ، ولكن قد زاحمها تنكريد ، واستولى عليها ، وبعد وفاته كثرت التحزبات ، إلى أن وصل هنريكوس واستولى عليها) ثم إن هذا الملك عزم على السفر إلى فلسطين ليحارب سنة تكفيراً عن ذنوبه ، (لأنه أصبح محروما من رأس الكنيسة ، لمحاربته المسيحيين) فأرسل إلى عظماء مملكته بسفر كل من كان قد أقسم بالمسير إلى الحروب الصليبية ، وبعد أن استعد للمسير إلى فلسطين برئاسة هذا القسم ، عدل عن هذا العزم ، وجعل كونراد أسقف هيدالكسيم رئيساً عليه ، فساروا بحراً إلى أن وصلوا إلى سوريا ، ففرح بهم جميع الصليبيين ، واشتدت قوتهم ، وعزموا على التوجه إلى القدس ومحاصرته ، ولما كان ذلك في فصل الشتاء ، و لم يمكنهم المحاصرة لشدة البرد ، انتظروا فصل الربيع .

﴿ حصار حصن تبنين وقدوم العزيز إليه ورجوع الصليبيين على أعقابهم ﴾

وفى أثناء انتظار الصليبيين دخول فصل الربيع لمحاصرة القدس ، عزموا على حصار حصن تبنين ، وكان الملك العادل قد أتاه الخبر في منتصف المحرم سنة ٥٩٤ ، بأنهم يريدون أن يحصروا تبنين ، فسير إليه عسكراً يحمونه ، ويمنعون عنه ، وأرسل أيضا إلى العزيز بمصر يطلب منه أن يحضر هو بنفسه ، ويقول له : إن حضرت فخير ، وإلا فلا يمكن حفظ هذا الثغر . فسار العزيز مجداً فى من بقي معه من العساكر ، ورحل الصليبيون عن صور ، ونازلوا تبنين في أول صفر ، وقاتلوا من به ، وجدوا في القتال ، ونقبوا من جهاتهم من تحت الجبل ، فلما علم بذلك من بالحصن ، وخافوا أن يمتلكه الصليبيون بالسيف ، نزل بعضهم إلى الصليبيين يطلب الأمان على أنفسهم وأموالهم ؛ ليسلموا القلعة ، فقال لهؤلاء المسلمين بعض أفرنج سوريا : إن سلمتم الحصن استأسركم هؤلاء الصليبيون ، وقتلوكم ، فاحفظوا نفوسكم . (وكان الخلاف واقعاً بين الصليبيين) فعادوا كأنهم يراجعون من في القلعة ، ليسلموا ، فلما صعدوا إليه أصروا على الامتناع ، وقاتلوا قتال من يحمى نفسه ، فحموها إلى أن وصل الملك العزيز إلى عسقلان فى ربيع الأول ، فلما سمع الصليبيون بوصوله ، واجتماع المسلمين ، رحلوا ، وخصوصاً لأن ليس لهم ملك يجمعهم ، فأقاموا إلى أن وصل الملك العزيز في

أول شهر ربيع الآخر ، ورحل هو والعساكر إلى جبل الخيل المعروف بجبل عاملة ، فأقاموا أياماً . والأمطار تهطل ، فبقى إلى (١٣) منه ، ثم سار وقارب الصليبيين ، وأرسل رماة النشاب ، فرموهم ساعة وعادوا ، ورتب العساكر ليزحف إلى الصليبيين ، ويجد فى قتالهم ، فرحلوا إلى صور فى منتصف الشهر ليلاً ، ثم سار المسلمون إلى اللجون ، وتراسلوا في الصلح ، وطال الأمر ، فعاد الملك العزيز إلى الديار المصرية قبل انتهاء الصلح .

﴿ وفاة الملك هنريكوس السادس وتعيين الملك أمورى على فلسطين وانتهاء الحروب الصليبية الرابعة ﴾

لما قتل هنريكوس دى شمبانيا ملك فلسطين ، وترملت زوجته إيزابال ، قدم الملك أمورى ملك قبرص وتزوج بها ، وفى أثناء حفلة العرس ورد عليهم ما كدر خاطر جميع الصليبيين ، وهو نعي الملك هنريكوس السادس ملك النمسا ، فحينئذ عزم جميع الأمرا النمساويين والألمانيين على السفر إلى بلادهم ، فركبوا سفنهم إلى بلادهم ، ولم يبق منهم في سوريا إلا ملك هونكريا الذى حصلت بينه وبين العساكر الإسلامية مناوشات بجهة يافا ، فاحتاطت العساكر الإسلامية برجاله ، وقتلتهم عن آخرهم . وكان قد حضر الكونت دى منتفورت إلى سوريا منذ أيام قليلة ، فطلب من الملك العادل هدنة لمدة ثلاث سنوات ، فأجابه إلى ذلك ، وكان فى شعبان من السنة المذكورة ، وهكذا قد انتهت هذه الحرب الصليبية الرابعة .

﴿ وفاة العزيز صاحب مصر وتولية ابنه المنصور وما جرى للأفضل ﴾

فى شهر محرم سنة (٥٩٥) صار العزيز إلى جهة الفيوم للصيد ، فطارد ذئباً ، فنفر به جواده ، فسقط على الأرض ، وأصابته حمي ، فعاد إلى القاهرة ، وحدث له يرقان وقرحة في الأمعاء ، واحتبس طبعه ، فمات في ليلة العشرين منه ، وكانت مدة حكمه ست سنين إلا شهراً وكان عمره (٢٧) سنة وأشهراً ، وكان فى غاية السماحة والكرم والعدل والرفق بالرعية والإحسان عليهم ، وكان الغالب على دولة العزيز فخر الدين جهاركس ، فأقام على المملكة ولد العزيز وهو الملك المنصور محمد ، وكان عمره تسع سنين وشهوراً ، واتفق الأمراء على اختيار أحد

بني أيوب ليكون أتابكا للملك (أى وصياً عليه) ، فتشاوروا بالأمر بحضور القاضى الفاضل ، فأشاروا بالملك الأفضل ، وكان بصرخد ، فأرسلوا إليه ، فسار مجثاً في (٢٨) منه ، فوصل إلى بليس فى (٥) ربيع الأول ، فخرج الملك المنصور للقائه ، فترجل له عمه الملك الأفضل ، ودخل بين يديه إلى دار الوزارة ، وهى قد كانت مقر السلطنة ، وكان الأفضل لما وصل إلى بلبيس ، فاتفق أن أخاه الملك المؤيد مسعود صنع له طعاماً ، وصنع فخر الدين مملوك أبيه طعاماً أيضاً ، فابتدأ بطعام أخيه ، ليمين حلفها أخوه أنه يبدأ به ، فظن جهاركس أنه فعل هذا انحرافاً عنه ، وسوء اعتقاد فيه ، فتغيرت نيته ، وعزم على الهرب ، فحضر عند الأفضل ، وقال : إن طائفة من العرب قد اقتتلوا ، ويطلب المسير إليهم ، ليصلحهم فأذن له الأفضل ، ففارقه وسار مجداً حتى وصل إلى القدس ، ودخله وتغلب عليه ، ولحقه جماعة من الأمراء الناصرية ، فقويت شوكتهم ، واجتمعت كلمتهم على خلاف الأفضل ، فأرسلوا إلى العادل يطلبون قدومه ، ليدخلوا معه إلى مصر ليملكوها وكان محاصراً ماردين ، فلم يقدم إليهم ، وكان دخول الأفضل القاهرة فى (٧) ربيع أول ، ولما سمع بهرب جهاركس المذكور أرسل إليه ليعود ، فأبى ، ويومئذ قام الأفضل أتابكا على المنصور بمصر ، وكان الوزير وقتئذ سيف الدين يازكج .

وأرسل الملك الظاهر صاحب حلب إلى أخيه الأفضل يشير عليه بقصد دمشق ، وأخذها من عمه الملك العادل ، وأن ينتهز الفرصة لاشتغال العادل بحصار ماردين ، فبرز الملك الأفضل خارج مصر ، وسار إلى دمشق ، وبلغ الملك العادل مسيره إلى دمشق ، فترك على حصار ماردن ولده الملك الكامل ، وسار فسبق الأفضل ، ودخل دمشق قبل نزول الأفضل عليها بيومين . ونزل الأفضل على دمشق ثالث عشر من شعبان ، وزحف من الغد على البلد ، وجرى بينهم قتال ، وهجم بعض عسكره على المدينة حتى وصل إلى باب البريد ، ولم يمنحهم العسكر ، فتكاثر أصحاب العادل ، وأخرجوهم من البلد ، ثم تخاذل العسكر ، فتأخر العادل إلى ذيل عقبة الكسوة ، ثم وصل الظاهر صاحب حلب لنجدة أخيه ، فعاد إلى مضايقة دمشق ، وداوم الحصار عليها ، وقلت الأقوات عند الملك العادل ، حتى أهل البلد ، وأشرف الأفضل والظاهر على امتلاك دمشق ، وعزم

العادل على التسليم ، ولكن حصل بين الأخوين منافرة ، فغضب الظاهر ، وترك قتال عمه العادل لأخيه الأفضل ، وظهر الفشل في العساكر ، ثم إنهما تأخرا بمرج الصفر في آخر صفر سنة (٥٩٦) ، ثم سار إلى رأس الماء لقيما به إلى انقضاء فصل الشتاء ، ومنه سار الأفضل إلى مصر ، والظاهر إلى حلب ، ولما افترقا خرج الملك العادل في أثر الأفضل إلى مصر ، ولما وصل الأفضل إلى بلاده تفرقت عساكره في بلادهم إلى الربيع ، فأدركه عمه العادل ، فخرج الأفضل بمن بقي عنده من العسكر ، وضرب معه مصافاً بموضع يقال له السائح في (٧) ربيع آخر ، فانكسر الأفضل ، وانهزم إلى القاهرة ، ودخلها ليلاً ، ثم سار العادل في أثره ، وأتى القاهرة ، وحصرها ، فجمع الأفضل من عنده من الأمراء ، واستشارهم ، فرأى منهم تخاذلا ، فأرسل إلى عمه في الصلح ، وطلب العوض عن مصر ، وتسليمها إله ، وأن يكون العوض ميافارقين وحاني وسميساط ، فأجابه إلى ذلك ، وتحالفا عليه ، وخرج الأفضل من مصر ليلة السبت (١٨) منه ، واجتمع بالعادل ، وسار إلى صرخد ، وأرسل من يتسلم البلاد المذكورة ، فامتنع نجم الدين أيوب ابن العادل عن تسليمه ميافرفين ، وسلم ما عداها .

﴿ خلع الملك المنصور وسلطنة الملك العادل على مصر وسوريا ﴾

ودخل الملك العادل القاهرة يوم السبت (١٨ ربيع آخر سنة ٥٩٦) ، ولما خلا له الجو ، وثبتت قدمه فيها ، خلع الملك المنصور محمد بن عبد العزيز في شوال بعد أن حكم (٢١) شهراً ، وتولى الملك العادل سلطنة مصر وسوريا ، وخطب لنفسه ، فلم يرض بذلك الأمراء المصريون ، فراسلوا أخويه الظاهر بحلب والأفضل بصرخد ، وتكررت المكاتبات والمراسلات يدعونهما إلى قصد دمشق ، وحصرها ، ليخرج العادل من مصر إليهم ، فيسلمونهم مصر ، فحضر الظاهر والأفضل إلى دمشق ، وحاصراها ، وبعد قتال مع من بالبلد ، وكان العادل قد أرسل إليها من يحفظها . وحصل بين الأخوين منافرة ، فعادا إلى تجديد الصلح مع العادل ، واستقرا على أن يكون للظاهر منبج وافامية وكفر طاب وقرى معينة من المعرة ، ويكون للأفضل سميساط وسروج ورأس العين وحملين ، ورحلا عن دمشق أول محرم سنة (٥٩٨) ، وسار العادل إلى دمشق فوصلها تاسع شهره . وما زال يشتغل حتى جعل جميع الحكام الأيوبيين في

الإمارات الصغيرة خاضعين لسلطانه ، وفي جملتهم الظاهر والأفضل ، فعادت المملكة الأيوبية بعد أن انقسمت حصصا إلى مملكة واحدة تحت سلطان واحد .

وفي سنة (٥٩٨) أيضا أخرج الملك العادل الملك المنصور محمد بن العزيز من مصر إلى الشام ، فسار بوالدته واخوته ، وأقام عند عمه الملك الظاهر بحلب .

﴿ الحروب الصليبية الخامسة ﴾
(تحريض البابا إينوشانسيوس الثالث على الحروب الصليبية)

لما جلس على كرسى السدة البطرسية برومية البابا اينوشانسيوس الثالث وعمره (٣٣) سنة ، أراد أن يجعل له أثراً يذكر ، فأخذ يحرض على الحروب الصليبية ، وأرسل إلى جميع ملوك أوروبا منشورات بالاتحاد على الحروب الصليبية لتخليص قبر المسيح من أيدى المسلمين ، ثم أرسل نوابا إلى الملوك ، وإلى جميع قواد العساكر ورؤساء الكنائس ، وإلى شعوب فرنسا وإنكلترا ، وهو نكاريا وسيسيليا ، وقد أعلن لهم على أنه عازم على أن يضحي بأعز ما لديه بشأن استنقاذ قبر المسيح ، وحيث إن ريكاردوس ملك الإنكليز ، وفليبس ملك فرنسا كانا دائماً متحاربين مع بعضهما بخصوص بلادهما ، فكان لا يمكنهما ترك بلادهما ، والتوجه لحروب صليبية ، ولذلك قد أرسل إليهما البابا الكردينال بطرس ليتوسط بينهما في الصلح باسمه ، وأن يعقد هدنة بينهما لمدة خمس سنوات ، فلم تحصل ثمرة ، ولم يتم صلحهما . وكذلك كان أوثون والى ساكسيا ، وفيلبس أمير سوابا ، فإنهما كان يخاصمان أمير جرمانيا ، وجميع مملكة النمسا متداخلة في هذا المشكل ، ولهذه الأسباب لم تثمر تحريضات البابا . ثم إنه كان يوجد فى فرنسا كاهن اسمه فولك خورى كنيسة نويلى سور فارنا ، وكان محبوباً عند الشعب لفصاحته وطلاقة لسانه ، حتى إنهم كانوا يلقبونه بالقديس ، فأرسل إليه البابا وفداً ومعه تفويض منه بإنذارات الحروب الصليبية ، فقبل فولك هذا التفويض ، وأخذ بالطواف ومعه بطرس دى رزونى ، لأجل أن ينذر بالحروب الصليبية ، فسار متجولا فى بلاد نورمانديا وفلاندرا وتورغونيا ، فكان يخطب فيهم ويحثهم على الاستعداد للسفر إلى الحروب الصليبية ، لتخليص قبر المسيح مفدى العالم ، ثم سار إلى قلعة داكرى وكانت هناك جمعية عمومية من رؤساء العساكر في وليمة قد أعدها لهم

تيوبلت كونت دى شمبانيا ، وصار يخطب فيهم ، ويحثهم ويطلب منهم النظر إلى البلاد المقدسة ، ومازال بهم حتى إن تيوبلت كونت دى شمبانيا وهو أخو هنريكوس ملك فلسطين المتوفي وابن أخي سلطان فرنسا ، وابن أخت سلطان إنكلترا قبل التوجه إلى فلسطين واستنقاذ القدس من المسلمين تحت راية الصليب ، وتبعه كل من كونت دى تشاوتراس ، وكونت دي بلوزا ، وكونت دى سانيول ، وسمعان دى منقورت ، ورنبهارد ، وبرنردوس دى مونتميريل ، وأخوه ، والكونت غوتير ، والكونت يوحنا دى بريانا ، ومنسى دى لبيزلا ، ورانود دى رابيارا ، ومتي دي موغورانتى ، وهوكوز ، ورمباتوس دى بورن ، وكونت دي أميانس ، والكونت رانود دى بولونيا ، وجفر ، وكونت دى براش ، وجفر ، وكونت دى فيلاهردوين ، والمرشال دي شمبانيا .

﴿ سفر العساكر الصليبية الخامسة واتحادهم مع مشيخة البندقية ﴾

اقتفى قواد بلاد فلاندرا أثر من ذكروا ، فأقسم كل من الكونت بودوين واسطاكيوس وهنريكوس أخوه ويعقوب دى افنسا ومحافظ قلعة بورجس ويوحنا دى نزالاوكونون دى بيوتونا وغيرهم ، على المسير تحت راية الصليبيين لإنقاذ القبر المقدس ، وتعيين رئيساً عاماً على هذه الجيوش تيوبلت كونت دى شمبانيا ، ثم اجتمع الرؤساء في مدينة سواسنوس ، ثم في مدينة كومبينا ، واتفقوا على أن العساكر تسافر إلى المشرق بحراً ، وأن يرسلوا وفداً إلى مشيخة البندقية لأجل أن ترسل مراكبها لنقلهم إلى براسيا ، وسار الوفد إلى أن وصل البندقية في سنة (٥٩٦) ، وتقدم هذا الوفد بين يدى الدوجا (لقب رئيس مشيخة البندقية) هنريكوس داندولوا ، وعرض عليه الرسائل ، وطلب منه المساعدة بإرسال المراكب لنقل الصليبيين ، فقال لهم : بأى شروط ؟ فقالوا : كما تريد . فأشار الدوجا بطريقتين : إحداهما أن يرسل مراكب لنقل الصليبيين لحمل أربعة آلاف وخمسمائة من الفرسان ، وعشرين ألفاً من الرجال ، وتستطيع أن توسق الذخائر اللازمة لهذا العسكر لمدة تسعة شهور ، بشرط أن يدفعوا له خمسة وثمانين ألف وزنة فضة ، والثانية أنه يرسل خمسين مركباً بعساكرهم صحبة الصليبيين ، وأن جميع الغنائم تقسم بينهم مناصفة ، أى للصليبيين النصف ، وللبندقيين النصف الأخير ، ثم أرسلوا الشروط إلى البابا ليصدق

عليها ، فصدق عليها ، ثم عاد رجال الوفد إلى الصليبيين ، فوجدوا تيوبلت الرئيس العام مريضاً ، ثم مات ، فانتخبوا رئيساً عليهم بوتيفاسيوس أمير مونتفرات ، وتسلم الصليب من يد فولك الخورى بمحضر من الإكليروس في كنيسة السيدة مريم البتول ، ثم سار الصليبيون من بلاد فرنسا ، فاجتازوا الجبال الألبية ، وواصلوا الزحف إلى أن وصلوا إلى البندقية ، وهناك قابلهم أهلها بإكرام واحترام ، وقد أعدوا لهم المراكب اللازمة وزيادة حسب الشروط ، وطلبوا منهم أن يدفعوا لهم مبلغ (٨٥) ألف وزنة فضة ، فوجد الصليبيون أن لا قدرة لهم على دفع المبلغ جميعه ، ودفعوا ثلثه فقط ، فلذلك جمع رئيس مشيخة البندقية أمراءه وقال لهم : بما أن الصليبيين ليس معهم الآن باقى المبلغ المتفق عليه ، فأرى الأحسن أن نأخذهم معنا فى مقابلة باقي المبلغ لمساعدتنا على إخضاع مدينة زارا التى اغتصبها منا سلطان هونكرا ، فقبل هذا الرأى رؤساء الصليبيين ، وأما الصليبيون أنفسهم فأكثرهم رفض قبوله ، وكذلك الوكيل البابوى بطرس دى كابوا رفض هذا الرأى ، وقال : إنه نفاق ، ولكن الدوجا هنريكوس أراد أن يجذب الجميع إلى رأيه هذا ، ويتمم مرغوبه ، وانتصاره على هذه المقاومة ، فاجتمع هو ورؤساء عساكره وشعبه فى كنيسة القديس مرقص ، واتخذ علامة الصليب على صدره ، وتبعه جميع شعبه ، فصاروا جميعاً صليبيين ومتحدين معاً تحت راية الصليب ، فثبت على رأيه ، ورفض معارضة الوكيل البابوى وغيره .

﴿ محاربة الصليبيين مدينة زارا والقسطنطينية وغيرهما ﴾

سار جميع الصليبيين ومعهم أهل البندقية إلى أن وصلوا إلى مدينة زارا ، وحاصروها مدة أسبوعين ، وفى كل يوم يقاتلونها ، وأخيراً انتصروا على من في المدينة ، واستولوا عليها ، واقتسموا غنائمها بالسوية بينهم حسب الشروط ، ولمناسبة دخول فصل الشتاء عزموا على الإقامة بهذه المدينة إلى أن ينقضى بسلام ، ثم أرسل إليهم البابا يوبخهم على محاربتهم المسيحيين ، وتأخيرهم عن التوجه إلى فلسطين ، فأرسلوا له وفدا لأجل أن يعتذر لهم أمامه ، ويطلب منه المغفرة والبركة ، فسامحهم البابا ، ثم إنه قدم للصليبيين وفداً من الملك فيلبس سوابا أحد ملوك النمسا يطلب منهم مساعدة اليكسيوس بن ملك

القسطنطينية إسحاق ، وتمليكه عليها ، (لأن عمه اغتصب المملكة من أبيه ، وسجنه وسجن أباه بعد ثمل عينيه بالقسطنطينية ، فتخلص الولد المذكور ، وسافر إلى صهره الملك فيلبس) وتعهد بدفع مائتي ألف وزنة من الفضة بصفة مصاريف للصليبيين ، وأن يضع مملكة الروم كلها تحت طاعة الكنيسة الرومانية ، وأن يقدم للصليبيين ما يحتاجونه إليه من القوت ، ويتبعهم إلى بلاد فلسطين ، أو يرسل معهم عشرة آلاف محارب ، فانعقد مجلس مشورتهم ، وبعد معارضة من بعض الرؤساء قرر قبول هذه الشروط المقدمة لهم ، وأنه فى فصل الربيع ينزلون في المراكب ، ويسيرون إلى القسطنطينية ، ثم وردت إليهم رسائل من البابا بتوبيخهم على ما عزموا عليه ، فلم يلتفتوا إليه ، وباشروا في الاستعداد كما تقرر ، ثم حضر إليهم اليكسَيوس نفسه ، وجدد أمامهم توسلاته . ثم سار الصليبيون بالمراكب إلى أن وصلوا مينا دورتسيوس ومينا كورفو ، وهناك نودى بالأمير الكسيوس ملكاً ، ثم ساروا في البحر أيضاً ، وكلما وصلوا إلى مدينة أو بلد نادوا بأن الملك هو الكسيوس إلى أن وصلوا إلى مدخل البسفور ، ورموا مراسيهم عند شط مدينة القديس استفانوس ، ثم قرروا بانتشار أعلامهم على المراكب ، وبفك القلوع ، وبعبور كل العمارة فى الخليج الكبير ، وقد ساعدهم الريح إلى أن صاروا تحت أسوار القسطنطينية ، فطلعوا إلى البر ، فأرسل إليهم ملك القسطنطينية وقتئذ يسألهم عن أمرهم ، فقالوا للرسول : إنا حضرنا لأجل رد المملكة إلى الملك الكسيوس بن إسحاق صاحبها الأصلى ، وإذا لم يشأ تسليم المملكة بدون حرب فأعلمه بأننا سنأخذها بالقوة ، ثم قرر مجلس مشورتهم بانتقال العساكر إلى الجهة الثانية لمحاصرة القسطنطينية من كل جهة ، وكان ذلك في شهر ذى القعدة سنة (٥٩٩) ، وانتشبت الحرب بين الفريقين ، فتغلبت العساكر الفرنساوية على برج غلطة ، وأخذوه ، ووضعوا علمهم فوقه ، وفى الوقت نفسه تغلبت عساكر البندقية على قطع السلسلة الحديدية التى تمنع المراكب من دخول قرن الذهب ، ودخلوا فى قلب المدينة ، وتبعهم نحو عشرين ألف مقاتل من الفرنساويين ، وحاصروا المدينة من البر والبحر ، وبعد قتال شديد بينهم ، أظهر فيه الشجاعة أهل البندقية ، والدوجا كل النشاط والشجاعة ، مع إنه كان كفيف البصر ، ثم استولى الصليبيون على المدينة قهراً ، وأضرموا النار في المنازل القريبة من

السور ، أما الملك فإنه هرب في ظلام الليل ، ونزل فى مركب مع خزائنه ، وسار مفتشاً على موضع يلتجىء إليه ، ثم إن الروم هجموا على السجن ، وأخرجوا منه الملك إسحاق ، وأجلسوه على تخت ملكه ، فأرسل إليه الصليبيون يطلبون منه التصديق على الشروط التى حررها ولده الكسيوس في مدينة زارا ، وتنفيذ مفعولها ، فهاله المبلغ المعين ، ولكنه كتم أمره ، وأظهر رضاه بالتصديق عليه ، ثم إن الصليبيين توجوا ولده الكسيوس ؛ ليكون شريكا فى المملكة .

﴿ ثورة القسطنطينية وامتلاك الصليبيين لها ﴾

وبعد ذلك طلب الصليبيون من الملك المبلغ المعين في الشروط ، وأن تكون مملكة الروم خاضعة للبابا ، فحينئذ أجبر الملك اليكسيوس بطريرك القسطنطينية بالاعتراف بسلطة البابا الدينية ، ثم أمر بجمع المال من الأهالى ، ولكنه لم يتم له تسديد المبلغ ، فأخذ جميع الأوانى المقدسة التي بالكنائس ، وحلها ، وضربها مسكوكات ، لأجل تسديد المبلغ ، ولذلك تضررت الروم بأجمعها ، ومما زاد ضررها أن عساكر الصليبيين الفلامنديين أشعلوا النار في كنيس لليهود ، فاحترق ، والتهبت النيران فى باقى المدينة ، فلذلك جاهر الروم بالعداوة للصليبيين بقيادة من يدعى إليكسيوس مورزوفلا ، وقبضوا على الملك اليكسيوس ، وقتلوه ، ثم إن أباه املك إسحاق مات حزناً على ولده المذكور ، فانتخب الروم اليكسيوس مورزوفلا ملكا عليهم ، واستعدوا لمحاربة الصليبيين ، وكذلك الصليبيون استعدوا لمحاربة الروم ، ونزلوا فى المراكب ، واقتتل الفريقان ، فتأخر الصليبيون ، وبعد ثلاثة أيام انتصروا على الروم ، واستولوا على المدينة عنوة ، وأوقعوا بأهلها القتل والنهب ، وصاروا يجولون فى المدينة شاهرى سيوفهم مشعلى مشاعلهم ، ليحرقوا بها الدور ، فأحرقوا أكثر منازل المدينة ، فالتجأت النساء إلى كنيسة ايا صوفيا للاحتماء بها ، فخرجت الأساقفة والقسس حاملين الإنجيل أمامهم يطلبون من الصليبيين الأمان ، وأن يبقوا على أهل المدينة ، فلم يلتفتوا إليهم (فانظر رأفة الصليبيين الذين خرجوا من بلادهم بقصد تخليص قبر المسيح ، وادعائهم بالشفقة على مسيحيى المشرق ، كيف فعلوا في مسيحيى القسطنطينية من القتل والنهب وحرق المدينة ؟) وصاروا يقتلون وينهبون حتى كنيسة أيا صوفيا نفسها ، فقد

أحرقوا جميع ما فيها من الستاير والتصاوير وغيرها ، ونبشوا قبور الملوك المدفونين فيها ، وأخذوا ما بها من الذهب والأحجار الكريمة ، ولم يبقوا في المدينة منزلا بدون نهب وقتل ، وكذلك أحرقوا وكسروا جميع التماثيل المقامة بالميادين العمومية ، وقد خرج بطريرك الروم هاربا من القسطنطينية حافي الأقدام ، تاركاً جميع أمتعته لنهب الصليبيين ، وهرب مورزوفلا فى أحد المراكب .

﴿ تتويج بودوين على القسطنطينية وما جرى للصليبيين بها وانتهاء الحروب الصليبية الخامسة ﴾

بعد امتلاك الصليبيين بلاد الروم شرعوا في انتخاب أحدهم ، ليكون ملكاً على القسطنطينية ، فاختاروا ستة أشخاص ، ومن البندقيين ست أشخاص ، وأدخلوا الاثنى عشر ، كنيسة أيا صوفيا ، وطلبوا منهم أن ينتخبوا أحد الرؤساء الصليبيين ، ليكون ملكاً ، فأقاموا بالكنيسة يومين ، ثم خرجوا ، ونادوا بأن الذى يكون ملكا هو بودوين كونت دى فلاندرا ، فأقاموه ملكا ، ثم شرعوا في تقسيم المملكة ووظائفها ، فاستخدم بودوين أكثر رؤساء الصليبيين ليكونوا حكاماً على البلاد الرومية ، وكذلك أهل البندقية ، وكان ذلك في سنة (١٢٠٤) ميلادية الموافقة (٦٠١) هجرية ، ثم انعقد مجلس مشورتهم ، وقسم المملكة الرومية قسمين : قسما للفرنسيين ، والقسم الآخر لأهل البندقية ، ثم إن بودوين ملك القسطنطينية قد أرسل رؤساء الصليبيين إلى البابا يعلمونه بما امتلكوه ، ويعتذرون إليه لتأخرهم عن التوجه إلى البلاد السورية ، فغضب عليهم لمحاربة إخوانهم المسيحيين ، وبلغت انتصارات الصليبيين المذكورة على بلاد الروم أقصى البلاد ، فسارت خيالة الجمعيات الرهبانية : جمعية الهيكليين وجمعية القديس يوحنا المعمدان إليها ، ولما استوطن الصليبيون القسطنطينية أرسلوا إلى البلاد حكاما وعساكر منهم ، فكانوا كلما ذهبوا إلى مدينة لإخضاعها يخرج عليهم الروم ويقاتلونهم ، وهكذا تفرقت عساكر الصليبيين فى جميع البلاد ، وممن عصاهم : أهل بلغاريا ، فأسروا بودوين المذكور ، وقتلوه ، فجلس بدلا عنه أخوه هنريكوس دي هالينولت ملكا على القسطنطينية ، ثم أرسلوا إلى بلاد فرنسا وإيطاليا يطلبون النجدة منهما ، مستغيثين بأهلهما ، وقد أقامت هذه المملكة تحت حكم الفرنساوية نحو سبعة وخمسين سنة ، ثم استردها الروم منهم ، وهكذا انتهت الحروب الصليبية الخامسة بدون محاربة أو قتال مع المسلمين .

﴿ مناوشات الصليبيين والملك العادل ﴾

وأما الملك العادل ظل متمتعاً بملكه العظيم ، وكلما انقضت هدنة بينه وبين الصليبيين جددها ، وفى سنة (٦٠٤) خرج الصليبيون الذين بطرابلس وحصن الأكراد ، وأكثروا الإغارة على بلد حمص وولايتها ، ونازلوا مدينة حمص ، وكان جمعهم كثيراً ، فلم يكن لصاحبها أسد الدين شيركوه بن محمد بن شيركوه قوة على دفعهم ومنعهم ، فاستنجد بالظاهر غازى صاحب حلب وغيره من ملوك الشام ،فلم ينجده أحد إلا الظاهر ، فإنه سير إليه عسكراً أقام عنده ، ومنع الصليبيين عن ولايته ، وفي هذه السنة أيضاً ، خرج أهل قبرص على الأسطول المصرى ، فأخذوا منه مراكب ، وأسروا من بها ، فأرسل الملك العادل إلى الملك أمورى صاحب عكا فى رد ما أخذوه ، وقال له : حيث إننا في صلح ، فلم غدرتم بأصحابنا ؟ ! فاعتذر الملك أمورى ، وقال : إن أهل قبرص ليسوا في طاعتي ، بل هم تابعون للقسطنطينية ، ثم إنه حصل غلاء بقبرص ، وتعذرت عليهم الأقوات ، فذهب أهلها إلى القسطنطينية ، فأعادوهم إلى حكم سوريا ، ثم راسل الملك العادل لمورى صاحب عكا ، فلم ينفصل حال ، فخرج الملك العادل من مصر بالعساكر الكثيرة ، وقصد مدينة عكا ، فصالحه صاحبها على قاعدة استقرت بإطلاق أسرى المسلمين ، وغير ذلك ، ثم سار إلى حمص ، ونزل على بحيرة قدس ، وجاءته عساكر الشرق . وديار الجزيرة ، ودخل بلاد طرابلس ، وحاصر موضعاً يسمى القليعات ، وأخذه صلحاً ، وأطلق صاحبه ، وغنم ما فيه من دواب وسلاح ، وخربه وتقدم إلى طرابلس ، فنهب وأحرق وسبى وغنم ، وعاد إلى بحيرة قدس ، وترددت الرسل بينه وبين الصليبيين في الصلح ، فاصطلحوا .

﴿ موت الملك أمورى صاحب عكا وتعيين خلفه والتحريض على الحروب الصليبية السادسة ﴾

فى سنة (٦٠٦) مات الملك أمورى ملك سوريا ، وماتت زوجته ، فأرسل الصليبيون المقيمون بسوريا إلى الملك فيلبس أوغسطس ملك فرنسا يخبرونه بذلك ، فعين يوحنا بريانا ملكا على سوريا ، فرضى به البابا وباركه ، وسار يوحنا المذكور إلى فلسطين ، فقابله الصليبيون باحتفال عظيم ، وتوجوه بتاج الملك

عليهم ، ولما جلس هذا الملك داخله الطمع ، فأرسل إلى البابا وإلى ملوك أوروبا يطلب إليهم يريد عساكر صليبية سادسة ؛ لأجل تخليص القدس من المسلمين ، والاستيلاء على جميع البلاد الإسلامية بسوريا .

﴿ ابتداء الحروب الصليبية السادسة ﴾

(تحريض على الحروب الصليبية السادسة والصليبيون الفتيان ومؤتمر رومية

لما أرسل يوحنا بريانا ملك سوريا إلى البابا وإلى ملوك أوروبا كما تقدم ، أرسل البابا إلى الأساقفة ورؤساء الكنائس في جميع الممالك (الأوروباوية) بالحضور إلى رومية ، لعقد مؤتمر بذلك ، ولما وصلت رسل يوحنا المذكور إلى بلاد أوروبا صاروا يحثون الناس على الحروب الصليبية ، فتجمع كثير من الشبان تحت اسم الصليبيين ، واتخذوا الصلبان على صدورهم ، وساروا مجدين ، واجتازوا الجبال الألبية وإقليم لومبارديا ، ونزلوا على إيطاليا وأمامهم راية الصليب ؛ لأجل نزولهم فى المراكب ، وتوجههم إلى فلسطين ، فلما علم بذلك البابا باركهم ، ونزل أكثرهم بالمراكب ، فداهمتهم عواصف بحرية ، فأغرقتهم بمراكبهم قريباً من الشطوط ، فأمر البابا بانتشالهم ، ودفنهم بالشاطىء ، وبنى عليهم كنيسة دعاها كنيسة الفتيان الأبرار ، وتشتت باقى الصليبيين الفتيان بعد ذلك فى البلاد : فمنهم من رجع إلى بلاده ، ومنهم من خدم في فلاحة أرض إيطاليا . وفي سنة (٦١٢) انعقد المؤتمر فى مدينة رومية بكنيسة القديس يوحنا تحت رئاسة البابا اينوشانسيوس ، وقد اجتمع فيه ما ينيف على (٥٠٠) من الأساقفة ورؤساء الكنائس ، وكذلك بطريرك القسطنطينية وبطريرك القدس ، ووكلاء كل من إياك فريدريكوس ملك النمسا وفيلبس ملك فرنسا وملك الإنكليز وملك هونكريا ، فقام فيهم البابا خطيبا بفصاحة يصف لهم تعب مسيحيى الشرق ، وما يقاسونه من العذاب ، وأن القدس مغطي بإزار الحزن الأسود ، ومقيد بسلاسل حديدية تحت عبودية الإسلام ، وصار يحثهم على حض جميع المسيحيين بتحضير عساكر صليبية سادسة ؛ كي تنقذ قبر المسيح من أيدى المسلمين ، وبعد عدة جلسات تقرر بأن البابا والكردينالية يقدمون عشر مداخيلهم لنفقات هذه الحرب المستجدة ، وكذلك الكنائسيين رؤساء ومرعوسين يقدمون نصف عشر

مداخيلهم . وتعهد جميع ملوك أوروبا برضاء تام على إبطال الحروب من بلادهم مدة خمس سنوات ، وفي سنة (٦١٣) توفي البابا المذكور ، فتعين خلفاً له البابا أولوربوس الثالث ، ولما توسد السدة البطرسية حذا حذو سلفه فى التحريض على الحروب الصليبية السادسة ، فأرسل من عنده وفوداً إلى جميع ملوك أوروبا بالتحريض والحث على تجهيز الحروب الصليبية المذكورة ، وذكرهم بوعودهم .

﴿ سفر العساكر الصليبية السادسة ﴾

استعد للسفر تحت علم الصليب كل من الملك اندراوس الثانى ملك هونكريه وليوبولدس دوك دي أوطريش ودوك بافيرا ، وغيرهم من الأمراء والقواد ، فساروا إلى أن وصلوا مدينة سبولاترو ، وهناك انتظروا قدوم المراكب من البندقية ؛ كي توصلهم إلى فلسطين ، وسافر من مرسيليا وجينوى وبرنيداس جيوش كثيرة في المراكب إلى فلسطين ، فسبقوا ملك هونكريا ومن معه ، وكذلك هوكز الأول سلطان قبرص فإنه عندما علم بأخبار هذه الجيوش الصليبية السادسة ، أخذ معه أشراف دولته وعساكره ، ونزل بالمراكب من مينا ليبيسون ، وسافروا جميعاً إلى عكا ، ولما وصلوا إليها كان زادهم قد قل ، وأرض سوريا كانت وقتئذ مجدبة ، فاضطروا للخطف والنهب ، ثم خرجوا من عكا ، وأغاروا على البلاد الإسلامية وكان الملك العادل بمصر ، فسار منها تواً إلى الشام .

﴿ محاربة الصليبيين مع الملك العادل وسفرهم إلى مصر وسفر ملك هونكريا وقدوم صليبيين آخرين ﴾

لما وصل الملك العادل إلى الرملة ، ومنها إلى اللد ، برز له الصليبيون من عكا ، فسار العادل نحوهم ، فوصل إلى نابلس عازماً على أن يسبقهم إلى أطراف البلاد مما يلى عكا ، ليحميها منهم ، فساروا هم ، فسبقوه ، فنزل على بيسان من الأردن ، فتقدم عليه الصليبيون في شعبان سنة (٦١٤) هـ عازمين على محاربته ، لعلمهم أنه فى قليل من العسكر ؛ لأن جنوده كانوا متفرقين في البلاد ، فلما رأى العادل قربهم منه لم ير أن يلقاهم فيمن معه خوفاً من هزيمة تكون شراً عليه ، وكان حازماً كثير الحذر ، ففارق بيسان نحو دمشق ، ليقيم بالقرب منها ويرسل إلى البلاد ، ويجمع العساكر فوصل مرج الصفر ، فنزل فيه ، فأخذ الصليبيون

كل ما كان فى بيسان من الذخائر ، وكانت كثيرة ، ونهبوا البلاد من بيسان إلى بانياس ، وبثوا سراياهم في القرى إلى أن وصلوا إلى خسفين وأطراف السوداء ، ونازلوا بانياس ، وأقاموا عليها ثلاثة أيام ، ثم عادوا إلى مرج عكا ، وأقاموا به أياماً ، ثم خرجوا منه إلى صور ، وقصدوا بلد الشقيف ، ونزلوا وبينهم وبين بانياس مقدار فرسخين ، فنهبوا صيدا والشقيف ، وعادوا إلى عكا ، وكان هذا فى النصف الأخير من رمضان ، ثم سير الملك العادل ولده الملك المعظم عيسى صاحب دمشق فى قسم من جيشه إلى نابلس ، ليمنع الصليبيين عن المقدس ، أما الصليبيون فإنهم ساروا بجمعهم إلى أن وصلوا قلعة الطور ، وهي قلعة منيعة على رأس جبل بالقرب من عكا كان العادل قد بناها حديثاً ، فتقدم إليها الصليبيون ، وحاصروها ، وركبوا عليها المنجنيقات ، وآلات الحصار ، وزحفوا إليها ، وصعدوا على جبلها حتى وصلوا إلى سورها ، وكادوا يملكونه ، ثم ارتدوا عن القلعة ، وتركوها وساروا إلى عكا ، وبعد رجوعهم حصل لهم فشل ، لأن معسكرهم كان مركباً من ثلاثة رءوس . وهم : ملك هونكريا بعساكره ، وملك قبرص ، وملك سوريا ، وكان معسكرهم مقسما ، ثم إن ملك قبرص مرض ومات ، وكان عازماً على الرجوع إلى مملكته ، وكذلك ملك هونكريا عزم على الرجوع أيضاً ، ولكنه خاف لوم الصليبيين ، فأبقى نسف جيشه في سوريا تحت قيادة يوحنا ملك سوريا ، ورجع هو إلى بلاده ، ثم وردت عساكر صليبية أخرى من بلاد فرنسا وإيطاليا ، وكانوا قد تأخروا عن المسير لمحاربة مسلمى أسبانيا ، ولما وصلوا إلى عكا فرح جميع الصليبيين والمسيحيين بقدومهم ، وعقدوا مجلس مشورتهم ، فقرر سفر جميع الصليبيين من سوريا إلى الديار المصرية ، ومحاربة المسلمين هناك .

﴿ محاصرة الصليبيين لمدينة دمياط ﴾

قصد الصليبيون مدينة دمياط ، فوصلوها فى يوم الثلاثاء (٤) ربيع أول سنة (٦١٥) ، وهم نحو من (٧٠) ألف فارس ، و (٤٠٠) ألف راجل ، فخيموا تجاه دمياط في البر الغربى ، وحفروا حول معسكرهم خندقاً ، وأقاموا عليه سوراً ، وشرعوا فى قتال برج دمياط ، وكان برجاً منيعاً في سلاسل من حديد غلاظ تمتد على النيل ، ليمنع المراكب الواصلة فى البحر المالح من الدخول

إلى ديار مصر في النيل ، وكان البر الذى نزل عليه الصليبيون جزيرة محاطة بالنيل من جهة وبالبحر المالح من الأخرى يقال لها جزيرة دمياط ، وكان المسلمون في مدينة دمياط محاصرين حصاراً منيعاً من البحر والبر ، والسلسلة ممتدة بين البرج والسور ، فحاول الصليبيون امتلاك ذلك البرج ، لأنهم إذا ملكوه تمكنوا من العبور فى النيل إلى القاهرة .



(صورة برج دمياط واستيلاء الصليبيين عليه)

وكان هذا البرج مشحوناً بالمقاتلة ، تأتى إليه المؤن من دمياط على جسر خشبى منصوب فى عرض النيل ، وقد انكسر ذلك الجسر بعد مدة ، فاغتنم الصليبيون تلك الفرصة ، واصطنعوا برجاً خشبياً نصبوه على مركبين موسوقين قيوداً ، وكان جميع الصليبيين بقيادة يوحنا بريانا ملك سوريا وليوبولدوس دى أوطريش ، فأنزلوا في البرج الخشبى ليوبولدوس برجاله ، وساروا فى النيل لمهاجمة برج المسلمين ، فلما رأى المسلمون ذلك ، تجمهروا فى البرج والسور ، وأخذوا فى رمى السهام والحراب والحجارة والمنجانيقات على برج الصليبيين ، فلعبت به النار فخاف الذين فيه ، ثم انطفأت حالا ، وتشدد الصليبيون حتى استولوا على برج المسلمين ، فبلغ الملك الكامل قدوم الصليبيين ، ومحاصرتهم دمياط ، وكان يخلف أباه الملك العادل على ديار مصر ، فخرج بمن معه في ثالث يوم من وقوع الطائر بخبر الصليبيين ، وأمر والى الغربية بجمع العربان ، وسار هو في جمع كبير ، ونزل

بمن معه من العساكر بمنزلة العادلية قرب دمياط ، وامتدت عساكره إلى دمياط ليمنع الصليبيين من السور ، والقتال مستمر أربعة أشهر ، والملك العادل يسير العساكر من البلاد الشامية شيئاً بعد شيء .

﴿ وفاة الملك العادل ﴾

كان الملك العادل نازلا بمرج الصفر ، وقد أرسل العساكر إلى ولده الكامل بالديار المصرية كما تقدم ، ثم رحل من مرج الصفر إلى عالقين ، فنزل بها ومرض ، واشتد مرضه ، ثم توفي هناك إلى رحمة الله في سابع جمادى الأخرى سنة (٦١٥) ، وكان مولده سنة (٥٤٠) ، وعمره (٧٥) سنة ، وكانت مدة سلطنته بمصر نحو عشرين سنة أو أقل ، وكان حازماً متيقظاً ، غزير العقل ، سديد الآراء ، ذا مكر وخديعة ، وصبوراً حليماً ، يسمع مايكره ويغضى عنه ، واتسع ملكه ، وكثرت أولاده ورأى فيهم ما يحب ، ولم ير أحداً من الملوك فى أولاده ما لقيه العادل فيهم من القوة والشجاعة والملك ، وخلف الملك العادل ستة عشر ولداً ذكراً غير البنات ، ولما توفى لم يكن عنده أحد من أولاده حاضراً ، فحضر إليه ابنه الملك المعظم عيسى ، وكان قد أرسله إلى نابلس لحماية القدس ، فكتم موت أبيه ، وحمله في محفة ، وجعل عنده خادماً وطبيباً راكباً إلى جانب المحفة ، والشرابدار يصلح الشراب ، ويحمله إلى الخادم فيشربه ويوهم الناس بأن السلطان شربه ، إلى أن دخلوا به قلعة دمشق ، وصارت إليها الخزائن والبيوتات ، فأعلن موته ، وتسلم ابنه الملك المعظم جميع ما كان معه ، ودفنه بالقلعة ، ثم نقله إلى مدرسة العادلية .

﴿ محاربة الصليبيين بأرض دمياط ودخولهم حتى أشمون طناح وإخماد ثورة المسلمين ﴾

لما بلغ الكامل موت أبيه وهو بمنزلة العادلية ، تسلّم زمام الأحكام ، أما الصليبيون فألحوا فى القتال ، ولا سيما عندما علموا بموت الملك العادل ، وقطعوا السلاسل التى كانت تتصل بالبرج ؛ لتجوز مراكبهم في نهر النيل ، ويتمكنوا من البلاد ، فنصب الملك الكامل بدل السلاسل جسراً عظيماً في عرض النيل ، فقاتل الصليبيون قتالا شديداً إلى أن قطعوه ، وكان قد أنفق عليه وعلى البرج ما ينوف

على سبعين ألف دينار ، وكان الكامل يركب فى كل يوم عدة مرات من العادلية إلى دمياط ، لتفقد الأحوال ، وإعمال الحيلة فى مكايدة الأعداء ، فأمر أن تغرق المراكب فى النيل لتمنع الصليبيين من الإبحار فيه ، فعمد الصليبيون إلى خليج هناك يعرف بالأزرق ، كان النيل يجرى إليه قديما ، فحفروه وعمقوا حفره ، وأجروا فيه الماء إلى البحر المالح ، وأصعدوا مراكبهم منه إلى بورة على أرض جزيرة دمياط قبالة المنزلة المعسكر فيها الكامل ، ليقاتلوه منها ، فلما نزلوا فى البورة ابتدءوا بقتاله بحراً ، وزحفوا إليه مراراً ، فلم يظفروا منه بطائل ، ولم يتغير على أهل دمياط شىء ، لأن الميرة والإمداد كانت تصل إليهم ، والنيل يحجز بينهم وبين عدوهم ، وأبواب المدينة مفتوحة ليس عليها من الحصار ضيق ولا ضرر ، وكان العربان يغيرون على الإفرنج في كل ليلة حتى منعوهم الرقاد خوفاً من غاراتهم ، فقوى طمع العرب فى الصليبيين حتى صاروا يخطفونهم نهاراً ، ويأخذون الخيم بمن فيها ، فكمن لهم الصليبيون عدة أكمنة ، وقتلوا منهم خلقاً كثيراً ، فكفوا عن مناوشتهم . ثم أدرك الناس الشقاء ، وهاج البحر على مخيم المسليمن ، وأغرقهم ، فعظم البلاء ، وتزايد الغم ، وألح الصليبيون في القتال حتى كادوا يملكون كل مال المسلمين ، والملك الكامل يرسل الرسل إلى الجهات ، ويستصرخ إخوته ، ويستنجد أهل الإسلام على النصارى ، ويخوفهم من غلبة الصليبيين ، ولا من مجيب ، وفى أثناء ذلك ثارت بين رجاله ثورة ، كان زعيمها عماد الدين أحمد بن المشطوب أحد كبراء الرجال ، على أن لا يقبلوا الكامل عليهم سلطاناً بعد أبيه ، وكان ذلك باتفاق مع أخيه الملك الفائز ، فوقع الملك الكامل فى حيرة ، وأوجس خيفة على منصبه ، ولم ير من ينجده ، فسار من العادلية إلى قرية تدعى أشمون طناح (أشموم نطاح) بجريدة ، فأصبح العسكر بغير سلطان ، فركب كل إنسان منهم هواه ، ولحقوا بالكامل ، ولم يتمهلوا لأخذ شىء من خيلهم وذخائرهم وأموالهم وأسلحتهم ، كل ذلك والصليبيون فى البر الثانى لا يدرون . وفي (٢٠ من ذى القعدة سنة ٦١٥) بلغهم ما كان من أمر المسلمين ، فعبروا النيل إلى بر دمياط (البر الشرق) آمنين لا ينازعهم منازع ، وغنموا ما في معسكر المسلمين مما تركوه من أمتعتهم وغيرها ، وكان شيئاً لا يحيط به الوصف ، فلما بلغ السلطان الكامل ذلك ، داخله وهم عظيم ، وأوشك أن يفارق البلاد لأنه أصبح لا يثق بنفسه ، ولا بمن حوله ، أما مدينة دمياط ، فبقيت محاصرة ،

وقد شدد الصليبيون عليها براً وبحراً ، وكانت تلك السنة ليس أشد منها وطأة على المسلمين ، وقد أخذ اليأس منهم مأخذاً عظيما ، ففيماهم فى ذلك الشأن ، وفدت عليهم نجدة من الشام بقيادة الملك المعظم عيسى أخى الملك الكامل ، وكان قد تولى على دمشق بعد أبيه العادل فلما علم بما حل بجيوش أبيه بعد وفاته ، أتى فى عدة من رجال الشام ، فأطلعه الكامل على الحال سراً ، وأسر إليه أن رأس هذه الطائفة ابن المشطوب ، فجاء الملك المعظم يوماً على غفلة إلى خيمة ابن المشطوب ، واستدعاه فخرج إليه ، فقال له : أريد أن أفاوضك سرا فى خلوة وسار معه ، وقد جرد المعظم جماعة ممن يعتمد عليهم ، ويثق بهم ، وقال لهم : اتبعونا . ولم يزل المعظم يشاغله بالحديث ، ويخرج معه من شيء إلى شيء حتى أبعده عن المعسكر ، ثم قال له : يا عماد الدين هذه البلاد لك ، ونشتهى أن تهبها لنا ، وشيئاً من النفقة ، ثم قال لرجاله : تسلموه حتى تخرجوه من الرمل . فلم يسعه إلا امتثال الأمر ، لانفراده ، وعجزه عن المخالفة ، وعاد المعظم إلى أخيه الكامل ، وأطلعه على ما جرى ، ثم جهز أخاه الملك الفائز شريك المتآمرين إلى الموصل لإحضار النجدة منها ومن بلاد الشرق ، فمات بسنجار ، وكان ذلك خديعة لإخراجه من البلاد ، فلما خرج هذان الشخصان من العسكر تحللت عزائم من بقي من الأمراء الموافقين لهما ، ودخلوا في طاعة الملك الكامل كرهاً لا طوعاً .

﴿ قدوم نجدة للصليبيين بقيادة بيلاجيوس وهدم سور البيت المقدس ﴾

ظل البابا أنوربوس الثالث يحث ملوك أوروبا لنجدة إخوانهم الصليبيين ، حتى اجتمع لكلمته جيوش كثيرة من بلاد النمسا وبيزا وجنوى والبندقية وإنكلترا وفرنسا ، فأرسلهم إلى إخوانهم بدمياط بقيادة الكردينال بيلاجيوس بصفته نائب بابوى ، وأرسل معه خزائن المال الذى جمعه باسم الحروب الصليبية ، فسار الكردينال المذكور بعساكره إلى أن وصل إلى معسكر الصليبيين بأراضى دمياط ، وبعد يسير عاد الملك المعظم إلى دمشق لينظر في أحوال رعيته ، ثم خشى من الصليبيين إن امتلكوا دمياط أن يمدوا يدهم إلى أورشليم ، (القدس) فتقوى سلطتهم ، فأمر بهدم أسوارها ، حتى إذا ملكوها لا تزيد قوتهم شيئاً يستحق الاعتبار .

﴿ تشديد الحصار على دمياط واستيلاء الصليبيين عليها ﴾

شدد الصليبيون الحصار على دمياط ، ومنعوا القوت من الوصول إليها ، وحفروا على معسكرهم المحيط بدمياط خندقا ، وبنوا عله سوراً ، وأهل دمياط يقاتلونهم أشد القتال ، ويمانعونهم وقد نفدت من عندهم الأقوات ، وغلت الأسعار ، والملك الكامل كان لا يزال فى أشمون ناظراً إلى دمياط ، وهي محصورة ولا يقدر أن يصل إليها ، وخشي أخيرا أن ييأس أهلها من المساعدة ، فيسلموا المدينـة فانتدب أحد الجاندارية المدعو شمايل للدخول إلى دمياط ، لينشط من فيها ، ويعدهم بالإنقاذ ، فكان يسبح فى النيل إلى أن يصل إلى أهل دمياط ، فيوصل إليهم الأخبار ويطمئنهم ويعود ، وبقي على ذلك مدة ، فحظي بذلك عند الكامل ، وتقرب منه حتى جعله والياً على القاهرة ، وإليه تنسب خزانة شمايل بالقاهرة . وفي أثناء حصار دمياط قاسى المسيحيون فى داخلية البلاد اضطهاداً شديداً ، وكان فى الإسكندرية كنيسة قديمة البناء على اسم القديس مرقص هدمها المسلمون خيفة أن يباغت الصليبيون الإسكندرية من أجلها ، فيتخذونها حصناً لأنها كانت حصينة البناء ، كثيرة الأعمدة ، وجعلوها بعد ذلك جامعاً ، ولا تزال آثارها إلى هذا العهد بقرب باب القبارى . ثم دخلت سنة (٦١٦) وقد غلت الأسعار بدمياط بما هو فوق الحد ، فبلغ ثمن البيضة عدة دنانير ، وكان رجال الملك الكامل ينفذون الأقوات إلى أهل دمياط بحيل مختلفة ، فكانوا يأتون بجمل ويشقون جوفه ، ويملئونه فراخاً وفاكهة ونقلا وغير ذلك ، ثم يخيطون جلده عليها ، ويرمونه في النيل ، فيسير منحدراً مع المجرى ، فإذا جاء أمام دمياط نزل من فيها إليه ، وأخذوه ، واقتاتوا بما كان فى جوفه ، وكان الصليبيون يعرفون أحيانا هذه الحيل ، فيأخذون تلك المؤن ، ثم توالت هجماتهم على من في المدينة ، فقاتلوهم قتالاً شديداً خصوصاً جمعيات الرهبان (جمعية الهيكليين وجمعية النيطونيكين أى جمعية الشريط الأزرق التي أسسها ريكاردوس قلب الأسد ملك الإنكليز) ثم أمر الكردينال بيلاجيوس أن يتخذ جميع الصليبيين للحرب دفعة واحدة براً وبحراً ، وأن يتسلحوا بالزروخ والزرديات ، فعلقوا السلالم على الأسوار ليتسلقوها ، وشددوا الحرب ، فجاهد المسلمون حق الجهاد ، وأحرقوا سلالم الصليبيين بقذف النيران عليها ، وهجموا على الصليبيين هجمة قوية ، فقتلوا منهم

كثيرا وأغرقوا كثيراً ، ثم كر الصليبيون عليهم ، واشتد القتال ، فعلم بذلك الملك الكامل ، فسار بجيشه ، وهجم على مخيم الصليبيين لردهم عن محاربة المدينة ، فالتزموا قتاله ، ورجع بعضهم عن المدينة ، واشتد النزال بين الملك الكامل والصليبيين ، وبين هؤلاء ودمياط ، فانكسرت العساكر الصليبية في هذه الوقعة ، وقتل منهم كثير ، وانهزم منهم كثير ، فاتبع الملك يوحنا ملك سوريا المنهزمين ، ليردهم وصار يرسل إلى كل فار من يرجعه ، ودامت هذه الحال بينهم ، أى كلما ضيق الصليبيون على أهل دمياط يصعد المسلمون إلى أعلى البرج ، ويوقدوا ناراً لتنظرهم عساكر الملك الكامل ، فيعلمون بأن أهل المدينة فى ضيق ، فيهجم الملك الكامل بعساكره على مخيم الأعداء ، فيرتدون من محاربة المدينة ليحاربوا الملك الكامل ، وكانت تتواصل النجدات من أوروبا إلى الصليبيين بتحريض من البابا . وفى آخر الأمر زاد الضيق في المدينة ، وكثرت الموتى جوعاً ، وامتلأت مساكنهم وطرقات البلد منهم ، وعدمت الأقوات حتى لم يبق عندهم إلا بعض القمح والشعير . وفى يوم الثلاثاء (٢٥ شعبان سنة ٦١٦) هجم الصليبيون على دمياط ، فاستولوا عليها ، وكانت مدة الحصار جميعها (١٦ شهراً و ٢٢ يوماً) ، فدخلوها وأحكموا السيف فى من بقى فيها من الأحياء ، إلى أن تجاوزوا الحد فى القتل ، وكانت الأبخرة الفاسدة تتصاعد عن جثث الموتى ، فتلحق الأحياء بهم ، وكانت تلك الجثث متراكمة فى الأسواق والبيوت وعلى الأسرة ، فكان يموت الابن جوعاً ، وليس من يسعى إلى دفنه ، فيبقى فى مكانه ، فيلحقه الأخ ، ثم الأم ثم الأب وهكذا ، وجعل الصليبيون الجامع الكبير الذى بدمياط كنيسة لهم باسم القديسة مريم .

﴿ في شقاق الصليبيين وبناء مدينة المنصورة ﴾

بعد استيلاء الصليبيين على دمياط قرر مجلس مشورتهم بأن تكون دمياط تابعة للملك يوحنا دى بريانا ملك سوريا . ولما اتصل خبر سقوط دمياط بالملك الكامل رحل بعسكره بعد سقوطها بيومين ، ونزل قبالة طلخا على رأس بحر اشموم ورأس بحر دمياط ، ليمنع الصليبيين من المسير إلى داخلية القطر بحراً ، وخيم في محلة المنزلة ، وأقام معسكره هناك ، وكان الصليبيون قد قرروا سرعة المسير إلى القاهرة ومحاصرتها ، حصل شقاق بين رؤسائهم وخصوصاً لأن

الكردينال بيلاجيوس كان يعتبر نفسه الرئيس الأعلى على جميع الصليبيين ، وجميع الرؤساء دونه رتبة ، والملك يوحنا دى بريانا ملك سوريا ، يعتقد أنه هو الرئيس والكردينال بصفة رئيس دينى ، فزاد التنافر بينهم فغضب الملك يوحنا وعاد إلى مدينة عكا بعسكره ، ومعه الأسرى وترك باقى الصليبيين فى دمياط ، وقدمت نجدات للصليبيين من فرنسا والنمسا وإيطاليا ، ففرح الكردينال بذلك وعزم على المسير إلى مدينة القاهرة ، فأبى رؤساء العساكر المسير معه ، فأرسل وفداً إلى الملك يوحنا ، كى يستسمحوه ويرجع إلى معسكر الصليبيين ، وقد حصنوا دمياط تحصيناً عظيما ، وبثوا رجالهم في القرى يقتلون وينهبون ويأسرون .

أما الملك الكامل ، فإنه أخذ في تحصين معسكره فى المنزلة ، فأمر ببناء الدور والفنادق والحمامات والأسواق ، إلى أن سارت مدينة عظيمة ، ولقبوها بالمنصورة إشارة إلى انتصاره على الصليبيين هناك كما سيأتى ، وكتب إلى المسلمين في سوريا يستحثهم على محاربة الصليبيين ، وإخراجهم من ديار المسلمين .

ما جرى للصليبيين بعد ذلك واستيلاء المسلمين على دمياط

ولما عاد الملك يوحنا دى بريانا إلى معسكر الصليبيين ، انعقد مجلس مشورتهم ، وقرر سرعة المسير لمحاصرة القاهرة ، فتركوا أمتعتهم ومؤونتهم في دمياط ، بعد أن أقاموا فيها حامية كافية ، وساروا إلى أن وصلوا تجاه المنصورة فيما هو أمام سراى المنصورة الآن ، وعسكروا هناك ، وكان عدد الصليبيين إذ ذاك نحو مائتى ألف راجل ، وعشرة آلاف فارس ، فقدم المسلمون شوانيهم أمام المنصورة وعدتها مائة قطعة فأصبح المسلمون فى ضيق . فأمر الملك الكامل أن ينادى بالمسلمين للجهاد من سائر القطر ، فاجتمع الناس من سائر النواحى من أسوان إلى القاهرة ، ونودى بالنفير العام أيضاً فيما بين القاهرة إلى آخر الحوف الشرقى ، فاجتمع عالم كثير وأنزل السلطان علي ناحية (شار مساح) ألف فارس فى آلاف من العربان ليحولوا بين الصليبيين ودمياط ، وسارت الشواني ومعها حراقة كبيرة على رأس بحر المحلة ، وعليها الأمير بدر الدين بن حسون ، فانقطعت الميرة عن الصليبيين من البر والبحر . وفى أثناء

ذلك أتت النجدات للملك الكامل من الشام والشرق يتقدمها الملك الأشرف موسى بن العادل ، وعلى ساقتها الملك المعظم عيسى ، فتلقاهم الملك الكامل ، وأنزلهم عنده بالمنصورة فى (١٣ جمادى الأخرى سنة ٦١٨) وتتابع مجىء الملوك حتى بلغت عدة جيوش المسلمين نحو أربعين ألف فارس ، فحاربوا الصليبيين ، وأخذوا منهم ست شوانٍ وأسروا منهم ألفين ونيفاً ، فتضعضعوا وضاق بهم المقام فخابرهم الملك الكامل بأمر الصلح ليخرجهم من بلاده ، فعرض عليهم أن يعطيهم بيت المقدس وعسقلان وطبرية ، وجبلة واللاذقية ، وسائر الأماكن التي فتحها السلطان صلاح الدين إلا الشوبك والكرك ، لأنهما أصبحتا ملكاً خاصاً له نالهما بالإرث من السلطان صلاح الدين ، وطلب إليهم في مقابل ذلك أن يردوا له دمياط وينسحبوا من القطر المصرى ، فانعقد مجلس مشورتهم ورضى كل من يوحنا ملك سوريا وغيره من رؤساء العساكر ، وأما الكردينال فأبى ودخله الطمع ، وبعد مجادلات أقر رأى الصليبيين على طلب تينك المدينتين ومبلغ (٣٠٠) ألف دينار تعويضاً لما سببه الملك المعظم عيسى صاحب دمشق بهدم أسوار بيت المقدس ، فامتنع المسلمون عن التسليم لهم بذلك ثم بعثوا سرية من رجالهم لتسير سرا من وراء معسكر الصليبيين وتخرق سد ترعة المحلة وكان النيل فى معظم ارتفاعه فطافت مياه الترعة حتى أغرقت جميع الأراضى التى تفصل جيش الصليبيين من دمياط فأصبحوا على أرض مثل الجزيرة ، وقد حال الماء بينهم وبين نجدة أصحابهم ، فخافوا سوء المصير ، وباتوا يشكون قلة الطعام وكثرة المياه ، ولم يكن باقياً بينهم وبين دمياط إلا طريق ضيق ، فأمر السلطان بنصب الجسور عند أشمون طناح ، فعبرت العساكر عليها ، وملكت تلك الطريق ، فاضطرب الإفرنج ، وضاقت عليهم الأرض . واتفق مجىء مرمة عظيمة مدداً للصليبيين حولها عدة حراقات ، وقد ملئت كلها بالميرة والأسلحة ، فقاتلتها شوانى المسليمن حتى ظفرت بها ، فاتصل ذلك بالصليبيين ، فزاد خوفهم ، وندموا على رفضهم المعاهدة المار ذكرها ، فطلبوا من الملك الكامل الأمان على أن ينسحبوا من القطر المصرى جميعه ، ولا يطلبون لذلك مقابلا ، فقبل منهم الكامل فى (٧ رجب سنة ٦١٨) هجرية بأن يعطى كل من الفريقين رهائن ، فأعطى الصليبيون الملك يوحنا دى بريانا ملك عكا والكردينال بيلاجيوس نائب البابا رهناً ، وأعطى الملك الكامل ابنه

الملك الصالح وكان سنه (١٥) سنة وجماعة من الأمراء ، فسار الصليبيون إلى دمياط ، وسلموها للمسلمين فى (١٩) رجب بعد أن كانوا قد أجهدوا أنفسهم في تحصينها ، وخرجوا من القطر ، وبعد خروجهم بقليل جاءت نجدة عظيمة فى البحر إلى الصليبيين ، فشكر المسلمون الله لتأخرها إلى ذلك الحين ، ثم أرسل الصليبيون الملك الصالح ومن معه إلى أبيه ، فأرسل لهم رهنهم ، وتفرق الناس إلى بلادهم ، ودخل الملك الكامل دمياط بإخوته وعساكره ، وكان ليوم دخوله إليها احتفال عظيم ، ثم عادوا وأقاموا بالمنصورة أياما ، فأنشده هناك القاضى الرئيس هبة الله بن محاسن قاضي غزة :

هنيئاً فإن السعد جاء مخلدا ... وقد أنجز الرحمن بالنصر موعدا
حبانا إلّه الخلق فتحاً لما بدا ... مبيناً وإنعاماً وعزاً مؤيداً
تهلل وجه الأرض بعد قطوبه ... وأصبح وجه الشرك بالظلم أسودا
ولما طغى البحر الخضم بأهله ... الطغاة وأضحى بالمراكب مزبدا
أقام لهذا الدين من سل عزمه ... صقيلا كما سل الحسام المهندا
فلم ينج إلا كل شلو مجندل ... ثوى منهم أو من تراه مقيدا
ونادى لسان الكون في الأرض ... رافعاً عقيرته في الخافقين ومنشدا
أعباد عيسى إن عيسى وحزبه ... وموسي جميعاً ينصران محمدا

فكانت مدة نزول الصليبيين على دمياط إلى أن أقلعوا عنها ثلاث سنين وأربعة أشهر و (١٩) يوماً ، منها مدة استيلائهم على مدينة دمياط سنة وعشرة أشهر و (٢٤) يوماً ، ثم سار الملك الكامل إلى مقر ملكه فى القاهرة ، وانتقل من دار الوزارة التى كانت إلى ذلك العهد منزلا للخلفاء ، وسكن القلعة .

﴿ ما جرى للملك فريدريكوس الثانى بأوروبا واستيلاؤه على القدس صلحاً ﴾

وبعد رجوع يوحنا بريانا إلى عكا ، وجد مملكته فى ضعف زائد من القوة والمال ، فسافر إلى أوروبا طالباً المعونة من ملوكها ، فوصل إلى البابا أنوريوس الثالث ، فقابله باحترام ، وكتب له منشورات إلى جميع الملوك بالتحريض

بإرسال تجريدة صليبية ، لاستخلاص القبر المقدس من أيدى المسلمين ، ثم سار يوحنا إلى جميع الملوك بهذا الشأن ، فما التفتوا إليه ، وكان ملك النمسا فريدريكوس الثانى عند وفاة والده صغيراً ، فأقيم عليه وصياً البابا إينوشانسيوس الثالث إلى أن بلغ وتسلم مملكته ، فلذلك كانت البابوية ذات دالة عليه ، فكتب إليه البابا يحرضه على المسير بنفسه إلى سوريا ، وتجديد الحروب الصليبية ، ثم سعي فى زواج فريدريكوس المذكور بابنة يوحنا سلطان سوريا المدعوة بولاندا ؛ لتوثيق العلاقة بينهما ، وتم الاحتفال بهذا الزواج في مدينة رومية ، وفي أثناء ذلك ، جدد فريدريكوس القسم بمسيره إلى فلسطين ، وتخليصه قبر المسيح من يد أعدائه ، واستعد للسفر ، وقد نادوا فى أوروبا بذلك ، فحضر إليه جملة عساكر من الإنكليز وفرنسا وألمانيا والنمسا وغيرهم ، وتعين لاجتماع العساكر مدينة برنيدس ، وكان من الرؤساء الذين قبلوا السفر للحروب الصليبية دوك دى بافير ودوك دى أوطريش ولويس لاندغرافا ، وساروا بالجيوش ، فاتحدوا مع عساكر الملك فريدريكوس في المدينة المذكورة ، فأخذ يحثهم البابا بالمسير ، فنزلوا بالمراكب في سنة (٦٢٤) هـ ، وبعد مسيرتهم من المينا هاجت عليهم العواصف ، فتشتت مراكبهم ، وبعد ثلاثة أيام عدل الملك فريدريكوس عن المسير إلى فلسطين ، ورجع بعساكره إلى مدينة إنرانتا ، أما الأمير لاندغرافا فبعد نزوله في البحر أخذته حمى ، فلحق بفريدريكوس راجعاً إلى المينا المذكورة ، وبعد أيام قليلة توفى . وكان البابا أنوريوس قد توفى ، وتعين خلفاً له البابا غريغوريوس التاسع ، وهو الذى احتفل بنزول فريدريكوس إلى البحر ، ولما بلغه عدوله عن السفر ، ورجوعه ، تكدر واعتبره عاصياً ، ولذلك أرسل منشوراً إلى جميع ملوك أوروبا يعلنهم فيه بحرمان الملك فريدريكوس ، فحارب الملك المذكور البابا برومية ، وأهانه إهانة شديدة أمام الهيكل المقدس ، وألزمه بالخروج من رومية ، وفي (٦٢٥) هـ سافر براً قاصداً القدس ، ولما وصل إلى سوريا لم يقابله الصليبيون هناك ؛ لعلمهم أنه محروم من البابا ، وكان الملك الكامل صاحب مصر قد خرج منها إلى الشام بعد وفاة أخيه المعظم يريد امتلاك دمشق من ابن أخيه صلاح الدين داود بن المعظم ، ولما سمع بذلك داود المذكور أرسل إلى عمه الملك الأشرف صاحب البلاد الجزرية يستنجده ، ويطلب منه المساعدة على دفع عمه الكامل ،

فسار إلى دمشق ، فترددت الرسل بينهم في الصلح ، فاصطلحا واتفقا ، وسار الملك الأشرف إلى الملك الكامل ، فلما اجتمعا ترددت الرسل بينهما وبين الملك فريدريكوس ، واستقرت القاعدة على أن يسلموا البيت المقدس ، بشرط أن يبقى الجامع مع المسلمين ، ولا يتعرض أحد من الصليبيين للمسلمين ، فاستعظم المسلمون ذلك ، وأكبروه ، ووجدوا له من الوهن والتألم ما لا يمكن وصفه ، وتضرروا من ذلك ، وكذلك جميع الصليبيين أنكروا هذا الصلح ، لأنه على كلام مؤرخيهم صلح نفاق ، لحصول الإسلام على جامع شهير أمام قبر المسيح ، ولذلك أرسل البطريرك إلى البابا يعلمه ، وأنه وضع المنع على الكنائس المقدسة المستخلصة بهذه الصورة ، ونهى الزوار عن زيارتها ، ثم إن فريدريكوس سار بنفسه ومعه جماعة إلى المقدس ، ولم يتبعه أحد من الصليبيين ، فوجد القمامة والكنيسة وغيرهما قد تركها خدمها الرهبان ، لعدم مقابلته لأنه محروم ، فلبس التاج فيها بنفسه من غير احتفال كنائسى ، وذلك فى ربيع الآخر سنة (٦٢٦) ، ثم إنه حرر رسائل إلى البابا وإلى ملوك أوروبا يخبرهم فيه بامتلاكه القدس ، ثم أقام بالقدس يومين ، ولما وجد عدم احترامه عند الصليبيين سافر راجعاً نحو عكا ، ومنها إلى بلاده ، فمر بإيطاليا ، فحارب أهل لومبارديا ، ثم حارب صهره يوحنا دى بريانا ، ثم توسل البابا غريغوريوس التاسع بالصفح عنه ، فرأف به البابا ، وحله من الحرم .

﴿ ذكر خلفاء المسلمين ﴾

وكان في سنة (٦٢٢) في آخر ليلة من رمضان ، قد توفي الخليفة الناصر لدين الله أبو العباس أحمد بن المستضيء بأمر الله أبى محمد الحسن ، وكانت مدة خلافته نحو (٤٦) سنة ، وعشرة أشهر ، و (٢٨) يوماً ، وعمره نحو (٧٠) سنة ، وسبب موته الدوسنطاريا ، وكان سيىء السيرة ظالماً ، فتولى الخلافة بعده ولده أبو نصر محمد ، وتلقب بالظاهر بأمر الله ، فأظهر فى الرعية العدل والإحسان ، وأطلق من فى السجون ، ووزع عليهم نقوداً ، ثم في (١٤ رجب سنة ٦٢٣) توفي الإمام الظاهر بأمر الله المذكور ، فكانت خلافته تسعة أشهر ، و (١٤) يوماً ، وكان نعم الخليفة ، جمع الخشوع مع الخضوع لربه ، ثم بويع بالخلافة ابنه الأكبر أبو جعفر المنصور ، ولقب المستنصر بالله ، وسلك في الرعية سيرة أبيه فى الخير والإحسان والعدل .

﴿ مؤتمر مدينة سبولاته ﴾

أرسل الصليبيون بسوريا يطلبون من البابا المساعدة ، ويخبرونه بأن المسلمين يضيقون عليهم ، ويشنون الغارة على بلادهم ، فعقد مؤتمر بمدينة سبولاته في سنة ٦٢٩ ، حضره الملك فريدريكوس ، وبطريرك أورشليم ، وبطريرك القسطنطينية ، وغيرهم من الأساقفة والرؤساء الكنائسيين ، فعرض عليهم البابا الرسائل الواردة له من سوريا ، وطلب منهم المساعدة والحث والتحريض بالحروب الصليبية المقدسة ، وكلفوا جمعية رهبان القديس عبد الأحد وجمعية رهبان القديس فرنسيس الأكبر بالإنذار بالحروب الصليبية بصفة مفوضين من البابا ، وكذلك أرسل البابا قسيسين إلى كل من بغداد ودمشق ومصر ليجادلوا علماء المسلمين .

باقي سلطنة الكامل ووفاته وسلطنة ولده العادل

وأقام الملك الكامل سلطاناً على الديار المصرية بعد أبيه الملك العادل أبى بكر بن أيوب وكان قبل وفاة أبيه نائباً عنه على مصر كما تقدم ، وكان تارة يقيم بمصر وتارة يخرج منها إلى الشام ، وذلك لقصد توسيع ملكه ، وأقام ابنه الملك العادل نائباً عنه بمصر فى حال غيابه بالشام وأقام ولده الملك الصالح نجم الدين نائباً عنه فى بلاد آمد ، وحصن كيفا وحران وغيرهما من البلاد الشرقية ، وفى سنة (٦٣٥) بلغه وفاة أخيه الملك الأشرف ، فسار إلى دمشق ومعه الناصر داود صاحب الكرك ، فوصلها في جمادى الأولى ، وحاصرها وفيها أخوه الملك الصالح اسماعيل ، ثم تسلمها من أخيه المذكور وأعطاه بدلا منها بعلبك والبقاع وغيرهما ، وذلك في (١٩) جمادى الأولى وأقام بدمشق ثم أصابه مرض فمات هناك فى (٢١ رجب سنة ٦٣٥) وكان عمره نحو ستين سنة وكانت مدة سلطنته بمصر عشرين سنة ، ما عدا مدة نيابته بها قبل أن صار سلطاناً وهي قريبا من عشرين سنة ، وكان ملكا جليلا مهيباً حازماً ، حسن التدبير يباشر شئون المملكة بنفسه وينظر في أمور الجسور عند زيادة النيل وإصلاحها ، فعمرت في مدته ديار مصر أتم عمارة وكان محباً للعلماء ومجالستهم ، فاتفق رأى الأمراء على تحليف العسكر للملك العادل أبى بكر

ابن الكامل، وهو حينئذ نائب أبيه بمصر ، فحلف له جميع العسكر وأنابوا على دمشق الملك الجواد يونس بن مودود بن العادل أبى بكر بن أيوب ، وصار الملك العادل سلطاناً على مصر واتفق فى سنة (٦٣٦) كل من الملك الجواد يونس صاحب دمشق والملك الصالح نجم الدين أيوب شقيق سلطان مصر ، وكان أميراً على ما بين النهرين على أن يتبادلا الإمارات فأتى الملك الصالح إلى دمشق وسار الملك الجواد يونس إلى ما بين النهرين وكان غرض الملك الصالح من هذه المبادلة ، الاقتراب من مصر والسعي لاختلاس الملك من أخيـــه .

فى سجن الملك الصالح نجم الدين أيوب

لما استقر الملك الصالح بدمشق ، وردت إليه رسائل من بعض أمراء مصر ، يطالبون قدومه لتسلّم مصر ، فأقام ولده الملك المغيث فتح الدين عمر نائباً بدمشق ، وسار قاصداً مصر ، وشرع يكاتب عمه الصالح اسماعيل صاحب بعلبك ، ويستدعيه إليه ، وهو يحتج ويعتذر عن الحضور ، ويظهر أنه معه ويعمل فى الباطن على امتلاك دمشق وكان الناصر صاحب الكرك ، قد سافر إلى مصر ، واتفق مع الملك العادل على قتال الملك الصالح أيوب ، وفي سنة (٦٣٧) سار الملك الصالح اسماعيل ومعه شيركوه ، صاحب حمص بمجموعهما ، فهاجموا دمشق وحصروا القلعة وتسلمها الصالح اسماعيل ، وقبض على المغيث فتح الدين عمر ابن الملك الصالح أيوب وكان الصالح أيوب بنابلس ، ولما بلغه ذلك فسدت نيات عساكره عليه وشرع الأمراء ومن معه من الملوك يفارقونه ، ورحل هو إلى الغور ، ولم يبق عنده غير مماليكه وأستاذ داره حسام الدين ، فاحتار بأمره وليس له موضع يقصده ، فقصد نابلس ، ونزل بها بمن بقى معه ، وسمع الناصر صاحب الكرك بذلك وكان قد وصل من مصر ، فنزل بعساكره ، وأمسك الصالح أيوب ، وأرسله إلى الكرك واعتقله بها ، وتفرق عنه باقى أصحابه ومماليكه ولم يبق معه منهم غير جماعة قليلة ، فأرسل أخاه الملك العادل صاحب مصر يطلبه من الملك الناصر فلم يسلمه له فأرسل يهدد الناصر فلم يلتفت إليه .

﴿ استيلاء المسلمين على القدس وما جرى للبابا وفريدريكوس ﴾

واستمرت تجهيزات الصليبيين للسفر إلى سنة (٦٣٥) ، ثم قدم إلى البابا غريغوريوس التاسع بودوين ملك القسطنطينية يطلب مساعدته على الروم ، فأرسل البابا الصليبيين الذين تجمعوا إلى القسطنطينية ، وفي سنة (٦٣٧) بعد اعتقال الملك الصالح بالكرك ، سار الملك الناصر إلى القدس ، وكان الصليبيون قد عمروا قلعتها بعد موت الملك الكامل ، فحاصرها ، وفتحها ، وخرب القلعة ، وخرب برج داود أيضاً ؛ لأنه لما خربت القدس أولاً ، لم يخرب برج داود ، فخربه في هذه المرة ، ثم إنه بعد سفر الصليبيين إلى القسطنطينية حصل نفور بين البابا المذكور والملك فريدريكوس ، حتى حصلت بينهما محاربة شديدة براً وبحراً ، ثم إن فريدريكوس حاصر مدينة رومية ، فتخلف أهلها عن البابا ، فأخذ هذا ذخائر القديسين بطرس وبولس ، وخرج بها من شوارع رومية قاصداً أعداء الرومانيين ، قائلا لهم : ألا ترغبون في المحاماة عن هذه الوديعة المقدسة المحفوظة في وطنكم ، وتهملونها لتفقد ؟ فعادت جميع العساكر الرومانية والنمساوية عن محاربته ، وطردت الملك فريدريكوس ، ثم تجمعت عساكر صليبية بقيادة تيوليب الرابع كونت دي شمبانيا سلطان نافار ، وهو كاز دوك دي بورغونيا ، وبطرس دي دروكس ، وكنت دي بار ، وساروا قاصدين سوريا ، ولما وصلوا هناك تفرقوا ، كل رئيس بعسكره يحارب لنفسه .

﴿ سلطنة الصالح نجم الدين أيوب على مصر وخلافة المستعصم ﴾

في آخر رمضان سنة (٦٣٧) أفرج الملك الناصر داوود صاحب الكرك عن ابن عمه الملك الصالح أيوب ، واجتمع عليه مماليكه ، وسار الناصر والصالح إلى قبة الصخرة ، وتحالفا بها على أن تكون ديار مصر للصالح بدمشق ، والبلاد الشرقية للناصر ، ثم سارا إلى غزة ، فلما بلغ العادل صاحب مصر ظهور أمر أخيه الصالح عظم عليه ، وبرز بعسكر مصر إلى بلبيس ؛ لقصد الناصر والصالح ، وأرسل إلى عمه الصالح إسماعيل صاحب دمشق أن يبرز ، ويقصدهما من الوراء ، فسار الصالح اسماعيل من دمشق ، فنزل الفوار ، فبينما الناصر داود والصالح أيوب في هذه الشدة بين جيشين ، قد أحاطا بهما ، إذ

ركبت جماعة من المماليك الأشرفية ومقدمهم أيبك الأسمر ، وأحاطوا على دهليز الملك العادل ، وقبضوا عليه ، وجعلوا فى خيمة صغيرة ، وعليه من يحفظه ، وذلك يوم الجمعة (٨) من ذى القعدة ، فكانت مدة ملكه نحو سنتين ، وأرسلوا إلى الملك الصالح أيوب يستدعونه ، فأتاه فرج لم يسمع بمثله ، وسار الملك الصالح أيوب والملك الناصر داود إلى مصر ، ودخل الملك الصالح قلعة الجبل في صباح يوم الأحد ٢٤ من ذى القعدة المذكور ، فزينت له البلاد ، وفرحت بمقدمه الناس ، ثم سار الملك الناصر إلى الكرك ، ولما استوى الملك الصالح على سلطنة مصر ، أخذ في تمكين قدمه فيها ، فأمر في السنة التالية وهى سنة (٦٣٨) بالقبض علي أيبك الأسمر مقدم المماليك الأشرفية ، والأمراء والمماليك الذين ساعدوه علي خلع أخيه ، وبايعوه مكانه ، وقتلهم جميعاً ، وولى مكانهم من اختبر أمانتهم نحوه ، ثم شرع في بناء قلعة الجزيرة ، واتخذها مسكناً لنفسه ، وفى سنة (٦٤٠) توفي المستنصر بالله في (١٠) جمادى الآخرة ، وكانت مدة خلافته (١٦) سنه ، و (١١) شهراً ، ثم تولى الخلافة بعده ولده المستعصم بالله ، وهو السابع والثلاثون من بنى العباس .

﴿ محاربة الصليبيين بغزة ورجوعهم إلى بلادهم ﴾

فسار بطرس دى دروكس نحو دمشق ، فأغار عليها ، وأخذ من القرى التابعة لها غنائم كثيرة من المواشى والبغال ، ولما علم بذلك باقى الأمراء الصليبيين طمعوا في المسلمين ، وساروا إلى نواحى غزة ، وكان في أثناء ذلك أن قبيلة الخوارزميين طردهم جنكيز خان ملك التتر من شرقي آسيا أثناء فتوحاته هناك ، فجاءوا سوريا الشرقية ، ونزلوا على حدودها ، فأنفذ إليهم الملك الصالح سلطان مصر رُسُلا ، عقدوا معهم عهدة ، وعاهدوهم على محاربة الصليبيين ، وأمراء سوريا الذين على دعوتهم ، (لأن بعض ملوك سوريا كانوا قد حالفوا صليبيي سوريا على محاربة مصر ، وفى نظير ذلك سلموهم طبرية وعسقلان والشقيف والقدس ، فاحتل الصليبيون تلك الأماكن) فتجند الخوارزميون ، واخترقوا سوريا إلى أن بلغوا غزة ، فحاربوا الصليبيين عند أسوارها ، وأنجدهم سلطان مصر من الجهة الثانية بعساكر مصر بقيادة ركن الدين بيبرس مملوك الملك

الصالح ، وكان من أكبر مماليكه ، وهو الذى دخل معه الحبس لما حبس في الكرك ، فانهزم الصليبيون ، فتتبعوهم حتى استولوا على غزة والقدس باسم الملك الصالح ، وهلك الصليبيون الذين بقيادة الكونت دى بار وسمعان دي منتفورت عن آخرهم ، والرئيسان المذكوران وقعا في الأسر بأيدى المسلمين مع من نجا ، وأرسلوا إلى مصر مع بعض رءوس القتلى ، ولما بلغ الخبر إلى تيوبلت سلطان نافار جمع باقى الصليبين فى مدينة عسقلان ، ثم سار منها يقصد نجدة الصليبيين المحاربين ، فلما وصل إلى غزه وجد الحرب قد انتهت ، ودارت الدائرة علي إخوانه ، فأخذه الوهن هو وعساكره ومن معه من الصليبيين ، وأقام بسوريا جملة شهور ، ثم جدد هدنة مع السلطان الصالح الذى أطلق الأسرى الصليبيين ، ولم يكن بينهم الكونت دى بار ، فحزنوا عليه حزناً شديداً ، ثم سافروا كلهم إلى بلادهم غانمين سلامتهم . وقدمن عساكر صليبية أخرى إلى مدينة عكا بقيادة ريكاردوس دي كوتوبلاس ابن أخى ريكاردوس قلب الأسد ، فلما أرادوا محاربة المسلمين ، تخلف صليبيو سوريا عن مساعدتهم ؛ فلذلك جددوا عقد الصلح مع المسلمين ، واستأذنوا من السلطان الصالح في دفن قتلى الصليبيين بنواحى غزة ، فأذن لهم ، فدفنوهم ، ثم زاروا القدس ، ورجعوا إلى أوطانهم .

﴿ محاربة الملك الصالح نجم الدين أيوب وسجن بيبرس ﴾

فى سنة (٦٤٢) بلغ السلطان الصالح نجم الدين أيوب خبر وفاة ابنه الملك المغيث فتح الدين عمر في حبس الصالح إسماعيل صاحب دمشق ، فاشتد حزنه وحنقه على الصالح إسماعيل ، وفي سنة (٦٤٣) سار معين الدين بن الشيخ بعسكر السلطان الصالح أيوب إلى دمشق ، وحاصرها وكان بها صاحبها الصالح إسماعيل وإبراهيم بن شيركوه صاحب حمص ، فتسلمها على أن يستقر بيد الصالح إسماعيل بعلبك وبصرى والسواد ، وتستقر بيد صاحب حمص بلده ، وما هو مضاف إليها ، فأجابهما معين الدين إلى ذلك ، ثم وصل إلى دمشق حسام الدين ابن أبي على ، ومن معه من العسكر المصرى ، وكان معين الدين بعدما تسلم دمشق قد مرض بها ومات ، فبقى حسام الدين نائباً بدمشق . ثم إن الخوارزميين خرجوا عن طاعة الصالح أيوب ، وصاروا مع الصالح إسماعيل ، وانضم إليه الناصر داود

صاحب الكرك ، فساروا جميعاً إلى دمشق ، وحصروها وغلت بها الأقوات ، وقاسى أهلها شدة عظيمة لم يسمع بمثلها ، وقام حسام الدين في حفظ دمشق أتم قيام ، ثم اتفق الحلبيون ، والملك المنصور إبراهيم صاحب حمص ، وساروا مع الملك الصالح أيوب ، وقصدوا الخوارزمية ، فرحل هؤلاء عن دمشق ، وساروا نحو الحلبيين وصاحب حمص ، والتقوا على القصب فى سنة (٦٤٤) ، فانهزمت الخوارزمية هزيمة قبيحة ، تشتت شملهم بعدها ، وقتل مقدمهم حسام الدين بركة خان ، وحمل رأسه إلى حلب ، ومضت طائفة من الخوارزميين مع مقدمهم كشلوخان ، فلحقوا بالتتر ، وصاروا معهم ، وانقطع منهم جماعة ، وتفرقوا في الشام ، وكفى الله الناس شرهم ، ولما وصل خبر كسرتهم إلى السلطان الصالح أيوب بمصر فرح فرحاً شديداً ، ودقت البشائر بمصر ، وزال ما كان عنده من الغيظ على إبراهيم صاحب حمص ، ثم رحل حسام الدين بن أبى على الهبذاني بمن عنده من العسكر بدمشق ، ونازل بعلبك وبها أولاد الصالح إسماعيل ، وحاصرها وتسلمها بالأمان ، وحمل أولاد الصالح إسماعيل إلى السلطان الصالح أيوب بمصر ، فاعتقلوا هناك ، ومعهم أمين الدولة وزير الصالح إسماعيل ، وأستاذ داره ناصر الدين تغمور ، فدقت البشائر بمصر ، وزينت القاهرة لفتح بعلبك . ثم إن الصالح أيوب استولى على عجلون لوفاة صاحبها . ثم جهز الأمير فخر الدين يوسف بن الشيخ إلى حرب الملك الناصر صاحب الكرك ، فسار فخر الدين ، واستولى على جميع بلاد الملك الناصر ، وحاصر الكرك ، وخرب ضياعها ، فتولى على جميع البلاد ما عدا الكرك ، فإنها بقيت بيد صاحبها ، وفي هذه السنة أيضاً حبس السلطان الصالح أيوب مملوكه بيبرس ، وهو الذى كان معه لما اعتقل فى الكرك ، وسببه أن بيبرس المذكور مال إلى الخوارزمية ، وإلى الناصر داود ، وصار معهم على أستاذه (سيده) لما أرسله بتجريدة إلى غزة . كما ذكر ، فأرسل أستاذه الصالح أيوب ، واستماله فوصل إليه ، فاعتقله ، ثم إن الصالح أيوب استقدم الأمير حسام الدين من دمشق ، وأنابه بمصر ، وولى بدلا منه على دمشق ، الأمير جمال الدين مطروح ، وسار الصالح أيوب إلى دمشق ، ومنها إلى بعلبك ، ثم عاد إلى دمشق ، وفي سنة (٦٤٥) عاد السلطان الصالح أيوب إلى مصر ، ثم سار الأمير فخر الدين ابن الشيخ ، وفتح قلعتي عسقلان وطبرية من الصليبيين . ثم توفي علاء الدين قراسنقر الساقى العادلى أحد مماليك الملك العادل بن أيوب ، وصارت مماليكه

بالولاء للصالح أيوب ، ومنهم سيف الدين قلاوون الصالحى . وفي سنة (٦٤٦) أرسل الملك الناصر صاحب حلب عسكراً مع شمس الدين لؤلؤ الأرمني ، فحاصروا حمص مدة شهرين ، وبها الأشرف موسى ، فسلمها إليهم ، وتعوض عنه بتل باشر مضافا إلى ما بيده من تدمر والرحبة ، فشق ذلك على السلطان الصالح أيوب ، وسار إلى الشام لإرجاع حمص من الحلبيين ، فوصل دمشق ، وأرسل عسكر إلى حمص مع حسام الدين ، فنزل عليها ، وحاصرها ، وركب عليها المنجنيقات ، ووصل إليه نجم الدين الباذراى رسول الخليفة ، وسعى فى الصلح بين الصالح والحلبيين ، وأن تستقر حمص بيد الحلبيين ، فأجاب الملك الصالح إلى ذلك ، وأمر العسكر ، فرحلوا عن حمص بعد أن أشرفوا على أخذها .

(التتر بأوربا ومؤتمر ليون بفرنسا)

لما ظهر التتر بآسيا لم يقتنعوا بما ملكوا ، بل ساروا بقيادة رئيسهم جانكيز خان إلى بلاد أوروبا ، فهجموا على بلاد هونكريا ، وبلاد النمسا ، وتهددوا باقى الممالك ، فوقع الرعب في قلوب ملوك أوروبا ، واحتاروا فى أمرهم ، فأمر البابا بإيقاد حرب مقدسة ضد هؤلاء التتر ، ولكن نداءه هذا لم يلاق صدى ، وأرسل ملك النمسا إلى سائر الملوك يطلب اتحادهم لصد هجمات التتر ، ولكن الرعب كان قد ملأ قلوبهم ، فلم يلتفت أحد إليه ، واكتفوا بالتوسل في الكنائس ، يطلبون من الله إزالة هذا العدو . وكان الخوارزميون قد قاتلوا صليبيي سوريا ، وأهلكوهم كما ذكر ، فسافر أسقف بيروت فاليران إلى بلاد أوروبا يطلب المساعدة ، فقابله البابا إينوشالسيون الرابع بالحنو والشفقة ، ووعده بالمساعدة التامة . ثم إن بودوين الثانى ملك القسطنطينية التمس من البابا أيضاً الإغاثة ، لتعضيد كرسي مملكته المائل إلى السقوط من الروم ، لأنهم شقوا عليه عصا الطاعة . وكان البابا أيضاً قد تضايق من الحروب الحاصلة بينه وبين ملك النمسا ، فترك رومية ، وسار إلى مملكة فرنسا ، وعقد بها مؤتمراً عاما فى مدينة ليون سنة (٦٤٣) ، ففى هذا المؤتمر (السينودس) حضر الأساقفة ، وأمراء الشرق ، وبودوين ملك القسطنطينية ، ونواب الملك فريدريكوس ملك النمسا للمدافعة عنه في التهم الموجهة إليه من البابا ، ففى الجلسة الأولى التى عقدت فى (١٨ يونيه سنة ١٢٤٥ م) افتتح البابا

المؤتمر ، وعرض عليه الأوجه الآتية : أولا – مسألة التتر باوروبا . ثانيا – انشقاق الروم . ثالثا – غزوات الخوارزميين بسوريا . رابعاً – الاضطهاد الذى تعمده الملك فريدريكوس . فقرر أعضاء المؤتمر ما يأتى : ، أولاً – يلزم إعانة القسطنطينية ، وتخليص القبر المقدس ، وتجريد عساكر لإيقاد حروب صليبية سابعة ، وأن البابا والأساقفة يقدمون للنفقة على هذه الحروب عشر مداخيلهم ، وباقي الإكليريكيين نصف عشر مداخيلهم ، وأصدروا الأوامر اللازمة لتجهيز هذه الحروب . ثانياً – قرر بعزل الملك فريدريكوس ملك النمسا ، وذلك بعد مدافعة نوابه التي لم تأت بفائدة . ثالثاً – أمر البابا أن الكردينالية يلبسون أثواب لونها أحمر ، علامة على استعدادهم لسفك دماهم فى حفظ الكنيسة .

(ابتداء الحروب الصليبية السابعة)
(سفر العساكر الصليبية السابعة)

بعد انتهاء المؤتمر السابق الذكر أرسل البابا وأعضاء المؤتمر إلى الملك لويس التاسع سلطان فرنسا يطلبون منه استعداده ، ومسيره لخلاص القبر المقدس من المسلمين ، فقبل طلبهم هذا ، ونبه على عساكره بالتجهيزات الحربية ، فنهته عن ذلك والدته ، وأرباب دولته . ثم أصابه مرض تهدد حياته ، فنذر للمسيح بأنه إذا شفى توجه بعساكره لخلاص قبره ، فلما شفى استلم الصليب ، وصار يجهز العساكر الصليبية السابعة للمسير ، فاستعد للسفر كل من السلطان المذكور ، وأخواته الثلاثة ، والكونت دى براثانيا ، وأولاده ، والدوك ، دى برغونيا ، والكونت دى فلاندرا ، والكونت دى بار ، والكونت دى منتفرت ، والكونت دى سان بول ، مع ابن أخيه شاتيلون ، والكونت دى سواسونس ، والكونت دى فاندوما ، وغيرهم كثيرون ، والأمير جانفيلا صديق الملك لويس التاسع ، وهو مؤرخ هذه الحروب ، وعقد الملك المذكور جمعية بمدينة باريس لتحديد ميعاد السفر ، وأقام والدته بلانشا نائبة عنه فى المملكة مدة غيابه ، وقد أقسم له رجال حكومته بأن يحفظوا الطاعة لعائلته إن حدث له شيء في سفره ، وأرسل البابا منشورات تقرأ فى الكنائس بمدح الملك لويس التاسع صاحب الحروب الصليبية السابعة ، والثناء عليه ، وسار الملك لويس إلى كنيسة القديس

ديونسيوس ، واستلم سنجق الصليب هناك من يد النائب البابوى ، كما أنه ألبسه ثوب الحروب الصليبية ، ورجع إلى باريس ، وحضر الذبيحة الإلهية في كنيسة والدة الإله الكاتدرائية .



صورة لويس التاسع ملك فرنسا

وفى اليوم الثانى سار من باريس ، وبرفقته زوجته مرغريتا ، وخرجت لوداعه الملكة بلانشا والدته ، وجميع الإكليروس ، ورجال الحكومة ، ثم سار من بلاد فرنسا الجنوبية ، واجتاز إقليم لانكادوك ، ونزل فى المراكب من مينا أكاس بورتاس ، وساروا فى البحر المتوسط إلى أن وصلوا جزيرة قبرص ، وأقاموا بها ، ثم إنه تفشي في المعسكر الصليبي مرض وبائى شديد أهلك معظمهم ، ومات به هناك الكونت دى دروكس ، والكونت دى مونتفرت ، والكونت دى فاندوما ، والإرشامبود دى بوربون ، وغيرهم .

(وصول الصليبيين إلى دمياط ومخابرتهم الملك الصالح أيوب)

كان السلطان الصالح أيوب قد فاجأه مرض ثقيل ، وهو تورم في مأبضه ، تكون من ناصور فتح ، وعسر برؤه ، وانضاف إليه قرحة فى الصدر ، فلزم الفراش فى دمشق ، فجاءه منبىء يخبره بعزم الصليبيين على مهاجمة مصر ، وأخذها ، وقد أكثروا من التجنيد ، ووردت إليهم النجدات من جميع ممالك أوروبا ، فلما علم بذلك وهو مريض لم يسعه إلا مبارحة دمشق ، فسار في محفة ، ونزل أشمون طناح فى أول سنة (٦٤٧) ، وجمع في مدينة دمياط من الأقوات والزاد والأسلحة وآلات القتال شيئاً كثيرا ، خوفا من أن يجرى على دمياط ما جرى في أيام أبيه ، وجهز أسطولا من صناعة مصر ، وجعل فيه سائر ما يحتاج إليه الجند ، وسيره شيئاً فشيئاً ، وضم إلى جنده كثيراً من العربان ، وأكثرهم من بنى كنانة ، جعلهم وراء متاريس دمياط ، وعهد قيادة حامية هذه المدينة إلى الأمير فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ ، ففى صباح يوم الجمعة (٢٠) صفر من هذه السنة وردت مراكب الصليبيين إلى دمياط ، وفيها جموعهم ، وحال وصولهم بعث ملكهم لويس التاسع إلى الملك الصالح كتابا نصه : (أما بعد فإنه لم يخف عليك إنى أمين الأمة العيسوية ، كما أنه لا يخفى عليّ أنك أمين الأمة المحمدة ، وغير خافٍ عليك أن عندنا أهل جزائر الأندلس ، وما يحملونه إلينا من الأموال والهدايا ، ونحن نسوقهم سوق البقر ، ونقتل منهم الرجال ، وترمل النساء ، ونستأسر البنات والصبيان ، ونخلى منهم الديار ، وأنا قد أبديت لك ما فيه الكفاية ، وبذلت لك النصح إلى النهاية ، فلو حلفت لى بكل الأيمان ، وأدخلت على الأقساء والرهبان ، وحملت قدامى الشمع طاعة للصلبان لكنت واصلا إليك ، وقاتلتك في أعز البقاع إليك ، فإما أن تكون البلاد لى هدية حصلت فى يدى ، وإما أن تكون البلاد لك ، والغلبة على ، فيدك علياء ممتدة إلى ، وقد عرفتك ، وحذرتك من عساكر حضرت في طاعتي تملأ السهل والجبل ، وعددهم كعدد الحصى ، وهم مرسلون إليك بأسياف القضاء ، فلما قرىء الكتاب على السلطان الملك الصالح ، وقد اشتد به المرض بكى واسترجع ، فكتب القاضى بهاء الدين زهير بن محمد الجواب : (بسم الله الرحمن الرحيم وصلواته على سيدنا محمد رسول الله وآله وصحبه

أجمعين . أما بعد : فإنه وصل كتابك ، وأنت تهدد فيه بكثرة جيوشك ، وعدد أبطالك ، فنحن أرباب السيوف ، وما قتل منا فرد إلا جددناه ، ولا بغى علينا باغ إلا دمرناه ، ولو رأت عينك أيها المغرور حد سيوفنا ، وعظم حروبنا ، وفتحنا منكم الحصون والسواحل ، وتخريبنا ديار الأواخر منك ، والأوائل ، لكان لك أن تعض على أناملك بالندم ، ولا بد أن تزل بك القدم في يوم أوله لنا وآخره عليك ، فهنالك تسيء الظنون ، وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون ، فإذا قرأت كتابى هذا فتكون فيه على أول سورة النحل : « **أتى أمر الله فلا تستعجلوه** » وتكون على آخر سورة ص : « **ولتعلمن نبأه بعد حين** » ، ونعود إلى قول الله تعالى ، وهو أصدق القائلين : « **كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله ، والله مع الصابرين** » وقول الحكماء : (إن الباغى له مصرع ، وبغيك يصرعك ، وإلى البلاء يقلبك ، والسلام) .

في امتلاك الصليبيين دمياط

وبعد ذلك عقد الملك لويس التاسع مجلس مشورة الصليبيين ، ليقرروا هل تنزل عساكر الصليبيين إلى بر دمياط ، أو تقيم أياماً بمراكبهم للاستراحة ؟ فقرر سرعة نزولهم ، فنزل الملك لويس ومعه إخوته ، وبجانبه أحد الرؤساء رافعاً علم الحرب ، وأمامه النائب البابوى حاملا الصليب ، واصطفوا للقتال في يوم السبت (٢١ صفر سنة ٦٤٧) ، فحصلت بين الفريقين مناوشات ، قتل فيها بعض أمراء المسلمين ، ثم حصلت أيضاً مناوشة في البحر بين مراكب الصليبيين ، ومراكب المسلمين ، وفى المساء فر الأمير فخر الدين بغير داع ، فتبعه بنو كنانة ، وخرجوا من المدينة ، فتبعهم الأهالي فى الليل هائمين على وجوههم ، لا يلتفتون إلى شيء ، ولحقوا بالعسكر فى أشمون ، فخلت المدينة للصليبيين ، ففى يوم الأحد ٢٢ من الشهر المذكور ، سار الصليبيون قاصدين محاصرة المدينة ، فوجدوها مفتوحة خالية من سكانها ، فدخلوها بأمان ، واستولوا على جميع مافيها من المؤن ، والذخائر ، والأسلحة ، وعدة الحرب ، ودخلوا الجامع ، وجعلوه كنيسة ، فخسر سلطان مصر بذلك خسارة لا تعوض ، فاستشاط الملك الصالح غيظاً لذلك ، وجمع إليه بني كنانة ، وعنفهم لانهزامهم على حين لم يكن داع للهزيمة ، فقالوا : نحن لم نفعل ذلك

إلا بعد أن رأينا الأمير فخر الدين فاراً ، ومن ورائه رجاله ، فأمر الملك الصالح بإعدام (٥٤) من أمرائهم ، لأنهم خرجوا من دمياط بغير إذنه .

استيلاء الملك الصالح على الكرك ووفاته

وفى (٢٤ صفر سنة ٦٤٧) كان عسكر الملك الصالح فى المنصورة ، وحصنها واستعد للمدافعة ، وكان الملك الناصر صاحب الكرك قد سار إلى حلب مستجيراً بصاحبها ، واستناب على بلاده ابنه عيسى ، ولقبه الملك المعظم ، وكان له ولدان آخران أكبر من عيسى ، وهما : الأمجد حسن ، والظاهر شاذى ، فغضبا لتقديم أخيهما عيسى عليهما ، وبعد سفر أبيهما قبضا عليه ، وتوجه الأمجد حسن إلى الملك الصالح أيوب وهو مريض فى المنصورة ، وبذل له تسليم الكرك على إقطاع له ولأخيه بديار مصر ، فأحسن إليه الصالح أيوب ، وأعطاهما إقطاعاً أرضاهما بها ، وأرسل إلى الكرك من تسلمها يوم الإثنين (١٨) جمادى الآخرة ، وفرح الصالح بالكرك فرحاً عظيماً ، مع ما هو فيه من المرض ، وفي ليلة الأحد (١٤) شعبان توفى السلطان الصالح نور الدين أيوب ، وكانت مدة سلطته على الديار المصرية تسع سنين ، و (٨) أشهر ، و (٢٠) يوماً ، وعمره نحو أربعين سنة ، وكان مهيباً ، عالى الهمة ، عفيفاً طاهر اللسان ، والذيل ، شديد الوقار ، كثير الصمت ، وجمع من المماليك الترك ما لم يجتمع لغيره حتى كان أكثر أمراء عسكره من مماليكه ، ورتب جماعة منهم حول دهليزه ، وسماهم البحرية ، ولم يبق من أولاده غير الملك المعظم تورانشاه ، وكان مقيما بحصن كيفا ، ومات الصالح ، ولم يوص بالملك لأحد ، فكان من جملة جواريه جارية تدعى شجرة الدر ، وهى والدة المعظم تورانشاه ، فتواطأت مع الأمير فخر الدين ، ورئيس الحصن جمال الدين محسن على مبايعة ابنها ، وكانت عارفة بأمور الحكومة وسياستها ، ويقال : إن الملك الصالح كثيراً ما عهد إليها إدارة الأحكام أثناء غيابه عنها في حملاته الحربية ، فلما توفي كتمت أمر موته ، ووقفت في جمهور الأمراء والأعيان قائلة : (إن السلطان يأمركم أن تبايعوا بعده ابنه الملك المعظم غياث الدين تورانشاه ، وقد عين الأمير فخر الدين أتابك لإدارة الأحكام) فبايع جميع الأمراء ، ثم أرسلت هذه الأوامر إلى القاهرة ، فبايع جميع من فيها من القواد وأعيان السلطنة ، وبعثت بالرسائل فى ذلك مختومة بختم السلطان الصالح إلى جميع أنحاء

المملكة ، وكان الجميع يظنون أن الملك الصالح لا يزال حياً ، لكنهم عندما علموا بأن الأمير فخر الدين أرسل قاصداً لإحضار الملك المعظم من حصن كيفا بسرعة إلى بالقاهرة داخلهم الريب .

محاربات الصليبيين وواقعة المنصورة

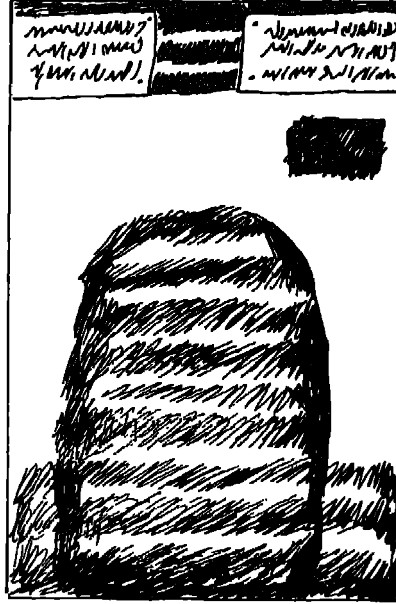
بعد امتلاك الصليبيين مدينة دمياط رتبوا حالهم فيها ، وأقامت بها الملكة مرغريتا ، وسافروا منها قاصدين مصر القاهرة ، فوجدوا معسكر المسلمين بالمنصورة ، فردهم عن غرضهم ، فأقاموا في الموضع الذى قامت به العساكر الصليبية السادسة ، واستمرت بين العدوين المناوشات ، وأخذت العساكر الإسلامية تحدقهم بالنبال ، وكرات النار التى يسميها مؤرخوهم : النيران (الفريجاوزيه) ، وكان كل يوم يقتل من الصليبيين كثيرون ، ويؤسر منهم خطفاً كثيرون ، ولما بلغ الصليبيين خبر وفاة الملك الصالح طمعوا فى البلاد ، فحاربوا العساكر الإسلامية محاربة قوية ، وكان الجيش الإسلامى بقيادة الأمير فخر الدين ، فحارب ببسالة كلية ، كل ذلك حصل بين الجيشين ببحر أشمون ، ولم يستطع الصليبيون العبور إلى المنصورة ، وهم لا يعلمون طريقاً إليها غير النيل ، فأتى إليهم بعض من غدر من المسلمين ، وأخبرهم عن طريق يمكنهم سلكها بسهولة ، فسارت سرية من فرسان جمعية الهيكليين ، وجمعية القديس يوحنا المعمدان بقيادة الكونت روبرتوس دى أرتواز شقيق الملك لويس ، وهاجمت معسكر المنصورة بغتة ، وكان الأمير فخر الدين في الحمام ، فأتته الأخبار بهجوم الصليبيين ، فنادى برجاله وخرج للدفاع ، فأدركه بعضهم ، فقتله ، واشتد عزم الصليبيين حتى كادت تدور الدائرة على المسلمين ، لولا مماليك السلطان الصالح ، فإنهم دافعوا دفاعاً شديداً ، وانقضوا على الصليبيين انقضاض الأسود على فريستها ، فقتلوا راول دى كوزي ، وغويليوس لونكانيه رؤساء الجمعيات المذكورة ، والكونت روبارتوس أخ الملك لويس ، وباق الفرسان ، فلم يبقوا منهم أحداً ، ولما بلغ خبر هذه الواقعة الملك لويس ومقتل أخيه أمر بوجو رئيس الجيوش بالسرعة فى المسير إلى معسكر المسلمين ، ومباغتتهم ، فسار إلى أن وصل إلى عسكر المسلمين ، واشتد بينهم القتال : تارة بالنبال ، وأخرى بالرماح ، ومثلها بالبلطات

وبالسيوف ، وبعد جهاد عجيب ، وصبر من المسلمين شديد ، قتل من الصليبيين والى تريشاطو ، وهو كز دى أكوما وراول دى فنوره ، وفاريس دى لوبى ، وأما أرارد دي إبرى فضربه أحد المماليك بسيفه فقد وجهه شطرين ، فلحقهم الملك لويس وقوى عزمهم ، وقد وقع أخوه الثانى الكونت دى أنجو عن حصانه ، فأراد المسلمون أسره ، فلحقه لويس وجنده ، وخلصه من أيديهم ، واستمر القتال عاماً بين جميع الصليبيين ، وعساكر المسلمين ، وقد أعيي الفريقين التعب ، و لم يكن أحدهما يجسر على تجديد القتال ، لعظم ما قاسيا من الخسائر . وبعد انقضاء هذه الواقعة العظيمة نزل بمعسكر الصليبيين أمراض رديئة من كثرة جثث المقتولين منهم ، وتصاعد العفونة ، فأفسدت الهواء عليهم ، فكثر بينهم الموت كأنه وباء ، ثم أعقب ذلك فناء . زادهم ، واشتد عليهم الجوع ، وضربهم بسيفه تكميلا لمصائبهم ؛ لأن عساكر المسلمين وقفوا بمراكبهم والبحر بالقرب للمنصورة ، وكلما وجدوا مراكب واردة للصليبيين بالقوت هجموا عليها ، وأخذوها أو ارتدت ثانياً إلى دمياط ، وكذلك الملك لويس نفسه مرض ، فخاف جميع الصليبيين أن يموت الملك ، فاجتمعوا وعولوا على طلب هدنة لرفع السلاح أياما معدودة .

قدوم المعظم تورانشاه وسلطنته وواقعة الصليبيين وأسر لويس التاسع وغيره

في ٢١ من ذى القعدة سنة (٦٤٧) قدم السلطان غياث الدين تورانشاه من حصن كيفا ، فاستولى على سلطنته ، واشتد عزم المسلمين به ، وضعفت قلوب الصليبيين ، ووقع القتال بين الفريقين فى البر والبحر ، فأسر المسلمون (٢٢) مركباً ، فلما رأى الصليبيون ما كان من ضعفهم أرسل لويس التاسع يطلب المصالحة على أن يأخذ بيت المقدس وضواحيه ، وينسحبوا من مصر بعد إخلاء دمياط ، فرفض الملك المعظم هذا الطلب ، وفي (٢ محرم سنة ٦٤٧) عزم الصليبيون على الرجوع إلى دمياط ، فتعقبهم المسلمون حتى أدركوهم غربى فارسكور ، فاستلحموهم ، وظلوا فى قتلهم ، ويقال : إنهم قتلوا منهم (٣٠) ألفاً ، وأسروا الملك لويس التاسع قائد الحملة الصليبية السابعة ، وقيدوه بالسلاسل

الحديدية ، وكان الملك لويس وإخوته وجميع رؤساء جيشه قد انحازوا إلى منية أبي عبد الله ، وطلبوا الأمان ، فأمنهم الطواشي محسن الصالحي ، ثم احتاطوا بهم ، وقبضوا على الملك المذكور وإخوته وجميع الرؤساء .



(صورة دار لقمان التي سجن فيها لويس التاسع ملك فرنسا بالمنصورة وهي باقية للإن)

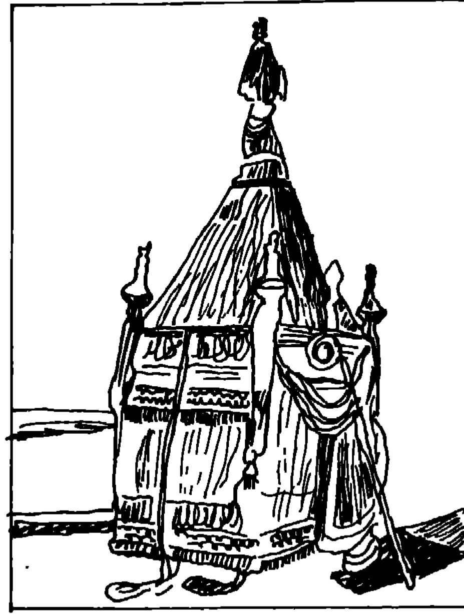
وأحضروهم إلى المنصورة ، وجعلوهم فى الدار التى كان ينزلها كاتب الإنشاء نور الدين بن لقمان ، ووكل بالملك لويس الطواشي صبيح المعظمي ، ثم رحل الملك المعظم من المنصورة ، ونزل بفارسكور ، ونصب بها برجاً من الخشب .

قتل المعظم وسلطنة شجرة الدر وإطلاق الملك لويس التاسع

ثم إن الملك المعظم تورانشاه عزل جميع من كان بيده أزمة الحكومة من أمراء أبيه ومماليكه ، وكل منهم بلغه عنه من التهديد والوعيد ما نفر قلبه منه ، واعتمد على رجاله الذين قدموا معه من حصن كيفا ، وكانوا سفلة أراذل ، فاجتمعت البحرية على قتله بعد نزوله بفارسكور ، وهجموا عليه بالسيوف ،

وكان أول من ضربه : ركن الدين بيبرس ، فهرب الملك المعظم منهم إلى البرج الخشبى الذى نصب له بفارسكور ، فأطلقوا فى البرج النار ، فخرج المعظم من البرج هارباً طالباً البحر ، ليركب فى حراقته ، فحالوا بينه وبينها بالنشاب ، فطرح نفسه فى البحر ، فأدركوه وأتموا قتله فى يوم الإثنين (٢٩ محرم سنة ٦٤٨) ، وكانت مدة إقامته في المملكة من حين وصوله إلى الديار المصرية شهرين وأياماً ، وبموته انقرضت الدولة الأيوبية ، ولما جرى ذلك اجتمع الأمراء ، واتفقوا على أن يقيموا شجرة الدر زوجة الملك الصالح فى المملكة ، وأن يكون عز الدين أيبك الجاشنكير الصالحى المعروف بالتركمانى أتابك العسكر ، وحلفوا على ذلك فى (١٠ صفر سنة ٦٤٨) ، وخطب لشجرة الدر على المنابر ، وكان الدعاء لها بالصورة الآتية : « واحفظ اللهم الجبهة الصالحية ملكة المسلمين عصمة الدنيا والدين ، ذات الحجاب الجميل ، والستر الجليل ، والدة المرحوم خليل زوجة الملك الصالح نجم الدين أيوب » وضربت السكة باسمها ، وكان نقش السكة : (المستعصمية الصالحية ملكة المسلمين ، والدة الملك المنصور خليل) ، وكانت قد رزقت من الملك الصالح ولداً اسمه خليل مات صغيراً (فسميت بهذا الاسم) ، وكانت صورة علامتها على المناشير والتواقيع (والدة خليل) ، ثم دارت المخابرة بين رجال الحكومة المصرية وبين الملك لويس التاسع المحبوس بشأن إطلاقه هو ومن معه من الأسرى ، فتم الصلح على أن يدفع (٨٠٠) ألف دينار ، ويسلم مدينة دمياط ، ويرحل بسلام ، وتطلق الحكومة المصرية جميع الأسرى ، فاستقر الرأي على ذلك ، وكانت دمياط لم تزل مع الصليبيين ، والعساكر الإسلامية محاطة بها ، والملكة مرغريتا تقيم فيها وهى حامل ، فوضعت ولداً فسمته تريستان (أى الحزين) ، وكان الصليبيون الذين معها بالمدينة وهم البيزاويون والجنويون قد عزموا على أن يهربوا من المدينة ، ويتركوا هذه الملكة ، فوزعت عليهم جميع ما عندها من الذهب والفضة حتى استمالتهم ، ثم ركب الملك لويس وإخوته وبعض الرؤساء ، وساروا قاصدين دمياط ، وحوله العساكر الإسلامية ، للاستيلاء على دمياط ، وتسلّم المبلغ المقرر ، فلما وصلها سلمها للعساكر المصرية ، ودفع (٤٠٠) ألف دينار ، ونزل هو وباقى الصليبيين وزوجته بمراكب البحر ، وسار قاصداً عكا .

وهى أول من أرسل المحمل من مصر إلى مكة ، وعينت له أميرا ، وكانت تعمل له المواكب الفاخرة . ولا يزال ذلك جاريا إلى الآن وعينه .



(صورة المحمل)

فقال جمال الدين يحيي بن مطروح في ذلك أبياتاً منها :

قل للفرنسيس إذا جئته	مقال صدق عن قئول نصيح
أتيت مصرا تبتغى ملكها	تحسب أن الزمر يا طبل ريح
وكل أصحابك أوردتهم	بحسن تدبيرك بطن الضريح
خمسين ألفاً لا ترى منهم	غير قتيل أو أسير جريح
ألهمك الله إلى مثلها	لعل عيسى منكم يستريح
إذا كان باباكم بذا راضياً	فرب غش قد أتى من نصيح
وقل لهم إن أضمروا عودة	لأخذ ثأر أو لقصد صحيح
دار بن لقمان على حالها	والقيد باق والطواشى صبيح

الملك لويس بعكا وسلطنة أيبك الجاشنكير

ولما وصل الملك لويس التاسع إلى عكا ببعض رجاله ، لأن الآخرين سافروا إلى بلادهم ، اجتهد فى جمع باقى المبلغ المقرر وقدره ٤٠٠ ألف دينار ، ولما كمل عنده أرسله صحبة بعض الصليبيين إلى الديار المصرية ، وطلب إطلاق باقى الأسارى ، فاستلموا المبلغ ، وأطلقوا نحو أربعمائة أسير فقط ، فاغتاظ لويس ، وأخذ يستعد في تحصين بلاد سوريا ، وأما شجرة الدر فإن الناس لم يرتاحوا إلى طاعتها ، فأنفذ السوريون إلى الخليفة العباسى في بغداد يستفتونه فى أمر هذه الملكة ، فكتب إليهم ما مفاده : (إذا لم يكن بينكم من يصلح للسلطنة ، أقدم إليكم ، فأقيم عليكم من يحكم فيكم ، أما قرأتم ما قاله النبي صلى الله عليه وسلم عليهن) فاستمسك مماليك مصر بهذه الفتوى ، وثار رفقاؤهم في دمشق ، وخلعوا طاعة شجرة الدر ، وبايعوا سلطان حلب : الملك الناصر يوسف الأيوبى في (٨ ربيع أول سنة ٦٤٨) ، وقتلوا كل من كان فى دمشق من المماليك على دعوة شجرة الدر ، وفعل مثل ذلك أهل بعلبك وشميمس وعجلون ، فنشأ بسبب ذلك خصام بين مماليك سوريا ، ومماليك مصر ، آل إلى مواقع حربية ، فتمكن عز الدين أيبك فى هذه الانقسامات والاستقلال ، وألجأ الأمراء شجرة الدر إلى الاستقالة فاستقالت ، ثم بويع عز الدين أيبك على مصر ، ولقب بالملك المعز الجاشنكير التركماني الصالحي ، وتزوج بشجرة الدر ، فانضم حزبها إلى حزبه ، وبعد قليل انقسم المماليك إلى حزبين عرفا بالمعزيين نسبة إليس الملك المعز أيبك ، وبالصالحيين نسبة إلى الملك الصالح نجم الدين ، وتنازعا النفوذ ، ففاز الصالحيون .

سفر أخوى الملك لويس إلى فرنسا وسلطنة الملك الأشرف بن يوسف

وفى أثناء ذلك أرسلت الملكة بلانشا والدة الملك لويس التاسع ونائبته على المملكة إلى ولدها المذكور بسوريا تطلب منه سرعة سفره إلى مملكته ، فعزم على السفر ، فاستغاث به صليبيو سوريا ، وطلبوا منه البقاء معهم خوفاً من استيلاء المسلمين على بلادهم بعد سفره ، فأجاب طلبهم ، وعدل عن السفر

إلى مملكته ، فلما رأى ذلك أخواه ، أى عزمه على الإقامة بسوريا ركبا البحر ، وتبعهما باقى الصليبيين ، وسافروا إلى بلادهم . وأما المماليك الصالحيون فإنهم أجبروا أيبك أن يقبل بمبايعة شاب من العائلة الأيوبية لم يبلغ الثامنة من العمر ، وكان فى اليمن ، واسمه موسي مظفر الدين بن يوسف اتسنر ملك اليمن ، فبويع في (٥ جمادى الأولي سنة ٦٤٨) ، وبايعه الناس ولقبوه الملك الأشرف ، وتعين عز الدين أيبك أتابكاله ، غير أن أزمة الأحكام ما برحت فى يده ، ولم يكن الأشرف إلا اسماً بلا مسمى ، ومن الغريب تأليف هذه السلطنة المزدوجة من أحد سلالة العائلة الأيوبية ، وأحد مماليكها ، والأغرب من ذلك أن يخطب لهما معاً .

حروب بين المماليك والسوريين واتحادهم مع الملك لويس وتخريب دمياط

وفى خلال ذلك ، نهض سلطان دمشق ، ناصر الدين يوسف الأيوبي للأخذ بثأر الملك المعظم ، فدعى إليه أقاربه أمراء العائلة الأيوبية للتعاضد على ذلك ، ولتأكيد النجاح بمسعاه ، طلب من الملك لويس التاسع مساعدته ، ولما أحس بذلك المصريون أرسلوا إلى لويس المذكور مائتى فارس من الأسرى ، وطلبوا منه عقد معاهدة مقتضاها : أن المصريين إذا انتصروا على صاحب دمشق ، أعطوا ملك فرنسا القدس ، وأن جميع البلاد التي يستولون عليها تكون مناصفة بينهم . فمال الملك لويس إلى معاهدة المصريين ، واعتذر إلى صاحب دمشق بأن بينه وبين المصريين هدنة بعشر سنين .

فاتصل أمر تلك المخابرات بسلطان دمشق ، فأنفذ فرقة من عشرين ألف مقاتل تحول دون اتحاد الجيشين ، فعثروا بالمصريين فى غزة ، فناهضوهم حتى أرجعوهم إلى الصالحية ، فأنجدهم الفارس أقطاى يوم الخميس (١٠ من ذى القعده سنة ٦٤٩) فى العباسية ، وتقاتلا ، فانكسر المصريون أولاً ، فتعقبهم السوريون ، فجعل أيبك والفارس أقطاى انهزامهما نحو سوريا ، ومعهما جماعة من الفرسان ، فالتقيا بشمس الدين لولو فى شرذمة من رجاله ، فقتلاه وشتتا رجاله ، فاشتد أزرهما ، فعادا لمهاجمة سلطان دمشق ، وكان في معسكره مع

شرذمة قليلة من الجند . أما فى الجيش فكانوا يتعقبون الجيوش المصرية المنهزمة ، فاضطر ناصر الدين إلى الفرار بنفسه ، فتبعاه فلم يدركاه ، فعادا إلى مصر ، فرأيا الجيوش السورية قد دخلت القاهرة ، وخاف أهاليها ظناً منهم أن النصر لناصر الدين ، فبايعوه وخطبوا له إلا أن الأئمة لم يوافقوا على تلك المبايعة ، فلم ينجوا من انتقام أيبك ، فلما علم المصريون بأن النصر لهم فرحوا جداً ، وأبطلوا مبايعة ناصر الدين ، أما هذا فلما رأى أمر انكساره على ما تقدم ، لم يعد يمكنه إعادة الحرب ثانية ، فصالح المصريين على أن ينجلى لهم عن مصر وغزة وبيت المقدس ، ولكنه ربح من الجهة الثانية ماكان يرومه من فساد المعاهدة بين المصريين والصليبيين . ثم اتفق المماليك البحرية على تخريب مدينة دمياط خوفاً من قدوم الصليبيين إليها مرة أخرى فسيروا إليها الحجارين والفعلة فتولوا هدم أسوارها ، ومحيت أثارها ولم يبق منها سوى الجامع ويعرف بجامع الفتح وأخصاص ابتناها بعض الفقراء للسكن فى قبليها ودعوا ذلك المكان المنشية . أما دمياط الباقية إلى هذا العهد فابتنيت على أنقاض تلك .

طلب الملك لويس التاسع النجدة من أوروبا ووفاة الأشرف بن يوسف

لما علم الملك لويس بفساد المعاهدة المذكورة واتحاد المسلمين خاف على بلاد سورية ، فأرسل إلى البابا برومية ، يطلب منه المساعدة في إرسال نجدة إلى سوريا ، وكذلك أرسل إلى والدته بلانشا نائبة المملكة الفرنساوية ، فسار البابا يرسل المنشورات بالحث والتحريض على نجدة لويس إلى ملوك أوروبا ، فلم يلتفت أحد إلى أوامره ، وكذلك في فرنسا ، وذلك لعلم الجميع بما حصل لملك فرنسا وغيره من الملوك ، وأنه من عهد الحروب الصليبية الأولى وتجريداتهم ، تذهب هباء منثورا . وأما من جهة المصريين فإن الفارس أقطاى عظم فى عيون المصريين لما أظهره من البسالة والإقدام فى الحروب الأخيرة ، فلقبه أحزابه بالملك وتزوج أخت المنصور سلطان حماة وأسكنها في القلعة لاتصال حبل قرباها بالعائلة الملوكية فأوجس أيبك شراً من انتشار نفوذ الفارس المذكور ، حتى خشى مناظرته في الملك فأخذ يسعى للتخلص منه ، وكان

الفارس زعيما لحزب من المماليك الصالحية ، وكان يطلبون له المشاركة في الملك مع الملك الأشرف وما زالوا حتى نالوا مطلوبهم ، فرقى كثيرين منهم وفى جملتهم سيف الدين قطز الذى صار ملكاً بعد ذلك . أما الفارس أقطاى فقتله أيبك وهو داخل بسراى القلعة ، ثم خشى الوقوع فى شر أعماله ، فأمر بقفل أبواب القلعة وأبواب المدينة ، ولبث يتوقع الحوادث ، فلم تمض برهة حتى جاء الأمراء الصالحيون برئاسة ركن الدين بيبرس ، وتجمهروا على أبواب القلعة وطلبوا الفارس أقطاى ظنا منهم أنه كان مأسوراً فرمى إليه برأسه من على السور ، فلما علموا بقتله ارتاعت قلوبهم فعمدوا إلى الفرار قاصدين باب القراطين ، ففتحوه وساروا قاصدين سوريا ، وبقى منهم شرذمة قبض عليهم وأودعوا السجن ، فلما تخلص الملك المعز أيبك من طائفة الأمراء الصالحين قبض على الملك الأشرف وألقاه في سجن مظلم ، فمات فيه تعيساً بعد أن حكم سنة وشهراً ، واستقل أيبك بالسلطنة واستوزر شخصاً من نظار الدواوين يدعى شرف الدين هبة الله بن صاعد الفائزى ، أحد كتاب الأقباط وكان قد تظاهر بالإسلام في أيام الملك الكامل ، وترقي في خدمة الكتابة وكان طبيباً له مشهوراً بالطب والسياسية ، فلما صار وزيراً قرر على التجار وذوى اليسار وأرباب العقاقير أموالا ، ورتب مكوساً ، وهو أول قبطى ولى الوزراة .

انتهاء الحروب الصليبية السابعة

لما علم الملك لويس التاسع بأن أوروبا لا ترسل إليع عساكر صليبية ولا يأتيه أحد من مملكته نفسها ، خاف من فشله فأرسل إلى بلاد المورة ورومانيا وقبرص يطلب الجنود على نفقته فجاءته عساكر منها برواتب شهرية ومصاريف وغيره ، حتى فرغت خزائنه ولكنه لم يمكنه أن يتقدم لمحاربة المسلمين ، فحصل له فشل فصرف جهده فى تحصين بلاد الصليبيين بسوريا ، لصد هجمات الهاجمين ، ثم أتاه خبر من فرنسا يفيد موت والدته الملكة بلانشا ، نائبة المملكة وطلب سرعة حضوره لتسلُّم المملكة فحالا ، استعد للسفر ونزل فى مراكبه ، وسار نحو بلاد فرنسا قاصداً مملكته ، وبذلك انتهت الحروب الصليبية السابعة .

وفاة أيبك الجاشنكير وسلطنة ولده نور الدين

ولما استتب المقام لأيبك وتخلص ، من المماليك الصالحية وغيرهم ممن كانوا ينازعونه الملك ، حسب الجو قد خلا له ، وما درى أن شجرة الدر لا تزال واقفة له بالمرصاد بعد أن صارت له زوجة ، فكانت تحول دون كثير من مقاصده ، ولم يكن يجسر على مقاومتها ، مع علمه باستقالتها من مهام الملك ، على أنه لم يستطع احتمال هذا التقييد ، والسلطان فى يده ، فجعل يبحث عن طريقة تنقذه من هذه القيود ، مع علمه أن مكائد النساء أشد وطأة من ملاقاة أبطال الرجال . فادعى أنها عقيمة ، لا يرجو منها نسلا ، فاقتني عليها سرارى أخريات ، فولدت له إحداهن ولداً ، دعاه نور الدين على ، ثم بلغها أنه ساع إلى التزوج بابنة بدر الدين لولو ملك الموصل ، وكان قد أمسك عن زيارتها ، فاشتعلت حسداً لعلمها أن هذه الزوجة الأخيرة من بنات الملوك ، فخافت أن تحل محلها من العظمة ، فأقرت على الكيدية . فبينما كان ماراً في (٢٣ ربيع أول سنة ٦٥٥) فى الدهليز السري إلى دار الحريم ، وثب عليه خمسة خصيان بيض كانوا قد كمنوا له هناك ، وخنقوه بعمامته ، وكان ذلك بدسيسة شجرة الدر ، فأشاعت أنه مات مصروعاً ، وكان أيبك ظلوماً غشوماً سفاكا للدماء . ولم تجسر شجرة الدر تعاطي الأحكام بنفسها خوفاً من الإيقاع بها ، فجاءت بخاتم الملك إلى أميرين من كبار الأمراء ، وهما جمال الدين عضو غدى ، وعز الدين الحلبى ، وطلبت إليهما أمام جثة زوجها أن يتسلما زمام الأحكام فأبيا . وكان قتل أيبك فى داخل السراى ليلا ، ولم يشع الخبر في القاهرة حتى الصباح التالى ، فلما علم أصحابه من المماليك بما حل به أضمروا على الانتقام ، وكان سن ابنه نور الدين على (١٥) سنة ، فبايعوه ولقبوه بالملك المنصور ، وكانت مدة أيبك فى الأحكام عشر سنوات ، و (١١) شهراً ، شاد في خلالها بنايات عظيمة ، وفي جملتها مدرسة دعاها المدرسة المعزية نسبة إليه بناها على ضفة النيل فى مصر القديمة ، وربط لها دخلا مخصوصاً للنفقة عليها . وهو أول من أقام من ملوك الترك بقلعة الجبل . ولما بويع الملك المنصور قبض على قاتلة أبيه ، وعهد بها إلى نساء بيته ، فأماتوها ضرباً بالقباقيب على رأسها ، وطرحوا جثتها فى خندق القلعة ، فأكلت

الكلاب نصفها ، ودفن النصف الباقى قرب مدفن السيدة نفيسة ، أما الملك المنصور ، فلم يحكم إلا مدة قصيرة تحت مناظرة وصية شرف الدين هبة الله المتقدم ذكره ، ولم يلبث حتى استبدله بسيف الدين قطز مع لقب أتابك أى وصى الملك ونائبه ، ولما تولى سيف الدين هذا المنصب استقدم إليه المماليك الصالحية من سوريا ، وعقد معهم مجلساً أقروا فيه على عدم لياقة نور الدين للأحكام ، نظراً لصغر سنه ، وأذاعوا ذلك ، فأنزلوا نور الدين في (٤ ذى القعدة سنة ٦٥٧) بعد أن حكم سنتين .

استيلاء التتر على بغداد وانقراض الدولة العباسية



(صورة هولاكو ملك التتر)

فى أول سنة ٦٥٦ قصد هولاكو ملك التتر مدينة بغداد ، وملكها فى (٢٠) محرم عنوة ، وقتل الخليفة المستعصم بالله ، وسبب ذلك أن وزير الخليفة مؤيد الدين ابن العلقمى كان رافضيا ، وكان أهل الكرخ روافض ، فجرت فتنة بين السنية والشيعية ببغداد على جارى عادتهم ، فأمر أبو بكر بن الخليفة ، وركن الدين دويدار العسكر ، فنهبوا الكرخ ، وهتكوا النساء ، وركبوا منهن الفواحش ، فعظم ذلك على الوزير بن العلقمى ، وكاتب التتر ، وأطمعهم في ملك بغداد ، وكان عسكر بغداد يبلغ مائة ألف فارس ، فقطعهم المستعصم ، ليحمل إلى التتر متحصل اقطاعاتهم ، وسار عسكر بغداد دون عشرين ألف فارس ، وأرسل ابن العلقمى إلى التتر أخاه يستدعيهم ، فساروا قاصدين بغداد فى جحفل عظيم ،

وخرج عسكر الخليفة لقتالهم ، ومقدمهم ركن الدين الدويدار ، والتقوا على مرحلتين من بغداد ، واقتتلوا قتالا شديداً ، فانهزم عسكر الخليفة ، ودخل بعضهم بغداد ، وسار بعضهم إلى جهة الشام ، ونزل هولاكو على بغداد من الجانب الشرقى ، ونزل باجو وهو مقدم كبير فى الجانب الغربي على قرية قبالة دار الخلافة ، وخرج مؤيد الدين الوزير بن العلقمى إلى هولاكو فتوثق منه لنفسه ، وعاد إلى الخليفة المستعصم ، وقال له : إن هولاكو يبقيك في الخلافة كما فعل بسلطان الروم ، ويريد أن يزوج ابنته من ابنك أبي بكر ، وحسن له الخروج إلى هولاكو .



(صورة الخليفة المستعصم بالله)

فخرج إليه المستعصم في جمع من أكابر أصحابه ، فأنزل في خيمة ، ثم استدعى الوزير الفقهاء والأماثل ، فاجتمع هناك جميع سادات بغداد والمدرسون ، وكان منهم محيى الدين بن الجوزى وأولاده ، وكذلك بقى يخرج إلى التتر طائفة بعد طائفة ، فلما تكاملوا قتلهم التتر عن آخرهم ، ثم مدوا الجسر ، وعدى باجو ومن معه ، وبذلوا السيف فى بغداد ، وهجموا دار الخلافة ، وقتلوا كل من كان فيها من الأشراف ، ولم يسلم إلا من كان صغيراً ، فأخذ أسيراً ، ودام القتل والنهب فى بغداد نحو أربعين يوماً ، ثم نودى بالأمان .

وأما الخليفة فإنهم قتلوه ، ولم يقع الاطلاع على كيفية قتله ، فقيل خنق ، وقيل غرق في دجلة ، وقيل غير ذلك ، وكان المستعصم ضعيف الرأى ، وكانت خلافته نحو (١٦) سنة ، وهو آخر الخلفاء العباسيين ببغداد ، وكان ابتداء دولتهم فى سنة (١٣٢) ، وكانت مدة ملكها (٥٢٤) سنة تقريباً ، وعدد خلفائهم سبعة وثلاثون خليفة .

سلطنة المظفر سيف الدين قطز وانتصار المصريين على التتر

وسيف الدين هذا شريف الأصل من عائلة ملوكية خلافاً لسلفه ، فهو ابن مودود شاه بن أخ ملك خراسان ، فتح التتر بلاده ، فتشتت عائلته ، ولما تولى سلطنة مصر لقب بالملك المظفر ، وحالما استوى على السلطنة قبض على نور الدين ، وأمر بقتله ، فحاول العلامة شرف الدين المدافعة عنه ، فصلبه على باب القلعة . ثم لاح له أن دمياط بعد أن دكت أسوارها لم يعد شيء يعيق مراكب العدو عن المرور في النيل ، فأمر بردم مصب النيل هناك ، وبعث بفرقة من الحجارين ، فمضوا وقطعوا كثيراً من الحجارة ، وألقوها فيه حتى ضاق وتعذر سير المركب منه إلى دمياط ، وهو على ذلك إلى اليوم ، فإن المراكب الكبيرة لا تستطيع المرور فيه ، فتنقل البضائع منها إلى الجروم ، والمتواتر على ألسنة البعض أن سبب ذلك وجود جبل أو رمل متجمع هناك . ثم كاتب ركن الدين بيبرس البندقدارى الملك المظفر قطز ، فبذل له الأمان ، ووعده الوعود الجميلة ، فجاء بيبرس إلى مصر فى جماعة من أصحابه ، فأقبل عليه الملك المظفر ، وأكرمه وأنزله فى دار الوزارة ، وأقطعه قليوب ، وأعمالها ، وفي خلال ذلك جاء القاهرة قائد تترى ناقلا منشوراً من هولاكو ملك المغول (التتر) حفيد جانكيز خان ، وكان التتر قد انتشروا فى جميع آسيا الشمالية والشرقية ، واستولى هولاكو بعد بغداد على الموصل وحلب ودمشق وجميع السواحل البحرية ، حتى قدم مصر ، فبعث إليها منشوراً ونصه : (من ملك الملوك الحاكم من الغرب إلى الشرق ، أعظم الخانات هولاكو خان فاتح الفتوحات الغريبة ، صاحب الجيوش العديدة إلى أهل مصر ، فيا أهل مصر لا تخاطروا بأنفسكم في محاربتى ، لأنكم إن فعلتم إذاً أنتم مخذولون ، فاقتدوا بغيركم من سكان حلب والموصل) فلما قرأ قطز ذلك المنشور ، وعلم ما كان من أمر فتوحات هذا التترى ، وما هو عليه من القوة والمنعة أوجس خيفة ، غير أن جيوشه كانوا قد حاربوا الجيوش الصليبية ، وانتصروا عليها ، ولم يزل في نفوسهم عزة الظفر ، وأنفة النصر ، فاستخفوا بقول هولاكو ، وأصروا على القتال ، فحشدهم قطز ، وجهزهم بما يلزم من العدة والسلاح ، واستقدم إليه قبائل العربان ، وفرق فيهم ، وفي سائر جيشه نحواً من (٦٠٠) ألف دينار جمعها من الضرائب التى أقامها على المصريين ، مما دعاه

تصقيع الأملاك وزكاتها ، وأحدث على كل إنسان ديناراً يؤخذ منه ، وأخذ ثلث التركات الأهلية ، فكان يجمع منها (٦) آلاف دينار سنوياً . ثم سار من القاهرة لملاقاة التتر فى غاية شعبان سنة (٦٥٨) ، وما كاد الجيشان يلتقيان حتى اتصل بهولاكو خبر موت أبيه منجو خان ملك التتر ، فاضطر إلى العود حالا ، ليطالب بحقوق الوراثة ، فعاد تاركا في سوريا قسما من نخبة فرسانه تحت قيادة نسيبه ونائبه كتبغا لمحاربة قطز ، فالتقيا في فلسطين في عين جالوت ، فالتحم الجيشان ، فانهزمت التتر هزيمة قبيحة ، وأخذتهم سيوف المسلمين ، وقتل مقدمهم كتبغا ، وأسر ابنه ، وتعلق من سلم من التتر برؤوس الجبال ، وتبعهم المسلمون ، فأفنوهم ، وهرب من سلم منهم إلى الشرق ، فأرسل ركن الدين بيبرس البندقدارى فى أثرهم ، فتبعهم المسلمون إلى أطراف البلاد الشرقية ، فتضاعف شكر المسلمين لله تعالى على هذا النصر العظيم ، لأن القلوب كانت قد يئست من النصرة على التتر ، لاستيلائهم على معظم بلاد الإسلام ، ولأنهم ما قصدوا إقليما إلا فتحوه ، ولا عسكراً إلا هزموه ، فابتهجت الرعايا بالنصرة عليهم ، وفى يوم دخول المظفر دمشق أمر بشنق جماعة من المنتسبين إلى التتر . فشنقوا ، وكان من جملتهم ، حسين الكردى طيردار الملك الناصر يوسف ، وغنم المصريون غنيمة كبيرة تكفى لإغناء كل المشرق ، لأنها تحتوى على أثمن ما نهبه هولاكو من أغنى المدن أثناء فتوحاته .

قتل الملك المظفر وسلطنة الظاهر بيبرس البندقدارى

وبينما كان الملك المظفر قطز عائداً من سوريا إلى الديار المصرية ، اتحدت المماليك الصالحية على قتله ، ومنهم ركن الدين بيبرس البندقدارى ، وانص مملوك نجم الدين الرومى الصالحى ، والهاروتى ، وعلم الدين صغن أغلى ، وساروا معه يتوقعون الفرصة ، فلما وصل قرب الصالحية ، وقد سبقه العساكر إلى الصالحية ، فبينما هو سائر وحوله الأمراء ، إذ مر بين يديه أرنب برى ، وكان مولعاً بالصيد ، فسار في أثره في عرض الصحراء ، وسار معه الأمراءالمذكورون، فلما بعدوا تقدم إليه انص ، وشفع عنه في إنسان ، فأجابه الملك المظفر قطز إلى ذلك ، فأهوى لتقبيل يده ، وقبض عليها ، فحمل عليه ركن الدين بيبرس حينئذ ، وضربه بالسيف ، واجتمعوا عليه ، ورموه عن فرسه ، ثم قتلوه بالنشاب ، وذلك فى

(١٧ ذى القعده سنة ٦٥٨) ، ثم دفنوه فى قبر صغير قرب قبر خلف ، فخشى ذوو الفقيد أن تبلغ الموسى لحاهم ، فتفرقوا في مصر السفلي ، لا يظهرون على أحد ، فكانت مدة ملكه أحد عشر شهراً ، و (١٣) يوماً ، وسار بيبرس بعد ذلك ، ورفقاؤه حتى وصلوا إلى الدهليز بالصالحية ، وكان عند الدهليز نائب السلطنة فارس الدين أقطاى المستعرب ، فسألهم نائب السلطنة المذكور ، وقال : من قتله منكم ؟ فقال له بيبرس ، أنا . فقال له أقطاى : اجلس ياخوند فى مرتبة السلطنة . فجلس واستدعيت العساكر للتحليف ، فحلفوا له فى اليوم المذكور أيضا .



الظاهر بيبرس البندقدارى

واستقر بيبرس في السلطنة ، وتلقب بالملك القاهر ركن الدين بيبرس الصالحي ، ثم بعد ذلك غير لقبه عن الملك القاهر ، وتلقب بالملك الظاهر ، لأنه بلغه أن القاهر لقب غير مبارك ، وأضاف إليه أبو الفتوح ، وكان يلقب أيضاً بالعلى وبالبندقدارى نسبة إلى سيده المسمى علاء الدين بندقدار الصالحي ،

ثم سار الملك الظاهر بيبرس إلى القاهرة ، فدخلها وكانت مزينة للملك المظفر ، فاستمرت الزينة للملك الظاهر بيبرس ، ولما تم له أمر السلطنة جعل بهاء الدين وزيراً وبيلى بك ، وهو من أعز أصدقائه من المماليك خزنداراً ، واستقدم من بقي من عائلة قطز ، فأمنهم وضمهم إليه ، وأطلق من في السجون جميعاً بغير استثناء ، وأكثر من العطايا لرجاله ، وأبطل كثيراً من الضرائب التي كانت قد ضربها سلفه كتصقيع الأملاك ، وتقويمها ، وأخذ زكاة ثمنها في كل سنة ، وجباية دينار كل إنسان ، وغير ذلك ، وأعلن أمره هذا على لسان الخطباء فى المنابر . على أنه مع ذلك لم ينل رضاء كل الرعية ، لا سيما السوريون ، فإنهم شقوا عصا الطاعة ، وبايعوا الأمير سنجر الحلبى حاكم دمشق ، ولقبوه بالملك المجاهد ، فأرسل الظاهر بيبرس عسكراً بقيادة علاء الدين البندقدار سيده ، لقتال علم الدين سنجر الحلبي ، فوصلوا إلى دمشق فى (١٣ صفر سنة ٦٥٩) ، فخرج إليهم الحلبى لقتالهم ، وكان صاحب حماه وصاحب حمص مقيمين فى دمشق ، ولم يخرجا مع الحلبى لقتال العساكر المصرية ، فاقتتل الحلبى مع علاء الدين ، فولى الحلبى ، وأصحابه منهزمين إلى قلعة دمشق وأقام بها إلى أن جن الليل فهرب منها إلى جهة بعلبك ، فتبعه العسكر ، وقبضوا عليه ، وحمل إلى الديار المصرية ، فاعتقل ، ثم أطلق ، واستقرت دمشق فى ملك الظاهر بيبرس ، وأقيمت الخطبة له بها وبغيرها من سوريا مثل : حماة وحلب وحمص ، واستقر علاء الدين أيدكين البندقدارى نائباً بدمشق ، لتدبير أمورها ، ثم رحل صاحب حماة وصاحب حمص من دمشق إلى بلادهما ، ثم أرسل الظاهر بيبرس مرسوم إلى علاء الدين البندقدار نائب دمشق بالقبض على بهاء الدين بغدى الأشرفي وعلى شمس الدين أقوش البرلى ، فبقى علاء الدين متوقعا الفرص ، لتنفيذ ذلك ، فقبض على بهاء الدين ، وخرج أقوش البرلى من دمشق ليلاً ، ونزل بالمرج فأرسل علاء الدين إليه يطيِّب قلبه ، فلم يلتفت إليه ، وسار إلى حلب ، ودخلها وأخرج منها فخر الدين الحمصى بحيلة ، واستبد فيها ، وجمع العرب والتركمان ، واستعد لقتال عسكر مصر ، ثم أرسل الظاهر بيبرس جمال الدين المحمدي الصالحى لقتال البرلى ، ثم رضى عن علم الدين سنجر الحلبى ، وجهزه بعسكر وراء المحمدي ، ثم أردفه بعز الدين الدمياطى بعسكر آخر ، وسار الجميع إلى حلب لقتال البرلى ، فطردوه منها .

انتقال الخلافة العباسية إلى الديار المصرية

فى رجب سنة (٦٥٩) قدم إلى مصر جماعة من العرب ، ومعهم شخص أسود اللون اسمه أحمد ، وزعموا أنه ابن الإمام الظاهر بالله محمد بن الإمام الناصر ، وأنه خرج من دار الخلافة ببغداد لما ملكها التتر ، فعقد الملك الظاهر بيبرس مجلساً حضر فيه جماعة من الأكابر منهم : الشيخ عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام ، والقاضى تاج الدين عبد الوهاب بن خلف المعروف بابن بنت الأعز . فشهد أولئك العرب أن هذا الشخص المذكور هو ابن الظاهر محمد بن الإمام الناصر ، فيكون عم المستعصم ، وأقام القاضى جماعة من الشهود اجتمعوا بأولئك العرب ، وسمعوا شهاداتهم ، ثم شهدوا بالنسب بحكم الاستفاضة ، فأثبت القاضى تاج الدين نسب أحمد المذكور ، ولقب المستنصر بالله أبا القاسم أحمد ، وبايعه الملك الظاهر بيبرس والناس بالخلافة ، واهتم الملك الظاهر بأمره ، وعمل له الدهاليز والجمدارية وآلات الخلافة ، واستخدم له عسكراً ، فأصبحت القاهرة من ذلك الحين مقر الخلفاء العباسيين ، غير أن سلطتهم لم تكن تعتبر إلا من من وجهها الدينى فقط ، وكانوا يلقبون بالأئمة ، وقد رافق نزول العباسيين بالقاهرة قحط عم سائر القطر ، فتشاءم الناس بحلولهم . أما بيبرس فلم يأل جهداً فى استجلاب الأقوات من سائر جهات سوريا وغيرها ، وتفريقها على الناس ، فأنقذ بلاده من ضيق عظيم .

فتوحات الملك الظاهر بيبرس ووفاة المستنصر وخلافة الحاكم بأمر الله

ثم أراد بيبرس أن يسترجع مدينة بغداد للخلفاء العباسيين ، فأنفذ مع الخليفة المستنصر بالله جنداً عظيماً ، وبرز معه الظاهر بيبرس ، وتوجها إلى دمشق ، فنزل الظاهر بالقلعة ، ونزل الخليفة في جبل الصالحية ، ونزل حول الخليفة أمراؤه وأجناده ، وجهز الخليفة عسكره للمسير إلى بغداد ، طمعاً فى أنه يستولى عليها ، ويجتمع عليه الناس ، فسار الخليفة المستنصر من دمشق بعسكره ، وركب الملك الظاهر ، وودعه ووصاه بالتأنى فى الأمور ، ثم عاد الملك الظاهر من توديعه إلى دمشق ، ثم سار إلى الديار المصرية ، ثم وصلت إليه كتب

الخليفة المستنصر بأنه قد استولى على عانة والحديثة ، وولى عليهما ، وقبل أن يصل الخليفة ومن معه إلى بغداد لاقاهم التتر في الطريق ، فحاربوهم وشتتوا شملهم ، وقتلوا الخليفة ، ولم يجلس على كرسي الخلافة إلا خمسة أشهر ، وعشرين يوماً ، فبايعوا في القاهرة الخليفة الحاكم بأمر الله بعد ثبوت نسبه ، وأقامه الظاهر بيبرس في برج محترزاً ، وأشرك له الدعاء فى الخطبة لا غير ، ثم أمر السلطان إلى كل من : سنقر الرومى ، وصاحب حماه ، وصاحب حمص أن يسيروا إلى أنطاكية وبلادها ؛ للإغارة عليها ، فساروا إليها ، ونهبوا بلادها ، وضايقوها ، ثم عادوا ، فتوجهت العساكر المصرية صحبة سنقر الرومى إلى مصر ، ووصلوا إليها ، ومعهم ما ينوف عن ثلثمائة أسير ، فقابلهم الملك الظاهر بالإحسان والإنعام . ثم سار بيبرس بتجريدة أخرى لفتح قلعة الكرك انتقاما من صاحبها الملك المغيث فتح الدين عمر ، وسبب ذلك أن بيبرس قبل توليته سلطنة مصر كان قد ترك امرأته عند المغيث فتح الدين ، وقاية لها مما كان يقاسيه من الأسفار والعذاب ، وعهد إليه رعايتها ، فلم يحترم هذا حرمة الدين والشرف ، ففتك بها بغير وجه الحق ، فاتصل ذلك ببيبرس ، وكان قد تولى سلطنة مصر ، فثار فيه حب الانتقام ، فجرد العساكر ، وسار إلى الكرك ، وحاصر قلعتها ، وكانت منيعة الجانب طالما امتنعت على كبار الفاتحين ومنهم السلطان صلاح الدين ، ثم تمكن بيبرس من القبض على المغيث فتح الدين احتيالا ، وسلمه إلى امرأته فقتلته بالقباقيب على مثل ما قتلت عليه شجرة الدر ، فأمست الكرك بغير رئيس ، فسلمت وصارت جزءاً من مملكة مصر ، فأرسل بيبرس إليها بدر الدين اليسرى الشمسى ، وعز الدين أستاذ الدار فى يوم الخميس (٢٣ جمادى الآخرة سنة ٦٦١) ، ثم عاد إلى الديار المصرية .

محاربات الظاهر بيبرس مع الصليبيين بسوريا

ولما عاد بيبرس إلى القاهرة حشد جيشاً كبيراً لمحاربة الصليبيين بسوريا ، وسار به في سنة (٦٦٣) ، إلى أن وصل مدينة قيسارية في (٩) جمادى الأولى ، فحاصرهم وضايقها ، وفتحها عنوة فى (١٥) منه بعد محاصرتها (٦) أيام ، ثم أمر بهدمها ، ثم سار منها إلى أرسوف ، فنازلها وفتحها فى شهر جمادى الآخرة ،

ثم أرسل الملك الظاهر بيبرس قسما من جيشه إلى ساحل طرابلس ، ففتحوا القليعات وحلب وعرقا ، ونزل هو على صفد فى (٨ شعبان سنة ٦٦٤) ، فحاصرها وضايقها بالزحف ، وأقام علها آلات الحصار ، وقدم إليه وهو على صفد الملك المنصور صاحب حماه ، ثم التصقت العساكر بالقلعة ، وكثر القتل والجرح في المسلمين إلى أن فتحها فى (١٩) منه ، بالأمان ، ثم قتل أهلها عن آخرهم ، وسار إلى دمشق ، فلما دخلها واستقر فيها جرد عسكراً ضخما ، قدم عليه الملك المنصور صاحب حماه ، وأمره بالمسير إلى بلاد الأرمن ، فسارت العساكر حتى نزلت على بلاد سيس في ذى القعدة، وكان صاحب سيس هيثوم بن قسطنطين قد حصن الدرنيدات بالرجال والمنجنيق ، وجعل عسكره مع ولديه على الدرنيدات لقتال العسكر الإسلامى ، ومنعه ، وما انتشب القتال حتى غلبتهم عساكر المسلمين وأوقعت فيهم القتل ، فأفنوهم عن آخرهم قتلا وأسراً ، وقتل أحد ولد هيثوم ، وأسر الآخر وهو ليفون ، وانتشرت العساكر الإسلامية في بلاد سيس ، وفتحوا قلعة العامودين ، وقتلوا أهلها ، ثم عادت العساكر ، وقد امتلأت أيديهم من الغنائم ، فلما وصل خبر هذا الفتح العظيم إلى الملك الظاهر بيبرس رحل عن دمشق إلى حماه ففامية ، حيث التقى بعساكره منصورة ، ولما وصلوا بلد قارا أمر بنهب أهلها ، وقتل كبارها ، وكانوا نصارى يسرقون المسلمين ، ويبيعونهم خفية للصليبيين ، وأخذ صبيانهم مماليك ، فتربوا بين الترك في الديار المصرية ، فصار منهم جنود وأمراء ، ثم عاد الظاهر إلى الديار المصرية على طريق الكرك ، فجفل به فرسه عند بركة تريزا ، فانكسر فخذه ، وحمل فى محفة إلى قلعة الجبل .

إصلاحات الملك الظاهر بيبرس

لما رجع الظاهر بيبرس أخذ يستعد لحروب جديدة ، وينظم داخليته ، فأبطل ضمان المزر ، وجهاته ، وأمر بإراقة الخمور ، وإبطال المنكرات ، وتعقب بيوت المسكرات ، ومنع الحانات ، والفواحش بجميع أقطار مملكة مصر والشام ، فطهرت من ذلك البقاع ، وعادت البلاد إلى الهدوء والرغد ، فقال أحد الشعراء المعاصرين :

ليس لإبليس عندنا أرب | غير بلاد الأمير مأواه
حرفته الخمر والحشيش معاً | حرمتا ماه ومرعاه

ثم رأى أن بعض الرعية لا يزالون على ما كانوا قد اعتادوه من الفواحش ، فأمر بمنع النساء الخواطى من التعرض للبغاء ، ونهب الحانات التى كانت معدة لذلك ، وسلب أهلها جميع ما كان لهم ، ونفى بعضهم ، وحبس النساء حتى يتزوجن ، وكتب بجميع ذلك توقيعاً قرىء فى المنابر ، ثم علم أن الطواشى شجاع الدين عنبر المعروف بصدر الباز يشرب المسكر ، فشنقه تحت قلعة الجبل ، ولا شك أن الملك الظاهر لم يشدد فى إبطال جميع هذه المنكرات إلا لعلمه يقيناً أن استعمالها يورث الفقر والذل ، ويخمد الهمة ، ويضعف عزة النفس ، ويغضب الله .

وكان فى سنة (٦٦٢) قد بنى دار العدل القديمة تحت القلعة ، وصار يجلس بها لعرض العساكر فى كل يوم اثنين وخميس ، وكان ينظر فى أمر المتظلمين بنفسه ، فإذا كان لأحد مظلمة يأتى بنفسه دون أحد يمنعه ، ويشكو مظلمته للسلطان ، وهو يأمر فى الحال بصرفها بوجه الحق .

فتوحات الظاهر بيبرس ببلاد الصليبيين بسوريا

في شهر جمادى الآخرة سنة (٦٦٦) توجه الملك الظاهر بيبرس بعساكره العديدة إلى الشام ، وفتح يافا ، وتملكها من الصليبيين ، ثم سار إلى أنطاكية ، ونازلها فى مستهل رمضان ، وحاصرها ، وضيق عليها ، وقاتلها ، وفر صاحبها بوهيموندى طرابلس إلى طرابلس ، فشدد الحصار ، وزحفت العساكر الإسلامية على أنطاكية ، فملكوها بالسيف في يوم السبت رابع رمضان ، وقتلوا أهلها ، وسبوا ذراريهم ، وغنموا منهم أموالا جليلة ، وفي (١٣) رمضان استولى الظاهر على حصن بغراس ، وكان أهله قد تركوه ، فشحنه الظاهر بالرجال ، وجعله حصناً للمسلمين ، وفى شهر شوال وقع الصلح بين الملك الظاهر بيبرس وبين هيثوم صاحب سيس على أنه إذا أحضر صاحب سيس سنقر الأشقر المأسور عند التتر (كان التتر قد أخذوه من قلعة حلب لما ملكها هولاكو ملكهم) وأن يسلم بهسنا ودربساك ومرذبان ورعيان ، وشيخ الحديد ، يطلق له بيبرس ابنه ليفون ،

فدخل صاحب سيس على أبغا ملك التتر ، وطلب منه سنقر الأشقر ، فأعطاه إياه ، فأرسله إلى الظاهر بيبرس ، وسلم دربساك وغيرها من البلاد المذكورة ، ما عدا بهسنا ، وأطلق الظاهر ابنه ليفون ، وعاد إلى الديار المصرية .

حج الملك الظاهر بيبرس

وفى سنة (٦٦٧) عزم الملك الظاهر بيبرس على أداء فريضة الحج ، وكان طريق الحج من مصر إلى مكة المشرفة فى صحراء عيذاب ، فيركبون النيل من ساحل الفسطاط إلى قوص بمصر العليا ، ثم يركبون الإبل من قوص ، فيقطعون صحراء عيذاب إلى البحر الأحمر ، حيث ينزلون فيه إلى جدة ساحل الحجاز ، وهكذا بعودهم إلى مصر ، وكانت قوافل التجار من الهند واليمن والحبشة تأتى مصر على هذه الطريق أيضاً ، وصحراء عيذاب إذ ذلك آهلة بالسكان ، أمينة المسلك ، وبقيت طريق الحج على مثل ذلك إلى هذه السنة ، إذ تغيرت بالطريق التى سار فيها الملك الظاهر . كما يأتى ، وأما التجار فما زالوا يقدمون مصر عن طريق الصحراء إلى سنة (٧٦٠) ، ومن ذلك الحين قلت أهمية مدينة قوص ، فسارت فى حالة تشبه حالتها فى الوقت الحاضر بعد أن كانت مدينة زاهرة بالتجارة والعمارة . ففى (٢٥ شوال سنة ٦٦٧) رحل الظاهر بيبرس من الفوار ، ووصل إلى الكرك ، وأقام بها أياماً ، وتوجه من الكرك في (٦ من ذى القعدة) إلى الشوبك ، ورحل من الشوبك في (١١) منه ، ووصل إلى المدينة النبوية فى (٢٥) منه ، ووصل إلى مكة في (٥ من ذى الحجة) ، وبعد أداء الفرضة كسا الكعبة بالديباج ، وكذلك الحجرة النبوية ، ووقف لهما أوقافاً ، وعمل لها مفتاحاً ، ثم سار منها ، فوصل الكرك فى آخر الحجة سنة (٦٦٧) ، وفي أول محرم سنة (٦٦٨) سار من الكرك ، فوصل دمشق بغتة ، وتوجه منها فى يومه ، فوصل إلى حماه في (٥) منه ، وتوجه من ساعته إلى حلب ، ولم يعلم به العسكر إلاوهو في الموكب معهم ، ثم عاد إلى دمشق فى (١٣) منه ، ثم توجه إلى القدس ، فزاره ثم رجع إلى الديار المصرية ، فوصل القاهرة فى (١٣) صفر ، وهكذا أتم سياحته الجهادية والدينية معاً .

ثم سار الظاهر بيبرس بعساكره إلى بلاد الإسماعيلية ، فتسلم مصياف فى العشر الأوسط من رجب سنة (٦٦٨) ، ثم عاد إلى حماه ، ومنها إلى دمشق فى (٢٨) منه ، ثم رحل إلى مصر القاهرة .

الحروب الصليبية الثامنة

فى التحريض على الحروب الصليبية الثامنة

في سنة (٦٥٩) قام الروم على الصليبيين الذين تملكون على القسطنطينية ، وقتلوهم ، واستخلصوها منهم بقيادة زعيمهم ميخائيل باليولوغوس الذى أقاموه ملكاً عليها (كانت الحملة السادسة للصليبيين اغتصبوها وصارت تابعة لهم إلى أن خلصها ميخائيل المذكور وعادت للروم) ، فسافر من نجا من الصليبيين من القسطنطينية إلى البابا إكليمنضوس الرابع ، وكذلك لما استولى السلطان الظاهر بيبرس على البلاد السورية من الصليبيين أرسلوا إلى البابا المذكور يطلبون منه المساعدة والمعاونة ، فأرسل منشوراً إلى جميع ملوك أوروبا يخبرهم فيه بأن الروم استولوا على القسطنطينية ، وأن بيبرس قد استولى عل أنطاكية ، وغيرها من بلاد سورية ، ويطلب منهم مساعدة إخوانهم الصليبيين ، وتشكيل عساكر صليبية ثامنة لأجل ذلك ، وخصوصاً لاستخلاص قبر المسيح من أيدى المسلمين (وهى حجتهم الواهية فى كل حرب) وحيث إن ملوك أوروبا علموا بأن جميع التجريدات والعساكر التى سبق تشكيلها وإرسالها سواء كان لسوريا أو لمصر أو للقسطنطينية لم تأت بفائدة لأوروبا ، غير فقد العساكر ، وإفناء المال ، فلذلك لم يلتفتوا إلى منشورات البابا ، ولا إلى نوابه الذين كان قد أرسلهم لهذه الغاية .

تجهيز العساكر الصليبية الثامنة بقيادة لويس التاسع ملك فرنسا

وبعد جهد شديد قبل الملك لويس التاسع ملك فرنسا تجهيز عساكر صليبية ثامنة بقيادته ، كما فعل أولاً ، ثم إنه أمر بانعقاد جمعية في مدينة باريس من عظماء المملكة بقصر لويلا ، ثم حضر بنفسه هذه الجمعية ، ومعه نائب البابا حاملا بيديه إكليل الشوك الذى تكلل به المسيح (على زعمهم ، وهو الآن محفوظ فى كنيسة مريم العذراء الكاتدرائية بباريس) فقام لويس ، وقال لمن

فى الجمعية : بأنه عزم على تجهيز حروب صليبية ثامنة ، وطلب منهم مساعدته ، والتوجه معه ، ثم قام النائب البابوى ، وطلب منهم إنقاذ إخوانهم المسيحيين بالمشرق ، فتسلم الملك لويس صليب الحرب من يد النائب الرسولى ، وتبعه ثلاثة من أولاده ، ثم تبعهم عدد وافر من رؤساء الكنائس ، ثم يوحنا كونت دى برانانيا ، وتيبوت ملك نافار ، والفونسوس دى بريانا ، والكونتات دى فلاندرا، ودى سان بول ، ودي مارشا ، ودى سواسون ، وغيرهم ، وعزم بعض أمراء أوروبا على تجهيز عساكر كما فعل سلطان فرنسا مثل : ادوارد ملك الإنكليز ، وغاسطون ملك بيان ، وملك البرتغال وغيره . ثم إن لويس المذكور استعد فى تجهيز عساكره للمسير بها ، وحيث إنه وجد نفسه شيخاً كبيراً ، خاف على مملكته إذا مات هو فى الحرب ، فعزم على تقسيمها على ورثته ، فقسمها على أولاده الأربعة الذكور ، وكذلك على بنتيه اللتين لم تتزوجا ، وعلى زوجته مرغريتا ، وذلك التقسيم يكون بعد مماته ، ثم أقام وكيلين على مملكته بصفة نواب الملك ، وهما متى دى فاندوم ، وسمعان دى ناظلا .

سفر العساكر الصليبية الثامنة

توجه الملك لويس إلى كنيسة القديس ديونيسيوس للتبرك بها ، ثم حضر الذبيحة بكنيسة الكاتدرائية بباريس ، وسار إلى مدينة أغوزمورتاس المعينة لاجتماع جميع العساكر الصليبية بها ، وكان قبل حضور الملك لويس المذكور إلى هذه المدينة ، قد سافر بعض العساكر الصليبية الثامنة من إقليم أراغون وغيره قاصدين بلاد فلسطين ، ولما اجتمع الملك لويس وعساكره في هذه المدينة عقد مجلس شوراه الحربى للتداول فى خطة السفر ، والبلاد التى يقصدونها ، فالبعض رأى المسير إلى الديار المصرية ، والبعض رأى المسير إلى تونس عاصمة الغرب ، وكان من هؤلاء الملك لويس لأنه قال : إن المغاربة طالما تعدوا على بحرية فرنسا وغيرها من أوروبا ، وبعد المداولات تقرر مسير العساكر الصليبية الثامنة إلى تونس ، ومحاربتها ، واستعدت بالنزول في المراكب والمسير إلى تونس .

وصول الصليبيين إلى تونس ومحاصرتها

سارت العساكر الصليبية في البحر إلى أن نزلوا بأنقاض مدينة قرطاجنة القديمة ، وأقاموا فوق طلالها ، وعملوا خندقا حول معسكرهم ، وكان صاحب تونس يدعى أبا عبد الله محمد بن أبى زكريا الحفصى الملقب بالمستنصر بالله ، فجمع أمراء مملكته ، واستشارهم في صد الصليبيين عن النزول إلى البر ، أو بتركهم ينزلون إلى البر ، ويحاربهم ، فقال بعضهم : إذا صددناهم عن النزول أمام الحامية ، فربما ساروا ونزلوا على ثغر من الثغور ، فامتلكوه واستباحوه ، واستعصيت مغالبتهم ، فوافق السلطان على هذا ، وأرسل إلى جميع الثغور بالتحفظ ، ونادى السلطان فى الناس بالاستعداد والنفير ، ثم أرسل إلى جميع الممالك التابعة له يطلب المدد ، فجاءه أبو هلال صاحب بجاية ، وجاءته جميع العرب ، وسلويكش وولهاصة وهوارة ، وقد أمدته ملوك المغرب من زناته ، وسرح إليه محمد بن عبد القوى عسكر بنى توجين لنظر ابنه زيان ، وعقد السلطان قيادة العسكر إلى ستة رؤساء وهم : إسماعيل بن أبى كلداس ، وعيسى ابن داود ، ويحيي بن أبى بكر ، ويحيي بن صالح ، وأبى هلال عياد صاحب بجاية ، ومحمد بن عبو ، وأمرهم جميعاً راجع لأمر يحيي بن أبى بكر ، ويحيي بن صالح ، واجتمع كثير من المسلمين والفقهاء والمرابطين ؛ لمباشرة الجهاد ، واستعدوا غاية الاستعداد ، فقال أحد أدباء تونس ، وهو أحمد بن إسماعيل الزيات :

يا فرنسيس هذه أخت مصر فتهيأ لما إليه تصير
لك فيها دار بن لقمان قبر وطواشيك منكر ونكير

(فقدر الله وفاة الملك لويس التاسع ، وهو محاصر لها كما سيأتى فحسن فألهم) ثم إن الصليبيين حاصروا مدينة تونس ، وذلك في شهر ذى القعدة سنة (٦٦٨) .

محاربات الصليبيين ، ووفاة الملك لويس التاسع

بعد حصار مدينة تونس نشب القتال بين الفريقين ، وكانت الحرب سجالا ، وكان الصليبيون منتظرين قدوم الكونت دى أنجو كارلوس أخي لويس ، وهو

صاحب جزيرة سيسيليا ، وفي سنة (٦٦٩) فرغت ذخائر وقوت العساكر الصليبية ، فاعتراهم داء الدستاريا ، والحمى الخبيثة ، وفي زمن قصير هلك منهم نحو النصف ، وكان ذلك في فصل الصيف ، والحر شديد ، فاصطنعت العساكر الإسلامية آلات يرمون بها الرمل على معسكر الصليبيين عند هبوب الرياح القبلية ، فتنزل فوقهم كانها محمية فى أتون نار ، ومما زاد في مصائب الصليبيين : هجمات العرب والسودانيين عليهم ، حتى أخذهم الضجر والملل ، ومات منهم الكونت دى ناموري ، ودي فاندوما ، ودى مارشا ، ودي موغرانسى ، ودى بيانا ، ودى برباك ، ثم لحقهم ابن الملك لويس المدعو تريستان (الحزين) الذى ولد فى مدينة دمياط كما مر (ولد فى حصار مدينة ، وتوفي في حصار أخرى) ثم شارك الملك لويس التاسع جيشه فى الأمراض بعد وفاة ابنه المذكور ، ورقد في فراشه ، ثم أحضر ابنه البكرى فيلبس ، وورثه على تخت المملكة ، وأخذ يوصيه بمملكته وإخوته ، وغير ذلك ، ثم مات .

سفر كارلوس صاحب سيسيليا إلى تونس ، وحصول الصلح ، وانتهاء الحروب الصليبية الثامنة

وبعد موت الملك لويس التاسع ملك فرنسا ترأس على الجيوش ابنه فيلبس ، ثم توارد قدوم مراكب صليبية في البحر ، ونزل الرجال منها إلى البر ، وكانوا عساكر كارلوس صاحب سيسيليا ، وفى أثناء نزولهم إلى البر ،لم يجدوا أحداً من الصليبيين قد حضر لمقابلتهم ، فساروا إلى أن وصلوا إلى معسكر الصليبيين ، وسار كارلوس إلى أن وصل إلى خيمة لويس التاسع ، فوجده ميتاً فبكى عليه ، وبعد ذلك عقدوا مجلس مشورتهم ، للنظر في أمرهم ، فقرروا استمرار الحصار والمحاربة ، وبعد مناوشات جرت بينهم ، تقرر الصلح في شهر ربيع الأول سنة (٦٩٩) . على ما يأتى : بأن السلطان المستنصر بالله يخضع لكارلوس ملك سيسيليا ، ويدفع له جزية سنوية ، ويدفع له مصاريف هذه الحروب البالغ مقدارها (٢٢٠) ألف وزنة من الذهب ، وفي نظير ذلك ينسحب الصليبيون من البلاد التونسية . وبعد تمام شروط الصلح التي أمضيت من ملوك فرنسا وسيسيليا ونافار ، سار الصليبيون ، ونزلوا بمراكبهم ، وساروا إلى بلادهم ، وفي أثناء مسيرهم فاجأتهم عواصف شديدة أغرقت أكثر مراكبهم ، ثم إن

كارلوس نزل فى مملكته ، ومعه صندوق داخله قلب الملك لويس بصفة ذخيرة ، ووضعها فى كنيسة دير منتسريال قرب مدينة ساليرنو ، وأما فيلبس الثالث ملك فرنسا ، فداوم مسيره إلى بلاده ، ومعه جثة والده وأخيه تريستان ، ولما وصل إلى باريس وضعهما في كنيسة القديس ديونيسيوس في مدفن ملوك فرنسا ، وهكذا انتهت الحروب الصليبية الثامنة .

بقية الحروب الصليبية

من حيث إن الحروب الصليبية الثمانية قد انتهت كما تقدم ، ولكن بعض بلاد سوريا لم تزل فى حكم الصليبيين ، لذلك التزمنا بمتابعة التاريخ إلى افتتاح المسلمين باقى البلاد من الصليبيين ، وانقراضهم من آسيا كما سيأتى ...

باقى فتوحات الظاهر بيبرس

وفى سنة (٦٦٩) توجه الملك الظاهر بيبرس من الديار المصرية إلى الشام ، ونازل حصن الأكراد في تاسع شعبان ، وحاصره وضايقه ، ودام القتال ، فشدد حصاره إلى أن فتحه بالأمان فى (٢٤) منه ، ثم رحل إلى حصن عكا ، ونازله في (١٧) رمضان ، وجد في قتاله ، وملكه بالأمان في آخر رمضان ، وعيد الظاهر عيد الفطر عليه . وفي شوال تسلم قلعة العليقة ، وبلادها من الإسماعلية ، ثم سار إلى دمشق ، ومنها إلى حصن القرين ، ونازله في ثانى ذى القعدة ، وزحف عليه ، وتسلمه بالأمان ، ثم أمر بهدمه ، وعاد إلى مصر ، وكان قد جهز أسطولا من عشر شوانٍ لغزو قبرص ، فتكسرت في مرسى اليمبسوس ، وأسر الفرنج من كان بتلك الشوانى من المسلمين ، فاهتم السلطان بعمارة أسطول بدله .

وفي سنة ٦٧٠ توجه الظاهر إلى دمشق ، فأغارت التتر على عينتاب ، وعلى الروج وقميطون إلى قرب فامية ، فاستدعى الظاهر عسكراً من مصر بقيادة بدر الدين البيسرى ، فلما اتصل ذلك بالتتر ، عادوا من حيث أتوا ، ثم سار الظاهر بالعسكر إلى حلب ، ومنها إلى مصر ، فعاد التتر ، وحاصروا البيرة ، ونصبوا عليها المنجنيقات ، وضايقوها ، فتجند إليهم بيبرس ، وسارت معه فرقة تحت قيادة الأمير قلاوون الألفى ، فالتقى الجيشان عند بيرة ، واشتد الحرب بين

المسلمين والتتر ، وأراد عبور الفرات إلى بر البيرة ، فقاتله التتر على المخاضة ، فاقتحم الفرات ، وهزم التتر ، فرحلوا عن البيرة ، وتركوا آلات الحصار بحالها ، فصارت للمسلمين ، ثم عاد الظاهر إلى الديار المصرية ، وفى هذه السنة أيضاً تسلمت نواب الملك الظاهر باقى حصون الإسماعيلية ، وهي الكهف والمينفة وقدموس .

وفى سنة (٦٧٣) سار الملك الظاهر بيبرس من الديار المصرية بجيوشه إلى أرمينيا ، ففتحوها وغنموا منها غنائم كثيرة ، ثم عاد إلى مصر ، ففرشوا له القاهرة بالبسط والسجاد الثمين ، احتفالا بعوده ظافراً .

وفى سنة ٦٧٤ قدم سوريا أباكا خان بن هولاكو خان ، وحاصر البيرة ثانية ، فلاقاه الأمير قلاوون بفرقة من الجيوش المصرية ، وأرجعه على أعقابه ، فسر بيبرس من بسالته ، واتخذ ابنته غازية خاتون زوجة لابنه السعيد بركة خان ، ليكون ابنه في المستقبل آمناً في حمى حميه . وفى هذه السنة أيضاً أرسل الظاهر بيبرس الأمير أقسنقر ، ومعه عز الدين أيبك الأفرم ، لافتتاح بلادالنوبة ، فافتتحا أسوان بعد أن استوليا على جميع مصر العليا ، وفي هذه السنة أيضاً حارب بيبرس برقة ، وافتتحها .

وفى رمضان سنة (٦٧٥) سار بيبرس بعساكره الجرارة إلى الشام ، حتى وصل إلى حلب ، ثم إلى النهر الأزرق ، ثم سار إلى إبلستين ، فوصل إليها فى ذى القعدة ، والتقى بها جمعاً من التتر بقيادة تناون ، فتحارب الفريقان فى أرض إبلستين يوم الجمعة عشرة ذى القعدة ، فانهزم التتر ، وأخذتهم سيوف المسلمين ، وقُتِل قائدهم تناون ، وغالب كبراءهم ، وأسر منهم جماعة كثيرة ، ثم سار إلى بلاد الروم ، ثم عاد منها .

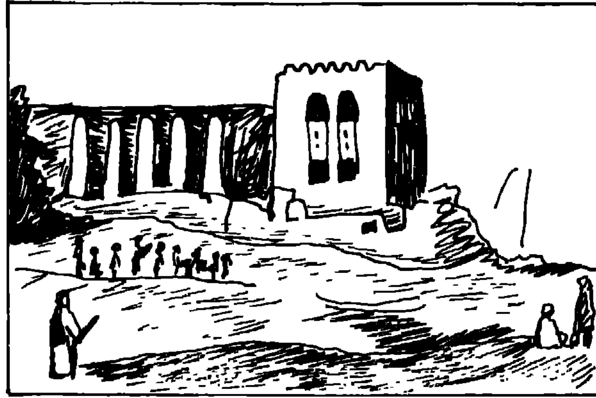
وفاة الملك الظاهر بيبرس

في يوم الخميس (٢٧ محرم سنة ٦٧٦) توفي الملك الظاهر بيبرس أبو الفتوحات الصالحي النجمى بدمشق ، وقت الزوال عقب وصوله من بلاد الروم ، وسبب موته أنه انكسف القمر كسوفاً كلياً ، وشاع بين الناس أن ذلك

يدل على موت رجل جليل القدر ، فأراد الملك الظاهر أن يصرف التأويل إلى غيره ، فاستدعى بشخص من أولاد الملوك الأيوبية يقاله له : الملك القاهر ، ولد الملك الناصر داود بن المعظم عيسى ، وأحضر قمزاً (كاسا) مسموماً ، وأمر الساقي ، فسقا الملك القاهر ، وشرب بعده الملك الظاهر ناسيا ، فمات الملك القاهر عقيب ذلك ، وأما الملك الظاهر ، فحصلت له حمى محرقة ، وتوفي في التاريخ المذكور ، وهكذا كانا قتيلي الخرافات قبحها الله ، ما أضعف حجتها ، وما أشد وطأتها ، وكتم نائبه ومملوكه بدر الدين تنليك المعروف بالخازندار موته ، وصبره وتركه في قلعة دمشق ، إلى أن تمت تربته بدمشق قرب الجامع ، فدفن فيها ، وارتحل بدر الدين تنليك بالعساكر ، ومعهم المحفة مظهرا أن الملك الظاهر فيها ، وأنه مريض حتى وصل إلى ديار مصر ، وكان الملك الظاهر قد حلف العساكر لولده بركة خان ، ولقبه الملك السعيد ، وجعله ولي عهده فوصل تنليك الخازندار بالخزائن والعسكر إلى الملك السعيد بقلعة الجبل ، وعند ذلك أظهر موت الملك الظاهر ، وجلس ابنه الملك السعيد للعزاء ، وكانت مدة حكمه (١٧) سنة وشهرين وعشرة أيام ، وكان ملكاً جليلاً عجولا ، كثير المصادرات لرعيته ودواوينه ، طويل القامة ، مليح الشكل ، سريع الحركة ، فارساً مقداماً . وترك من الذكور ثلاثة وهم : السعيد محمد بركة خان ، وقد ملك بعده وسلامش ، وهذا ملك بعده أيضاً ، والمسعود خضر . وترك من البنات سبعا ، ومما فتح الله على يده من أيدى الصليبيين : قيسارية ، وأرصوف ، وصفد ، وطبرية ، ويافا ، والشقيف ، وأنطاكية ، وبقراص ، والقصير ، وحصن الأكراد ، والقرين ، وحصن عكا ، وصافينا ، ومرقية ، وحلب ، وقد ناصفهم على : المرقب ، وبانياس ، وطرسوس ، وادنة ، والمصيصة وغيرها من مدن بر الأناضول ، وصار إلى يده مما كان في أيدى المسلمين : دمشق ، وبعلبك ، وعجلون ، والبصرى ، وصرخد ، والصلت ، وحمص ، وتذمر ، والرحبة ، وتل باشر ، وصهيون ، وبلاطس ، وقلعة الكهف ، والقدموس ، والعليقة ، والخواني ، والرصافة ، ومصياف ، والقلعة ، والكرك ، والشوبك ، وفتح بلاد النوبة ، وبرقة .

آثار الملك الظاهر بيبرس

ومن أعماله المأثورة أنه عمر الحرم النبوى ، وقبة الصخرة ببيت المقدس ، وزاد في أوقاف الخليل ، وعمر قناطر شبرامنت بالجيزة ، وسور الإسكندرية ، ومنار رشيد ، وردم فم بحر دمياط ، ووعر طريقه ، وعمر الشواني ، وعمر قلعة دمشق ، وقلع الصبيبة ، وبعلبك ، والصلت ، وصرخد ، وعجلون ، وبصرى ، وشيزر ، وحمص ، وعمر المدرسة بين القصرين بالقاهرة ، والجامع الكبير بالحسينية ، وجعله الفرنسيون عند مجيئهم إلى مصر قلعة ، وهو البناء القديم فى سكة الظاهر ، وجعلته الحكومة مخازن للأقوات ، وحفر خليج إسكندرية القديم ، وباشره بنفسه ، وبنى هناك قرية سماها الظاهرية ، وحفر بحر أشمون طناح ، وجدد الجامع الأزهر بالقاهرة ، وأعاد إليه الخطبة ، وعمر بلد السعيدية بالشرقية بمصر ، وبنى القصر الأبلق في دمشق ، ومن آثاره في القاهرة أيضاً :قناطر السباع ، وهى عبارة عن سلسلة من قناطر ممتدة عرضاً من جوار فم الخليج إلى قلعة الجبل ، ولا بد للمتوجه من القاهرة إلى مصر القديمة من أن يقطعها ، هذا إذا لم يمر من عند فم الخليج ، فإنه إذ ذاك يمر بجانب منشئها .



(صورة السبع سواقى ومجرى المياه)

وهى تنتهي من طرفها الغربي بالسبع سواقي بجانب فم الخليج ، والسبع سواقى هوبناء قديم فيه سبعة دواليب ، لرفع المياه من النيل ، وتحويله إلى قناة علي ظهر هذه القناطر ، ليجرى الماء فيه إلى قلعة الجبل ، وجعل عليها سباعاً

من الحجارة ، ولذلك قيل لها قناطر السباع ، والقناطر المذكورة لم يزل يوجد بعضها . وكان محباً لركوب الخيل الجياد ، ورمي النبال ، فأنشأ ميداناً دعاه ميدان القبق ، ويقال له أيضاً الميدان الأسود ، وميدان العيد ، والميدان الأخضر ، وميدان السباق ، وكان شاغلاً بقعة من الأرض تمتد بين النقرة التى ينزل إليها من قلعة الجبل وبين قبة النصر التى هي تحت الجبل الأحمر ، وبنى فيه مصطبة سنة (٦٦٦) ، للاحتفال برمى النشاب ، والتمرين على الحركات العسكرية ، وكان يحث الناس على لعب الرمح ، ورمى النشاب ، ونحو ذلك ، فكان ينزل كل يوم إلى هذه المصطبة من الظهر ، فلا يركب منها إلى العشاء ، وهو يرمي ، ويحرض الناس على الرمي . والنضال والرهان ، فما بقي أمير ، ولا مملوك إلا وهذا شغله ، وما برح من بعده أولاده ، ومن بعدهم يمارسون هذا الميدان بجميع أنواع الألعاب الحربية ، وكان يقوم بنفقات جميع هذه الأعمال بدون أن يسلب الأهالى درهماً واحداً فوق ما اعتادوا دفعه من الضرائب ، لأن الغنائم التي كان يكسبها من أعدائه كانت تساعده كثيراً فى النفقات .

سلطنة الملك السعيد بركة خان

في شهر ربيع أول سنة (٦٧٦) بايعوا الملك السعيد بركة خان بالسلطنة بعد أبيه الظاهر بيبرس حسب وصيته ، وأقام بدر الدين تنليك الخازندار أتابكا ، وكان تنليك (باباى)في الأصل مملوكاً ابتاعه بيبرس بثمن بخس ، إلا أنه ارتقى فى خدمته حتى صار أمين خزائنه (خازندار) ، ثم استحق بعد طول الخدمة الصادقة الأمينة أن يكون وصياً عل ابنه في مهام السلطنة ، وكان للملك السعيد ثقة كبرى فى تنليك حتى أنه ألقى إليه كل مهام الدولة ، فسعدت مصر فى بادىء الأمر ، إلا أنها ما لبثت حتى تعكر كأس صفائها بوفاة ذلك الوصى الأمين الحكيم ، ولم يكن الملك السعيد واثقاً بأحد من أمرائه ، ليعهد إليه مهام السلطنة ، لأنه كان يظن أنهم هم الذين سعوا فى قتل وصيه ، ولكنه لم يتأكد ذلك ، فنفر منهم ، فوقع اختياره على أُقسنقر فاتح النوبة ، فولاه الأتابكية ، وبعد يسير خنقه فى إحدى أبراج الإسكندرية ، فتباعد الأمراء عن هذا المنصب .

سفر الملك السعيد والإغارة على أرمينية

في سنة (٦٦٧) سار الملك السعيد بركة خان إلى الشام ، وصحبته العساكر ، فلما وصل إلى دمشق جرد منها العساكر صحبة الأمير سيف الدين قلاوون ، وجرد أيضاً صاحب حماه ، فساروا ، ودخلوا بلاد سيس (الأرمن) ، وشنوا الغارة عليها ، وغنموا منها غنائم كثيرة ، ثم عادوا إلى جهة دمشق ، واتفقوا على خلع الملك السعيد من السلطنة، لسوء تدبيره ، وعبروا على دمشق ، ولم يدخلوها ، فأرسل إليهم الملك السعيد ، واستعطفهم ، ودخل عليهم بوالدته ، فلم يلتفتوا إلى ذلك ، وأتموا السير ، فركب الملك السعيد ، وساق وسبقهم إلى مصر ، وطلع إلى قلعة الجبل ، وسارت العساكر فى أثره .

خلع الملك السعيد بركة خان

وفي شهر ربيع أول سنة (٦٧٨) وصلت العساكر الخارجون عن طاعة الملك السعيد بركة خان ، وحصروه بقلعة الجبل ، فخامر عليه أكثر من كان معه من الأمراء مثل : لاجين الزينى وغيره ، وأخذوا يخرجون واحداً بعد واحد من القلعة ، وينضمون إلى العسكر الذى يحاصرها ، فلما رأى الملك السعيد ذلك أجابهم إلى الانخلاع من السلطنة ، وأن يعطى الكرك ، فأجابوه إلى ذلك ، وأنزلوه من القلعة ، وخلعوه فى ربيع الأول ، وسفروه من وقته إلى الكرك صحبة بيدعان الركني ، وجماعة معه ، فوصل إليها ، وتسلمها بما فيها من الأموال .

سلطنة الملك العادل سلامش وخلعه

بعد خلع الملك السعيد كما تقدم اتفق أكابر الأمراء مثل : بدر الدين البيسرى الشمسى ، وأيتمش السعدى ، وبكتماش الفخرى أمير السلاح ، وغيرهم على سلطنة بدر الدين سلامش بن الملك الظاهر بيبرس ، ولقبوه الملك العادل ، وذلك فى ربيع أول سنة (٦٧٨) ، وعمره إذ ذاك سبع سنين وشهور ، وأقاموا الأمير سيف الدين قلاوون الألفى وصياً عليه ، وخطب للعادل ، وضربت السكة باسمه . ولم يكن هم هذا الوصى إلا خلع ذلك السلطان الصغير، وفى شهر رجب من تلك السنة تمكن من مراده فبعثه إلى

قلعة الكرك منفياً ، وتسلم هو زمام الأحكام ، وطلب المبايعة ، فبايعه الناس ، ولقبوه بالملك المنصور .

سلطنة الملك المنصور قلاوون الألفي



المنصور قلاوون الألفي

ولما استوى قلاوون على كرسي السلطنة استوزر فخر الدين ، وكان كاتب سره الخصوصي ، وكان سنقر الأشقر بدمشق قد استقل بها ، وحلف له أمراؤها وعساكرها ، وتلقب بالملك الكامل ، وفى سنة (٦٧٩) جهز الملك المنصور قلاوون عساكر مصر مع علم الدين سنجر الحلبى ، وبدر الدين بكتاش ، وبدر الدين الأيدمرى ، وعز الدين الأفرم ، فسارت العساكر المذكورة إلى الشام ، وبرز سنقر الأشقر (الملك الكامل) بعساكر الشام إلى ظاهر دمشق ، والتقى الفريقان في (١٩) صفر ، فولى سنقر وعساكره الشاميون منهزمين ، ونهبت العساكر المصرية أثقالهم ، واستولوا على دمشق ، وتولى عليها بأمر الملك

المنصور قلاوون مملوكه حسام الدين لاجين السلحدار . ثم إن سنقر الأشقر كاتب أباكه خان ملك التتر ، أطمعه في تملك البلاد ، ثم سار سنقر ، واستولى على بعض البلاد السورية ، ثم تصالح مع الملك المنصور قلاوون ، وأعطاه بعض البلاد مثل : الشفر ، وبكاس .

محاربة التتر

وفي سنة (٦٨٠) خرج التتر إلى سوريا بجيشين الواحد تحت قيادة أباكه خان بن هولاكو ، والآخر مؤلف من ثمانين ألف فارس تحت قيادة أخيه منجو تيمور ، حتى وصلوا حمص ، فسار السلطان قلاوون بالجيوش الإسلامية من دمشق إلى جهة حمص ، وأرسل إلى سنقر الأشقر يستدعيه حسب اتفاق الصلح ، فسار سنقر من صهيون ، ثم وصل إلى قلاوون الملك المنصور صاحب حماه ، ثم وصل سنقر ومعه إيتمش السعدى ، والحاج أزدمر ، وعلم الدين الدويدارى ، ورتب السلطان قلاوون عسكره ميمنة وميسرة ، وكان رأس الميمنة الملك المنصور صاحب حماه ، ثم بدر الدين البيسرى دونه ، ثم علاء الدين طيبرس الوزيرى ، ثم أيبك الأفرم ، ثم جماعة من العسكر المصرى ، ثم عسكر الشام ومقدمهم حسام الدين لاجين ، وكان رأس الميسرة سنقر الأشقر ، ثم بدر الدين بكتاش أمير السلاح ، وكان بر الميمنة العرب ، وبر الميسرة التركمان ، وكان شاليش القلب حسام الدين طرنطاى ، ومن أضيف إليه، والتقى الفريقان بظاهر حمص في الساعة الرابعة فى يوم الخميس (١٤) رجب ، وأنزل الله نصرته على القلب والميمنة من العساكر الإسلامية ، فهزموا من كان قبالتهم من التتر ، وركبوا قفاهم يقلتونهم . وكان منجو تيمور قبالة القلب ، فانهزم أيضاً ، وأما ميسرة المسلمين ، فإنها انكشفت ، وتم ببعضها الهزيمة ، وساق التتر في أثرهم ، ثم علموا بنصرة المسلمين عليهم ، وهزيمة جيشهم ، فولوا منهزمين على أعقابهم ، فتبعهم المسلمون ، يقتلون ويأسرون ، ولما وصل خبر هذه الكسرة إلى أباكه خان وهو محاصر الرحبة ، رحل عنها ، وكتب بهذا الفتح إلى جميع البلاد الإسلامية ، وسافرت العساكر إلى بلادها ، وسافر السلطان قلاوون إلى دمشق ، والأسرى بين يديه ، وأما منجو تيمور ، فإنه مات بعد أيام ، وفر أباكه خان إلى حمدان ، فسمه أخوه الثالث تيكودار أوغلان ، وتولى الحكم بعده ، وأظهر دين الإسلام ، ولقب بأحمد خان .

فتح حصن المرقب من الصليبيين وغيره

فى شهر ربيع أول سنة ٦٨٤ سار السلطان سيف الدين قلاوون بعساكره المصرية والشامية ، ونازل حصن المرقب (لجمعية القديس يوحنا المعمدان) . وهو في غاية العلو والحصانة ، لم يطمع أحد من الملوك قبله فى فتحه ، فلما زحف العسكر عليه أخذ الحجارون ينقبون فيه ، ونصبت عليه عدة منجنيقات ، ولما تمكنت النقوب من أسوار القلعة ، طلب أهله الأمان ، فأجابهم على أن يخرجوا بما يقدرون على حمله غير السلاح ، وتسلمه في يوم الجمعة (١٩) منه ، ونصبت الأعلام الإسلامية بأعلاه ، وكان يوماً مشهوداً ، وأمر السلطان بحمل أهل حصن المرقب إلى مأمنهم ، ثم قرر أمر الحصن ، ورحل عنه .

وفي سنة (٦٨٥) أرسل السلطان قلاوون نائب سلطنته حسام الدين طرنطاى إلى الكرك ، فحاصرها ، وتسلمها بالأمان ، وعاد ومعه أصحاب الكرك : جمال الدين خضر ، وبدر الدين سلامش أولاد الملك الظاهر بيبرس ، فأقاما بمصر مدة ، ثم اعتقلهما .

وفي سنة (٦٨٦) أرسل السلطان قلاوون حسام الدين المذكور إلى قلعة صهيون ، فحاصرها ، ونصب عليها المنجنيقات ، وضايقها ، فأجابه صاحبها سنقر الأشقر إلى تسليمها بالأمان في ربيع أول ، ثم سار طرنطاى إلى اللاذقية ، وكان بها برج للصليبيين يحيط به البحر ، فحاصر البرج ، وتسلمه بالأمان ، وهدمه ، ثم سار إلى مصر ، وأرسل أيضاً في هذه السنة السلطان عسكراً بقيادة علم الدين سنجر المسرورى المعروف بالخياط إلى النوبة ، فساروا إليها ، وغزوها ، وغنموا ، وعادوا .

وفي سنة (٦٨٧) توفى الملك الصالح علاء الدين على بن قلاوون ، وكان ولى عهده وسلطنته في حياته ، وكان مرضه بالدوسنتاريا ، فحزن عليه والده حزناً عظيماً .

ثورة المماليك وقتل الرعية

وتمرد المماليك ، ونبذوا الطاعة ، فغضب السلطان عليهم غضباً أعمى بصره ، حتى لم يعد يميز المجرم من البرىء ، فساق الجميع بعصا واحدة ،

وأعمل فيهم السيف ثلاثة أيام متوالية ، حتى غصت الأسواق بجثثهم ، رجالا ، ونساء ، وأولاداً ، فجاء العلماء إلى السلطان ، وأخذوا يخففون من غيظه ، ويبينون له وجه عنفه ، فانتبه لما جاءه من الاستبداد الفاحش ، فندم ندماً لا مزيد عليه ، وتكفيراً لذلك أمر ببناء البنايات والتكايا ، رحمة بالمساكين ، وذوى الأسقام ، ومن أجل ذلك أيضاً ، بنى ابنه الملك الناصر المستشفى الشهير المعروف بالبيمارستان ، وكان المماليك إلى ذلك الحين يلبسون لباس الزينة بما يناسب جمالهم ، فأمر قلاوون أن يغير المماليك ملابسهم ، فمنعهم من استعمال الوشى والزينة والذهب ، وعن الضفائر الطويلة التى كانوا يجعلونها فى أكياس من حرير ، وجعل حالتهم من اللباس وغيره كما تقتضيه حالة رجال الحرب .

فتح طرابلس من الصليبيين

بعد وفاة ولده الصالح علاء الدين على ، وحزنه عليه ، أمر بتجهيز حملة ؛ لافتتاح طرابلس من يد الصليبيين ؛ تسلية له عن هواجسه ، فسار بعساكره في محرم سنة (٦٨٨) إلى أن وصل إلى مدينة طرابلس فنازلها ، ونصب عليها عدة منجنيقات ، ولازمها بالحصار ، واشتد عليها بالقتال حتى فتحها يوم الثلاثاء (٤) ربيع آخر ، ودخلتها العسكر عنوة ، فهرب أهلها إلى المينا ، فنجا بعضهم في المراكب ، وقتل أكثرهم ، وسببت ذراريهم ، وغنم منهم المسلمون غنيمة عظيمة ، وكان في البحر قريبا من طرابلس جزيرة يقطنها كثيرة من الصليبيين ، فاقتحم العسكر الإسلامي البحر ، وعبروا بخيولهم إلى الجزيرة ، فقتلوا جميع من فيها من الرجال ، وغنموا جميع ما بها من النساء والأولاد .

وفاة الملك المنصور قلاوون وآثاره

بعد فتح طرابلس عاد الملك المنصور قلاوون إلى الديار المصرية ، فجاءه وفد من قبل ملك أراغون ألفونس عقد معاهدة في (١٣ ربيع أول سنة ٦٨٩) ، ثم عزم على فتح مدينة عكا من الصليبيين ، غير أن كل ذلك لم يكن ليشغله عن أحزانه ، وما زال كئيباً ، فأتاه مرض فى العشر الأخير من شوال ، فتوفي يوم السبت (٦من ذى القعدة سنة ٦٨٩) ، فاحتفل بجنازته احتفالا ، حضره

جمع غفير من جهادية وملكية ، وشيعوه إلى البيمارستان ، حيث واروه التراب ، ولا يزال مقامه هناك إلى هذا العهد ، وكانت مدة حكمه (١١ سنة ، و٣ أشهر ، و ٦ أيام) .

ومن آثاره الباقية إلى هذا اليوم : جامعه الشهير ومقامه ، وكلاهما داخلان في بناء البيمارستان الذى يشاهده المار فى شارع النحاسين تجاه جامع الصالح نجم الدين أيوب ، بعد أن يتجاوز خان الخليلى ، ولا تزال هذه الأبنية رغماً عن تكرار السنين قويمة العماد ، تتجلى فيها العظمة والقوة ومهارة الصناع ، إلا البيمارستان فإنه أصبح أقرب إلى الأثر من العين . وفى مقام هذا السلطان مثل ما في غيره جماعات من النساء والأطفال ، هم فى الغالب من ذوى الأمراض ، جاءوا يطلبون الشفاء ، وهم يأتون في أيام السبت ، ولهم فى ذلك أساليب مختلفة ، فبعضهم يضع الطفل المريض تحت المحراب ، ويجلس مصلياً ، وبعضهم يأتى بشيء من الليمون ، ويعصره على حجر هناك ، ثم يلحسه بلسانه طلباً للشفاء ، ومن أعماله ميدانه الذى عرف بالميدان السلطاني ، جعله في موضع بستان الخشاب ، حيث موردة البلاط ، وكان يتردد إليه كثيراً ، ولا يمر عليه من قلعة الجبل ، حتى يركب قناطر السباع ، فتضرر من علوها ، وقال لمن حوله : إنى عندما أركب إلى الميدان ، وأمر بهذه القناطر ، يتألم ظهرى من علوها ، وأشاع بعضهم أنه أراد بالحقيقة نزع آثار من كان قبله ، ليبقى الفخر له ، فأمر بهدمها جميعها ، وبناها ثانية ، فبنيت ، ولكن السباع لم توضع عليها ، فعندما رأى السلطان ذلك ، أمر بإعادتها ، فأعيدت السباع إلى أماكنها . ومما يحكى عنه أنه كان يجعل في بناياته أماكن مخصوصة يضع فيها الحبوب طعاماً للطيور . وكان قلاوون سبباً لإخراج السلطنة من يد نسله ، كما كان الملك الصالح نجم الدين الأيوبى باستكثاره من المماليك الشراكسة ، حتى جمع منهم نحواً من ١٢ ألفاً جعل منهم بطانته ، وكان يلقب بعضهم بالألفى أى المبتاع بألف دينار ، وبعضهم بأبى المعالى ، وغير ذلك .

سلطنة الملك الأشرف

وتولى السلطنة بعد قلاوون ابنه البكر صلاح الدين خليل ، ولقب بالملك الأشرف ، وكان جلوسه في (٧ من ذى القعدة سنة ٦٨٩) ، ثم قبض على

حسام الدين طرنطاى نائب السلطنة ، وفوض نيابة السلطنة إلى بدر الدين بيدرا ، والوزارة إلى شمس الدين محمد بن السلقوس .

فى فتح عكا وانقراض الصليبيين

وفى سنة ٦٩٠ سار الملك الأشرف بالعساكر المصرية قاصداً عكا ، وأرسل إلى العساكر الشامية ، وأمرهم بالحضور ومعهم المنجنيقات ، فتوجه الملك المظفر صابح حماه وعم الملك الأفضل وعسكرهم إلى حصن الأكراد ، وتسلموا منه المنجنيقات ، وكان هناك منجنيق عظيم يسمى المنصورى حمل مائة عجلة ، ثم ساروا إلى أن وصلوا عكا ، فنزلت العساكر الإسلامية عليها (على عكا) فى أوائل جمادى الأولى ، واشتد عليها القتال ، ولم يغلق الصليبيون غالب أبوابها ، بل كانت مفتوحة وهم يقاتلون فيها ، فحاصر المسلمون المدينة ، ونصبوا عليها المنجنيقات . وفى بعض الليالى خرج الصليبيون ، وكبسوا المسلمين ، فتكاثر عليهم المسلمون ، فولى الصليبيون منهزمين إلى البلد ، واشتدت مضايقة المسلمين لعكا ، حتى فتحوها عنوة في يوم الجمعة (١٧) جمادى الآخرة بالسيف ، ولما فتحها المسلمون هرب جماعة من أهلها بالمراكب ، وغنم المسلمون من عكا شيئاً يفوق الحصر من كثرته . ثم استنزل السلطان من تحصن بالأبراج من الصليبيين ، وقتلهم ، ثم أمر بهدم مدينة عكا ، ومن غرائب الاتفاق أن الصليبيين استولوا على عكا من السلطان صلاح الدين الأيوبى فى يوم الجمعة (١٧ جمادى الآخرة سنة ٥٨٧) ، وقتلوا من بها ، فقدر الله عز وجل أن المسلمين يفتحونها فى يوم الجمعة (١٧ جمادى الآخرة سنة ٦٩٠) على يد السلطان الملك الأشرف صلاح الدين ، وقتل من فيها ، فكان التاريخان مثل بعضهما ، كذلك لقب السلطانين . ولما فتحت عكا ألقى الله الرعب في قلوب جميع الصليبيين الذين بساحل الشام ، فأخلوا صيدا وبيروت ، وتسلمها الشجاعى فى أواخر رجب ، وكذلك هرب أهل مدينة صور ، فتسلمها السلطان ، ثم تسلم عثليث في مستهل شعبان ، وفي (٥) منه تسلم طرطوس ، واتفق لهذا السلطان من السعادة ما لم يتفق لغيره من فتح هذه البلاد الصليبية بغير قتال ، وتكاملت بهذه الفتوحات جميع البلاد الساحلية ، وانقرضت دولة الصليبيين من الشام والسواحل ، بعد أن كانوا قد أشرفوا على أخذ الديار المصرية ، فلله الحمد والمنة .

(انتهى)

الحمد لله أولاً وآخراً بعون الله وحسن توفيقه ، قد تم طبع هذا الكتاب النفيس ، والسفر الجليل الذى جمع من شتات الحروب الصليبية ما تفرق ، ووعى ما عبثت به يد التبديل ، فكاد أن يتمزق . ولا غرو فهو أول كتاب وضع في العربية موضحاً أسماء من ورد ذكرهم في تلك الحروب بالضبط الشافى ، والاعتناء الكافى ، حتى جاء جليلاً في الوضع ، جميلا بالطبع ، لم ينسج له على منوال ، ولم يسبق بمثال . تأليف حضرة الكاتب الأديب ، والمنشىء الأريب ، سيد أفندى على الحريرى ، حيث طرزه أحسن تطريز ، وجاء فيه بكل نادر عزيز ، مرموقا بنظر صاحب السعادة والإقبال ، والفخر والجلال ، ذى المجد الباذخ ، والشرف المؤثل الشامخ ، من له الفضل الأعم سعادة لواء عبد السلام باشا المويلحى الأفخم ، شكر الله مسعاه الجليل ، وجزاه عن أهل الأدب الجزاء الجميل ، وقد بزغ بالطبع بدر تمامه ، وفاح مسك ختامه ، بالمطبعة العمومية ، بمصر المحمية ، فى أوائل رجب سنة ثلاثمائة وسبع عشرة بعد الألف هجرية ، على صاحبها أزكى السلام ، وأبهى التحية .



بعون الله وحسن توفيقه قد تمت الطبعة الثانية لهذا السفر الجليل ، مزينة بصور الملوك الصليبيين والمسلمين ، وبعض الحصون وآلات الحرب المستعملة وقتها ، مما زاده رونقا وبهاء ، بمبطعة النيل بمصر فى (٢٥ مايو سنة ١٩١١ الموافق ٢٦ جمادي الأولى سنة ١٣٢٩ هـ).



الفهـــرس

الفهـــرس

الموضـوع	الصفحـة

الفهـــرس

الموضـوع	الصفحـة
قتل الاسماعيلية بدمشق واتحادهم بالإفرنج	٧٦
محاصرة الصليبيين ودمشق وانهزامهم	٧٧
فتح عماد الدين زنكى حصن الأثارب ومحاصرة قلعة حارم	٧٧
وفاة الآمر بأحكام الله وخلافة الحافظ لدين الله بمصر	٧٨
وفاة جوسلين صاحب الرها	٧٩
وفاة بودوين الثانى ملك القدس	٧٩
فى تملك فولك دى الينو على القدس	٧٩
وفاة السلطان محمود	٨٠
استيلاء شمس الملوك على بانياس	٨٠
محاربة فولك ملك القدس نائب حلب	٨١
استيلاء شمس الملوك على حصن شقيف تيرون ونهبه بلاد الإفرنج	٨١
قتل الخليفة المسترشد بالله وخلافة الراشد بالله	٨٢
غزو العساكر الأتابكية بلاد الإفرنج	٨٣
خلع الخليفة والراشد بالله وخلافة المقتفى لأمر الله	٨٣
استيلاء المسلمين على حصن وادى ابن الأحمر	٨٤
استيلاء زنكى على قلعة بعرين	٨٤
فى مسير ملك الروم يوحنا كومنينوس إلى بلاد الشام	٨٥
محاصرة زنكى دمشق واستيلاء الافرنج على بانياس	٨٨
وفاة فولك ملك القدس وتولية ولده بودوين الثالث	٨٩
فتح زنكى مدينة الرها والبلاد الجزرية	٩٠
قتل أتابك عماد الدين زنكى وتولية أولاده	٩١
عصيان أهل الرها واستيلاء نور الدين عليها	٩٢
ابتداء الحروب الصليبية الثانية	٩٣
طلب الصليبيين النجدة من البابا ومن ملوك أوروبا	

الفهـــرس

الموضـوع	الصفحـة

الفهـــرس

الموضـوع	الصفحـة

الفهـــرس

الموضـــوع	الصفحـــة
محاربة نور الدين الصليبيين بناحية حصن عرقة وغيره	١٤٩
بريد الحمام	١٤٩
النفور بين صلاح الدين ونور الدين	١٥٠
محاربة نور الدين وصلاح الصليبيين	١٥٢
فتح بلاد النوبة	١٥٢
وفاة نجم الدين أيوب وبعض سيرته	١٥٣
استيلاء بهاء الدين قراقوش على طرابلس الغرب وغيرها	١٥٦
استيلاء شمس الدولة تورانشاه على بلاد اليمن	١٥٧
ظهور المؤامرة وصلب أعضائها	١٥٨
وفاة الملك العادل محمود اتابك نور الدين	١٥٩
حصار الصليبيين حصن بانياس وعودهم عنه	١٦١
وفاة الملك أمورى وتولية ابنه الملك الأبرص	١٦١
ورود أسطول جزيرة صقلية ومحاصرة الاسكندرية	١٦٢
واقعة الكنز وقتله	١٦٣
عزم صلاح الدين على المسير إلى بلاد سوريا	١٦٤
حكم قراقوش وبناء القلعة والسور وغيرهم	١٦٤
مسير الملك الناصر صلاح الدين إلى سوريا واستيلاءه على دمشق وغيرها	١٦٧
فى استقلال صلاح الدين بالملك وسلطنته	١٧١
حرب السلطان مع المواصلة وهدنة الصليبيين	١٧٢
ماجرى للسلطان مع الحشيشيين	١٧٤
استيلاء تورانشاه على حضر موت واستيلاء قراقوش على بعض بلاد المغرب	١٧٥
حصار حلب وحرب الاسماعيلية	١٧٦
تقوية اسطول مصر وبعض فتوحات	١٧٧
حرب للسلطان مع الصليبيين وواقعة الرملة	١٧٧

الفهــرس

الفهرس

الموضوع	الصفحة

الفهرس

الفهرس

الموضوع	الصفحة

الفهرس

الموضوع **الصفحة**

الفهرس

الموضوع	الصفحة

الفهرس

الموضوع	الصفحة

الفهرس

تقاريظ

جاءنا هذا التقريظ من سعادة الفاضل اللوذعى الكبير والمؤلف الشهير صالح بك حمدى حماد .

الأخبار السنية
في الحروب الصليبية

من أطلى الحوادث التاريخية أخبار الحروب الصليبية ، ووقائعها الشهيرة ، التى قام بها الغرب على الشرق ، تلك القومة المشهورة بدافع التعصب الدينى ، فساق ملوك أوروبا الكبار وعياهلها العظام لذلك العهد الجيوش الجرارة والجحافل ، وعبئوا الأساطيل وشحنوها بالعدد والمقاتلة قاصدين الشرق وأهله من المسلمين لسحقهم في القدس والشام ومصر وتونس ، فانتشبت الحروب وقامت على ساق وقدم بين المسيحيين والمسلمين ، وكانت سجالا ، واستمر هذا العدوان الجنونى كما يسميه مؤرخو الغربيين اليوم زهاء المائتينْ من السنين ، لم تنقطع فيها نيران الحروب من حين لآخر ولم تفتر همة ملوك الفرنج عن الهجوم على الشرق ، بإغراء جماعة القسوس وبدعوى استخلاص القبر المقدس من أيدي المسلمين ، مما عاب به أبناء الأجيال المتأخرة تلك الأجيال الماضية ، وإن كانت تلك الحروب قد أفادت أهل أوروبا الفوائد الجليلة فى رقيهم المادى والأدبي ، بما استفاده الصليبيون من آداب الشرق وعلومه وفنونه ،التى كانت ركناً ركيناً في المدنية الحاضرة بأوروبا .

فأخبار هذه الحروب ، وتفصيل وقائع تلك الكروب ، وبيان أسبابها ومسبباتها وسير ملوكها مثل : (نور الدين) و (صلاح الدين) و (ريكاردوس) الملقب (قلب الأسد) و (الملك الظاهر) و (لويس التاسع) ، ملك فرنسا الخ ، كل هذا مما يحلو لأبناء هذا العصر دراسته . ولقد صنف في أخبار هذه الحروب أناس كثيرون غير أني والحق يقال ما رأيت كتاباً جامعاً لأخبارها ووقائعها ، مثل هذا الكتاب الذى عني بتأليفه وجمعه منذ اثنى عشر عاماً ، حضرة الأديب الفاضل سيد أفندى على الحريرى ، وتحرى فيه

الجمع وحسن التنسيق والتحقيق ، حتى صار بذلك مما يرجع إليه ويعول عليه ولقد أعاد طبعه الآن مرة ثانية ، مزيناً بالرسوم ، محلي بصور الكثير من ملوك الصليبيين والمسلمين ، فجاء كما ترى سفراً جليلا وأثراً جميلا ، قل أن يستغنى عنه أديب أو يضن به على مكتبته أريب .

القاهرة فى (٢٠ مايو سنة ١٩١١)

صالح
حمدى حماد

وجاءنا هذا التقريظ من سعادة العالم المحقق والأثرى المدقق النحرير على بك بهجت وكيل دار الآثار العربية .

الأخبار السنية في الحروب الصليبية

تصفحت هذا الكتاب المستطاب فرأيتنى بين عاملين . آسف يتردد بين الجوانح على ضعف العناية بدرس التاريخ بين ناشئتنا ومعلمينا . وفرح يسري عن النفس ذلك الترح بما أراه من نهوض بعض كتابنا وأخذهم بأسباب العمل على نشر صحيح الأخبار وإحياء دارس الآثار . التاريخ عظة الأنام ومرآة الأيام ولا شيء فيما أعتقد أنفع لإنجاح نهضتنا العلمية ، وأنجح في تقويم أخلاقنا الاجتماعية كدراسة تاريخ أسلافنا الصالحين ، وآبائنا المتقدمين ، ولقد رأيت كتب التاريخ العربية كالبحور الزواخر ، ليس اصطياد الآلىء فيها يسهل المثال على كل طالب ، ورأيتها كلما بعدت بها الأيام تناءت عن الأفهام . لذلك ، كان من أنفع الوسائل لنجاح نهضتنا وضع مؤلفات جديدة على أساليب حديثة ، تقرب تلك الحوادث الماضية إلى طالبيها وتبين أسبابها ونتائجها ومن هذا القبيل ، كتاب الأخبار السنية فى الحروب الصليبية قرأته فرأيته سهل المورد جميل الوضع ، حسن الترتيب قد فصل شتات الحوادث تفصيلا وتحرى صحة أسانيدها ، فكان جديرا بالرجوع إليه ، والتعويل عليه والله لا يضيع أجر من أحسن عملا .

علي بهجت
وكيل دار الآثار العربية